كلمة الوزارة

عيد سعيد وعبور إلى الانتصار

محمد الأحمد
وزير الثقافة

يحلُّ علينا عيد الفطر السعيد، وكل عام وسورية الحبيبة بخير، قائداً وجيشاً وشعباً.

واسمحوا لي بهذه المناسبة الكريمة، أن أخصّ بالتحية والمعايدة، مثقفينا الوطنيين، من فنّانين ومفكّرين ومبدعين في الأدب والفن، وكل مجالات الإبداع والابتكار، وأيضاً، القرّاء ومحبي الثقافة، والعاملين في وزارة الثقافة، بكل المديريات والمحافظات، كل عام وأنتم جميعاً بألف خير...

المثقفون الوطنيون السوريون، الذين لم تستطع العواصف العاتية أن تزعزعَ صمودهم وتحدِّيهم وثقتهم بجيشهم وقيادتهم وشعبهم وحضارتهم... وواجهوا بوعيهم الوطني المتقدّم كلَّ أشكال التزييف والتضليل، وحرصوا على أن يقدّموا أفضل ما عندهم، لتبقى شمس وطنهم ساطعة على العالم، وليس هذا الشموخ بغريب عن مثقفينا الذين وثقوا بوطنهم وشعبهم، ووثق وطنهم وشعبهم بهم...

أيُّها الإخوة الكرام

العدوان لم ينته بعد، ويأخذ اليوم أشكالاً أخرى، ليست أقل ضراوة من الهجمات الإرهابية المتتالية التي أحبطها جيشنا واحدة تلو الأخرى، وأحبط معها كل المشروعات الاستعمارية التي أرادت أن تمزق شعبنا وأرضنا.

الصراع ضد العدوان الداخلي والخارجي لا يزال مستمراً، ونحن نواجهه ونخوضه باقتدار، وإيماننا راسخ بأننا سننتصر في هذا الصراع بكل أبعاده السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية.

يفرضون اليوم علينا حصاراً قاسياً، يعبر عن تماديهم في الإرهاب، بعد أن أخفقت حروبهم المباشرة، وغير المباشرة علينا، عبر وكلائهم وأدواتهم، وليس هذا بجديد على السوريين، وقد خبر شعبنا هذه الأساليب المؤذية منذ ثمانينيات القرن الماضي وعبرها منتصراً، وزادته تحدياً وشموخاً، ولم يستطيعوا كسر إرادته، وكما في السابق، لن ترضخ سورية لأعدائها، وهي قوية عزيزة بقيادتها وجيشها وشعبها وأصدقائها، وهم كثر في هذا العالم.

أيُّها الإخوة الكرام

ثقافتنا الوطنية، هي عزُّنا ومفخرتنا وكنزنا الذي لا يمكن التفريط فيه، ونحن نواجه التحديات على الأصعدة كلّها، تتقدّم الثقافة بوصفها هوية ووعياً ورسالة ومقاومة.

في ظروفنا الاستثنائية هذه، سَنَعْبُرُ مع شعبنا نحو النصر النهائي، وستبقى سورية متألّقة مبدعة...

وعيد فطر سعيد

كلمة العدد

تعليقات

ناظم مهنا
رئيس التحرير

الزمن ولحظة الأبدية

حظي مفهوم الزمن باهتمام أدباء القرن العشرين ومفكريه وفلاسفته. وعلى الرغم من كلِّ الكتابات حول الزمن بقي المفهوم غامضاً، بل ظل يزداد غموضاً، حتى انصرف الناس عنه في الآونة الأخيرة.

غموض مفهوم الزمن، ربما يعود إلى صعوبة فكِّ الارتباط بين الزمن الفيزيقي والزمن الأدبي، والزمن السيكولوجي، هذا التداخل المتنافر، أدّى إلى غياب ملامح الزمن المنطقي عموماً، وبات من الصعب القبض على المفهوم على الرغم من كثرة الدراسات التحليلية التي تناولته! وزاد الأمر التباساً أن الفيزياء الحديثة، قوّضت أركان الفيزياء الكلاسيكية، وجعلتنا معلّقين بين النظرة السطحية والارتياب والارتباك في فهم الزمن...

وبما أننا من ذوي الميول الأدبية، سنوجِّه تفكيرنا، هنا، نحو الأدب وعالم الأدب.

إن واحداً من تعريفات الأدب، يذهب إلى أن الأدب مفهوم زماني، ولن أستعرض هنا كل ما قرأت من آراء حول الزمن، وعلاقة الأدب بالزمن، بل سأكتفي بالإشارات

الضرورية من وحي قراءاتي، آملاً أنْ تُحرِّض على التأمل في الموضوع، وهو موضوع معرفي، خيالي وعلمي وحياتي وواقعي، مع التذكير بأن البعد المكاني يتقدَّم اليوم على هيمنة الزمن على السرد، ويخيل إليّ أن الزمان والمكان متناظران مترابطان وغير متعاكسين.

في حياتنا، نلاحظ أنَّ ذاتنا والأشياء التي حولنا تتغيَّر، أو يطرأ عليها تغيرات في الشكل والمحتوى، وكل هذا يعود إلى الزمن. التغيُّر والحركة أكبر خبرة نعيشها، ونحن في حياتنا اليومية، تشغلنا التفاصيل والضرورات عن ملاحقة ما يجري، أو عن التأمّل الطويل فيه، أو في معنى الحركة والوجود، والثابت والمتغيّر، ولا نفكّر بذلك إلا عرضاً، ونغفل عن حقيقة أن أشياءَ كثيرة تمضي دون أن نلحظها، وحين نريد أنْ نستحضرها نستعين بالذاكرة التي تسعفنا أحياناً، وأحياناً، لا تسعفنا... من هنا ربما جاز القول عن وجود نمطين اثنين من الزمن، أحدهما زمن تتابعي، وآخر زمن منبثق تزامني، هذان الزمنان من موضوعات النقد الأدبي الحديث، ومن موضوعات الأدب، وتجلّت في بعض الروائع الأدبية الأشد نخبوية في تاريخ الإبداع الروائي، كما عند مارسيل بروست، وجيمس جويس، وهنري جيمس، وتوماس وولف...

هذا «الزمن الضائع» هو الزمن الذي يدرجه التتابع، ويلقي به طي النسيان، تجهد الذاكرة في أن تستحضره، وتجعله ينبثق في لحظتنا الحاضرة، في الآن، هذا الزمن المنبثق، المكثّف هو لحظة الأبدية، أشبه بالفردوس المفقود، لأنه زمن هارب، فار، زمن خارج عن إرادتنا، كلما توهّمنا أنّنا نقترب أو نوشك أن نقبض عليه، يفرُّ كما الماء من خلال الأصابع! هذا الزمن، ينشغل به قلة نادرة من المبدعين الأفذاذ، هو بحث صعب في وعي وأبعاد الحياة الإنسانية. إن محاولاتنا لفهم أبعاد الزمن، هي محاولة لفهم الإنسان والمجتمع، وفي الأدب هو محاولة لفهم الشخصيات وتطورها، وتاريخ وعيها، ولكشف وإدراك ما هو ثابت ومتغيّر فيها. يقول هانز ميرهوف في كتابه «الزمن في الأدب» ترجمة الدكتور أسعد رزوق صادر عام (١٩٧٢م):

«العقل الحديث يعي الزمن بعمق، كشرط جامع للحياة، وكعاملٍ لا بد منه في معرفتنا للإنسان والمجتمع...».

السرمدي، والأبدي، وزمن الديمومة، هو خارج الزمن، والزمن موضوع مشحون بالتناقضات التي لا يمكن حلّها أبداً...، و«الزمن ليس مفهوماً عقلانيّاً»، والواقع في نظر أدباء وفلاسفة قدماء وجدد، الواقع بلا زمن، وما وراء الزمن سرمدي وثابت، كما أسلفنا، و«الزمن وَهْمٌ وخدعة» لكن، إذا كان هذا صحيحاً، فكيف نشأ هذا الوهم، وكيف حيكت الخدعة؟!

على الرغم من هذا التشوش والغموض، يبدو الزمن، الخدعة أو الوهم، أشد حضوراً في حياتنا.

اليوم، لو توجهنا بالسؤال إلى الكتّاب حول مفهومهم عن الزمن، ربما سنتلقّى إجابات متناقضة وذاتية، وقد لا نتلقّى إجابات...

في رسالة «برغسون» إلى وليم جيمس، يقول: «كان تحليل مفهوم الزمن، كما يدخل في علم الميكانيكا والفيزياء، هو الذي قلب جميع أفكاري رأساً على عقب، لقد رأيت، وكم كانت دهشتي عظيمة، أن الزمن العلمي لا يدوم...» والمعالجة الأدبية للزمن كانت دائماً برغسونية، حسب هانز ميرهوف، بمعنى أن الزمن معطى مباشر من معطيات الوجدان. الزمن الأدبي الذي رسّخه برغسون «زمن الديمومة» هو زمن الانسياب والجريان المستمر، يقول برغسون: «لا يتميز اختبار الزمن باللحظات المتتابعة، والتغيّرات المتعددة فحسب، بل بشيء يدوم عبر التتابع والتغيّر» وعند هيدجر، صاحب الزمن الوجودي، الزمن دائماً هو القوة الأساسية للوجود.

موضوع الزمن شائك، مشكلة فلسفية، متنوعة ومتشعبة تحتاج إلى وقفات طويلة لمقاربتها. ولعلها فرصة للتنويه بكتاب «لحظة الأبدية» / دراسة الزمان في أدب القرن العشرين/ للكاتب اللبناني سمير الحاج شاهين، كتاب مهمٌّ في التأليف العربي لم يحظَ بالقراءة التي يستحق.

الخيال

لا شعر من دون خيال، عند الرومانسيين، الشعر بلا خيال ضرب من المستحيل، كانوا يثقون بالخيال وبقدرته على خلق عوالم. الخيال وحده هو الذي يجعلهم شعراء، في نظرهم، هو الطاقة الخلّاقة، الجامحة... ولا يعتقد الرومانسيون أنهم في عبادتهم للخيال يبتعدون عن العقل، بل على العكس، يزعمون، إذا ما أطلقوا الخيال، أنهم يخلقون عوالم جديدة للعقل.

ربّما كان الكلاسيكيون، عبر العصور، يعملون على ضبط الخيال، لمصلحة الدقة، ومراعاة الذوق العام. والواقعيون أيضاً سفَّهوا الخيال، وقرنوه بالهذيان والجنون، وأخضعوه للتحليل والتشريح. لكن، لم يستطيعوا، لا قديماً ولا حديثاً فك الارتباط بين الأدب والخيال والأسطورة والحلم.

لم يكن الخيال هو العنصر الأساسي في الأدب والشعر عند الكلاسيكيين، وقيمة الخيال عندهم ضئيلة ومتفاوتة، وكانوا يعطون للبلاغة واستخدام المفردة المختارة واللفظ الفخم، والاستخدام المناسب للصور البيانية، الجهد الأعظم لتوظّف في بناءٍ لمصلحة الفصاحة، فالصور الشعرية، التشبيهات والاستعارات والمجازات، والانطباعات البصرية، تضبط كلها وفق معايير التناسب، ومراعاة النظير، كما عند النقّاد العرب، فالخيال المنفلت، عندهم، ضلال ووحي من الشيطان، يذهب إليه الشعراء الممسوسون، ويهيمون فيه. كان الكلاسيكيون يحرصون بنبل على الصدق في التعبير عن المشاعر، والدقة في التصوير ونقل الوقائع، والشاعر عندهم مفسّر أكثر منه خالق عوالم.

الرومانسيون، عبدوا الخيال، واستخفوا بالمنطق، رأوا أن أكبر نشاط حيوي للعقل هو الخيال، يقول وليم بليك، من أبرز وجهاء الرومانسيين الإنكليز: «عالم الخيال هو عالم الأبدية» وفي قول آخر، يرى بليك أن الخيال هو الإله الحقيقي ولكن لا أحد يعترف. أما الشاعر كيتس كان يقول: «الحقيقة المطلقة لا توجد إلا في الخيال وحده».

نحن اليوم في زمن لا يقيم وزناً للشعر، وينظر إلى الرومانسية على أنها مرحلة انقضت وانقطعت، والخيال العلمي هو النقيض المسموح به، أمّا خيال الشعراء السحري والأسطوري لا يصلح سوى للأطفال، والحق أن الرومانسيين وعلى رأسهم كولردج، كان يقول: «الشاعر هو الإنسان الذي يحمل بساطة الطفولة إلى قوة الرجولة، وهو الذي يتأمل الأشياء كلها بدهشة الطفل ونضارته».

الغابة الضائعة

كنت كلما نويت أن أضبط عادة القراءة اليومية أو أقلّصها، نتيجة الإرهاق الذهني والبصري من جهة، ورغبة في إعطاء وقت أوفر للكتابة، أجد نفسي أرضخ لهذه العادة التي تسيدت على حياتي منذ المراهقة وإلى اليوم، وعن علاقتي بالكتب، أستطيعُ أن أروي قصصاً وأكتب روايات وذكريات...

في الأيام القليلة الماضية وصلتني دفعة من الكتب التي لا يمكن مقاومتها، والكتاب الذي جعلني أترك من يدي كل شيء وأنصرف إليه هو كتاب «الغابة الضائعة» مذكرات الشاعر الإسباني المعمّر رفائيل ألبرتي، وصلني من العراق الحبيب هديّةً من الصديق الأديب العراقي مؤيد الطلال، كتاب كبير في جزأين، يكاد يغطي القرن العشرين بكامله، بحروبه واضطراباته وأهم مبدعيه وعلاقة ألبرتي بهم، من شعراء وأدباء وفنانين ومفكرين وقليل من السياسيين، رفيقه لوركا، ونيرودا، وبول إيلوار، وأراغون، ومايكوفسكي، وبيكاسو، ودالي، ولويس بونويل، وميغيل أستورياس، وأكتافيوباث... ومشاهير يصعب حصرهم من أوروبا والأمريكيتين، غابة متنوعة الأشجار ومتعددة الينابيع والأنهار، وعذبة الينابيع، كتاب بمنزلة مائدة واسعة ممتدة فيها أفخر ما أنتجه القرن العشرون.

للصديق مؤيد، وللعراق الذي نرجو أن تأتي باستمرار نسائمه الثقافية ونتبادل معه ثمار الفكر، كل الشكر.

أشباح منتصف النهار: الساتورا الجديدة

كوابيس الحرب، كتبها الصديق الشاعر عابد إسماعيل، المسكون بالشعر وبالأفكار، وهو العارف بخرائط الكتابة، أزمنتها ومنعرجاتها..

العمل الأدبي الحقيقي، صدوره يشكّل حدثاً، فكيف إذا كانت الكتابة تنبض بهذا المقدار من مأساة الحرب ووحشيتها، الحرب التي تحوّل البشر إلى أشباح؟!

في الاستهلال، يعرّف عابد مقاطعه المتتالية، التي كتبت في مكان محدد وزمان واحد، هو زمان الحرب، بأنها: «شذرات، ومضات حائرة بين النثر والشعر، أوحت بها الحرب». هكذا دون تبجح أو ادّعاء تطل علينا الكلمات المشحونة بالتهكم، والحافلة بالإحالات والإشارات المتناغمة مع الخراب. نصوص لقصيدة واحدة، من الذات إلى الموضوع، من الداخل إلى الخارج، من الشعر إلى السرد، هذه التبادلية، هي فجوة التوتر الكبرى في القصيدة، في حين تَعبُر الكلمات فضاء النثر والشعر بحِرَفِيَّة عالية، إنها نوع جديد من «الساتورا» القديمة، الساتورة المينيبية، أو الهجائية المينيبية، نسبة إلى مينيبوس الشاعر السوري من جادارا (أم قيس) ابن النصف الأوّل من القرن الثالث قبل الميلاد، مبدع الأسلوب الهزلي والجدي معاً، وإليه تُنْسَب الساتورا التي يُخلَط فيها الشعر بالنثر، وكل أساليب الكتابة والموضوعات والأزمنة والأشياء والواقع والأسطورة.

إذ لا يوجد شيء خارج الكتابة، في الساتورا الجديدة، هذه التي أعدُّها هجائية عصر الخراب الجديد!

كتاب شعري مدهش، يستحق أن يكون عزاء ومفخرة لنا في عالم الكتابة، وأن نعلن أن الشعراء السوريين قادرون على الإبداع في زمن الحرب والحصار، والكتابة الجديدة التي يعد عابد أحد أركانها قادرة بجدارة أن تخترق التفاهات التي اقتحمت أرضنا وعالمنا وفضاءنا، وعلى استخراج «غرينيكات» خالدة.

كتاب رائع بنصوصه وهوامشه، وإلى أي جحيم آخر أخذتنا أيها الشاعر الفنان؟!
من أجواء هذا العمل أقتطع المقطع /٢٤/ بالترقيم اللاتيني:

«لم يمت رمياً بالرصاص، كما أُشيع، أو بشظية طائشة، أو حتى بسكتة قلبية. لم يمت بطعنة في الظهر أو بانفجار غامض خلف مبنى البرلمان، أو حتى بحادث سير تافه. ونحن الذين دفنّاه على عجل، لم نجد على جسده أثراً لجرح، أو كدمة، أو وشم. قلنا في سرنا لعله مات أشلاء، ذرات لا تُرى بالعين المجردة. نغمات موسيقية لا تُسمع إلا في أقصى درجات الصمت. لعله صار خيالاً أو طيفاً، يسري في الحلم واليقظة، أو بين الوهم والوهم، وربما لم يمت البتة. وحين دفناه، نحن الذين دفناه، لم نكن ندفن شخصاً أو شبحاً، أو شيئاً. لعلنا دفنّا ضباباً، أو إشعاعاً أو فكرة. لم يمت، هذا الذي مات، وحيداً، في غرفة ضيقة، مختنقاً بأغنية».

❁ ❁ ❁

نحو تعليم أسَاسيّ متطوِّر ومطوِّر

د. بدر الدين عامود

يعرض هنري بيرون في كتابه «أين هي الأنسنة؟ ou est-ce que L'hominisation» صورة افتراضيَّة، ويتساءل من خلالها عن مصير الحضارة البشرية على كوكبنا، إذا ما حلَّت به كارثة أودت بحياة ساكنيه من البشر، وأبقت على الأطفال الصغار منهم فحسب، يجيب عن تساؤله هذا بأن تاريخ البشرية سيتوقف ساعتئذٍ حتماً، ليبدأ من جديد على الرغم من استمرار الجنس البشري، وبقاء الكنوز الثقافية التي أبدعها البشر في رحلتهم الطويلة: الكتب، واللوحات الفنية، والآلات الموسيقية، والأبنية، والمصانع... إلخ. فما من أحدٍ ممن بقي على قيد الحياة يملك قدرة الكشف عنها والإفادة منها. فالكتب ستبقى دون أن تقرأ، والآلات ستتوقف عن العمل، والأدوات عن القيام بوظائفها، والمنتجات الأدبيَّة والفنيَّة ستفقد قيمتها ومعانيها. بكلمات موجزة سوف تنتفي مصادر وشروط التكوين الثقافيّ، وظهور الوعي وتطوره عند الجيل البشريّ الجديد.

ترتسم هذه الصّورة الافتراضيَّة على خلفية التقليد الّذي درج عليه العلماء والباحثون الفرنسيّون، وطبع بطابعه مقارباتهم للظّواهر الإنسانيَّة، وإسهاماتهم الفكريَّة على امتداد القرنين الماضيين، وهو ما يلمسه المتابع بجلاء في تأكيدهم الدّور المحوريّ للمجتمع في بناء شخصية الفرد، من منطلق ارتباط معرفة الفرد ارتباطاً وثيقاً بمعرفة مستوى وعي مجتمعه وثقافته، وما تحتويه من تصورات ومفاهيم وأفكار. «فالطفل لحظة الولادة- كما

في التطور المستمر والمتواصل للطرائق والتقنيات المستعملة في نقل الخبرة المتراكمة من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة.

إن التقدم الاجتماعي على هذا النحو يعني، من حيث كنهه، الخبرة الجديدة التي يضيفها الجيل إلى الخبرة البشرية التي تلقاها من الجيل السابق، ويغنيها بها في عملية معقّدة تجري ضمن سياق نشاطه الجماعيّ المنتج، الذهنيّ والعمليّ، وما كان لهذه الخبرة الجديدة المضافة أن تكون لولا استيعــاب الخبرة السابقة، وتوظيف مكوّناتها المعرفية والعقلية والمهارية على نحوٍ مبدعٍ وخلّاق، وإنَّ من شأن هذا الارتقاء الكمي والنوعي المتواصل بخبرة البشرية أن يزيد مــن أعباء نقل الخبرة بمستوياتها المتجددة إلى الجيــل الناشئ، ويطرح أمام المعنيين بهذه العملية مهماتٍ جديدةً أكثر صعوبةً وتعقيداً.

لئــن كانت خبرة التجمعات البشرية الأولى (القطيــع، القبيلة، القوم..) تقتصر على ممارسة النشاطــات التي تشبع الحاجات الطبيعيــة الأولية لأفرادها، ولا تتعــدى المعلومات والمهارات البسيطــة، والقدرات الحسية- الحركيّة واللغويــة المتعلقة بموضوعات تلك الحاجات، وتحضير الأدوات البسيطة، واكتساب المهارات اللازمة لاستخدامها، فإن انتقال هذه الخبرات عبر الأجيال كان يجري من خلال الممارسة العملية، ومحاكاة الأبناء أفعال آبائهم، ومعاشرتهم اليومية لهم.

وفيما بعد شهدت هذه الخبرة تطوراً ملحوظاً نتيجة تغيّر أنماط حياة البشر، وظهور اللغة المكتوبة، والشروع في بناء المراكز الحضرية، وما أسفر عنه ذلك من نشوء حاجات ثقافية- روحيَّة لدى الناس، دفعت بهم إلى ممارسة نشاطات جديدة، كان لها الفضل في توسيع دائرة معارفهم بالظواهر الطبيعية والاجتماعيــة، واكتساب مزيد من المهارات والقدرات التي من شأنهــا زيادة سيطرتهم على الطبيعة، وتأثيرهم فــي سلوكيّاتهم، وتوجيهها بشكلٍ فعّالٍ لتلبية حاجاتهم الفردية والجماعية.

فــي هذا المستوى من تطــوّر الخبرة الاجتماعيَّة لم تعد معاشــرة الصّغار للكبار (الأب، والأم، والأقارب) ومرافقتهم في أنشطتهم البسيطة (تحضير الأدوات، والصّيد، وجني الثّمار، والدفــاع عن النّفس...) كافيةً لاستحواذهم على خبــرة المجتمع. فكان لا بدَّ من وجود جهةٍ تضطّلــع بمهمات نقل التّراث الثقافــيّ إلى الناشئة، والإسهام فــي إعدادهم للحياة. وهكذا أنتــج تقدّم الممارسة الاجتماعية- التاريخية حقلاً جديداً من النشاط الجماعي، هو النّشاط التربويّ، الذي يُعدّ تزويد الناشئة بمستلزمات تلك الممارسة مادة اهتمامه.

لعلّنا نجد بواكير التجسيدات العمليّة الأولى للنشاط التربوي- التعليمي في ظهور المدرسة التي تستقبل الصغار، والمربي حامل خبرة المجتمع وممثلها، ومصطلح البيداغوجيا[1] (pedagogy)، كان يدلّ على «تربية الأولاد وتعليمهم» في الحضارات القديمة، التي تضمّن نتاج مفكريها وفلاسفتها كثيراً من الآراء والحكم التربوية.

لا يتّسع هذا المقام للحديث بالتّفصيل عن التطور السريع للخبرة البشرية في مجالات الحياة كلّها في العصر الوسيط، وعصر النهضة الأوروبيّة، والمتسارع في العصر الحديث. وتكفي الإشارة إلى أن اتّساع النشاط العلمي المعرفي عبر هذه الأزمنة، وشموله الظّواهر الطبيعيَّة والاجتماعيّة والنفسيّة، والبحث المعمّق والدّقيق في أعراضها وماهياتها، وعوامل وشروط تكوّنها وحركتها، وطبيعة العلاقات القائمة بينها، وصولاً إلى محاولة الكشف عن القوانين التي تتحكّم بوجودها أدّى إلى نشوء عدد كبير من العلوم تجاوز في أيامنا هذه الألف وخمسمئة علم، لكلّ منها موضوع دراساته ومناهجه وأدواته، وإلى جانب ذلك نجم عن تعدّد أوجه النشاط البشري، وتعقّد بنياته، وزيادة مستوى الوعي الجمعيّ والفرديّ ظهور أجناس أدبية جديدة، وضروب فنيّة متنوّعة.

إزاء هذا التقدّم الذي كان يحرزه النّشاط البشريّ الجماعيّ المبدع، كانت المهمات التي تلقى على عاتق المهتمين بنقل نتاج النشاط إلى الأجيال الصاعدة تزداد وتتعقّد بشكل مستمر. وكان على هؤلاء أن يضاعفوا جهودهم لتلبية هذه الحاجة المتعاظمة، ويغنوا تصوراتهم ويطوروا أفكارهم حول مضامين العملية التربوية- التعليمية، والأشكال والوسائل والأدوات والطرائق الأكثر نجاعة في نقل تلك المضامين إلى الدارسين.

وممَّا كان يضاعف حجم تلك المهمّات وتعقيدها هو تنامي الحاجة الاجتماعية إلى زيادة الفئات العمرية التي ينبغي أن تُضمّ إلى النشاط التربوي بصورة مطّردة. فلم يَعُدْ نقل الثقافة الاجتماعية مقصوراً على فئة الصغار فحسب، بل أصبح ضرورة ملحّة أن يشمل فئات الشباب والكبار في المجتمعات الصناعية على وجه الخصوص، بهدف رفع سوية الأداء في العمل، وتحسين جودة الإنتاج وكميته. وفي سياق الكلام عن المهمات التربوية وتنوعها في المجتمعات المعاصرة تجدر الإشارة إلى ظهور الحاجة إلى العناية بفئات كبار السن، ورعاية ذوي الحاجات الخاصة، وتزويدهم بما يتناسب وحالاتهم وإمكاناتهم البدنية والنفسية من الخبرة الاجتماعية، ويساعدهم على التوافق الاجتماعي والتوازن النفسي.

طبيعــي أن تلقى هذه الحاجات الاجتماعية صداها لدى كثير من الناس، ومنهم من تتوافر لديه ميــول تربوية، ورغبــة المشاركة في تحديث وسائل وطرائق تعليم الناشئــة، وإعداد الإنسان إعداداً يجعلــه عضــواً إيجابياً وفاعلاً في مجتمعــه. وتاريخ التّربية والتّعليم فــي العصر الحديث يحتفظ بأسماء تركت جهود أصحابها في هذا الحقل عظيم الأثر في نشوء مؤسّسات تربويّة- تعليميّة متعددة ومتنوعة، وظهور نظريات تربوية كثيرة، وآراء في جوانب مختلفة من شخصية الإنسان، بوصفه محور العملية التربوية وموضوعها، فأنارت سبيل المعلمين والمربين لعقود مديدة من الزمن.

وتبعــاً لتقدم المجتمع كانت هذه النظريات والآراء تتطــور، وتمتد أفقياً، وتتعمّق عمودياً دونمــا انقطاع، ما جعلها واحدةً من المقدمات المهمة لظهور علم قائم بذاته، يتخذ تجليات النفس ومظاهرها، وقوانين تكوّنها وتطورها مادة لبحوثه ودراساته، هو علم النفس.

بعد استقلال علم النفس، وظهور فروعه وميادينه إبان تاريخه القصير، وما رافق ذلك من ظهــور فروع وميادين للتربية، أضحى التفاعل والتعاون بين علم النفس والتربية أكثر وضوحاً وانتظامــاً واتساقاً، فعلــى الرغم من أن لكل منهما ميادين عمله، فــإن الحدود بينهما بقيت متداخلــةً ومفتوحةً، يعتمد فيها كل منهما على نتاج الآخر. فالنشاط التربوي، وما يندرج فيه من نشاطات تعليمية وتكوينية وتدريبية وعلاجية، يعتمد على معطيات علم النفس في جميع المجالات التي يعمل فيها الإنسان، والمراحل التي يمر بها منذ طفولته حتى شيخوخته ضمن الشروط الاجتماعية والثقافية التي يعيش في ظلها، وتأثيراتها في شخصيته. وبالمقابل فإنَّ مــا تقدّمه التجربــة التربوية الميدانية في أوجه النشاطات المختلفــة التي يمارسها الأفراد الأسويــاء والمرضى من الفئات العمرية كلها، يغني تصــورات الباحثين في علم النفس حول الوظائف النفسية (الإدراك، والانتباه، واللغة، والتذكر، والتفكير، والإرادة، والدوافع، والعواطف والانفعالات)، والعوامل المؤثرة في أدائها وتطورها.

مــردّ هذه العلاقــة الوطيدة والتفاعل بيــن التربية وعلم النفس إلــى وحدة موضوعهما وأهدافهمــا. فالإنسان، فــي أيّ عمر كان، وأينما وُجد، ومهما تكن حالته، هو موضوع اهتمام العامليــن في الحقلين. وإن الارتقاء به جسمياً وعقليــاً واجتماعياً وعاطفياً وخلقيّاً وجمالياً على نحو متناسق ومنسجم هو هدفهما الأساسي.

يحيلنا وجود هــذا التأثير المتبادل والتعاون البنّاء بين علــم النفس والعلوم التربوية إلى الوقــوف قليــلاً أمام إسهاماتهما في رفد التــراث والخبرة البشرييــن، وإغناء معارفنا حول

الإنسان وعلاقته بنفســـه، وبعالمه الخارجي، وبأفراد جنسه منذ نحو قرن ونصف القرن من الزمن، لاستطلاع آراء المربين وعلماء النفس في طبيعة أثر التعليم بشكل خاص، وحدود هذا الأثر ومبلغه في التطور النفسي للدارسين.

إن مـا يكشف عنه هذا الإجراء هــو كثرة تَعدُّد هذه الآراء واختلافهــا بتعدد مدارس علم النفـس، وتباين مواقف ممثليها من محدِّدات الشخصيـــة، وعوامل تكوّن سماتها وتطوّرها عبر المراحــل العمرية المتعاقبــة. ودون الدخول في تفاصيل منطلقات هــذه المدارس وتعاليمها يمكــن أن نجمل مواقفها من المسألة المطروحة في اتجاهين. يعتقد أنصار أولهما أن السمات النفسية تحملها العضوية، وتنتقل من الآباء إلى الأبناء عن طريق الوراثة. فالآباء الأذكياء، وفق هــذا الاعتقاد، ينجبون أبناء أذكياء، والآبــاء الأقل ذكاء والأغبياء يورثون أبناءهم ضعف الذكاء والغباء. إن مهمة التعليم، في رأي هؤلاء، لا تتعدى حدود تفتيح السمات الموروثة وإنضاجها.

أمــا ممثلو الاتجاه الثاني فإنهم يشدّدون على الــدور الحاسم للتعليم في تكوين القدرات المعرفية والحالات الوجدانية والدوافع والمهارات والمعارف وتطويرها عند الإنسان.

ومــا يرثه الطفل عــن آبائه، في رأيهم، هــو العضوية بما تحمله مــن صفات مادية دون سماتهــا، أي دون الوظيفة (أو الوظائــف) التي تؤديها، وهذه السمات أو الوظائف إنما تتكون وتتطور تحت تأثير التربية. ولكي يؤدي التعليم هذا الدور عليه أن يعتمد على فعالية المتعلم، ويحفزه للقيام بنشاط يقابل، أو يلاقي به نشاط المعلم. وهذا النشاط الذي يؤديه المتعلّم إنما يهــدف إلى تفعيل عضويته لأداء الوظائف الموكلة إليها، وما ينجم عنه ظهور السمة النفسية وتطورهــا مع استمرار عمليــة التفعيل والتّوظيف. فبقاء الطفل طرفــاً سلبياً، متلقياً، يحول دون توظيــف الأعضاء المختصة عنده، ومن ثمّ يُضعــف استعدادها للعمل، فيغلق أو يضيق أمام السمة أفق نمائها وازدهارها. والسمة يُقصد بها الوظيفة النفسية، قدرةً كانت أو عملية معرفية، أو دافعاً، أو حالة، فنكون هنا أمام ضعفٍ في الميول والقدرات العقلية عند الطفل، وانتفاء شرط مهم من شروط تطوره النفسي.

إن أصحاب الاتجاه الوراثي في علم النفس لا يرون في الخبرة الاجتماعية المتراكمة سوى معارف ومعلومــات عن أشياء وظواهر الطبيعة والمجتمع والإنسان، ومهارات حسية- حركية ولغوية ومعرفية. وهذا هو، من هذا المنظور، ما يتعيّن نقله إلى أذهان الدارسين في العملية التعليميــة. يشاطرهم رأيهم في هــذا الخصوص ممثلو بعض المدارســ السيكولوجية التي

تنفي وجود مظاهر الوعي، وتعدّها من المفاهيم البالية التي ورثناها عن الفلسفات القديمة، كالمدرسة السلوكية، والمدرسة الانعكاسية، وتدعي قدرة التعليم على تكوين الشخصية التي نريد عن طريق توفير الشروط المادية الخارجية، التي يستدعيها الموقف التعليمي، بصرف النظر عن فعالية المتعلم ودوافعه.

وفي الطرف المواجه يجد أصحاب الاتجاه الثاني أن الخبرة الاجتماعية تحتوي على قدرات عقلية تكوّنت وتطورت مع تطوّر هذه الخبرة، وأُودعت فيها، فضلاً عن احتوائها على معلومات ومعارف ومهارات ذات صلة بموضوعاتها. وإذا أراد التعليم أن يكون مطوِّراً، فإن عليه أن يقدّم خبرة البشرية في ميادين المعرفة للناشئة بمحتوى جديد، مبنيّ على أسس تربوية- نفسية متقدِّمة، تضفي على النشاط التعليمي طابع البحث والتقصّي، يتحول فيه التلاميذ إلى باحثين تحت إشراف المعلم. ففي ظلّ الشروط التي يوفرها المعلم في الموقف التعليمي يتمكن المتعلّم (الباحث) من تفكيك (تحليل) موضوعات الخبرة، والتعرف إلى صفاتها ومكوناتها الخارجية والداخلية، وعقد مقارنة بين تلك الصفات والمكونات، وإعادة تركيبها ذهنياً عن طريق استبعاد الصفات الثانوية والعرضية (التجريد)، والوقوف على الصفات الأساسية والجوهرية المشتركة فيما بينها (التعميم).

زوَّدت الدراسات النفسية، ولاسيّما ما أُجري منها في علمَيْ النفس التعليمي، والنمائي التربوي، المفكرين والعاملين في الحقل التربوي بكثيرٍ من المعطيات المتقدّمة حول خصائص النفس الإنسانية في مراحل الحياة الأولى بصورةٍ خاصةٍ، ما ترك في آرائهم ومواقفهم آثاراً إيجابية تجسّدت على نحو واضح، في إعادة النظر في بنية التعليم ومراحله، ومضامينه وطرائقه بالاتجاه الذي يجعله أكثر تجاوباً وانسجاماً مع تلك المعطيات، وأكثر قدرةً على تمكين الأجيال الصاعدة من استيعاب القدرات العقلية والمعارف والمهارات الضرورية لمواكبة متطلبات الخبرة المتعاظمة في عصر التطوّر العاصف في العلم والتقنية.

ومع الإشارة إلى تباين البنيات التعليميّة (المراحل الدراسيَّة)، والخطط التي تحدّد مضمون التعليم، من حيث كميته ونوعيته في كل مرحلة وطور، والمُدد الزمنيّة اللازمة لنقله، ونصيب كل مادة من المواد التعليمية منها من منظور أهميتها في النشاط التعليمي، ودورها في تحقيق أهدافه، فقد حظيت منظومة التعليم الأساسي بأهدافها ومضمونها وخطتها بقبول كثير من الدول في أنحاء مختلفة من العالم، ومنها دول عربية كالجزائر ومصر وسورية.

كتب كثير عن نظام التعليم الأساسي، وربما ما قيل بشأنه كان أكثر. والحقيقة التي لا بدَّ من الإضاءة عليها هي أن هذا النظام يُعدّ حلقة جديدة في سلسلة من الحلقات التي تعاقب ظهورها عبر تاريخ النشاط التربوي البشري. وسوف تظهر في المستقبل القريب والبعيد منظومات جديدة تستجيب لمطالب المجتمعات البشريَّة المستجدّة والمتنامية.

تكمن المهمة المركزية للمدرسة الأساسية في تزويد التلاميذ بالخبرات الاجتماعية العلمية- النظرية، والعملية- التطبيقية، والأدبية والفنيّة واللغوية وسواها مما تتطلبه الحياة العصرية من الفرد في الحدود الدنيا ليكون عضواً فاعلاً ومنتجاً، وبوصفها قاعدة ضرورية لمواصلة تحصيله العلمي والعملي في المراحل التعليمية اللاحقة. لهذا فإن على التعليم فيها أن يمدّه بالمعلومات ويكسبه المهارات والقدرات التي تمكّنه من اختيار المهنة المناسبة، وممارستها بنجاح من ناحية، ويزوّده بما تتطلبه المرحلة الثانوية من الخبرة البشرية من ناحية ثانية.

وعلى ضوء النتائج التي خلصت إليها الدراسات التجريبية والميدانية في علم النفس النمائي، التي تناولت الصفات والخصائص الجسمية والنفسية عند الأطفال منذ الولادة حتى بلوغ سن الشباب، وما يطرأ عليها من تغيرات خلال هذه السنوات، وجد علماء النفس التعليمي والتربوي أن مستوى التطور الذي يجب أن يصل إليه التلميذ في نهاية التعليم الأساسي، والخبرة التي يتعين عليه امتلاكها لتحقيق الأهداف المنشودة، يتطلبان تكويناً مدّة تسع سنوات. وتوزع هذه السنوات على أطوار ثلاثة، يمتد كل منها ثلاث سنوات. ومن البيّن أن هذا التوزيع لم يكن توزيعاً اعتباطياً، بل إنَّ كلَّ طورٍ جاء ليغطي مرحلة عمرية يحمل فيها الطفل صفات عضوية ونفسية مختلفة نوعياً عنها في المرحلتين الأُخريين، فتجعل منها مرحلة متميزة. لذا كان من الضروري أن ينعكس هذا الفارق النوعي بين خصائص كل مرحلة من المراحل الثلاث على كمية ونوعية مضمون التعليم وطرائقه في كل طور من أطوار التعليم الأساسي بصورة تراعي خصائص الطفل، وتسعى إلى الارتقاء به.

لعلَّ ما دفع واضعي منظومة التعليم هذه إلى وصف المؤسسة التربوية- التعليمية التي تطبّقها بمتعددة التقنيات، إلى جانب أنّها أساسية، هو وعيهم بأهمية الاستجابة لإلحاح الحاجة إلى امتلاك إنسان هذا العصر المعارف والمهارات التقنية، وهذا ما طالبوا بتجسيده في إنشاء ورشات عمل، وتجهيزها بالأدوات والآلات، ليكتسب فيها تلميذ الطور الثالث تحديداً المهارات والمعلومات الضرورية لممارسة إحدى المهن التي يوجّه إليها وفق معايير معيّنة،

تأخــذ بالحسبان ما يبديه من استعــداد وميل (الكهرباء، والإلكتــرون، والنجارة، والحدادة، والزراعــة... إلخ)، إضافة إلــى الاهتمام بالمختبرات الكيميائيــة والفيزيائية، والبيولوجية، وقاعات الفنــون (الرسم، والنحت، والموسيقا، والمســرح...) والرياضة وغيرها من الأماكن الخاصة بالفعاليات المنتجة والإبداعية.

إن الوفاء بالالتزامات تجاه أهداف التعليم في المدرسة الأساسية متعدّدة التقنيات يتطلب اتخــاذ جملةٍ من الإجراءات والتدابير التي تضفي علــى النشاط التعليمي في جميع الأطوار والسنوات الدراسية طابعاً علمياً، يبعده عن الارتجال والعفويّة في المواقف التعليمية، ويقلّل، مــا أمكــن، من الأخطاء والعثرات التي يؤدي تكرارها وتراكمهــا إلى نتائج سلبية على صعيد ردود أفعال التلاميذ علــى المطالب التعليمية. فمن الأهمية بمكان معرفة القدرات النفسية والبدنيــة التي يَفــدُ بها الأطفال إلى المدرســة، ومسار حركتها في كلّ طــورٍ، وفي كل سنة دراسيــة، والتعرف منذ الأيام الأولى لوجودهم فيها إلــى الفروق الفردية بينهم، والمشكلات والصعوبات التي يواجهونها في ظل الشروط المدرسية الجديدة، وكيفية حلّها وتجاوزها.

إنَّ مــن الخطــأ التقليل من أهمية هــذه المعرفة؛ فهي ضرورية لرســم الأهداف العامة والخاصــة والإجرائية للتعليم في أطواره الثلاثة وسنواتــه التسع، ولكلّ مادة ووحدة دراسية، ولا غنى عنها حيــن وضع المحتويات التعليمية (المناهج)، وتحديــد كميتها ونوعيتها بشكل يناسب مستوى التطور النفسي والجسمي للتلاميذ، ويضمن إنجاز المهمات التعليمية، وتحقيق الأهداف المرسومة، المتمثلة في الارتقاء بهذا المستوى.

وهــي ضرورية أيضاً للمعلــم، ممثّلاً للمجتمع وحاملاً لخبرته؛ فعلــى معرفته بالجوانب المختلفة لسلوك تلاميذه يتوقــف اختياره للطرائق والأدوات المناسبة لنقل محتويات المادة الدراسيــة إليهم، وحفزهم على المشاركة الفعّالة والإيجابية فــي استيعابهم لها، وفي تقويم أدائهم، وتذليل ما يعترضهم من صعوبات في مجرى نشاطهم.

ومــن المفيد في هذا الصّدد أن نشير إلــى أن كثيراً من السلبيّات والنقائص التي تتخلّل مســار العملية التعليمية (ضعف مشاركة بعض التلاميذ، وتشتت انتباههم..)، وتؤثر سلباً في نتائجهــا (سوء الاستيعاب، وصعوبة التذكر، وضعف القدرة علــى التّعبير...)، إنما هو نتيجة غيــاب أو ضعف معرفة المعلم بالحياة النفسية للتلاميــذ، وبآليات نشاط الوظائف النفسية عندهــم، ومن ثمّ افتقــاره للوسائل الناجعة، التي من شــأن استخدامها تشجيع تلاميذه على المشاركــة بغية توظيف قدراتهم، وتنمية ميولهم المعرفية، وتذليل الصعوبات التي تعترضهم

في هذا السبيل. وغالباً ما نجد المعلم الذي يفتقر إلى مثل هذه المعرفة يلوذ بالتذمّر والشكوى محمِّلاً تلاميذه مسؤولية تصرفاتهم، وتدني مستوى تحصيلهم الدراسي بسبب ما يزعمه أو يتصوره خطأً من ضعف قدراتهم الذهنية، وانعدام رغبتهم في التعلّم.

على الرغم ممَّا أحدثه انتشار التعليم في بلدان الوطن العربي على صعيد تطور مستويات الوعي الاجتماعي والفردي عقب الاستقلال حتى الآن، فإن المنظومات التعليمية فيها، ومنها البلدان التي شرعت في تطبيق نظام التعليم الأساسي منذ عقود، ما زالت تواجه مشكلات كثيرة تحول دون أداء وظائفها المأمولة، وتحقيق أهدافها المرجّوة. وهذا واقع لا سبيل إلى تجاهله أو التخفيف من وطأته وتأثيراته السلبية في حركة المجتمع، وإن من الموضوعية الاعتراف بوجودها، ومعرفة أعراضها وأسبابها، لأن ذلك استجابة طبيعية ومنطقية لمقتضيات تقويم أي عمل بشري بغية الوقوف على ما فيه من ثغرات ونقائص، ليُصار إلى تصويبه في الوقت المناسب قبل أن يتفاقم الأمر، فيصبح تصحيح الأخطاء وسدّ الثغرات بعد أن تتراكم وتتعاظم صعباً ومكلفاً على غير صعيد.

هذا ما وصل إليه حال التعليم في بلداننا، ووقف عليه وزراء التربية والتعليم والمعارف العرب في مؤتمراتهم. ولم يكن بوسعهم أمام تردّيه إلا الاعتراف بأن «الإنجاز التعليمي في الوطن العربي، حتى بالمعايير التقليدية، ما زال متخلفاً بالمقارنة مع باقي دول العالم، وفي بعض الأحوال حتى بالنسبة إلى البلدان النامية».

أمام هذه الحقيقة نرى أن الحاجة إلى البحث عن أسباب تخلّف الإنجاز التعليميّ في وطننا العربي، ولا سيّما في سورية، في مضمون التعليم وطرائقه وأساليبه، وفي البيئة المحيطة به، هي اليوم أكثر إلحاحاً من أيّ وقت مضى، ويمكن التأكيد في هذا السياق أن إقرار بنية تعليمية جديدة وتطبيقها في بعض البلدان العربية، وما واكب ذلك من إحداث تغييرات في مناهج التعليم فيها، وفي الدول العربية الأخرى التي ما زالت تحافظ على البنية السابقة (المرحلة الابتدائية والمرحلة الإعدادية)، هي إجراءات شكلية، لم تمسّ جوهر العملية التربوية- التعليمية. فقد بقي الأساس الذي بُنيت عليه موضوعات المواد الدراسية المقرّرة، والمبادئ التي تقوم عليها طرائق التعليم دونما تغيير. وبدا كأن الهدف من تطبيق التعليم الأساسي لا يتعدّى زيادة سنوات التعليم الإلزامي لإتاحة الفرصة أمام الأجيال لاكتساب معلومات ومهارات إضافية تستجيب لمتطلبات الحياة العملية المستجدة.

أصبح من البديهيات أن تكون سلامة وصوابية أيّ إجراء يُتخذّ في المجال التربوي- التعليمي مرهونتين بمدى اعتماد هذا الإجراء على نتائج ومعطيات ميدانية دقيقة. فبناء المناهج، وتحديد الطرائق والوسائل التعليمية بصورة علمية ومنطقية يشترطان معرفة واسعة وعميقة بالخبرة المتقدمة في التربية وعلم النفس، التي تُستمد من تجارب الآخرين والتجارب الذاتية. فالأدبيات المختصة في المناهج وطرائق التعليم تُعَدُّ مصدراً ثراً يمكننا الرجوع إليه والاعتماد عليه. والشيء نفسه ينطبق على خبرة الآخرين في علمَيّ النفس التعليميّ، والنمائي. وهنا ينبغي التذكير بتبيان خبرات الآخرين في هذه الميادين تبعاً لتباين مدارسهم، واختلاف تجاربهم وثقافاتهم، ما يملي علينا اختيار ما هو مشترك ومتفق عليه، وما يتوافق مع ثقافتنا وتطلعاتنا من هذه الخبرات.

أردت لهذه الملاحظات أن تكون تمهيداً للحديث عن التلميذ، والطفل عامة، موضوعاً للتربية التي تتحول إلى نشاط عفوي وعشوائي يصعب على المربيين به ومن خلاله تحقيق ما يتوقّعون ويتمنّون دون إحاطتهم بجميع جوانب هذا الموضوع ومكوناته بصورة كاملة ودقيقة. وقد يكون هؤلاء على معرفة جيدة بميزات كلّ مرحلة من مراحل الطفولة، وخصائص الطفل في كل منها، وبما يطرأ عليها من تبدلات حين الانتقال من مرحلة إلى أخرى، ومن سنة إلى سنة، ولكنَّ هذه المعرفة ليست كافيةً، لأنها لم تُستمدّ من واقعنا، ولا تعكس صفات أطفالنا وخصائصهم، ومسار حركتها وتطورها في ظلّ الشروط البيئوثقافية القائمة في مجتمعاتنا. فما نعرفه عن نمو الطفل هو نتاج دراسات وبحوث أجريت في الغالب الأعمّ على أطفال المجتمعات الصناعية المتقدّمة، يُقدَّم في الأدبيات السيكولوجية على شكل لوحات تفصيلية عن التطور النفسي لهؤلاء الأطفال.

والقراءة المتأنيَّة لهذه اللوحات بما تشتمل عليه من مراحل وأطوار وخصائص عضوية ونفسية تميّز كلّ مرحلة وطور، تكشف عن اختلاف بيّن في الأعمار التي تغطيها هذه المراحل والأطوار، وتتشكل وتتطور فيها تلك الخصائص. وسبب هذا الاختلاف لا يعود إلى تعدّد النظريات فحسب، بل إلى التباين الموضوعي للبيئات الثقافية التي يعيش فيها الأطفال. وتبيّن المتابعة الدقيقة لتصنيفات مرحلة التطور النفسي عند الأطفال في أوقاتٍ متباعدةٍ من تاريخ المجتمعات أن السنوات التي تمتد عبرها مراحل التطور وأطواره ليست ثابتةً في المجتمع الواحد، أي إنّها تتطاول وتتقاصر تبعاً لتقدم البيئة الثقافية وغناها عبر الزمن. كما أنها ليست واحدة في جميع المجتمعات، بسبب تفاوت مستوى الخبرة الاجتماعية من مجتمع إلى آخر.

إن فائـدة الاطلاع على خبرة الآخرين في ميدان علـم النفس تكمن في أنها تضعنا أمام ضـرورة التعرف إلى موضـوع التعليم في مجتمعاتنا، أي إلى مـا يمتلكه أطفالنا من قدرات نفسيَّـة ودوافـع، ويحملونه من خصائص، باستخـدام أدوات البحث العلمـي السيكولوجي، وطرائقه التجريبية، بعد اختبارهـا وتعديلها وتكييفها مع بيئتنا الاجتماعية الثقافية. فوضع لوحـة تفصيلية وكاملـة لشخصية الإنسان الذي ننشد، أي صياغـة الأهداف التعليمية التي تسعـى المدرسة الأساسية متعدّدة التقنيات إلى بلوغها على صعيد البنية النفسية لخريجيها، وتوفير الأدوات والمناهج يشترطان وجود قاعدة بيانات دقيقة حول مستوى التطور العضوي والنفسي الـذي يتمتع به الطفل في سنّ الدخول المدرسي، وتصوراً واضحاً عن سبل وآليات الارتقاء به عبر جميع سنوات نشاطه الدراسيّ.

لقد نشـأت الحاجة إلى الإنتاج المعرفي في ميادين العلوم الطبيعية والإنسانية منذ زمن بعيـد. وكانت تشتـدّ وتتعاظم يوماً بعد يوم، وهي تبدو الآن أكثـر إلحاحاً بالنسبة إلى البشر عامّة، ولنا خاصّة. والاستجابة لها، ولاسيّما في العلوم الإنسانية، تتطلب وعياً جمعياً بحجمها وشدَّتهـا وأهميتها، وإرادة قوية، واستعداداً كبيراً للعمل الجماعي بروح الفريق. فعن الطفولة والتربية ما زالت تصوراتنا ناقصةً، بل شوهاء، إذ نجد الآن بين ظهرانينا من تتحكم في سلوكه النظـرة التقليدية القديمة إلـى الطفل كراشد صغير، ينبغي التعامـل معه وتقويم تصرفاته وأفعاله على هذا الأساس. في حين تعلمنا خبرة الحياة أن للطفولة عالماً خاصاً مختلفاً عن عالـم الكبار، وأن للطفل تصوراته وقدراته ورغباته التي تميزه من الراشد، وعلينا أن نقترب من عالم الطفولة أكثر، بل ندخل إليه ما استطعنا إلى ذلك، وأن نفهم الطفل، ونقيس مستوى قدراتـه، ونتعـرف إلى تصوراته ورغباته، ليكون بمقدورنا وضـع تصور حول كل ما من شأنه تنمية شخصيته وإعداده الإعداد الصحيح للحياة.

ربمـا يجد بعضهم أن الظـروف الحالية في سورية غير مواتية بسبب ما تركته الأزمة من آثار سلبيـة على الأنشطة الاجتماعية كلها، والتربوية منها على وجـه الخصوص. وفي الردّ على هذا اعتقـد بعضهم أن من الممكن، بـل من الواجب مضاعفة الجهود وتنظيمهـا، وتوجيهها في هذه اللحظة العصيبة للإسهام الفعّال في التخفيف من معاناة الأطفال من اضطرابات ما بعد الصدمة. وهـذه مهمة تزيد من أهميـة الحاجة إلى جمع المعارف المتعلقة بقدرات الطفل وحالاته وسماته النفسية، وتوفير الشروط التي تدفع حركتها إلى الأمام، وتؤمّن ارتقاءها السريع والمتوازن.

لم يعد يدور في خلد أيٍّ من المعنيين بالإنتاج المعرفي أن المبادرات الفرديَّة، والإبداعات الجماعيــة المنعزلة في هذا الميدان أو ذاك، وحدها كافية لحلّ المسائل التي تطرحها حركة التاريخ، فضلاً عن تقديم إضافة وازنة وذات قيمة إلى خبرة البشرية في هذا العصر. ولا نبالغ أو نتجنــى، بقدر ما نصف بموضوعية واقعاً راكــداً، ساكناً، أو يكاد يكون حاله كذلك، يدفعنا طمــوح إلى تجاوزه وتحريكه إلى الأمــام، إذا قلنا إننا لا نزال حتى الآن نتوسل في استجاباتنا لتلبيــة حاجاتنا الماديــة والثقافية ما ينتجه الآخر في جميع مناحــي الحياة، على الرغم من رسوخ قناعتنا بالموقف السلبي لهذا الآخر، ولا سيّما الغربي تجاه رغبتنا في التقدم، وبضرورة الاعتماد على النفس الذي ينبغي أن نترجمه إلى عمل جماعي مبرمج ومُمأسس، بهدف حشد الطاقات وتوظيفها في الاتجاه الذي تتوقف صوابيته على الأخذ بالمعايير الموضوعية.

باتت مجتمعاتنا بمسيس الحاجة إلى إنشاء مراكز بحثية تتّخذ من بنيات النشاط البشري بأوجهــه المتعددة، وفــي ميادين الإنتاج والخدمات كلها، وما تتطلبــه من سمات ومواصفات فرديــة وجماعيــة موضوعاً لها. ويتصــدّر النشاط التربوي- التعليمي قائمــة أوجه النشاط وميادينه، بالنظر إلى ما يقدمه من فوائد وخدمات للنشاطات الأخرى دونما استثناء، وأهميته على صعيد إعداد الأفراد بدنياً ونفسياً لممارستها بكفاءة واقتدار.

وما يجعله قَمِناً بهذه المكانة الرفيعة هو أنَّه يتمحور حول الإنسان في جميع مراحل وسني حياتــه، ومختلف نشاطاته الإنتاجية والإبداعيــة والاستكشافية والرياضية والتجارية والمدنية والتعليمية والقانونية والعسكرية والإعلامية وغيرها، وفي مواقعه وأدواره وعلاقاته الاجتماعية وتأثيراتها في تطور سمات شخصيته ضمن الشروط البيئو ثقافية التي تحيط به.

من هــذا المنظور يتعين رؤية التعليم، بمعناه الواسع، بوصفــه المشروع الاجتماعي الدائم والمستمر، والأكثر ربحية من أيّ نشاط آخر. فالتعليم وحده القادر على أن يفتح أمام المجتمع آفاق نهوضه، ويسهم في وضع الإستراتيجيات التي تحدّد ما يمكن أن يصل إليه من درجات في سلم الرّقي والتقدم على المديين القريب والبعيد. وليس في هذا التشديد على الأهمية الخاصة للتعليم فــي حاضر المجتمعات ومستقبلها غلو أو مبالغة، فلهــذا الموقف مسوغاته المنطقية التــي تمدّنا بهــا النظرة الموضوعية والواقعية إلى التعليم بوصفــه البيئة التي توفر عناصرها ومركباتهــا إمكانية التنمية البشرية الشاملة التي تتمثل فــي إكساب أفراد المعارف والقدرات والمهارات الضرورية للعمل الذهني واليدوي وممارسة النشاط المطلوب بكفاءة عالية.

إن السبيل الذي لا يلوح أمامنا سواه لحل المشكلات التربوية- التعليمية المتفاقمة، وتجاوز حالة تدنّي الإنتاج المعرفي، وتردّي الإنجاز التعليمي يمرّ عبر إنشاء مركز للبحوث التربوية والنفسيَّة، وتأمين المستلزمات المادية والبشرية لانطلاقته. ويمكن أن يُناط تحقيق هذه الغاية بتضافر جهود المديريات المركزية المختصة في وزارة التربية، وكليات التربية والآداب والعلوم وغيرها من الكليات التابعة للجامعة.

ما يتعيّن على هذه الجهود أن توجّه نحوه في المقام الأول هو صياغة الأهداف التربوية- التعليمية القريبة والبعيدة، النظرية والإجرائية التي يمكن متابعتها واختبارها وتقويمها، ورسم أنموذج الإنسان الذي نطمح لمحاكاته في نهاية النشاط الدراسي، أو انقضاء مرحلة تعليمية معيّنة. ويتوقّف نجاح هذه الخطوة المهمة على مدى وضوح صورة البنية الجسمية والنفسية التي يلج بها الإنسان عتبة التعلّم.

يقضي هذا الشرط جمعَ المعلومات الميدانية المتعلقة بقدرات الأفراد المعنيين، البدنية والحسية- الحركية والذهنية (الانتباه، والإدراك، والتذكر، والكلام، والتفكير...)، عن طريق تطبيق أدوات القياس والاختبارات الموضوعية على عيّنة ممثّلة للمجتمع الأصلي. فعلى أساس المعرفة الدقيقة بمستوى تطوّر الوظائف العضوية والنفسية عند المتعلّم لحظة دخوله المؤسسة التعليمية من ناحية، وبالمستوى الذي نودّ أن تبلغه حين تخرجه فيها من ناحية ثانية، يمكن أن توضع المناهج، ويحدّد محتوى التعليم، وطرائق الأدوات المناسبة للوصول إلى هذا الهدف.

إنَّ بناء المناهج التعليمية على ضوء معرفة مختلف أبعاد موضوع التعليم، الجسمية والعقلية والوجدانية والدافعية يجنّب النشاط التعليمي الارتجال، ويجعل أداء طرفيه الرئيسين: المعلم والمتعلم أكثر غائية وإتقاناً وصواباً، ويقلّل إلى الحدّ الأقصى من أخطائهما وعثراتهما، ويقرّب المادة التعليمية من المتعلّم، ويثير رغبته في تعلّمها، ويستحثّ قدراته لاستيعابها.

على أن مهمَّة الباحثين في مركز البحوث المقترح لا تنتهي بصوغ الأهداف، وتكوين صورة لملامح شخصية المتعلم وبنيته النفسية قبل التعليم وبعده، وتحديد مضامين التعليم، وطرائق نقلها إلى أذهان الناشئة. فهذه المهمة ممتدة في الزمان، ولا تتوقف عند مكان معين، طالما أن الخبرة البشرية في ميادين المعرفة كلها، ومنها التربوية- التعليمية بطبيعة الحال، تتقدم وتزداد باطراد مع تطور الممارسة التاريخية- الاجتماعية، وما دامت الحاجة إلى تناقلها عبر الأجيال ماثلة وضرورية.

لــذا فإن المضيّ في متابعة سير التعليم، ولاسيّمــا القاعدي والأساسي منه، أمر تفرضه مواكبــة التطور، ومراكمة الخبرات التي تساعد الإفادة منها وتوظيفها على الارتقاء به، ورفع مستواه، وتحسين إنتاجيته من خلال الوقوف على مواطن الضعف والخلل في محتوى التعليم وطرائقه، والعمل على تعديلها وتطويرها بشكل مستمرّ، لتصبح قادرة على نقل الخبرة البشرية المتقدمة إلى المتعلمين، وتمكينهم من امتلاك القدرات اللازمة للاكتشاف والإبداع، والدافع إلى المشاركة الفاعلة في إثراء تلك الخبرة مستقبلاً.

الهوامش

(١)- تعنـي كلمة بيداغوجيا **Pedagogy** باليونانية حرفياً رعاية الطفولة، وكانت كلمة مربي **pedagogue** تطلــق في اليونان القديمة على العبد الذي يرافق الطفــل إلى المدرسة، وأصبح يطلق فيما بعد، كما هو معروف، على الشخص الذي يمارس مهنة التربية، أما كلمة مدرسة، التي تعود بالأصل إلى اللغة اليونانية، فإنها تعني وقت الفراغ أو الراحة.

المراجع

(١)- عامود، بدر الدين: علم النفس في القرن العشرين، ج١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.

(٢)- عامــود، بدر الديــن: التعلّم والتعليم والتطور العقلــي، منشورات الهيئة العامــة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٨م.

(٣)- ليونتيف، أ. ن: مشكلات تطور النفس، ط٤، منشورات جامعة موسكو، موسكو، ١٩٨١م، بالروسية.

(٤)- ليونتيــف، أ. ن: دراســات مختارة في التطــور النوعي والفردي للنفس، ترجمــة: د. بدر الدين عامود، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٨م.

(٥)- منشــور حول الشروع في تجربة المدرسة الأساسيــة متعددة التقنيات، وزارة التعليم الابتدائي والثانوي، الجزائر، ١٩٧٦م.

(٦)- المنظمــة العربيــة للتربية والثقافــة والعلوم، التقرير الختامــي للمؤتمر الأول لــوزراء التربية والتعليم والمعارف العرب، طرابلس، ٥- ٦ كانون الأول ١٩٩٨م.

الأسرة ودورها في تهيئة البيئة الروحية والعقلية الصحيحة للأطفال

في المنظور السيكولوجي

هناء ثابت محمد المداد

تمثّل الأسرة العَالَم في نظر الطفل، ومع ذلك فليست هناك أسرة تبدو في عيني طفلها المثل الأعلى للعَالَم أكثر ممّا يبدو العالَم خارج الأسرة مثلاً أعلى في نظر الكبار، وقد يكتئب الآباء المفكّرون أحياناً حين يتذكّرون نقائصهم والفشل الذي منوا به في ماضي حياتهم ولاسيّما مَنْ يُدركون ما لسني الطفولة المبكّرة من بالغ الأهمّية، وعلى الرغم من أنّ مرحلة الطفولة مرحلة دقيقة فقد يستشعر الآباء العزاء حين يعلمون أنّ المبادئ التي تستخدم للتدريب والإرشاد في هذه السنوات المبكّرة تصلح أيضاً للتطبيق إبّان الطفولة المتأخّرة والفتوّة، وأنّه في الإمكان تعديل السلوك في أيّ مرحلة من مراحل التربية، ولا شكّ أنّ الآباء الذين يتلهّفون إلى معرفة ما ينبغي لهم أن يتعلّموه ويطبّقوه هم الآباء الذين يعرفون كيف يواجهون المشكلات بذكاء، ويجب ألّا نحكم على مقدرة الأب وكفاءته من مقدار معلوماته فحسب، بل أيضاً من مدى استعداده لتعديل سلوكه.

وجميع أطوار حياة الطفل يتوقّف بعضها على بعض، ونحن لا نستطيع أن ننشئ شخصية سويّة جيّدة التوازن إلّا إذا قدّمنا للطفل – بجانب العناية البدنية الجيّدة – بيئة صالحة له من حيث الصحّة العقلية وتكوين العواطف، كما ينبغي علينا أن نحسب حساب جميع الدّوافع الغريزية كاللعب والخيال وحبّ الاستطلاع والرغبة في العمل والمنافسة...، كذلك يجب أن ننشئ في الطفل إحساساً بأنّه شخص له أهميّة في الأسرة، فغالباً ما نرى طفلاً في منزل

يـدور دولاب العمل فيه بشكل يلائم الحالة العامّة لحياة الكبار، في حين يكون الطفل عاجزاً عـن إدراك شيء من هـذه الشؤون الضخمة، ويبـدو كما تبدو الريشـة الطافية على سطح الماء.

ولا شـكّ أنّ الآبـاء الذين يتمتّعون بخيـال خصب وبُعد نظر يدركـون أنّ من واجبهم أن يهيئوا لأطفالهم البيئة الروحية والعقلية الصحيحة، ولن يستطيع أب منهمك في تدبير الخير لأطفالـه أن يـدرك حاجة الأطفال إلى إشبـاع رغبتهم في الزمالة، كمـا أنّ مثل هذه البيئة تستدعي من الأم ألّا تكون مجرّد كتلة من الحنان والتضحية، بل أن تكون من بُعد النظر بحيث لا تبلبـل أفكار الطفل وتحرمـه -بعطفها المُفْرِط- من إرضاء رغباتـه والاستمتاع بسعادته الحاضرة.

وتربية الأطفال وتدريبهم مسؤولية مشتركة بين الوالدين، ولعلّ للتعاون في المنزل والأسرة أثراً في الصحّة العقليّة أعمق غوراً من أثر أي عامل آخر منفرد.

وكي نتناول الأسرة بالبحث بوصفها مركزاً أساسيّاً للعناية بالأطفال وتربيتهم، يجب علينا أن نراجـع أفكارنا فيما يتعلّق بوظيفة الأسرة في الحياة العصرية، وفي هذا يقول الفيلسوف (جـون ديوي): (إننا لا نُغالي مهما نطنب في ذِكْرِ ما كان يُحَصّلَه أجدادنا الأوّلون من الثقافة الذهنية والفضائل الخلقية مـن ممارسة الحياة العاديّة المألوفة... لقد كان الأطفال يَجْنون ثمار التربية من مشاركتهم آباءهم في أعمالهم النافعة)، ونظراً لاختلاف الظروف عمّا كانت عليه في الماضي، مثل نزوح الناس من الريف إلى المدن، وما صحب هذا من تغيّر في نظام الحيـاة العائلية، فقد حـرم الأطفال الفوائد التي جَنَوا ثمارها مـن اشتراكهم مع ذويهم في الاضطلاع بأعباء الحياة.

واليوم، بعد أن استولت علينا مشاغل الحياة، أصبحنا إذا ما ذُكِرَتْ كلمة (التربية)، انصرفت أذهاننا فوراً إلى المدارس، ولم نُفكّر في الأسرة التي تُعَدّ المركز الأوّل للتربية.

والواقـع أنّ تحوّل المدارس إلى مؤسسات حصرت اهتمامها في حشو ذهن الطفل – في أقـل وقت مستطاع – بأكبر قـدر من العلم التطبيقي النافع له في قـادم أيّامه، قد بلغ هذا التّحـوّل من السرعة مبلغاً باغت الآبـاء فأغفلهم عن العبء الذي يجب أن تنهض به الأسرة، فتتولّـى هي تربية الطفل وتهذيبه، وغرس بذور مكارم الأخلاق في نفسه، وإذا سلّمنا بالمدى الـذي وصل إليه انتقال تبعات بعض فروع التربية من البيـت إلى المدرسة، فالبيت والأسرة

هي التي تتولّى تربية الطفل في أعوامه الأولى، تلك الأعوام التي تُعدّ من حياة الطفل بمنزلة الأساس من البناء.

وقد حرصنا على أن نؤكّد باستمرار قابلية تأثّر الطفل العظيمة بالنسبة إلى المؤثّرات بصفة عامّة في هذه السنوات المبكّرة، والكسب السريع الذي يحصل عليه من إنماء عاداته ومهاراته سواء أكانت عاطفية أم تهذيبية أم جسمية أم اجتماعية، كما رأينا أنّ شخصية الطفل تظهر وسط جميع مؤثّرات البيئة المبكّرة، وتتشكّل تبعاً لها، وأنّ الأسرة تمثل في نظر الطفل، قبل ذهابه إلى المدرسة بوقت طويل، ذلك العالَم الذي يواجه فيه مختلف المواقف ويتّخذ أساليب مختلفة لمواجهتها، ولأنّ الطفل يتحرّك أو يتأثّر بالأشخاص أكثر ممّا يتأثّر بالجزء الجامد عديم الحياة في بيئته، فإنّ المنزل - بما بينه وبين عدد من الشخصيّات من الارتباط الدقيق - يصبح الميدان الذي يحصل فيه الطفل على امتيازاته، ويجري فيه اختباراته، ويصل إلى تقدير قيمة بعض أنواع السلوك، مثال ذلك، إذا سمع الطفل أباه يجيب عن مطالبه بكلمة (لا) بصفة مستديمة، فإنّ هذا الطفل لن يلبث إنّ عاجلاً أو آجلاً أن يتجنّب الإعراب عن رغباته في حضرة هذا الأب، وإذا كان الطفل ملازماً باستمرار لأطفال لا يطالبون أو يحافظون على حقوقهم بالقوّة، فستسنح له فرص كثيرة يجرّب فيها مقدرته على أن يستخلص حقوقه أو يحقق رغباته عنوة.

إذن، فالأسرة هي العالَم المصغّر الذي يكتسب الطفل فيه كثيراً من التجارب والدربة، ومع قلّة معلوماتنا عن الحياة العائلية - ولا سيّما ما تعلّق بالأمور التي تفضي إلى معلومات شافية - فإنّنا نستطيع أن نقدّم للقارئ الاقتراحات الآتية التي وضعها بعض المشتغلين بشؤون الأسرة المعقّدة.

مسؤوليّات الأُسْرَة

١- إنّ أوّل واجب على الأسرة نحو أطفالها - بعد كفاية حاجاتهم الجسمية - أن تدبّر لهم البيئة الملائمة للحب والأمن اللذين ينشدهما جميع الأحياء، وقد يكون من سخف الرأي أن تناقش هذه المسألة الواضحة المسلّم بها، ومع ذلك فقد يبتدرنا أحد الناس بقوله: (إنّها مسألة مفروغ منها)، ولكنّنا - لكي ندلّل على عكس ذلك - نقول إنَّ كثيراً من مشكلات الشخصية التي تكشف عن القلق والاضطراب والتناقض تظهر بوضوح في الأطفال الذين لم يحرص آباؤهم - لأمرٍ ما - على معالجة هذه الضرورة الجوهرية.

وقد يكون فشل الآباء في هذه الناحية راجعاً إلى أنّ ولادة الطفل كانت عقبة في سبيل استمتاع الأبوين بحياتهما الحرّة الخالصة من كل القيود، وقد لا يُستحَب وجود الطفل لِما يستتبعه وجوده من ضرورة معالجة مشكلة إطعامه وتأمين سلامته، الأمر الذي يُكلّف الأبوين مضايقات قد لا يخفف من وقعها ما يكنّانه له من حب، وهناك احتمال ثالث مؤدّاه أنّ وجود الطفل قد يكون قيداً ثقيلاً لشخصين اتّضح أنّ ما بينهما من اختلاف وجهات النظر يستعصي على الحل.

وأمّا الطفل الذي انفصل أبواه بعضهما عن بعضٍ بالطلاق فيجد نفسه في موقف مضطرب شاذ يبلبل أفكاره، ولئن كانت هذه الحالات نادرة الوقوع فيكفي أن نفكّر في المسائل الأخرى التي قد تجعل الطفل يشعر بأنّ أُسس حياته ليست وطيدة مستقرّة... ومنها الضيق المالي، الذي وإن كان كبير الأثر، فإنّه في الجملة عامل أقلّ خطورة على اطمئنان الطفل واستقراره العقلي من الشدائد التي تسببها عناصر غير مادّية ولا ملموسة، وعلى هذا فقد يكون موقف الطفل بين إخوته وأخواته أو غرابة أطواره من الأسباب التي تُعِدّه للشعور بأنّه شخص لا أهمّية له.

وأهم ما يحتاج إليه الطفل هو أن يشعر بأنّ له مركزاً في الأسرة لا يستطيع أحد غيره أن يملأه، وأنّ في استطاعته أن يجد من أبويه كل حب وعطف وتقدير ما دعت الضرورة إلى ذلك.

وثمة مسألة أخرى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحاجة الطفل إلى ملء فراغ معيّن من عواطف أبويه، وتلك هي حاجته إلى توطيد مركزه، وجعله من الأهمّية بحيث يستحق هذا الحب وهذا التقدير، أو بعبارة أخرى يجب عليه أن يظهر لهما طيب معدنه، وأن يصنع أشياء تجعله يحس بالقدرة على العمل المنتج، فالطفل في الرابعة مثلاً، يختال كبرياءً بقدرته على ارتداء ثيابه بنفسه، كما يتيه ابن الثامنة عجباً لأنّه يستطيع أن يقدّم لأمّه هدية صنعها لها بنفسه دون معاونة من أحد، وقد يبرز غلام في الثانية عشرة في ضرب من ضروب الرياضة أو في زراعة الخضراوات، ولكن كل ما فعله يصبح في نظره غير ذي أهمّية إذا لم يجد ما كان يرجوه له من تقدير وإعجاب، بعد أن أنفق فيه ما أنفق من جهد وعناء.

٢- تقع على عاتق أسرة الطفل مسؤوليّات نحوه، بوصفه عضواً في المجتمع وفرداً له كيانه، فإذا لم يتعلّم الطفل التعاون، واللعب النظيف، واحترام حقوق الآخرين في منزل أسرته

كان ذلك دليلاً على أنّ الأسرة أخفقت إخفاقاً ذريعاً في تعليم الطفل، وكلّما بكّرت الأسرة بتعليم الطفل إطاعة مبادئ القانون والنظام، قلّ بذلك ما قد يبدو له، في قادم أيّامه، من قسوة النظام الذي يفرضه المجتمع.

وقد دلّت دراسة أحد الخبراء لكثير من الأطفال الذين أخفقوا في ملاءمة أنفسهم تبعاً للحياة المدرسية، على أنّ الصعوبة البارزة كانت كامنة في تشتيت الفكر الذي نشأ عن إهمال الأسرة أو فقرها أو عِراك الأبوين معاً، كما دلّت دراسة اثنين آخرين من الخبراء لمئات الأطفال على أنّ الإجرام متّصل اتّصالاً وثيقاً باضطراب النظام في أسرهم.

كذلك دلّت دراسة خبيرين آخرين للمسائل التي يمكن أن تتأثّر بها أخلاق الطفل على أنّ اهتداءه للسلوك الحسن لا يقتصر أمره على أن نطبّق عليه مبادئ التربية وأصول التعليم، بل إنّ للأسوة الحسنة أكبر الأثر في نفسه، فمهما نبذل من جهود مع الطفل، فلن نجني ثمار هذه الجهود إذا كان قد نشأ في بيت مزلزل الأركان، أو انحدر من أبوين تشوب سلوكهما المآثم والريب.

ويضيف الخبيران إلى ذلك: (نعتقد أنّ الحالات النفسية، والعادات التي تتكوّن في الطفل قبل سن الخامسة، وتلازمه مدى حياته، تقوم من أخلاقه مقام الأساس)، فإذا أضفنا هذا إلى ما قالاه من قبل، تبيّن لنا عِظَم مسؤولية الأسرة في تربية الطفل، ولا سيّما في الأعوام الأولى من حياته.

٣- ينبغي أن تساعد الأسرة الطفل على أن يكون موقفه تجاه مشكلات الحياة موقفاً معقولاً، ومواجهة المواقف الصعبة هي السبيل الوحيد الذي يُذكي في الطفل كيفية التصرّف فيها بلباقة وحزم... فإذا كانت لأبوين طفلة، وكانا يدلّلانها فتبكي وتطلب معونتهما كلّما واجهتها إحدى الصعوبات، فإنّ هذين الوالدين إنّما ينشّئان في هذه الطفلة عادة سوف تعوّقها كثيراً في الحياة العاديّة الخشنة المملوءة بالمتاعب.

وليس من المستطاع تعليم الطفل الاعتماد على النفس في وقت مبكّر، فمنذ الوقت الذي يُتّرك فيه الطفل البالغ من العمر ستة أشهر وحيداً في الغرفة ليناغي نفسه، إلى الوقت الذي يستطيع الشاب فيه أن يَعول نفسه، يحتاج إلى أن يُحاط بالرعاية حتّى يتمكّن من الوقوف على قدميه، والأسرة قليلة العدد كفيلة بتحقيق هذا، أمّا الأسرة التي يكون عدد أطفالها عشرة أو اثني عشر، فإنّ على الأطفال فيها أن يتعلّموا كيف يعتمدون على أنفسهم في وقت مبكّر.

٤- إن إلقاء المسؤولية على عاتق الطفل في وقت مبكّر يقترن اقتراناً وثيقاً باعتماده على نفسه، ولكن ينبغي بالطبع ألّا يعرّض الطفل الناشئ للعمل الشّاق المجهد، لأنّ الكدح في الطفولة لا يؤدّي إلى حُبّ الطفل للعمل مستقبلاً، ومع ذلك فمن الواجب أن يعهد إلى الطفل بإتمام أعمال بسيطة منظّمة في وقت مبكّر جدّاً عندما تكون لهفته على تقديم المعاونة في أشدّها، وإذا أردنا أن نجعل موقف الطفل من تحمّله المسؤولية مُحَبّباً، فيجب علينا أن نقرن الأعمال التي نعهد بها إليه في وقت مبكّر بشيء من عناصر المرح والتسلية.

٥- يكون الطفل أكثر استعداداً لتقبّل المسؤولية بسهولة إذا عرف حقيقة الموقف، وكثير من الآباء يترددون في إشراك أطفالهم في مناقشات الأسرة واجتماعاتها، لأنّهم يشعرون بأنّ الأطفال لن يفهموا شيئاً من الحديث، أو لخشيتهم من أن يتحدّث الصغار إلى الغرباء عن المسائل الخاصّة بالأسرة، ولكنّ هذا زعم خاطئ، لأنّ الأطفال يُقدّرون كثيراً مواقف آبائهم حين يثقون بهم ويطلعونهم على طرف من أسرارهم، ولا شكّ أنّهم سيبدون قدراً من التّعقّل والتّبصّر يتناسب مع التربية التي تلقّوها من أبويهم، وليست هناك وسيلة أفضل من المناقشة في المشكلات بصراحة تدعم في نفس الطفل الشّعور بزمالة أفراد الأسرة ووحدة كيانهم.

ومعرفة الطفل لحدود موارد الأسرة المالية مثلاً يكون لها أثرها في منع الفتاة من الغضب أو إساءة فهم موقف أبويها حين يرفضان أن يلبيا طلبها ويبتاعا لها بعض الأشياء التي تبتاعها صديقاتها، ثم إنّ المناقشة في شؤون الأسرة والمثُل العليا، غالباً ما تعطي الأطفال فكرة صحيحة عن الأهمّية النسبية والأهمّية المُطْلَقة للأشياء، والأسرة الفاضلة التي شبّ أفرادها على التمسّك بالمُثُل العُليا ومكارم الأخلاق، ينشأ ناشئتها على القناعة والزهد في فضول الحياة، بل إنّهم ينظرون نظرة العطف والإشفاق على لِداتهم من أبناء ذوي الثراء الذين ران على قلوبهم باطل المادّة وزيف الحياة.

الصعوبات التي تعترض النهوض بالتبعات

١-ليس للأبوين العاجزين عن مواجهة الحياة أن يتوقّعا من أبنائهم أن يَشِبّوا قادرين على مواجهتها، وقد قال «أبوت» في كتابه المسمّى «إعداد الآباء»: «إنّ العادات التي يحاول الآباء غرسها في نفوس الأبناء، ليست بذورها إلّا من حصائد أنفسهم».

وقد رأينا مراراً، في الفصول السابقة، أنّ الحالات العاطفية وعادات الأبوين، تعمل في صمت على إجبار الأطفال على سلوك هذا السبيل أو ذاك...، فالسيدة سريعة الانفعال

منهكة الأعصاب ذات الصوت الصارخ، تحطم أعصاب أطفالها، لأنّها لا تقيم وزناً لدرجة حساسيّتهم، والرجل الذي يعتقد أنّ الأطفال يجب أن يروا ولا يسمعوا، ولا يبذل أي مجهود لفهم نموّهم وتغيّر رغباتهم من عام إلى عام فهماً عاطفيّاً، لن يلبث أن يجد في النهاية أن حاجزاً سميكاً قد ارتفع بينه وبين أطفاله... وهم، مع هذا، إذا لم يحبوه ويحترموه، عاقّون جاحدون للفضل ناكرون للجميل!

ولا شكّ أنّ الآباء على بكرة أبيهم يرغبون في أن يصنعوا الشيء الصحيح مع أطفالهم، فهم يرجون أن تتاح لهم فرص لم يتح لهم الظفر بها، ولكنّهم إذ يفعلون ذلك قد يسلكون سُبلاً لا تجيزها الأبوّة، وقد يحاول أحد الآباء أن يعزّي نفسه عن إحباطٍ اعتراه في تحقيق أمل معيّن لم ينجح في تحقيقه وهو طفل، بأن يعمل على أن يحققه ابنه، ضارباً صفحاً عن ميول ابنه ورغباته التي قد تكون مخالفة لميل أبيه مخالفة تامّة، وبفرض أنّ الابن نجح في تحقيق حلم أبيه فربما يكون قد أخفق في تحقيق أعزّ أمنية لديه، والآباء الذين يرون أنّ للأبوّة والأمومة حقّاً مقدّساً في تقرير مصير أبنائهم، لا يجنون من تفكيرهم هذا إلّا الخيبة والندم.

وقد أوتي الطفل أبوين ليقبس منهما – مع نور الحياة – شعلة خبرات الأجيال الماضية وتجاربها، ومرحلة الطفولة الطويلة عند بني البشر، التي يقضيها الأطفال العاجزون ملازمين لأبويهم، إذا قيست بمرحلة الطفولة القصيرة لدى صغار الحيوان، تطلعنا على احتمالات التربية والتدريب، وفرص الخبرة والتعليم التي يمكن أن يفيدها الصغار وهم في ظل أبويهم.

وأطفال بني البشر لا تدفعهم أمهاتهم إلى الحياة دفع أمّهات الحيوان صغارها التي تنطلق من أيّامها الأولى مزوّدة بالخبرات الفطرية قصيرة المدى، ومع ذلك فكثير من الآباء يكونون شديدي اللهفة على أطفالهم، مغالين في أسباب رعايتهم والحدب عليهم، إلى حدٍّ يورث الطفل العجز عن مواجهة الحياة، بدلاً من إطلاقه لتجارب الأيام تصقل عوده وتبرز الدفين من مزاياه ومواهبه، كما أنّ كثيراً ممّا يتعلّمه الطفل في حداثته قد يكون من عوامل تعويقه وعرقلته، لا من عوامل دفعه وتقدّمه، ويقول (صمويل بتلر) في قصّته (طريق الجسد): إنَّ بعض الأطفال كان خيراً لهم أن يأتوا إلى الدنيا وهم في غير حاجة إلى ما يتعلّمونه من آبائهم، ولو بلغ بهم الأمر أن يسيروا في الأرض يأكلون من خشاشها، شأن صغار الحيوان.

وإنّ لنا لعبرة فيمن بلغت بهم الأيام مبلغ الكبار وهم عاجزون مترددون جبناء، لِما تمادى فيه آباؤهم من إغراقهم في فيض من العطف والحدب والحنان!

ولكــنّ ذلك لا يعني طبعاً أنّنا نريد إعفاء الأسرة من مسؤولية رعاية الطفل، لأنّ هذا أول واجب عليها، بل نعني أنّه ينبغي أن تحرص الأسرة على تجنّب المغالاة في تدليل الطفل.

٢- إنّ التّغيّر المطرد في حياة المدنية العصرية يجعل من الضروري إحداث تعديلات في الأسرة والبيت، فقد تغيّرت وظائف البيت، لأنّ عمل كل فرد من أفراد الأسرة جعله ينأى عن البيت باستمرار، ولكنّ الحنين إلى البيت، والحب العائلي ما زالا قائمين على الرغم من ذلك، ولو أنّ المشاغل لا تتيح للناس فرصة إرضاء هذا الحنين.

ولا شكّ أنّ التقدّم المادّي - الذي جلب الراحة والرخاء للأسرة - مسؤول أيضاً عن بعض التغيّرات التي لا مناص منها، كضرورة وجود الكهرباء والماء الذي ينساب من الصنابير، فقد كان أفراد الأســرة يتعاونون في سالف الأوان على تنظيم البيت وتنسيقه، فلسنا ننسى إضاءة القناديل والشموع وإخراج المياه بالمضخّات، أمّا الآن فقد انصرف الجميع إلى العمل طمعاً فــي الكسب، فهم لذلك يغــادرون البيت في ساعة مبكّرة من الصبــاح حتى تتاح لهم فرصة الحصــول على المال لدفع ثمن الكهرباء والماء وأجور غســل الثياب وكيّها، وأجور استعمال الهاتــف الجوال، واستخدام الإنترنت، إلى غير ذلك من مستلزمات الحياة العصرية، وعندما نجــادل في شــأن هذه الحياة العصرية، يحتمل أن ننسى أنّ خــلال تاريخ الجنس البشري لم تمــرّ مدّة كان الرجل فيها هــو المورد الوحيد، إذ إنَّ الأسرة كانــت تعتمد أيضاً على مقدرة المرأة والأطفال في تهيئة الطعام ممّا تُخرِج الأرض وفي إعداد الثياب، هذا ما كانت تقوم به الأســرة مجتمعة، ولكنّ اضطرارهم إلى التّفرّق هنا وهناك للحصول على النتائج عينها، أدّى إلى ظهور مشكلات جديدة.

إنّنا لا نستطيع أن نتوقّع عودة الأيّام التي كانت وحدة الأسرة فيها قويّة متينة ولاسيّما أن دواعي العمل أرغمت أفــراد الأسرة الكبيرة على التّشتّت في شتّى الأرجاء والمدن، ولا شكّ أنّ هــذا التّشتّــت مسؤول عمّا حدث فــي البيئة المحيطة بالطفل مــن تغيير، ففي العصر السابق كان الطفل مُحاطاً بكثير من الأقرباء يبذلون له الحب والحنان، ويسهمون بدورٍ رئيس فــي حياته، أمّا الآن فأصبح الطفــل يعتمد على أبويه فحسب، أو أفــراد الأسرة المُقرّبين، أو الأصدقــاء الذين يبذلون له العطف والحنان، ولا شــكّ أنّ الطفل الذي قلّما يختلط بغير

أبويه من الكبار، يزداد تعلّقه بواحد من أبويه دون الآخر، فإذا كان أبواه لا يظهران من تلقاء نفسيهما شيئاً من الحب والعطف، راح ينشدهما عند أصدقائه، أو انقلب بارد الطبع جامداً، ولو أنّه يتلهّف في قرارة نفسه على أن يجد من يضفي عليه بعض حبه وحنانه.

والطفل، في فجر حياته، في حاجة إلى الارتباط الوثيق بالناس من غير ذوي قرباه، إذا كان مُقدّراً له أن يشبّ ودوداً، لطيف المعشر، مستجيباً مع بيئته وظروفها.

٣- تغيّرت الأفكار عن العلاقات بين الطفل وأبويه تغيّراً أساسيّاً، فقد كان المُعتَقد أنّ الطفل يحمل لهما الحب في صورة طبيعية، ثم اتّضح أنّ عواطف الطفل لا تتّجه إلى أيٍّ ناحية معيّنة عند مولده، بل تتّجه إلى الأشخاص الذين يجتذبون دوافع هذه العواطف باهتمامهم بالعناية بالطفل وإسباغ العطف عليه.

وكذلك الشخص الذي يتعهّد طفلاً غريباً بعنايته ورعايته لا يلبث أن يحب هذا الطفل، وتنشأ بينهما روابط من الحبّ المكين، على الرغم من أنّ هذا الشخص لا تربطه بالطفل صلة الأُبوّة.

ويرجع قصور حماسة الآباء عند إسهامهم في تربية أطفالهم، إلى حدٍّ بعيد، إلى أنّهم لا يرتبطون بالأطفال ارتباطاً وثيقاً كارتباط الأمّهات.

وكلّما بذلنا جهداً أكبر، وصرفنا وقتاً في العناية بالطفل، أثمرت التضحية وأرضينا رغبات الطفل وحاجاته، وأمّا القول إنَّ الأب يُضحّي بكثير من نشاطه في متابعة عمله بهمّة لكي يستطيع أن يدبّر العيش الناعم للأسرة - بما فيها الطفل - فلا يكفي لأن يكون عذراً يسوِّغ انصراف بعض الرجال تماماً عن الاهتمام بأطفالهم، ولا جدال في أنّ الأب الذي يقّصر همّه على جمع المال إنّما هو أب مُقَصّر غافل عن معنى الأبوّة الحقّة. فالوالد الذي يبدي النصائح لأطفاله ويعلّمهم ويُربّيهِم أفضل من المتغطرس الذي يفرض سلطانه الغاشم عليهم، والذي لا يتجاوب مع أطفاله لا يستطيع أن ينال حبّهم وزمالتهم وإخلاصهم.

وقد يشعر أغلب الآباء بشيء من القلق عندما يشرف أطفالهم على المراهقة ويقضون أغلب أوقاتهم خارج المنزل فيصعب بذلك إشراف الأسرة عليهم، ولكن ينبغي أن يتذكّر هؤلاء الآباء أنّهم لو كانوا قد مهّدوا لأطفالهم السبيل إلى الزمالة منذ وقتٍ مُبكّر، لكان هذا بمنزلة الضابط لِميول أبنائهم المراهقين الذين يهتمّون كل الاهتمام بآراء إخوانهم الذين توطّدت صلتهم بهم.

ومن عوامل الارتباط الوثيق بين أفراد الأسرة قيامهم برحلات جماعيّة تساعد على خلق روح التعاون المشترك، فلو أنّ أفراد الأسرة خرجوا ذات صباح إلى الحقول ومعهم منظار مكبّر ليراقبوا بوساطته الطيور وهي تغدو وتروح إلى أوكارها، لكان هذا المنظر موضوعاً طريفاً يتحدّثون عنه في أثناء تناول الطعام، وقد يؤدّي ذلك إلى أن يهوى بعض أفراد الأسرة الطيور وينهمكوا في دراستها إبّان وقت فراغهم، والأب الذي لا يغضب إذا رأى أطفاله يستعملون أدواته الخاصّة، بل ينتهز فرصة فراغه ليشترك معهم في صنع زورق أو ما أشبه، كما يساعدهم على إنشاء (ورشة) خاصّة إذ يمكنهم أن يتعلّموا كيف يصنعون الأدوات بدقّة، ويحفظونها في حالة جيّدة... لا يفقد بذلك سيطرته عليهم، بل – على العكس من ذلك – يكتسب احترامهم وتقديرهم له، وقد يعجب الوالدان أحياناً من الاحترام البالغ الذي يكنّه الأطفال للمدرّس أو للمشرف النفسي الذي قد لا يتّصف بمقوّمات السيطرة والقوّة.

ونزول الأب إلى مستوى الطفل قد يؤدّي إلى إقلال الطفل من الاحترام الواجب عليه لأبيه، ولكنّ معاملة الطفل كفرد يفكّر بدلاً من إصدار الأوامر إليه كحيوان صغير تزيد من احترامه وولائه، وقد لوحظ أنّنا نستطيع أن نكسب تعاون أطفالنا لو عاملناهم باحترام كما نُعامل الكبار.

والأسرة التي يرتبط أفرادها بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً مملوءاً بالولاء والمحبّة، تعلو بينهم مستويات السلوك، فإذا ما رأت الأُمّ مرّة أحد أولادها في ثياب غير نظيفة يكفي أن تقول له: (أترى أنّ هذا يليق بمقام الأسرة؟).

وحدث في ضاحية إحدى المدن أن تقرر إقفال نادي الألعاب لعدم دفع الضرائب المستحقّة التي أثقلت كاهل أهل القرية، وفي أثناء اجتماع لبحث الموضوع أبدى المجتمعون ضيقهم بما يدفعون من ضرائب، وزعموا أنّها جاوزت مدى قدرتهم حتى أصبحوا عاجزين تماماً عن دفع المزيد، إلى أن قال أحد الآباء: (هل يرضيكم أن نسمح بإقفال هذا النادي الذي يحفظ أولادنا من التسكّع في الشوارع، واللعب في البرك والمستنقعات، والتردّي في الوحل والطّين؟)...

عندئذٍ علم الآباء أنّ لديهم فائضاً من المال يقي أولادهم هذا المصير.

وعندما يزعم الأب أنّ العمل يستغرق كل وقته، وأنّ القدر الذي يبقيه العمل لا يكاد يكفي نومه وراحته، وأنّه يكفي أولاده أنّ أباهم يفني زهرة عمره في الكدّ من أجلهم.

عندما يزعم الأب هذا، عليه أن يذكر قصّة النادي، والبرك والمستنقعات، والوحل والطين.

٤- إنّ الصعوبات التي تنجم عن تفكك الأسرة أو فقدان الحب بين الوالدين جمّة كثيرة، وقد دلّت ملاحظات أطبّاء التحليل النفسي الذين شاهدوا كثيراً من حالات الانهيار العصبي في المراهقين والبالغين، على أنّ كثيراً من مثل هذه الحالات يرجع مباشرة إلى الإحساس بعدم الاطمئنان الفكري الذي يتطرّق إلى نفس الطفل في سنوات حياته المبكّرة... ولذا وجب أن يكون والدا الطفل الصدر الرحب والملجأ الحصين لطفلهما منذ نعومة أظفاره.

٥- كثيراً ما يواجه الوالدان المفرطان في الجزع واللهفة المتاعب والمصاعب... فقد قضى والدان من هذا النوع عاماً وهما يترددان على عيادات الأطبّاء باحثين عن علاج نفسي لسلوك ابنتهما، فقيل لهما إنّها أوشكت حقيقة على الفساد لأنّهما أفرطا في الاهتمام بأمرها.

ويرى المشتغلون بفنّ تربية الأطفال أنّه ينبغي أن يحرص الآباء كلّ الحرص على ألّا يجعلوا أطفالهم يطّلعون على أسرار سلوكهم الخاص.

فقد تكون هناك أشياء لا يصح أن يعرفها الأطفال، فبدلاً من أن نصطدم بمشكلات تضطرّنا إلى إيضاح الطيّب من الخبيث للأولاد، يجب أن نضع برنامجاً يعطينا الفرصة لتنشئتهم على كل ما هو حَسَن، من دون أن يعرف الأطفال سلوكنا معهم.

ولا شكّ أنّ الأبوين يدركان أنّه من خطل الرأي أن يتناقشا شؤون الطفل في حضرته.

٦- من العقبات التي تؤدّي إلى عرقلة تطوّر الطفل الطبيعي جهل الوالدين أو فشلهما في معرفة الحاجة إلى نموّ عواطفه، إذ لا بدّ أن يتقدّم هذا النمو تقدّماً طبيعيّاً، ففي البداية يكون حب الطفل مقصوراً على نفسه وما يهمّه، وليس في ذلك شيء غير طبيعي، ولكن هناك دائماً احتمال في أن تُغذّي الأسرة حب الطفل لنفسه، وتزيد منه إلى درجة عظيمة، فيشبّ الطفل مُحِبّاً لنفسه حتى بعد أن يغادر مرحلة الطفولة.

وتأتي الخطوة الثانية في نمو عواطف الطفل عندما يستجيب إلى الحب والعناية اللذين غمره بهما أبواه، وهنا أيضاً يُحْتَمل أن يقف النمو ولا يتقدّم، فقد تدفع الغيرة الأسرة إلى مُحاربة الاستئثار بحب الطفل ولا تسمح له بأن يتخلّص من القيود التي تجعل حبه مقصوراً على أبويه وأسرته فحسب، ويمكن أن نردّ الحالات التي يظلّ فيها الشبّان والشّابات بغير زواج إلى سوء تصرّف الأمّهات اللاتي يتعصّبن لآرائهن، ويتشبّثن بأن يكون حب هؤلاء الأولاد والبنات وقفاً عليهنّ فحسب، وعلى كلّ حال فهناك عناصر أخرى معيّنة تسهم في هذا

السلـوك، إلّا أنّ الحب الذي يبعد الفرد عـن الاهتمام بمسائل المجتمع إنّ هو إلّا حب أناني شَرِه...

وفـي المرحلة الطبيعية التالية لمرحلة الطفولة ينتقل حب الطفل إلى زملائه و أصدقائه الذين من جنسه...

ويؤدّي إكبار البطولة والولاء لزعيم معيّن دوراً في تطوّر الأخلاق في هذه المرحلة بالذّات، لأنّهـا مرحلة الصّداقة المخلصـة التي تساعد على إثارة قوى التفكيـر وسهولة التعبير عن خلجات النفس.

وأخيراً يبلغ الفرد مرحلة الاهتمام بالجنس الآخر، والرجل أو المرأة اللذان عانيا من كبت عواطفهمـا عند أيٍّ نقطة سابقة لنقطة النضوج العاطفي، لن يلبثا أن يعانيا من الحاجة إلى وجود المخرج الطبيعي لهذه العواطف.

محاسن الحياة العائلية

تتاح للأفراد فرص كثيرة لتعلّم التجاوب في الأسرة، وهذا التعليم يجعل من السهل عليهم أن يتجاوبوا بين أنفسهم وبين الحياة بصفة عامّة.

ولا شـك أنّ مبدأ الأخذ والعطاء الذي يقوم علـى أساس من القواعد المألوفة يُعوّد الطفـل على احترام رغبات الآخريـن وآرائهم ويبعده عن مواطن الزلل ومواقف الخجل، فلا يحدث منه ما يُعَد خرقـاً للقواعد المقررة، وأمّا محاسن تربية الطفل في مجموعة كبيـرة فواضحـة لا خَفاء فيها، فالطفل الذي لم يذهب إلـى المدرسة ولم تُتَح له فرص الاحتكاك بالآخرين، أو تَعلُّم الكفاح في سبيل حقوقه في إحدى المناسبات، والنزول عنها فـي رفق وكياسة فـي مناسبات أخرى، لن يلبث أن يرى الصـراع الذي سترغمه ظروف الحياة على الاشتراك فيه صراعاً غير عادل، وغالباً ما تقلق الأُمّهات بغير ضرورة لِما ينشأ بيـن أطفال الأسرة من احتكاك ومضايقات، مـع أنّ مثل هذا السلوك يشفع له قلب الأُم فإنّه يكون في أغلب الأحايين باعثاً على الضحك أو التجاهل، فقد كان لأسرة طفل وحيد في الثامنة من عمره وكان له خمسة من أبناء عمّه دأبوا على أن يُغيظوه ويضايقوه، ولكن بـدلاً من أن يثور الطفل فإنّه تعلّم كيف يضبط عواطفه ويكبح جماح غضبه، وكان لذلك أثـر عظيم في نجاحه في حياته المستقبلية، والفرد الذي لا يُدفع إلى مواجهة مثل هذه المواقـف حتّى يبلغ طور المراهقة لن تنمو فيه القدرة على مواجهة الحياة ولا منجى له

من معاناة كثير من الألم والحزن عندما يحاول تجريب وسائل ارتجالية لمواجهة مختلف المواقف.

ولكن قلوب الأمّهات تقول: (أمِن العدل أن أترك هذا الطفل الصغير يواجه وحده هذا الموقف الحرج؟)، أو (ألا يدفعني واجب الأمومة لأن أقي طفلي المكارِه؟)...

ولكن هلّا عَلِمَت الأم أنّ تدخّلها لدفع كل صغيرة عن طفلها الحبيب يُجرّده من أسلحة الدفاع وهو رجل كبير؟ وأنّ المكارِه التي سيلقاها على أيدي لِداته تقلّ كثيراً عمّا يحيق به عندما يعتاد الاعتماد على حماية أبويه فيشبّ رخواً ليّن العود؟

على أنّ هناك أوقاتاً يكون فيها تدخّل الآباء والأمّهات في شؤون الأطفال من الأمور التي لا مفرّ منها: كأن يميل طفل إلى الاستبداد بطفل آخر... ففي هذا الموقف، ينبغي أن يتدخّل الوالدان لحماية الطفل المعْتَدى عليه، وفي الأسر الكبيرة، إذ يكثر عدد الأولاد، يكون أصغرهم سنّاً ذا طبيعة هادئة ومحبوباً من الجميع، ولكنّه يظلّ بعيداً عن مجالس الأسرة وشؤونها، وإذا حاول أن يبدي رأياً فإنّ الأسرة تطلب منه السكوت على حساب أنّه ما زال صغيراً لا يملك رأياً سديداً، ولو كان ذلك الطفل فرداً أقوى لثار لهذا السلوك، ولكنّه بسبب ضعفه يتقبّل وضعه صاغراً لا رأي له، ومثل هذا الطفل لو أُتيحت له فرص كثيرة للتعبير عن آرائه لأصبح ذا شخصية قويّة، ولا شكّ أنّ فشل هذا الطفل يُحْزِن العائلة جميعها...، مع أنّ أفرادها جميعاً قد اشتركوا في الوصول به إلى هذه النتيجة السيّئة.

الاختلافات الفرديّة

يظنّ الآباء أنّهم يُحبّون جميع أطفالهم ويعاملونهم على قدم المساواة وهم لا يعلمون أنّه من المستحيل عليهم أن يفعلوا ذلك.

ولَمّا كان لكلّ طفل في الأسرة جوّه الخاص، بل إنّ هذا الجوّ الخاص يختلف باختلاف الظروف، فإنّ الأبوين تتقلّب عواطفهما في صورة غير متوقّعة تبعاً لاختلاف هذه الظروف والأحوال، فقد تسرف إحدى الأمّهات في حبّ واحد من أبنائها، ومع هذا يعوزها أن تفهمه.

وكثيراً ما كانت إحدى السيّدات تبدي ندامتها - بعد أن كبر أولادها - على ما كانت تفعل مع واحدة من بناتها، ممّا كان دائماً مثاراً للنفور بينهما، لقد كانت تلك الأم التي طُبِعَت على العجلة والعنف تحاول منذ البداية دفع ابنتها التي جُبلت على التريّث والأناة، إلى أن تسلك مسلكها، وكانت لا تعرض مناسبة تخز فيها الطفلة المتأنية في أفعالها إلاّ وخزتها، غافلة عن

أنّ هــذه هـي فطرتها التي فُطِرت عليها، وعن أنّه إذا كان للسرعة والعجلة مزيّة، فإنّ للتريّث والأناة مزايا ... ومع كلّ ما بذلَت مع الطفلة من جهود لم تتحوّل الصبيّة عن فطرتها، وذهبت نار الشّد والجذب بين الطبيعتين المختلفتين، ولم تُخلّف إلاّ شوائب النفور.

ولا شـك أنّ كلّ أبويـن يعرفان الاختلافـات الفرديّة بين أطفالهما ... ومـع ذلك فإنّهما يقعـان في الخطـأ عندما يُقدّمان لكلّ طفلٍ مـن الأطفال اللون نفسه مـن المساعدة الذي يقدّمانـه للأطفال الآخرين، جاهلين - أو مُتجاهلين - أنّ طبيعة كل طفل تختلف عن طبيعة الطفـل الآخـر، وأنّ فطرته التي فُطر عليها تحتاج إلى عـونٍ من طبيعة أخرى، ويصف أحد الخبراء الموقف بقوله: إنَّ الأب يرى أنّ علاقته بطفله هي العلاقة نفسها بين صانع الخزف والصلصـال، أكثر مـن علاقة البستاني الذي يهتـم بزهرة صغيرة...، فـإنّ في ذهن صانع الخـزف فكرة محددة على شكل الإناء الذي سيصنعه، في حيـن أنّ البستاني لا يستطيع أن يُغيّر أو يُعدّل في شكل الوردة التي يرعاها، إلاّ أنّه يستطيع أن يجعلها تنمو وردة نضرة بتوفير أسباب النضج الصحيح، أو أن يجعلها بإهماله وردة ذابلة.

وقد يصبـح الطفل المتوسّط الذكاء - إذا تعهدنا عواطفـه بالعناية والاهتمام - عضواً ناجحـاً سعيداً في المجتمع كالطفل الذي يعمل توقّد ذكائـه على ظهوره وتفوّقه، وقد يكون صحيحاً في كثير من الأحايين أن يخفق الولد حاد الذكاء بسبب عدم استقرار عواطفه... وربّما كان سبـب إخفاقه هذا أنّ أبويه وضعـا نُصب أعينهما الاهتمام بتثقيف عقله وأهملا العناية بعواطفه...، ومثل هذا الولد خليق أن يشبّ عضواً خاملاً فاسداً في المجتمع.

وقـد دلّت الملاحظات على أنّ صفـات الزّعامة تبدو على بعض الأطفال في سنٍّ مُبكّرة، فالطفل الذي يُصيب النجاح وهو في الثالثة من عمره في توجيه غيره من الأطفال، لن يلبث أن يُصبح محنّـكاً عندما يبلغ مرحلة الشّباب، وبالطّبع ليس في استطاعة الأطفال جميعاً أن يكونوا قادة و زعماء، ولكنّ واجبنا بصفتنا آباء يحتّم علينا أن نتيح لأطفالنا أكبر قدر مستطاع من فرص النجاح، لأنّ درجة اليسر والسهولة التي يتمكّن بها الفرد من اجتياز عقبات الحياة والتّغلّـب عليهـا، تتوقّف إلى حدٍّ كبير علـى التجارب التي يكتسبها وهـو طفل... وليس في استطاعة أي شاب أن يبدأ في اكتساب البراعة في العزف على البيانو أو السباحة أو ضروب الرياضة المختلفة إذا بدأ بتعلّمها وهو كبير...، في حين أنّ الولد الذي دأب والده على تدريبه على هذه الأشياء من الصّغر لن يلبث أن ينبغ فيها، وهذه القاعدة تنطبق أيضاً على الملاءمة

الشخصية، فإذا كان الأبوان بعيدي النظر حكيمين فإنّهما يُمهّدان لطفلهما كثيراً من الفرص للتجريب والتدرّب حتّى يصبح في النهاية شخصاً كاملاً.

وينبغي أن يُدرّب الأطفال على أن يتعوّدوا على المشاركة وقبول نصيبهم من العمل، كما يجب أن يعلموا مدى ما يشعر به الفرد من سعادة حين يدأب على أداء عمل شاق ويُتمّه بنجاح، ويجب أيضاً أن يفهموا في سنٍّ مُبكّرة كيف يحصل الناس على المال، وكيف ينبغي أن يعرفوا قيمته فلا ينفقوه إلاّ في السديد من وجوه الإنفاق.

وغالباً ما يُحاول الآباء أن يحموا أطفالهم من الآلام والمصاعب، ويقولوا في تفسير ذلك (سوف تواجههم هذه المتاعب عمّا قريب، فلماذا نثقلهم بالألم منذ الآن؟)... ولكنّهم مُخطئون في زعمهم هذا لأنّ الطفل الذي لم تعركه المصاعب لن يلبث أن يجرفه تيّارها، والطفل الذي لم تُتَح له فرصة حضور مناقشات الأسرة تكون فكرته محدودة تماماً عن حقائق الحياة العائلية، فالقراءة بغير إرشاد مثلاً تؤدّي غالباً إلى أن تجعل نظرة الفتاة إلى الحياة خيالية، وإذا اتّسع الخلاف بين هذه النظرة وحقائق الحياة التي لن تلبث أن تواجهها فيما بعد، فقد يؤدّي ذلك إلى أن تصاب هذه الفتاة بالغضب والسخط، أو تنسحق تحت وطأة حوادث كان ينبغي أن تسْخَر منها وتعدّها من التوافه.

والتدريب المُبكّر على ضبط النفس، وإنشاء عادات من الصبر والتّروّي، والزّمالة النافعة بدلاً من المنافسة القائمة على الغيرة، تؤدّي إلى تكوين فرد يعدّ نفسه جزءاً من المجتمع، لا قطباً ينبغي أن يدور المجتمع كلّه حوله...

ومن واجبات الأسرة التي لا يمكن نسيانها، توجيه الظواهر العاطفيّة المُبكّرة في الطفل، والعمل على تحقيق التوازن بين مختلف العواطف...

وليست العِبْرة بأن يبدأ الطفل حياته المدرسية في سنٍّ مُبكّرة، ولكن العِبْرة بأن يدخل المدرسة وقد زوّدته أُسرته بالتربية الفاضلة، والعلم الصحيح، والأسوة الحسنة، والخُلُق الكريم.

ويجب على الأبوين ألّا يدّخرا وسْعاً في الارتقاء بطفلهما إلى أسْمى مستوى تمكّنه مواهبه من بلوغه، ويجب عليهما أن يعلما أنّ الارتقاء به إلى هذا المستوى لا يعتمد على العوامل المادّية، بل إنّ للفضائل الروحيّة في هذا الشأن الفضل الأوّل والأخير.

المراجع

(١)- نشأت الشخصية: ف. س. موخينا، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨م.

(٢)- علم نفس الطفل: أ. أ. لوبليتسكايا، ترجمة: د.بدر الدين عامود، د.علي منصور، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.

(٣)- فصول في علم النفس، د.أحمد عزت راجح.

(٤)- محاضرات علم النفس العام: د.ليلى داود، كتاب جامعي، دمشق.

(٥)- نمو الشخصية: جيروم كاغان، ترجمة: صلاح الدين المقداد، مراجعة: د.عبد المجيد النشواتي.

(٦)- علم النفس، الجزء الثاني، د.فاخر عاقل، دمشق: ١٩٥٧م.

(٧)- علم النفس التربوي: تأليف: الدكتور كمال بلان، إسماعيل ملحم، خالد عبد الرحيم، مطبوعات وزارة التربية، دمشق، ١٩٨٥م.

(٨)- مدارس علم النفس، الدكتور فاخر عاقل.

(٩)- علم النفس الاجتماعي، مشكلات الطفولة، تأليف مارثين هريرت، ترجمة: يونس عبد الحميد نشواتي.

(١٠)- مشكلات الآباء والأبناء، مختار حمزة.

تقاسيم على وتر الموت / الحياة

قصة : الأرجوحة لمحمد خضير مقاماً

/ المقاربة الثانية /

د. عبد الكريم حسن

نصوصٌ غائبة

١- القرآن الكريم:

﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون﴾ (آل عمران:١٦٩).

٢- الريچڤيدا:

«سيِّدةَ الغابات، يا سيِّدةَ الغابات. أين تواريتِ؟ لمَ لا تسألين عن القرية؟ عن أحوالها؟ أفلا تجزعين؟

حين تُدوِّي الصيحاتُ العظيمةُ، وزقزقاتُ العصافير تُردِّد أصداءها، تشعر سيِّدة الغابات أنها أميرٌ يترحَّل على أصوات الصنوج.

وإذَّاك يتهيأ لكَ أن بقراتٍ ترعى، أنك تلمح كوخاً هناك، أنك تسمع صيحةً في المساء كأن عربةً تمرّ، إنها سيِّدة الغابات. واحدٌ ينادي البقرة هنا، وآخر يقطع الأشجار هناك، وثالثٌ من هنالك يصرخُ. هكذا يتراءى لمَنْ يقضي ليلته عند سيِّدة الغابات.

❀ نُشر القسم الأول من هذه المادة في العدد /٦٦٦/ من مجلة المعرفة.

سيِّدة الغابات لا تَمَسُّكَ بسوءٍ إن لم تهاجمها أنت. أنتَ بثمارها الحلوة تلتذُّ، وللراحة تستلقي على هواك.

وأنا أُمجِّدُ تلك التي تضوع منها رائحة العشب؛ تلك التي لا تزرع ولكنها دائماً تجد قُوّتَها؛ أمَّ الحيوانات البريَّة؛ سيِّدةَ الغابات».

٣- هيراقليط:

- جاء عن «ديوجين لاييرس»:

في الفقرة السابعة:

«إليك -على نحوٍ مجملٍ- ما كان عليه «هيراقليط»: كلُّ الأشياء من النار، وتصعد مرةً ثانيةً لتتحلَّ في النار. الكلُّ وفقاً للقدر يصير. وفي توافق الأضداد تَحظى بتناغمها الأشياء. الكلُّ يعجُّ بالأرواح والشياطين».

وفي الفقرة الثامنة:

«إذا ما أخذنا بالتفصيل أفكار «هيراقليط» وجدنا أن النار عنصرٌ، وأن الأشياء كلَّ الأشياء قابلةٌ للتحول إلى نار، وأنها بفضل التمدد والتكثف تولد الأشياء. على أن «هيراقليط» لا يشرح شيئاً بوضوح. كلُّ شيءٍ يولد وفقاً للتضاد، والكلُّ ينساب كما ينساب النهر؛ الكلُّ محدودٌ، والعالم واحدٌ؛ من النار يولد، ومن جديدٍ يحترق، يحترق وفقاً لما شاءه له قدره، ويحترق وفقاً لدوراتٍ محددةٍ من الأزل. ومن بين الأضداد فإن ما يقود إلى الكون يُسمَّى شقاقاً وحرباً، وما يقود إلى الحريق يُسمَّى وفاقاً وسلماً. إن التغيير طريقٌ صاعدةٌ نازلةٌ، ووفقاً لهذه الطريق ينتظم العالم».

وفي الفقرة التاسعة:

«تتكثف النار فتصير إلى رطوبة، فإذا ما انضغطت أكثر ولدت الماء... يتبلور الماء فيتحول إلى ترابٍ، وتلك هي الطريق النازلة. وعلى العكس من ذلك فإن التراب ينحلُّ ليولد منه الماء، ومن الماء تأتي بقية العناصر. إن «هيراقليط» يكاد يعيد كل شيء إلى التبخر انطلاقاً من البحر، وتلك هي الطريق الصاعدة. من الأرض والبحر تولد أبخرةٌ بعضُها صافٍ وشفافٌ، وبعضها الآخر داكنٌ، تتغذى النار بالأبخرة الشفافة، ويتغذى بما بقي ما هو رطب. و«هيراقليط» لا يشير بوضوح إلى طبيعة الغلاف السماوي على الرغم ممّا فيه من تجاويف تدير تقعراتها نحونا، وتتكتل فيها الأبخرة لتشكل الشُّعَلَ-النجوم».

- وعن «آريبسيوس»:

«كان «هيراقليط» و«هيپاز الميتاپونتي» يقولان إنَّ النار مبدأ كل شيء. وبالفعل فكلُّ الأشياء تجيء من النار، وكلُّ الأشياء - في رأيهما - تنتهي إلى النار.

وعن انطفاء النار تنتظم كل الأشياء بدءاً بالأكثر كثافةً؛ هذا الذي يتكثف في ذاته ويلد التراب. فالتراب عندما ينحلُّ بفعل النار يتحول بشكلٍ طبيعيٍّ إلى ماءٍ؛ ماءٍ يتبخر فيلد الهواء. ومن جديدٍ تلتهم النارُ العالمَ، وتلتهم معه الأجرام السماوية في الحريق الكونيِّ الكبير».

- وعن «آريوس ديديم»:

«إنَّ «زينون» في ذلك مثلُ «هيراقليط» يرى أن الروح زفيرٌ محسوس. وتوخياً منه أن يكشف عن أن الأرواح التي ترتقي تكون دائماً عاقلةً يذهب إلى مقارنتها بالأنهار: فهم غيرُهم أولئك الذين يسبحون في الأنهار نفسها، وهي غيرُها تلك المياه الجارية. على أن الأرواح أيضاً تزفر مواد رطبة».

- وعن «كليمان الإسكندراني»:

«إنَّ الموت للروح أن تصير إلى ماء. للماء أن يصير إلى تراب. من التراب يولد الماء. ومن الماء تولد الروح».

- وعن «هيراقليط النحوي»:

«إنّنا في الأنهار نفسها نسبحُ ولا نسبحُ، ونكونُ ولا نكونُ».

- وعن «بلوتارك»:

«إنّنا لا نستطيع أن نسبح في النهر نفسه مرتين، كما يقول «هيراقليط»».

٤- أفلاطون وأسطورة الكهف:

«فاستطردتُ قائلاً: والآن، إليكَ صورةً تُوضِّح الدرجات التي تكون بها طبيعتُنا مستنيرةً أو غير مستنيرة. تَخيَّلْ رجالاً قبعوا في مسكنٍ تحت الأرض على شكل كهفٍ، تُطلُّ فتحَتُهُ على النور، ويليها ممرٌّ يُوصل إلى الكهف. هناك ظلَّ هؤلاء الناس منذ نعومة أظفارهم، وقد قُيِّدَتْ أرجلُهم وأعناقُهم بأغلالٍ، بحيث لا يستطيعون التحرك من أماكنهم، ولا رؤية أي شيءٍ سوى ما يقع تحت أنظارهم، إذ تعوقهم الأغلال من التحرك حولهم برؤوسهم. ومن ورائهم تضيء نارٌ اشتعلت عن بُعدٍ في موضعٍ عالٍ وبين النار والسجناء طريقٌ مرتفع. ولْنتخيلْ على طول

هذا الطريق جداراً صغيراً مشابهاً لتلك الحواجز التي نجدها في مسرح العرائس المتحركة، والتي تخفي اللاعبين وهم يعرضون ألعابهم.

فقال: إني لأَتخيلُ ذلك.

- ولْنتصــور الآن على طول الجدار الصغير رجالاً يحملون شتى أنواع الأدوات الصناعية، التي تعلو على الجدار، وتشمل أشكالاً للناس والحيوانات وغيرها، صُنعت من الحجر أو الخشب أو غيرها من المواد. وطبيعيٌّ أن يكون بين حَمَلة هذه الأشكال مَنْ يتكلم ومَنْ لا يقول شيئاً.

فقال: إنها حقّاً لَصورةٌ عجيبةٌ، تصف نوعاً غريباً من السجناء.

- إنهــم لَيُشبهوننا. أولاً لأن السجناء في موقعهم هــذا لا يرون من أنفسهم ومن جيرانهم شيئاً غير الظلال التي تُلقيها النار على الجدار المواجه لهم من الكهف، أليس كذلك؟

- وكيف يكون الأمر على خلاف ذلك ما داموا عاجزين طوال حياتهم عن تحريك رؤوسهم؟

- كذلك فإنهم لا يرون من الأشياء التي تمرُّ أمامهم إلا قليلاً.

- بلا جدال.

- وعلــى ذلك فإن أمكنهــم أن يتخاطبوا، ألا تظنهم يعتقــدون أن كلماتهم لا تشير إلى ما يرونه من الظلال؟

- هذا ضروري.

- وإن كان هناك أيضاً صدىً يتردد من الجدار المواجه لهم، فهل يظنون، كلما تكلم أحد الذين يمرون من ورائهم، أن الصوت آتٍ من الظل البادي أمامهم؟

فقال: بلا شك.

فاستطــردتُ قائلاً: فهــؤلاء السجناء لا يعرفون مــن الحقيقة في كل شــيءٍ إلا الأشياء المصنوعة؟

- لا مفرَّ من ذلك.

- فلْنتأمل الآن ما الذي سيحدث بالطبيعة إذا رفعنا عنهم قيودهم وشفيناهم من جهلهم. فلْنفرضْــ أننا أطلقنا سراح واحدٍ من هؤلاء السجناء وأرغمنــاه على أن ينهض فجأة، ويُديرَ رأســه، ويسيرَ رافعاً عينيــه نحو النور. عندئذٍ تكون كل حركةٍ من هــذه الحركات مؤلمةً له، وســوف ينبهر إلى حدٍّ يعجز معه عن رؤية الأشيــاء التي كان يرى ظلالها من قبل. فما الذي

تظنــه سيقــول إذا أنبأه أحدٌ أن ما كان يراه من قبلُ وهمٌ باطلٌ وأن رؤيته الآن أدق، لأنّه أقرب إلى الحقيقة، ومُتَّجهٌ صوب أشياء أكثر حقيقةً؟ ولنفرضْ أيضاً أننا أريناه مختلف الأشياء التي تمــر أمامه، ودفعناه تحــت إلحاح أسئلتنا إلى أن يذكر لنا ما هــي. ألا تظنه سيشعر بالحيرة ويعتقد أن الأشياء التي كان يراها من قبلُ أقرب إلى الحقيقة من تلك التي نُريها له الآن؟

– إنها ستبدو أقرب كثيراً إلى الحقيقة.

– وإذا أرغمنــاه علــى أن ينظر إلى الضــوء نفسه المنبعث عن النــار، ألا تظن أن عينيه ستؤلمانه، وأنه سيحاول الهرب والعودة إلى الأشياء التي يُمكنه رؤيتها بسهولةٍ، والتي يظن أنها أوضح بالفعل من تلك التي نُريه إياها الآن؟

– أعتقد ذلك.

– وإذا مــا اقْتَدْناه رغماً عنه ومضينا بــه في الطريق الصاعد الوعر، فلا نتركه حتى يواجه ضوء الشمس، ألا تظنه سيتألم ويثور لأنه اقتيد على هذا النحو، بحيث إنه حالما يصل إلى النور تنبهر عيناه من وهجه إلى حدٍّ لا يستطيع معه أن يرى أي شيءٍ مما نسميه الآن أشياء حقيقية؟

– إنه لن يستطيع ذلك، على الأقل في بداية الأمر.

فاستطردتُ قائلاً: إنه يحتاج، في الواقع، إلى التعود تدريجياً قبل أن يرى الأشياء في ذلك العالــم الأعلى. ففي البداية يكون أسهل الأمور أن يرى الظلال، ثم صُوَرَ الناس وبقية الأشياء منعكســةً على صفحة الماء، ثــم الأشياء نفسها. وبعد ذلك يستطيــع أن يرفع عينيه إلى نور النجوم والقمر، فيكون تَأَمُّلُ الأجرام السماوية وقُبَّةِ السماء نفسها في الليل أيسر له من تَأَمُّلِ الشمس ووهجها في النهار.

– بلا شك.

– وآخر ما يستطيع أن يتطلع إليه هو الشمس، لا منعكسةً على صفحة الماء، أو على جسمٍ آخر، بل كما هي نفسها، وفي موضعها الخاص.

– هذا ضروري.

– وبعــد ذلك سيبدأ في استنتاج أن الشمس هي أصل الفصول والسنين، وأنها تتحكم في كل ما في العالم المنظور، وأنها، بمعنىً ما، عِلَّةُ ما كان يراه هو ورفاقه في الكهف.

– الواقع أن هذا ما سينتهي إليه بعد كل هذه التجارب.

- فـإذا مـا عاد بذاكرته بعد ذلك إلى مسكنه القديم، وما كان فيه من حكمةٍ، وإلى رفاقه السجناء، ألا تظنه سيغتبط لذلك التغيير الذي طرأ عليه، ويرثى لحالهم؟

- بكل تأكيد.

- فـإذا ما كانت لديهم عادةُ إضفاء مظاهر الشـرف والتكريم بعضهم على بعضٍ، ومنح جوائز لصاحب أقوى عينين تريان الظلال العابرة، وأقوى ذاكرةٍ تستعيد الترتيب الذي تتعاقب به أو تقترن في ظهورها، بحيث يكون -تبعاً لذلك- أقدرهم على أن يستنتج أيُّها القادم، أتظن صاحبنـا هـذا تتملكه رغبةٌ في هذه الجوائز، أو أنه سيحسد مَـن اكتملت لهم ألقابُ الشرف ومظاهرُ القوة بين أولئك السجناء؟ ألن يشعر بما شعر به أخيل عند هوميروس، من أنه يُفضِّل ألـف مـرةٍ أن يكون على الأرض مجرد خـادم أجيرٍ عند فلاحٍ فقيـرٍ وأن يتحمل كل الشرور الممكنة، ولا يعود إلى أوهامه القديمة أو العيشً كما كان يعيشً من قبل؟

فقـال: إنـي أوافقك على رأيكَ هـذا، فخيرٌ له أن يتحمل أي شيءٍ مـن أن يعود إلى تلك الحياة»...

❀❀❀

عن الغياب

ولسـتُ أزعـم أن العلاقة بين «الأرجوحـة» والنصوص الغائبة علاقة بُنُـوَّةٍ مباشرة. كما لا أزعـم أن تلـك النصوص تستنفد الأبـوَّة. فالنص يبقى يتيماً مهما حاولنـا -نحن نسَّابي التناص- أن نقفوَ آثار آبائه الأولين.

إن الطِّرْس «palimpseste» -على مـا يقول «جيرار جينيـت»- «رَقٌّ كُشطتْ عنه كتابته الأولـى لتُستبدل بها كتابةٌ أخرى من دون أن يُفضي هذا إلى محو الكتابة الأولى؛ الأمرُ الذي يسمـح لنا -وعلى سبيل الشفافية- بقـراءة النص القديم تحت النص الجديد. وتكشف هذه الحالـة -مجازاً- أن فـي وسع النص دوماً أن يُخبِّئ نصّاً آخر نـادراً ما يُخفيه بشكلٍ كاملٍ، وأن النصـ غالباً ما يحتمل قراءةً مزدوجةً يتراكب فيها النص اللاحق «hypertexte» والنص السابـق «hypotexte» كما في قولنا «أوليس جويـس» أو «أوديسا هوميروس». وأعني بالنص اللاحـق كل الأعمال المنحدرة من عملٍ سابقٍ عن طريق التحول كما هي الحال في المحاكاة «parodie»، أو عن طريق المحاكاة الساخرة كما هي الحال في الـ«pastiche».

علـــى أن المحاكاة والمحاكاة الساخرة ما همـــا إلا ظهوران من الظهورات المرئية والأكثر هامشيةً لهذه التناصية اللاحقة. ففي وسع النص دوماً أن يقرأ نصّاً آخر، وهكذا دواليك إلى آخـــر النصوص. ونصُّنا هذا لا يخرج عن القاعدة، بل هـــو يشرحها ويشرح نفسه بها. وحقّاً، فإنه يقرأ كثيراً مَنْ يقرأ أخيراً».

و«الأرجوحـــة» ككل نصـــِّ طَرْسٌ آخر، أو قُـــلْ مجموعةٌ من الطروســـ الصغيرة التي كُتب عليهـــا وكُشِط عنها ما لا حصر له مـــن النصوص. كلُّ نصٍّ من النصوص الممحوَّة أبٌ ضائع. و«الأرجوحـــة» التي بين أيدينا تعاني مـــن يُتمها، تبحث عن آبائها وتحفزنا إلى التأمل في يُتم النص. «يُتْمُ النص» عبارةٌ أطلقها الفيلسوف الأول الحكيمُ، وأخذها عنه لينقضه فيها «جاك ديريدا» واضعاً المسألة برمَّتها في حقل المكتوب، لا في حقل المقول.

ولْيكـــنْ، أن أكون الوصيَّ على النصّ، وأن أخرج بـ«الأرجوحـــة» من اليُتْمين؛ يُتم «ديريدا» ويُتم «الحكيم» إلى يُتمٍ آخر هو يُتم التناص.

علـــى أننا لن نأخـــذ أنفسنا بما يريد «جينيت» أن يأخذنا به علـــى الرغم مما في مأخذه مـــن أهميةٍ بنيويةٍ تخصُّ محـــو الكتابة وكتابة المحو. فأطراس «جينيـــت» أطراسٌ أجناسيَّةٌ؛ كتابـــةٌ لجنسٍ على جنسٍ، أما أطراس «بارت» فنصوصٌ مُتناصَّـــاتٌ؛ كلُّ نصٍّ عنده «مُتناصَّةٌ» «intertexte»، أو قـــلْ على لسانه «في كل نصـــٍّ تحضر نصوصٌ أخرى على مستوياتٍ متفاوتةٍ وتحت أشكالٍ يمكن التعرف إليها بهذا القدر أو ذاك؛ وتلك هي نصوص ثقافةٍ سبقت، ونصوص ثقافـــةٍ حافَّـــةٍ بها. كلُّ نصٍّ نسيجٌ جديـــدٌ لاقتباسات سلفتْ. في النص تتســـرَّبُ، وبعد إعادة توزيعها، قطعٌ من رواميز، صيغٌ، نماذجُ إيقاعيةٌ، شذراتٌ من لُسُنٍ اجتماعية، ففي النص دوماً شيءٌ من اللسان، وحول النص دوماً شيءٌ من اللسان».

ويضيـــف «بارت» أن التناصية التي هي شرط كلّ نصٍّ أيّاً كان لا تُختزل في قضية مصادر أو تأثيرات. فالمُتناصُّ حقلٌ عامٌّ من الصيغ مجهولة الهُويَّة قلَّما أمكن تعيينُ أصلها، حقلٌ عامٌّ من الاقتباسات اللاواعية، والآلية التي تُعطى للنص من دون أهلَّة».

من دون أهلَّةٍ أو من دون أقواس، نصوصٌ اقتباساتٌ لا حدود لها، وتلك هي حال نصوصنا الغائبة.

– أول هـــذه النصوص النصُّ القرآنـــي الكريم. أما كيف دخل هذا النص إلى «الأرجوحة» فلنهتـــدي بما أسلفنا به حديثنا عن «بارت». أليس النصـــ القُرآني جزءاً من الثقافة السائدة بعيـــداً عـــن الخوض في قرب صاحب «الأرجوحة» منه أو بُعده عنـــه؟ أليس كلُّ مَنْ يعيش في

الوسط الذي يعيش فيه صاحب «الأرجوحة» يعيش النص القرآني، أو يعيش معه النص القرآني سواء كان مؤمناً أم ملحداً، مسلماً أم غير مسلم؟

- أمـــا عن الـ«ريچڤيدا» وكيف تسرَّبَ منها إلى «الأرجوحة» ذلك النشيد العتيد وإن بشكلٍ غير واعٍ، فإننـــا نجد الجواب في «تحولات القصص العجيب» لـ«ڤلاديمير پروپ»؛ في تحول الأسطـــورة إلى قصة عجيبة؛ فـــي المقارنة التي يعقدها «پروپ» بيـــن قصص الـ«بابا ياغا» ونشيدٍ من الـ«ريچڤيدا» مُوَجَّهٍ إلى «سيدة الغابات».

وعن حلقة الوصل الضائعة بين نصَّي الـ«ريچڤيدا» والقصص السلافية التي حللها «پروپ» مـــن جهـــةٍ، ونصِّ «الأرجوحة» التي لا علاقة لها بهاتين الثقافتيـــن من جهةٍ أخرى، فإن «لودا شنيتزر» تقدمها لنا فيما كتبته عن الـ«بابا ياغا» حين تشير إلى ما يقوم به البطل ولاسيّما في القصصـــ الجورجية التي تستلهم الإســـلام. فالبطل -فيما تقول- يلمس ثدي الغولة ويناديها «أمي»، فتجيبه: لو لم تفعل ما فعلتَ لالتهمتُك».

ونحـــن نجد هذا «الحَركَ» «motif» نفسه في القصص التونسي العجيب إذ يرتمي البطل «محمـــد ابـــن السلطان» على الغولة، ويقـــول لها: «جئتُك داخلاً علـــى بَزُّولة (ثدي) عمر ابن الغولـــة»، فتجيبه: «لـــو لم يكن سلامُك سبق كلامَكَ لكنتُ التهمـــتُ لحمكَ في لقمة، وشربتُ دمكَ في جُغمة (جرعة)».

- وعـــن «أسطورة الكهف» للحكيم، وما تسرَّب منهـــا إلى «الأرجوحة»، فإنه ما تسرَّب إلى ثقافتنـــا العامة قديمها وحديثها على حدٍّ سواء. إنه مفهوم الإشراق، لا بحمولته الاصطلاحية الدقيقـــة؛ أعني المعرفة التي لا تتوسل العقل للوصول إلـــى موضوعها، بل بمعناه السائد من كشفٍ وتجلٍّ ورؤيا وكل رواسب وتحوُّلات قول «الغزالي»: «نورٌ قذفه الله في صدري».

- وأخيـــراً، فإن ما ذاع في ثقافتنا عن «هيراقليط» هو مـــا تسرَّب إلى «الأرجوحة»، وهو قوله الذي اشتُهر به وما زال: «المرء لا يسبح في النهر نفسه مرتين».

❁❁❁

غيـــابٌ وحضور. النصُّ حضورٌ للغيـــاب، وحضورٌ إلى غياب. النصـــُّ فسيفساء الحضور والغياب. النصُّ مقبرةٌ من النصوص... محوٌ وكتابةٌ على محو. النصُّ إنتاجٌ جماعيٌّ، والتناصية هي هذا الفضاء المفتوح الذي يُغوينا ويُغرينا بارتياده حتى الغياب.

❁❁❁

عزفٌ منفرد

«سيِّـــدةَ الغابات، يا سيِّـــدةَ الغابات. أين تواريتِ؟ لمَ لا تسألين عـــن القرية؟ عن أحوالها؟ أفلا تجزعين؟

حيـــن تُدوِّي الصيحاتُ العظيمةُ، وزقزقاتُ العصافير تُردِّد أصداءها، تشعر سيِّدة الغابات أنها أميرٌ يترحَّل على أصوات الصنوج.

وإذَّاك يتهيأ لكَ أن بقراتٍ ترعى، أنك تلمح كوخاً هناك، أنك تسمع صيحةً في المساء كأن عربة تمرّ، إنها سيِّدة الغابات. واحدٌ ينادي البقرة هنا، وآخر يقطع الأشجار هناك، وثالثٌ من هنالك يصرخُ. هكذا يتراءى لمن يقضي ليلته عند سيِّدة الغابات.

سيِّـــدةُ الغابات لا تَمَسُّكَ بسوءٍ إن لـــم تهاجمها أنت. أنتَ بثمارها الحلـــوة تلتذُّ، وللراحة تستلقي على هواك.

وأنا أُمجِّدُ تلك التي تضوع منها رائحة العشب؛ تلك التي لا تزرع ولكنها دائماً تجد قُوّتَها؛ أمَّ الحيوانات البريَّة؛ سيِّدةَ الغابات».

«سيِّدةُ الغاباتِ»، سيِّدة المكان. «الريـﭬـفيـــدا» ذاكرتُها، و«الأُرجوحةُ» مقامُها، والمكان... تفضي إليه جادَّةُ السكون التي ينذر سكونُها بسكينة الموت.

«علـــى جادَّة السكون المظلَّلة بمراوح السعف كان فتـــىً حليقُ الرأس يتحرَّك فوق درَّاجته الخفيفـــة، كالنائم، بين جدولٍ واطئٍ مزبدٍ بخيوطٍ تشبه رغـــوة الصابون إلى اليسار، وجدارٍ واطئٍ من الطين إلى اليمين».

جدولٌ واطئٌ من شمالٍ، وجدارٌ واطئٌ من يمينٍ، وبينهما جادَّةٌ مظلَّلةٌ بمراوح السعف.

جادَّةٌ مظلَّلةٌ ضيِّقة محصورةٌ هي أو محاصَرةٌ... وترتسم لعينيَّ صورةُ النفق.

جادَّةٌ نفـــقٌ... ينتهي النفق بحاجزٍ أولٍ من «أسلاكٍ شائكةٍ تمتدُّ يميناً ويساراً مثبَّتةٍ بأوتادٍ حديديةٍ، وبابٌ نصفُ مفتوحٍ من هذه الأسلاك». ويفضي الباب إلى «جادَّةٍ ضيِّقةٍ زحفت عليها الأدغال الكالحة».

جادَّةٌ ضيِّقةٌ تفضي إلى جادَّةٍ أضيق، ونفقٌ ضيقٌ يفضي إلى مكانٍ أضيق. الضيق الأول ضيقٌ معتمٌ، والضيق الثاني ضيقٌ كالح. الأول مكانٌ مظللٌ بمراوح السعف، والثاني زحفتْ عليه الأدغال

الكالحـــة. العتمة تَدَرُّجٌ في انحسار الضوء، والثاني عتمةٌ تَدَرُّجٌ في العتمة النفسية... ضيقٌ في النفس... ﴿كلَّا إذا بَلَغَتِ التَّراقي ۞ وقيلَ مَنْ راقٍ ۞ وظنَّ أنه الفِرَاق﴾ (القيامة: ٢٦-٢٨).

نفقٌ... ونفقٌ برزخٌ... وفتىً يعبر النفق مغمض العينين.

الفتى «حليق الرأس يتحرك فوق درَّاجته الخفيفة كالنائم». و«كالنائم، لا يسمع صوتاً حتى لعجلتَـيّ درَّاجته وهما تـــدوران على غبار الجادَّة الناعم». «وثانيةً حـــلَّ في رأسه ذلك الغفو المريح حين امتطى درَّاجته، وتشرَّب بالسكون ذي الرائحة الساخنة».

فـــي كل مرَّةٍ يمتطي الفتى الدرَّاجة يغلبـــه النوم. يلتصق بها فيكون كالنائم ميتاً، وينفصل عنها، فتعود إليه الحياة. يلتصق بها فلا يسمع صوتاً، ويرى الأشياء، ولا يرى الأشياء، وإنما يرى صور الأشياء. ويتصل بها فتعود إليه الحياة... يعود إلى الحياة... «يشعرُ بالجوع»... «يأكلُ»... «يشربُ»... «يغسلُ يديه»... يُبلِّلُ رأسه الحليق». «ومن عينيه يراقب بعينيه المغمضتين انفصال أجزاء درَّاجته على التراب».

في البداية، كان يرى من ثقوب الجدار. وهو الآن، يرى بعينين مغمضتين. في البداية كان لا يسمع، والآن أصبح لا يرى. وحين كان يرى، كان يرى على نحوٍ آخر، على نحوٍ غير مباشر.

وأنـــا أرى عالمـــاً يتزاحم فيه العبور مـــن عالمٍ إلى آخر؛ نومٍ يقظـــةٍ، حقيقةٍ خيالٍ، واقعٍ لا واقعٍ... واقعيَّةٍ سحريَّة.

في الشعر، أنت تنتقل من الحقيقة إلى المجاز بأدواتٍ بلاغية. في الواقعيَّة السحريَّة، أنت تتقلَّب بين العوالم لا تَحوجُكَ هذه الأدوات.

نفـــقٌ برزخٌ... وروحٌ على درَّاجة. الدرَّاجة تحمـــل حياتين روحين. فتىً كالنائم يجتاز نفقاً كالبرزخ، و«حقيبةٌ معلَّقةٌ» بمقودها تنطوي على حياةٍ متحفِّزة.

حياتـــان روحان، ودرَّاجةٌ راحلـــةٌ للروح، وفتىً ينتظر العبور إلـــى الضفة الأخرى مغمض العينين لا يرى، وحين يرى تسطع الشمسُ في عينيه، ولا يرى.

حياتـــان روحان، وحاجزٌ أول أصبح إلى الوراء، من حيـــث قام حاجزٌ آخر سيجتازه الفتى بإذنٍ من سيِّدة المكان.

الجــادَّة الضيِّقة تُفضي إلــى سقيفةٍ من أشجار الكروم. عبوسُ الأولى يتناغم مع عتمة الثانيــة. وفــي الضفَّة المقابلة خضرةٌ واطئــةٌ قامت بينها غرفتان مــن الطين، وسقيفةٌ من القصب، وتَنُّور.

الحاجــز الأول أسلاكٌ شائكةٌ، وبابٌ منهــا نصف مفتوح. والحاجز الآخر نهرٌ سيجتازه الفتى راجلاً علــى قنطرة. «كان منهمكاً في غفوةٍ بمراقبة الحيــوات المتحفِّزة المتخفِّية فــي منخفضَي الأعشاب: حياةِ كرات نبات (الخرنــوب) اليابسة، حياةِ أثمار الأعذاق غير الناضجــة، حياةِ بويضات أحياء الجداول، ثم الحياة الأكثــر غموضاً وتَحَفُّزاً في الحقيبة المعلَّقة بالمقود».

حيواتٌ متحفِّزةٌ للانبعاث. ولكن الأكثر غموضاً وتَحَفُّزاً هو ما في الحقيبة المعلَّقة بالمقود. فالحقيبــة فيها حياةٌ بذرةٌ... بذرةٌ حياةُ شهيدٍ لم تشهدْ بعدُ حياتَها في الضوء... ﴿**يُخْرِجُ الحيَّ من الميت ويُخرج الميتَ من الحيِّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تُخْرَجون**﴾ (الروم:١٩).

يقينُكَ صفحةٌ من بياضٍ يا فتى، ولكنْ... هل يطمئنُّ القلب؟

«فجــأةً حدث هجومُ الحيوات المختبئة وكادت تُلقي بالفتى في الجدول».. فهل لقلبكَ أن يطمئنّ؟

«أسنــد الفتــى الدرَّاجة إلى جذع نخلة، ثــم عبر قنطرة أنصاف جــذوع النخل المُغطَّاة بالتــراب المتماسك، وفي أثنــاء عبوره الحَذِر شاهد طيور الحمام تخــرج من صفائح التنك المثبَّتة مع ضلعي الغرفتين وفي زاوية التقائهما».

و«غيرَ التنور كانت شجــرةٌ عاليةٌ عند الضفَّة، وثلاثُ نخلاتٍ طويلاتٍ، ربطتْ بين اثنتين منهما أرجوحةٌ، تحاول الطفلة التي خرجت من الغرفة الصعود إلى حمَّالتها».

عبورٌ حَذِرٌ... خطواتٌ مهدَّدةٌ بالسقوط.

عبورٌ حَذِرٌ... ولكن الضفَّة الأخرى بانتظار الفتى. في الضفَّة الأخرى تحطُّ راحلة الفتى. فــي العالم الآخر يتحوَّل الموت إلى حياة. تتفتَّح الخضرة الواطئة... يلتهب التنُّور... تنتصب شجــرةٌ عاليةٌ، وثــلاثُ نخلاتٍ طويلاتٍ وحياةٌ متحفِّزةٌ في حقيبــة. الحقيبةُ معلَّقةٌ في مقود الدرَّاجة، والدرَّاجة ما زالت في الضفَّةِ الأولى، والفتى في حضرة «سيِّدة المكانْ».

❁❁❁

«سيِّدةُ المكان»

- امرأةٌ «ملفوفةٌ بالسواد».

- تقف «خلف التنُّور الملتهبِ».

- يناديها الفتى الحليق «يا أمي».

- «وجهها مُلوَّحٌ باللهبِ».

- «تمشي الهوينى وتقطع ساحة البيت نحو السقيفة ينسحب ذيلُ ثوبها الأسود على الترابِ».

- وتتبعها «دجاجةٌ جاءت راكضةً من وراء السقيفة، وكان الحمام يُحلِّق في سماء البيت أو يلتقط ما يجده في ساحته».

- ونظر الزائر إلى «امرأة التنُّور التي كانت تُعِدُّ العجين».

- «ومن خلال القطرات التي تقفز أمام عينيه وتُمَوِّه نظرَهُ شاهدَ المرأةَ تقف وسط التنُّور كجذعٍ متفحِّم».

- وحين وصل إلى التنُّور رآها «تخبز العجين بين راحتيها وتَمُدُّه على قرص قماشٍ أسود وتنحني لتلصق الرغيف اللدن داخل جدار التنُّور المحدَّب الساخن وكأنها ستتقصم وتتفتت رماداً في إحدى حركات أعضائها المتمهِّلة».

- وتَمهَّلَ كي يتأكد «كيف تضيع عيناها في وجهها المتضائل ويكاد يختفي فمها في سكونها المريب كجذعٍ فحمٍ لن يقوى على الوقوف حتى يتبدَّد».

«سيِّدةُ المكان» امرأةٌ ملفوفةٌ بالسواد، أشْبَهُ بجذع نخلةٍ متفحمٍ، حركاتُ أعضائها متمهِّلةٌ، وتنحني... كأنها ستتقصم وتتفتت رماداً.

«سيِّدةُ المكان» لا يكتمل وصفُها بالجسد، بل بما يؤدِّيه هذا الجسد.

- «وجاءت الجدَّة العجوز تحمل رغيفاً. ألَمْ تجوعا؟ كُلَا بانتظار الغداء حين يأتي جدُّها، وسأصعد لأطعم الحمام».

- «قسمت الرغيف الساخن بينهما، وطلبا منها أن تهزَّهما قبل أن تصعد إلى السطح».

قسمت الرغيف بين الفتى وحفيدتها ابنة ابنها المعلَّق في حقيبةٍ معلَّقةٍ في مقود الدرَّاجة. معلَّقٌ هو «عليٌّ»، مُعَلَّقٌ خَبَرُهُ... خَبَرُهُ ما زال متحفِّزاً للخروج... هو لم يخرج من الحقيبة بعد.

ولـــن تستدعي عملية الخبـــز من أيِّ امرأةٍ ما استدعته من المرأة العجوز. حركاتٌ متمهِّلةٌ تترك شعوراً بأن صاحبتها تكاد تنقصم إلى اثنتين.

ويُراوح القارئ بين صورتين للمرأة العجوز؛ صورةٍ من آلة تصويرٍ لامرأةٍ «ملفوفةٍ بالسواد»، وصـــورةٍ من غشاوةٍ في عيني الفتى. «فمن خلال القطرات التي تقفز أمام عينيه وتُمَوِّهُ نظرَه شاهـــد المرأة تقف وسط التنُّـــور كجذعٍ متفحِّم». وسيّان أن تكون الغشاوة من ماءٍ أو سواه، إن الصـــورة المعروضة صورةٌ ذاتيةٌ انطبعتْ في ذهـــن الفتى، وانطبعتْ معها صورة الوهن الذي لا نعرف إن كان حقيقياً، أو كان منعكساً من غشاوةٍ في العينين.

وَهَـــنٌ وقوةٌ لا يلتقيان، «بينهما برزخٌ لا يبغيـــان»؛ إذ كيف يستوي الوَهَنُ وهَزُّ الأرجوحة في مقامٍ واحد؟

«أأستطيـــع هزَّكما؟» تساءلت العجوز. ولكنَّ على الأمِّ، وقد شارفت على الرحيل، أن تُخلي المكانَ للحفيدة كي تكون هي الوَلُود. وما هي إلا دفعةٌ من العجوز، وإذا بالحبال تتحرَّك على مهلٍ، وبالأرجوحة تطير.

عجوزٌ... جذعٌ متفحمٌ.

عجوزٌ... جسدٌ يكاد ينقصم اثنين.

عجوزٌ... ولكنها العجوزُ «سيِّدةُ المكان».

«سيِّـــدةُ المكان»؛ سيِّدةُ الغابـــات، ترعى كل الحيوات، تخبز العجيـــن بين راحتيها. تخبز للحاضـــر والغائب من ذويها. تحمـــل للضيف أقداح اللبن بيديهـــا. الدجاجاتُ تتبعها. وفوق رأسها يطير الحمام.

حياةٌ ترعى كل الحيوات. حياةٌ مكرَّسةٌ لحياتك. «أنتَ بثمارها الحلوة تلتذُّ، وللراحة تستلقي على هواك». وأنا «أمجِّدُ تلك التي تضوع منها رائحة العشب».

– «يا أمي وَلَدُكِ قد...».

وتيبَّست الكلمات على شفتي الفتى، و«التفتَ إلى الحقيبة المعلَّقة في المقود، وتطلَّع إلى البيت وإلى السطح وإلى مجرى النهر وإلى وجه المرأة الملوَّح باللهب، وقالت المرأة الملفوفة بالسواد:

– «أهذه حقيبته؟».

- «هذه؟... لا، حقيبتي».

خبرٌ مقطوعٌ، وآخر مقلوب. العجوز تنتظر رسالةً من ولدها، ترى حقيبةً ولا يخطر ببالها، وربما خطر، أن الحقيبة تنطوي على ما تنطوي عليه. وأشفق الفتى على شيخوختها، أمومتها، وأجاب: «لا، هذه حقيبتي».

خبرٌ مقلوبٌ، وقبله خبرٌ مقطوع... خبرٌ يرفضه عالم الأم... عالمُها لا يتَّسع له... لا مكان لــه في هذا العالم، أو هذا المحيط. خبرٌ لا يتقبَّله قلبُها فينقطع، وتتحوَّل الحقيبة من حقيبة الغائــب إلى حقيبة الشاهد؛ من حقيبة «المرسِل» إلى حقيبــة الرسول. التمَّت الحقيبة على نفسهــا... نفت نفسها... لم تُخرج ما في داخلها، وبقيت بيضةً مغلقةً على نفسها في حقيبةٍ أخــرى لشخصٍ آخــر. وستبقى العجوز إلى النهايــة صمَّاء تجاه المــوت - الشهادة؛ صمَّاء كالجدارِ، مُهمَّتُها الإطعام.

وتسأل العجوز: «أين أنتم الآن؟»، و«متى سيحصل ابني على إجازة؟». ويسايرها الفتى.

- «إجازة؟ قريباً. ربما في الشهر الذي يأتي. ألم تسمعوه في الإذاعة؟

- لا. ترك راديوه الصغير هنا، ولكن لا أحد يفتحه. دعني أُقدِّم لكَ شيئاً».

الضفَّــة الأخرى مقطوعةٌ عن العالــم الخارجي. ولكن الفتى ما زال يحاول الدفع بالحياة المتخفيِّــة إلى عالم النور. فـ«علــيٌّ» صديقُهُ، ويعرف عنه كثيراً. يعرف أن له أباً وأمّاً وطفلةً، وأن لــه طيــوراً، وأنه حَدَّثهُ عن كل ذلك؛ عن الأرجوحة؛ شجــرة البمبر؛ ولكنه لم يُحَدِّثْهُ عن النهر، وعن سباحته في النهر.

النهــر هو الوسيط بين العجــوز وابنها «عليّ». «كان عليٌّ يسبح فــي النهر»، وكانت ابنته «تتطلَّع إليه ويصعب عليها الوقوفُ داخل الأرجوحة».

وسيغطس الفتى في النهر لعله يَخرُج منه «عليّاً». ولكن «هيراقليط» يؤكد لكَ أنك لا يمكن «أن تسبــح فــي النهر نفسه مرَّتين». ولكنَّ العجوز ليست هــي التي طلبتْ من الفتى السباحة فــي النهر، بل هي «حليمــةُ»، ولكنَّ... ولكنَّ العجوز هي التي أعلنت العلاقة بين ابنها والنهر، فـ«عليٌّ» وحده صاحب النهر مهما حاول الفتى أن يَخرُج منه «عليَّاً».

ومسَّ قاعَ النهر بقدميه، ووقف في مكانه أمام التنُّور:

- «أتعرفين يا أمي؟ أنا هنا كما لو كنتُ إياه...

وتَمَهَّلَ كي يتأكد كيف تضيع عيناها في وجهها المتضائل، ويكاد يختفي فمُها في سكونها المريب، كجذع فحم لن يقوى على الوقوف حتى يتبدَّد.

– لقــد أحببــتُ المكان. انظري إليَّ كأني هو الذي يسبــح ويحادثك الآن. لا تَدَعي غيابَهُ يهمُّكِ كثيراً.

– قالت امرأة التنُّور كلماتٍ لم تنتهِ، محترقةً مختلطةً، انطفأتْ في النهر».

كلمــاتٌ لم تنتهِ... جملةٌ لم تكتملْ. كلمــاتٌ محترقةٌ... أمٌّ، إحساسٌ بالفَقْدِ ممزوجٌ بحرقة الغياب. وفتىً يحاول أن يكون «عليّاً»، ولكن محاولته منذورةٌ للفشل. لا الفتى قادرٌ على أن يكون «عليّاً»، ولا الأم تقدر أن تكسر شعوره العفوي البريء. وتبقى رسالة الفتى معلَّقةً في الفضاء. رسالةٌ لا تتلقَّاها الأم لأنها لا تستطيع أن تتلقاها. فالعجوز أُمٌّ، والأم لن تتمثل أحشاؤُها مفهوم الشهــادة مهما زغردتْ أمهاتُ الشهداء. العجوزُ أمٌّ ستبقــى تتمزق وإن استسلمت وأسلمت... تتمزَّق لفَقْدِ ابنها... ضناها... ابنِها... وَجَعِها الذي ولَدَتْهُ في الوجع، حَمَلَتْهُ كَرْهاً، ووضعته كَرْهاً، واحداً أحداً، لا يخرج من نهرها مرَّتين.

❀❀❀

يُخفق الفتى في إيصال رسالته إلى العجوز، ولكنه لا يفقد الأمل في إيصالها إلى الحفيدة، فالنهر ما زال في مكانه، والنهر هو الرباط.

النهر هو الرباط بين الرماد – التراب، والدخان – الهواء.

دخانٌ... نارٌ، وترابٌ، وماءٌ، ومقالةٌ عجبٌ ما جاء عن «هيراقليط» وعلاقة العناصر واحدِها بالآخر، وتحَوُّلاتها أحدها إلى الآخر.

فلْنقرأ عليكَ «إن النار مبدأ الأشياء ومنتهاها»... أصلُها وغايتُها.. إنه «من انطفائها يولد ترتيــب الأشياء»... «إن الأشدَّ كثافةً من بين الأشياء يتكثــف ويلد الترابَ»، «إن التراب بفعل النـــار ينحلُّ متحوِّلاً إلى مـــاء»، و«إن الماء بتبخُّره يلد الهواء». «ومن جديدٍ، فإن العالم تلتهمه النارُ، وتلتهم معه الأجرام السماوية في الحريق الكونيِّ الكبير».

ولْنقرأ من «الأرجوحة» ما دار بين الفتى والطفلة من حوار:

«أحــاط عجيزتها داخل الحمَّالة ودفعها، فافتقدها فــي الشمس، واحتواها حين عادت، مُوقفاً حركة الأرجوحة:

- كيف أنتِ يا حليمة؟

- لماذا أوقفتَها. كانت دفعةً جيدةً، ولم يهزَّني أحدٌ كذلك.

وذابت ثانيةً في الشمس، وعادت تضع رأسها على عَضُدِ ذراعها الممدودة ساكنة الوجه وقد أغمضتْ عينيها.

ذابت «حليمةُ» في الشمس. الشمسُ «غمرتها»... «أعمت» عيونَها الشمسُ... وهو ذا «الحكيمُ» يقرع علينا الباب، ونفتحه له نحن الذين ما انفككنا نطمح إلى الارتقاء على «طريقه» الصاعدة، ونصغي إليه وهو «يستطردُ»:

«فلْنفرضْ أننا أطلقنا سراح واحدٍ من هؤلاء السجناء وأرغمناه على أن ينهض فجأةً، ويُديرَ رأسه، ويسيرَ رافعاً عينيه نحو النور. عندئذٍ تكون كل حركةٍ من هذه الحركات مؤلمةً له، وسوف ينبهر إلى حدٍّ يعجز معه عن رؤية الأشياء التي كان يرى ظلالها من قبل...».

نفتح لـ«الحكيم» الباب، فـ«الديرةُ ديرتُه» كما يقول العرب، وأهلها تلامذته. و«حليمةُ» و«السجينُ» كلاهما يُغشّي النورُ بصرَه فلا يرى. الخارجُ فجأةً من ظلام الكهف إلى نور الشمس لا يرى. و«حليمةُ» التي «تذوب» في الشمس «تُعمي» عيونَها الشمسُ ولا ترى. كلاهما ينبهر بالنور، وكلاهما يجد نفسه مدفوعاً بقوةٍ إلى النور. هو لم يعدْ يرى الأشياء الماثلة أمامه، ولا يرى حتى ظلالها التي كان يراها من قبل. وهي... «كانت دفعةً جيِّدةً» لم ترَ مثلها من قبلُ... و«ذابتْ» في الشمس.

ذابت «حليمةُ» في الشمس، ولكنها تَعوَّدتْ... عوَّدتْ نفسها، وعوَّدها الفتى على أن تُغمض عينيها لترى. والحكيمُ عوَّد «سجناءه» -بالرياضة- على الارتقاء على الطريق الصاعدة، وعوَّدهم على الاقتراب من العالم العُلويِّ، والدخول فيه، ورؤية الأشياء على حقيقتها.

و«حليمةُ» تدخل عالم الأرواح، فترى أباها، تراه... لا مفتوحة العينين، بل تراه يمشي نحوها... نحوها حليقاً كالفتى، يُؤرجحها، ولا سلامَ ولا كلام.

- أرى أبي. ها هو ذا يؤرجحني في حضنه، ولكنه لا يتكلم كالأخرس. حلق شعر رأسه مثلكَ، وكأني غريبةٌ عنه فهو لا يعرفني ولا يتكلم معي أبداً. ثم فتحت عينيها وقالت:

- أين ذهبَ؟ كان معي يؤرجحني.

- لقد اختفى الآن. حين تفتحين عينيكِ يختفي.

- أين؟

- لنبحثْ يا حليمة. أتَسَلَّقَ النخلة؟ كلَّا. وإلا رأيناه. هل غاص في الماء؟ لا. وإلا اختنق إذا ما بقي طويلاً تحت الماء. آه. أتعرفين أين؟ في تلك الحقيبة... أتَرَيْنَها يا حليمة.

- أيةُ حقيبة؟

- تلك في الضفَّة الأخرى. الحقيبةُ المعلَّقة في الدرَّاجة.

- الحقيبة الصغيرة؟ كيف تَسَعُ جسدَه؟

- ولكنه كالدخان. تَذَكَّري يا حليمة إنه كالدخان».

آنَ للحقيبة أن تُفتَّق أزرارها. آنَ لها هي الصغيرة المعلَّقة أن تترجَّل... هي التي تنتظر على الضفَّة الأخرى أن تستريح... أن تدخل رحاب «سيِّدة الغابات».

وحليمةُ تستقرُّ في حضن الفتى الذي استقرَّ في حمَّالة الأرجوحة.

الأرجوحة كالدرَّاجة، كلتاهما راحلةٌ للروح. تتأرجح الطفلة فتحفر لها نفقاً في الهواء وتصل إلى أبيها.

«حليمةُ» طفلةٌ في السادسة من العمر، رقبتها نحيفةٌ، وشَعرُها قصيرٌ عليه آثار حنَّاء.

رقبةٌ نحيفةٌ... جسدٌ هشٌّ. وطفلةٌ تعرف أن أمها ترعى البقرات، وأن أباها جنديٌّ، وأن جدَّها كان جندياً في يومٍ من الأيام.

وطلبت الطفلة من الفتى أن يهزَّ أرجوحتها... أن يهزَّها حتى تطير.

تطير «حليمة»، وتشاهد أباها دخاناً. تطير، وتحملها الأرجوحة إلى عالم الأرواح. تطير، وتَحْضُرُ صورةُ الطائر الذي شاءتْ الأسطورةُ أن ينقل الروح؛ يطوي بها الطريق في ظلام الموت.

و«حليمةُ» «لم تنمْ في مهدٍ أبداً. سرعان ما كانت تغفو في هذه الأرجوحة. ستُّ سنواتٍ وهي تنام فيها». الأرجوحة عالمها الذي قضت فيه سنواتها الستّ. ومن الأرجوحة التي تنام فيها كانت «حليمة» تراقب أباها وهو يسبح في ماء النهر. «حليمةُ» تخاف من الماء؛ الماءُ يوحي لها بالغرق.

أبوها يسبح في النهر، ولا تحمرُّ عيناه. يسبح... تسحرها سباحتُه... مرَّةً على بطنه، ومرَّةً على ظهره. مرَّةً كبطَّةٍ، ومرَّةً كباخرة. وتبتهج حليمة حين يُلبِّي الفتى رغبتها. «أتستطيع

السباحة على ظهركَ كالباخرة؟» وسمع الفتى الطفلة تصوِّتُ كباخرة. «أتستطيع أن تسبح إلى التنُّور؟ سيأخذكَ الماءُ كبطَّة». وأخذهُ الماءُ كبطَّة.

«حليمــةُ» طفلةٌ تعيش في عالمها لا تخرج منه إلا لتعود إليه. «وعادت حليمة لتضع رأسها علــى عَضُدِ ذراعها الممدودة. كانت الأرجوحة قد سكنت، وسكنت «حليمة» معها إلى وضعها المألوف.

و«حليمةُ» تُحبُّ اللعب ككل الأطفال. رفيقها في اللعب «سِتار»؛ «سِتارُ» ابنُ المختار. ولستُ أرى مصادفة أن يلتقي الفتى وابن المختار على «سِتارٌ».

ويخرج الفتى من النهر ليهزَّ أرجوحة «حليمة»، وتسأله:

- هل احمرَّتْ عيناك؟

ويجيب:

- يَحدثُ ذلك لـمَنْ يسبح.

فتقول:

- لا. أبي لم تحمرّ عيناه يوماً.

يخرج الفتى من النهر كـ «عليٍّ» من دون أن يصبح «عليّاً». يخرج الفتى صورةً عن «عليٍّ»... «ستاراً» يُغطِّي عليه، ويكشفُ عنه دون أن يكونه.

- اتكئي إلى صدري يا حليمة وأغمضي عينيك.

- ثوبُكَ مبلَّل.

- لم أُجفِّفْ جسدي جيداً.

- أتُحبُّ البمبر؟

- نعم. أشتهي آكل منه.

- أنا لا أُحبُّه. وما اسمُك؟

- سِتار.

- كاسم ابن المختار. نحن نلعب خلف المغسل، ويريد أن ندخله.

- مغسل الموتى؟

- نعم. أرِني أبي الآن. أراه يخرج من الحقيبة هناك ويأتي نحونا.

- بلا رأسٍ ولا يدينِ ولا رجلينِ ومن دون ثيابٍ. كالدخان.

الفتـــى صورةٌ لـ«عليٍّ»، ولكنه صورةٌ غير مطابقة. فـ«عليٌّ» يسبح ولا تحمرُّ عيناه، ويؤرجح «حليمة» في حضنه ولا بَلَلَ على ثوبه من الماء. و«عليٌّ» يُحبُّ البمبر، والفتى لا يعرفه.

الفتى سِتارٌ لـ«عليّ». و«سِتارُ» سَمِيُّهُ يلعب مع «حليمة» خلف مغسل الموتى، ويريد منها أن يدخلاه. ويلعب الفتى معها خلف عالم الموتى، ويريد منها أن يدخلاه.

لعبةٌ هي. هي تفتيقٌ للحقيبة عن الحياة التي تَخَفَّتَ فيها... تَخَفَّتَ غامضةً متحفِّزة.

- «دعيه يقترب. تَظاهَري بالنوم ولا تُفزعيه، لأنه لا يُحبُّ غير النيام كالموتى».

انكشــف الستار. وظهر «عليٌّ» لـ«حليمة». وشعر الفتى الزائر «بالغفو الجميل الليِّن المبلَّلِ يدنو منه».

- هل نمتِ يا حليمة؟

- خرج من الحقيبة كالدخان، ولم يتكلم.

- وأين هو الآن؟

- لست أدري. لقد ذهب. غاص في النهر.

ولم يلبثا هما كذلك، أن غاصا إثره».

خــرج «علــيٌّ» من الحقيبة كالدخان. غاص فــي النهر. «كلُّ الأشياء تتحــوَّل إلى دخان». «الأرواح شبيهةٌ بالأنهار». «الروحُ زفيرٌ محسوس». «في الأنهار نفسها نسبحُ ولا نسبحُ... نكونُ ولا نكون».

و«عليٌّ» لا يظهر لـ«حليمة» إلا على شكل دخان. و«عليٌّ» غاص في النهر، وغاصت ابنته في إثْرِهِ، والفتى... غاصت النهايةُ في الحلم.

هــل غاصــا حقّاً في النهــر؟ أو أنهــا الواقعيَّة السحريَّــة تطفو على المــاء دون إخطارٍ ولا إنذار؟

«المــوتُ للروح أن تصير إلى مــاء. للماء أن يصير إلى تراب. من التراب يولد الماء. ومن الماء تولد الروح».

و«حليمة» أمُّ أبيها... يحيا في إغماضة عينيها.

و«سيِّـدةُ الغاباتِ»... دعْكَ من الوعي الثقافيِّ، الوطنيِّ، الدينيِّ... هل تستوعب أمٌّ فقدت ابنَها إلا أنه حيٌّ يُرزق؟ هل تبترد أحشاؤُها مهما تَصَبَّرتْ وزغردتْ أمهاتُ الشهداء؟

الحياةُ والموتُ نقيضان.

نهـرٌ وأُنثيان؛ أنثـى النهاية وأنثى البداية. الأولى أعطت الحيـاة، وتوشك أن تخرج منها. والثانية أمٌّ أبيها، يحيا في إغماضة عينيها.

الحياةُ والموتُ نقيضان.

والفتى؟ مَنْ يُخرج الفتى «ستاراً» من بياض اليقين إلى وضوح الرؤية؟ مَنْ يأخذ بيده في «الظـلام» ليشـرح له، هو الذي يستر الموت، أن الذي مات لن يمـوتَ؟ وجَسَدُهُ؟ هل ثمَّةَ مَنْ يضــيء له أن جسدَهُ إذا ما تناثرتْ أشلاؤُهُ في الحرب، واحترقت في أتونها، سيعود ماءً؟ ماءً حيّاً... حيّاً حياةً... حياةَ الذين هم أحياءٌ عند ربهم يُرزقون؟

الحـلُّ الوحيدُ للمعضلة، أن يُعيرَ الفتـى جسدَهُ للذي مات... ماتَ ولم يمتْ... ماتَ وعادَ إلى الحياة... عادَ «بلا رأسٍ، ولا يدينِ، ولا رِجلينِ، ومن دون ثيابٍ. كالدخانْ».

المراجع

(١)- مورفولوجيا القصة، فلاديمير بروب، ترجمة: د. عبد الكريم حسن ود. سميرة بن عمو، دار شراع، دمشق ١٩٩٦.

(٢)- جمهورية أفلاطون، الكتاب السابع، ترجمة: د. فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠٤، ص ٤٠٣.

(3)- Les écoles présocratiques, édition établie par Jean-Paul Dumont, Folio essais, 1991, Paris, p. 56.

النصوصــ التي يتشكل منهــا الفكر ما قبل السقراطي تندرج في ثلاثة أشـكال: الأول مجموع الشهادات غيــر المباشرة التي تخصُّ حياة المؤلف وأعماله وفلسفته. والثاني اقتباساتٌ حرفيةٌ، والثالث تقليدٌ لنصوص الكاتــب، أو منحولاتٌ عنها، أو نصوصٌ متأخرةٌ تُظهر صدى فكر المؤلف في تاريخ متأخر. والنص الأول الذي ترجمناه ينتمي إلى الشكل الأول وهو لـ «آييسيوس» في كتابه الذي بعنوانه (opinions, I, III, II)، في حين تنتمي النصوص الأخرى إلى الشكل الثاني.

(4)- Préparation évangélique, XV, 20.

(5)- Stromates, VI, 16.

(6)-Allégories d'Homère, 24.

Que signifie le mot Ei, 18, 392B.

(7)- Palimpsestes, Gérard Genette, collection Poétique, Seuil, 1982

(8)- «La pharmacie de Platon » in La dissémination, Jacques Derrida, Collection « Tel Quel», Seuil, 1972. Luda Schnizer, Wikipedia, Baba Yaga.

(9)- «L'invention Léon Robin, Biblio. De la Pléiade, de l'écriture mythe de Theuth» in Phèdre, Plation, trad.

(10)- Théorie du texte – Universalis.éd, https: //www. Fr 'encyclopédie.

(11)- Luda Schinzer, Wikipedia, Baba Yaga.

جامعــة دمشق/كلية الآداب والعلوم الإنسانيــة، صَيفَيّ عامَي (١٩٨٠ و١٩٨١م) ومدّة شهر كل مــرة تقريباً - أعني الدورة العالمية للسانيات، التي كانت حدثاً أكاديمياً بارزاً تفرَّغتُ له كلّياً فــي المدّتين معاً، ولم يكد يبقى محور أو مبحــث أو إشكالية أو مسألة لغوية لسانية - عربية خاصّــة - مــن غير دراســةٍ وبحثٍ وتمحيص على مــدى أسابيع كلَّ مرةٍ مــن تلكما السنتين باستنفار أحدث إنجازات علوم اللغة واللسانيات. أتذكّر هذا جيداً الآن بمناسبة الحدث الأجَد والأخير، أعني المؤتمر السنوي العاشر لمجمع اللغة العربية بدمشق (٢٦-٢٨ شباط ٢٠١٩م)، وهــو المتمحــور بدوره على عنوان «واقــع اللغة العربية في عصرنــا الحاضر»، وشارك فيه ممثلو مجامع عربية لغوية كثيرة. كنتُ دائماً أشعر بخطورة وضع وحالة المصطلحات العربية وغمامياتهــا وهلاميّتها وفوضاها، لذا ركزت على أوراق ومباحث اليوم الثاني: المصطلحات اللسانيــة، والمصطلحات العلمية ومشكلاتها، والمصطلح القانوني، والتعريب (ممثلو: سورية والســودان ومصــر والأردن...) وكانت مداخلتي في صلب ونواة هــذا الموضوع الذي ارتأيتُ أنــه أورد المصطلحــات فــي العناوين ولم يفِها حقَّها فعــلاً، أي إنَّ الاهتمــام والدرس كانا ظاهرييــن شكليين وليسا عميقين في واقع الحال، كما أشرت - وأؤكد هنا- إلى أنَّ إشكالية المصطلحــات هي إشكاليــة اختصاص - إشكالية علمية معرفية فــي إجادة الحقل العلمي الاختصاصــي وكفاءة التصديّ له معرفياً وفكرياً، وذلك قبل أن تكون الإشكالية لغويةً فحسب في امتلاك اللغتيــن ومهاراتهما - المنقول عنها والمنقول إليها. وأوضحت - وسأوضح الآن أيضاً - أن الجانب الاختصاصي العلمي المعرفي حاضرٌ في حقول ومجالات كثيرة جداً أينما كان، وأنَّ المصطلحــات محور ونواة اللغــات المعاصرة للتعبير الدقيق والكفء عن المفاهيم والأفــكار والرؤى، وللاقتراب منها ومقاربتهــا أفضليّاً وأعظميّاً في العلوم والمعارف الراهنة العصرية، وأنَّ تجربتي بداية هذا العام فحسب شهدت معالجة التعامل مع مئات المصطلحات التجديديّــة في شتى الحقول، وأنَّ المصطلحات المتشابهــة والمتداخلة أكثر استعصاءً على التقويــم وبحاجةٍ إلى جهودٍ إضافية للتمييز والتنسيق فيمــا بينها بوصفها منظومة لغوية واحدة وتفاعليــة كي لا تتضارب وتتناقض. وأشــرتُ إلى ما ورد في الأوراق المقدَّمة - وأعرضُها بدوري هنــا بوصفها معطياتٍ إحصائية - بأنَّ بعض القطاعات العلمية من رياضيات ومعلوماتية وغيرها كثير احتاج إلى معاجم مصطلحية تخصُّصية بآلاف المصطلحات العربية ومقابلاتها الأجنبية في العلــوم والاختصاصات الأحدث في عصرنا، ومنها ما ورد له في معاجم المصطلحات (٦ آلاف)، ولأخــرى (١٠ آلاف مصطلــح)... إلخ[1]، ومن هنا استنتاجــي الاستخلاصي المعروض الذي

مفـادُه عدم كفاية التعامل مـع المصطلحات الجديدة، التي هي في ازديـاد دوماً تصاعدياً وتسارعيـاً، بل المهم والأهم هو صياغـة منهجية للتعامل مع هذه المصطلحات عندما تكون هـي نفسها موضوع بحث وتمحيص ككل، وموضوعاً منهجيـاً علمياً متخصصاً تماماً، أعني بذلـك التركيـز على **الاصطلاح وعلم المصطلحات** أكثر من التركيز علـى المصطلحات فحسـب بتفاصيلها وشعابها التصاعدية بسعةٍ وكثافة كبيرتيـن، وأشرتُ – وأشير هنا – إلى أن المصطلـح term، وكذلك «تيرّمين» (بلُغاتٍ أوروبيـة متباينة) يخضع للدراسة علمياً، وله علمـه المتخصص – **تيرمينو/لوجيا** termino/logy لتحديد وتعريف الكلمات والمفردات المعبِّـرة عن مفاهيم وتصوّرات وأفكار في «جسدٍ» لغويّ، والحقيقة أنني استغربت بيني وبين نفسي من غياب هذا المنظور كلياً في أوراق وإلقاءات وحيثيات ومداخلات المؤتمر في جزئِه الأكثر تخصّصاً بالمصطلحات: لا تيـرّم ولا تيرمين ولا تيرمينولوجيا: لم يذكر أحدٌ شيئاً من ذلـك، أي إنَّ المنظور والنهج العلمي للتعامل مـع المصطلحات نوعياً وتخصّصياً هو ما كان الغائـب الأول، بل أكثر مـن ذلك من جهتي، لا ولم أكتفِ بالتركيـز على الاصطلاح مع وقبل المصطلحات، وعلى علـم المصطلحات التيرمينو/لوجيا، بل على فكر المصطلح، وأكثر من ذلـك على **فِكْريـاء** المصطلح، وقد سرَّني أنَّ المداخلين بعـدي (د. لبانة مشوح، ود. محمود الريداوي) قد سارت مداخلاتهما في هذا الاتجاه تحديداً. وأضفتُ في مداخلتي أنَّ تجربتي مع المصطلحات العربيـة بداية هذا العام فحسب (٢٠١٩م) شهدت التعامل مع المئات منها فـي سائر الحقول والميادين المعرفية، مما يحتاج إلى إعادة نظر أو تدقيق أو ابتكار وتأسيس فـي أحدث الاتجاهات والتيـارات: سوسيوفلسفة الفضاء، وفلسفيّـات الجيولوجيا، والفكر الجغرافـي، وسوسيوفلسفة الجغرافيا، والطرق والطرائق والمقاربات والمنهجيات الأحدث... إلخ. وهـذا مـا سيتضح لنا جزئياً هنا لاحقاً – أقول جزئيـاً فحسب، وربما خلاصة جهود وبحث وتدوين شهر واحد – كانون الثاني – من بداية هذا العام (٢٠١٩م)، لوفرة المصطلحات التي تستحق التفكيك والتشريح، في حين كنتُ أعتقد البدء بتجربتي مع حقل المصطلحات المهم منذ البداية – أواسط الستينيات مما بدا طموحاً مُحالاً وحلماً قصياً بعيد المنال مع واقعيات وحجم المنجز والمتاح فعلاً.

ومع ذلك من المفيد القيام برحلة عابرة وإلقاء نظرة خاطفة على شيء من تلك البدايات اللغوية – المصطلحيـة، ذات البعد العام والأهمية الراهنة بصورة خاصة لتأكيد أنَّ مقولة (**قَوْلة**): «العلم فـي الصغر كالنقش في الحجر» صحيحة. كان التفكير العلمي ونمط الفكر المنهجي الرزين قد

لقيا دعماً كبيراً وكافياً بعد الاطلاع على أفكار ومصطلحات أهم تيارات ومذاهب العصر، ومنها مدارس التحليل النفسي وعلم النفس ونظريات التطور والفيزياء المعاصرة والنسبية والميكانيكا الكوانتيــة – الموجية والفكر المعاصر بشعابــه، أما الاكتشاف «العلمي» المفاجئ وغير المتوقع، الــذي أغنى نمط التفكير العلمي والجديد نوعياً فهــو اكتشاف العلمية الرصينة الدقيقة لبعض العلوم الاجتماعية الإنسانية ولا سيّما علوم اللغات (اللسانيات لاحقاً في الثقافة العربية) مما أكَّد إمكان دعم المنهجية العلمية والنمط العلمي في التفكير في سائر حقول المعارف المعاصرة، حتَّى في اللغات، الأقرب إلى هوية وكيان وروح الإنسان، وكان هذا مع اطلاعي على عدة كتب في علوم اللغة، التي كان من بينها كتابان لمؤلِّف عربي واحد ومجيد وهو الدكتور علي عبد الواحد وافي: علــم اللغة + فقه اللغة منتصف الستينيات، وكم أفاد هــذا الاطلاع المبكّر لإجراء تجارب لغوية باستمرار وبلا حدود على مدى أكثر من نصف قرن، ولاسيّما أنّ موضوع التجربة – اللغة– موجود ومرافق للإنسان على الدوام وبلا انقطاع وتكفيه المنهجية العلمية والمبادئ اللغوية الكبرى. وكم حصلت مقارنــاتٌ بين لغاتِ المهارة والامتلاك بعد عــام (١٩٧٠م) ولا سيّما مقارنات لغوية بين العربية (منطوقةً ومكتوبةً، فصيحةً وعاميّةً) والروسية والإنكليزية (ثلاثيّاً) بصورةٍ مبكّرة تماماً ثم تراكمياً وتصاعدياً تطورياً. أتوقف هنا مع هذه المسألة الآن، كي أشير إلى أوَّل كتابٍ مؤلَّف حينها بطابع فلسفي فكري علمي بآراء وتقويمات لأهم وأحدث إنجازات العصر، وحصلت فيه ابتكارات لافتــة، بما في ذلك مصطلحياً: نسبية آينشتاين شُرِّحت إلى **النسبية بوصـفها كنظرية (معرفياً غنوسيولوجياً) ونسـبية واقعية** حسب «مبدأ» النسبية (**أنطولوجياً**) أي جرى التمييز بوضوح بين نوعيــن من النسبية علــى المستوى المصطلحي، وكل عروض هذه النظرية بدت حينها ضرباً من الحديــث في **النسـبية الكميّـة**، كي يجري إثراؤها بمفهــوم ومصطلح **النسـبية الكيفية النوعية (والمركَّبـة)** وغير ذلك. أمَّا ما يسمــى الآن ويسوَّق بحماسة منقطعة النظير على أنه آخر كلمات العلــم الخارق الفائــق (هايِّبر) في الميكانيك الكوانتي ومبدأ الريبــة والارتياب، فقد جاء حينها بصيغةٍ رصينة ودقيقة منهجياً، بل باستخدام المصطلحات اللازمة المطلوبة بالضبط، لأنَّ ثنائية **الذُّريرات** (ما يسمى الآن بالجسيمات الأولية والصغرى) الكمومية الكوانتية والموجية معاً تستحقّ مصطلحــاً مركَّباً في تسمية حتى العلم الرئيس نفسه ليس على أنه ميكانيك كوانتي بل ميكانيكا **كوانتيــة – موجيّـة** (تركيبــاً وتعبيراً أدقّ علميــاً)، وهذا ما حصل معنا حينهــا في ذاك الكتاب الأول بعنــوان «أفكار متواضعــة» (متواضِعة – تصوَّر ما مدى عمق وبعد التواضع وخلفياته لآفاق المستقبــل المستشرَف عن وعي حينها بمخاتلة)، والتركيب المصطلحي المذكور لا يحصل حتى

الآن للتدقيق. وما يسمى حتى اللحظة في أكثر الجهات والمرجعيات حاملة لرايات «الميكانيك الكوانتي» على أنه مبدأ الريبة والارتياب مازال يتجاهل على مدى أربعة عقود بلا انقطاع عدم دقة هذه التسمية التي تأتي فعلاً مقابلاً للشكّية - سكيبتيتصيزم (روسياً) = (E. scepticism) في الفلسفة، وهذا غير صحيح ومختلف تماماً عن الريبيّة/الشكّية فلسفياً، مثلما هو مختلف عن **اللا/أدرية** (العجزية المعرفية) agnosticism (أغنوستيصيزم روسياً) المختلفة جيداً بدورها عن الريبية/ الشكّية، ولكل منهما مكانه وحيزه المستقل في الفلسفة ومرجعياتها، ما اسم المبدأ الأساس هنا إذن - مبدأ هيزنبيرج (ورفاقه)؟ - اسمه هو اللاتعيين/عدم التعيين = اللاقيدية+ اللا تحديد/عدم التحديد (وكثيراً ما تستخدم الثقافة العربية تسمية هذا المبدأ بالقاعدة أيضاً)، أي إنَّ هذا العالم «الثالث» هو عالم الحتمية واللاحتمية determinism وin/determinism (القيدية واللاقيدية/ التعيين وعدم التعيين...)، وهذا التمحيص والتدقيق كما أعرضه عليك الآن هو بالذات ما يتضمَّنه كتاب أواسط الستينيات بأفكاره المتواضعة (والمتواضعة جداً!!)، وهناك مصطلح مركَّب آخر في الكتاب حين كانت الثقافة العربية تجهل وتتجاهل المصطلحات المركَّبة تقريباً: إنهُ «الأشياء - العلاقات» بمعنى استحالة وجود أشياء بلا علاقات أو وجود علاقات مجردة عن الأشياء، وإنهما متلازمان ومتناميان تصاعدياً معاً، ويعمل العلم على زيادة كشف العلاقات والتعمق في تفاصيلها ضمن المركَّب المذكور، أي تزداد معرفة علاقات جديدة باستمرار ضمن مركَّبهما. وهذه الفكرة هي بمنزلة قانون تطوري (أنطولوجي - معرفي) أحاج إلى المصطلح المركَّب «**الأشياء - العلاقات**» لأهميته، ولم أجد مثله إلا بعد سنوات في كتاب مترجم عربياً، وربما أوّل مرة في وزارة الثقافة السورية بترجمة الدكتور عادل العوا ومراجعة الدكتور عبد الله عبد الدائم، ولا أظن أن كتاباً كهذا كان سيترجم حينها قبل سنوات لاحقة وربما عقود، لولا اطلاع أنطون مقدسي على كتاب أواسط الستينيَّات الفكري - العلمي الفلسفي الوحيد عربياً حينها في هذه الحقول الريادية البازغة. ولا مؤلَّفات، بل لا ترجمات تتجاوز التقليديات الكلاسيكيات وقتها، ولولا ذلك لن تفهم أبداً لماذا دخل مقرَّر المنطق النسبي في منهاج الفلسفة للثاني الثانوي العلمي والثالث الثانوي الأدبي في سورية، والمؤلِّف -كما ستتوقَّع- هو أنطون مقدسي ولا يمكن أن يكون غيره.

ما هو المصطلح المركَّب المشابه لمصطلحنا التركيبي المذكور وأين ولمن؟ في ظروف خواء عربي كهذا؟ إنه مصطلح «الطبيعة- القانون»=«الأشياء- العلاقات» (عندنا)، وهو أيضاً عند غاستون باشلار في كتابه «الفكر العلمي الجديد» الصادر عن وزارة الثقافة عام (١٩٦٩م)، مترجماً[٢].

وقد لفت انتباهي أن الفكر الفلسفي والعلمي الأحدث، عدّ ظهور المفاهيم والمقولات العامة، والعلمية العامة تخصيصاً، وفي صيغة مصطلحات مركبة بالأخص، بوصفه ظاهرةً مصطلحية (ومفهومية مقولية بالأصل) جديدة ونوعية ومتميزة عن المسارات السابقة بدءاً من مقولات أرسطو - مروراً ببعض مقولات ابن رشد- وصولاً إلى مقولات هيغل الديالكتيكية الشاسعة: كلُّها كانت محصورةً فعلياً بالمصطلحات المفردة أو الإفرادية وإن تجاورت، أما العقود الأخيرة في القرن العشرين فشهدت التعامل إجرائياً وعملياتياً مع مصطلحاتٍ مركبة: كـ«البنية - الوظيفة» ← البنيوية - الوظيفية ← التحليل البنيوي - الوظيفي: مثال واحد فحسب؛ لكنَّ الأمثلة تصبح كثيرة ووفيرة مع بعض المشتغلين بفكر العلم أو الفكر العلمي وبفلسفة العلم ممن رصد ظهور واستعمال مصطلحاتٍ مركَّبة غزيرة كهذه من الربع الأخير من القرن الماضي على حواف عام (١٩٨٠م) من أمثال: أورسول، وسيمينوك، وغوتّ...، وفي كتبٍ عديدة حول المقولات العلمية العامة والعمليات والطرائق والمقاربات والمظاهر والتشكلات العلمية العامة... إلخ. انطلاقاً من مصطلحات: البنية، والمنظومة، والعنصر، والوظيفة، والنموذج (الموديل)، والاحتمال، والتحديد/ التعيين (واللا تحديد/اللا تعيين)، والتناظر (واللا تناظر)، والإشارة/العلامة، والمعنى، والتأويل، والتشاكل (إيزومورفيزم = التناظر الشكلي م. ن). وثمة أمثلة كثيرة جداً للتوحد في «زوج» واحد لمفاهيم من أنماط مختلفة... و«الأزواج»/ الزوجيَّات المقولية المختلطة تتصعد إلى أثلاث/ثلاثيات، بل إلى مركَّبات أكثر تعقيداً، ومن هذه المركَّبات المقولية مثلاً: «الانعكاس - النموذج» ومركب رباعي أيضاً: «المحتوى- الشكل- البنية - الوظيفة» وغيرها[٣]. وتجد في الأدبيات الفكرية والفلسفية والاقتصادية التنموية خاصة، والمنظومية بالأخص، منظوماتٍ مصطلحية من قبيل ما يلي تركيبياً: «التعليم - العلم - الإنتاج» و«التعليم - العلم - التطبيق» + «العلم - التقنية - الإنتاج» و«العلم - التقنية - التنمية» ← «العلم - التقنية - التطبيق» وتركيبات مصطلحية رباعية من عناصر المكونات المصطلحية المذكورة..إلخ. فالمصطلحات المركَّبة باتت كثيرة ووفيرة الآن.

مصطلحات عامة معرفياً وعلمياً وفكرياً - فلسفياً في النهج والمنهج والمنهجيات والطرائق والمقاربات:

ألفتُ الانتباه إلى ضرورات التركيز على نوع غائب ومغيَّب من المصطلحات ورفع الاهتمام به تجاوزاً لكثرة الاهتمامات المصطلحية التخصصية- أعني المصطلحات الثقافية والفكرية

والمعرفيــة العامة الأكثر انتشاراً وتداولاً وحضوراً، التي تغيــب دراستها ومعالجاتها مع أنها شديــدة الأهمية بل هي الأهم والأشد تأثيراً على الناس وكيــان اللغة معاً، وأجِد المنهجيات أقرب إلى موضوع كهذا.

يلزم فضّ الاشتباك بيــن المتشابهات المصطلحية وتمييزها: **النهج** مقابل الطريقة، أما **المنهــج** فهو علم النهــج أو الطريقة، ومن التكتيكات اللغوية اختيــار كلمتين شقيقتين جذراً وصوتــاً للتمييز والتعبير عن متفاصلين متواصليــن. سيناريو أفضل وأوضح للاستيعاب وفك الإشكال، وكذلك الأمر مع مفردة/مصطلح **المنهجيات** التي يمكن أن تشمل النهج/الطريقة، والطرق/الطرائــق، والمنهــج والمناهج جميعاً. من جهةٍ أخرى يلــزم التفريق بين متشابهات متمايزة هي: **عبر** الاختصاصية، **وتعددية** الاختصاص (مولتي) **وتداخلية** الاختصاص (إنتر/ ميزوّ-بين-).

وفــي العربية وفقهها ميزة مهمة وحميدة هي التمييز بين اللازم والمتعدي مقابل مفردة واحدة أجنبياً تعبّر عنهما معاً، وعليك الغوص في سياقاتها لتكشف الدلالة المقصودة، ومنها مثلاً مفردة/مصطلح التطور/التطوير، والنمو/التنمية، التعولم/ والعولمة...إلخ مما لا ننتبه إليه كما ينبغي. ومن الأعراف الأسلوبية المرغوبة والمفيدة مصطلحياً لِخفض الجهد اللغوي تناسق ووحــدة التذكير أو التأنيث في مصطلحات متساوقة: مثــلاً لتوضيح **الميتودولوجيا** عربيــاً يكون من الأنسب وصفها **بالمنهجيــة** (تأنيثاً متساوقاً) بدلاً من **المنهج** للتخلص من إرباكات صفتين مختلفتين تذكيراً وتأنيثاً في حالات كثيرة. وقد لاحظنا أن التاريخية ومبدأ إدراك الأشيــاء والظواهــر تاريخياً في حالةِ تواشج **وتعالــق** مع التطوّرية وضرورة تتبع ذلك مرحليــاً: النشأة، فالتطور، **فالمنتهى/المقصد** (هكذا هو تعبيرنا). والتاريخية historism بوصفهــا مذهباً وتياراً ونزعةً تترافق مع مصطلح رديف حتى أجنبياً – historiasm ما لزم التعبير عنه بمصطلح عربي رديف بدوره للتفريق مثل: التاريخوية أو التاريخانية، ونحن ضدّ إدانــة تجديــداتٍ وتفاصيل كهذه، إذ تبقى خيراً من الإعجام المطلــق أو الزائد، وقد وردت هــذه الصيغــة المصطلحية لدى كارل بور فــي كتابه الذي نعدُّ عنوانــه «بؤس التاريخانية» (١٩٥٧م) تمييــزاً عن التاريخية [٤]. ثمة طريقةٌ موازية مناظرة للتاريخية هي: genetic M.، تلقــى اجتهادات وتعريبات كثيرة إلى درجة التضــارب والفوضى المصطلحية، وهي ما هي نفسها مفردة واحدة أجنبياً، مما اضطرنا إلى اختيار تسمية ممحصة لهذه الطريقة بوصفها ط. **نشــوئية – ارتقائيــة (تطورية)**، وهنا كما فــي كل مكان أؤكد أهمية وضروات العودة إلى

الأصــل المصطلحي الأجنبي – الأوروبي تحديــداً في حالاتٍ كهذه – مع التنقيب عن أصل هــذا الأصل يونانياً إغريقياً في حالات، أو لاتينياً في حــالات أخرى، وهذا ما يحصل على الأغلــب. هنا مثلاً تجد المفــردة اليونانية الأصلية غينيسيــس genesis جذراً قديماً لاسم الطريقة المذكورة مما يقدم إضاءة عميقة على المصطلح ككل وتاريخيتهِ، إذ المفردة يونانياً تُعطــي دلالات النشوء والظهور والــولادة، ومن ثمّ الارتقاء والتطور، ممــا نجمعه في مركّب **النشوئية – الارتقائية** معاً، أو في **التطورية** المتضمنة إياهما معاً باختصارٍ وتكثيف.

فــي بعض الترجمات العربية والتعريبات قد تضيــع – أو تُضيَّع – الفوارق بين تسميتيّ علمين أجنبيّاً هما **كوسـمو/غونيا** cosmo/gony **وكوسـمو/لوجيا** cosmo/logy (بلفظ إس أو زد S + Z). **والكوسـمو/غونيا** هــو علــم نشوء الكون، إذ gony راجعــة بدورها إلى الأصل غينيسيــس genesis وهذا دليل إضافــي على ضرورات الأصول، وتوجــد حالات مشابهة مصطلحياً في تسمية علوم «نشوئيّة» أخرى كثيرة، وأما المصطلح الواسِم لعلم قريب ومختلف في آنٍ فهو **كوسمو/لوجيا** – علم الكون.

ثمــة مثال آخر لالتباسٍ محتمل فــي اسمَي عالِمَين وعَلمَين أجنبييــن ألمانيين من مدّة متقاربة تاريخياً – القرن التاسع عشر، وهما الفيلسوف هيغل/هيجل، وعالم الأحياء التطورية هيــكل، وأقترح استخدام وسيلة الإيضاح التكتيكية الآتيــة لفض الالتباس المحتمل: «هيكل وليــس هيغــل أو هيجل» وما شابه ذلك. ومــن التسميات الإشكالية فــي العربية مصطلحياً ما ينتشــر – وحتى أجنبياً أحياناً – على أنه **الداروينيــة الاجتماعية** (ولا سيما لدى هربرت سبنســر) لكأن سبنسر الفيلسوف البريطاني المعروف مجــرد تلميذ أو «أجير» عند داروين، مع أنَّهما **متخضْـرِمان** متزامِنان في القرن التاسع عشر، وربما بأسبقيةِ سبنسر لداروين في أمــورٍ كثيرة، وهذا إشكال محلّي يشي بإشكاليــةٍ أعمق وأبعد مدىً واستفحالاً هي المطابقة بين الداروينية والتطوّرية وعدم التفريق بينهما مع أنهما تتقاسمان الاستقلالية تماماً، بل إنَّ التطورية أقدم وأوســع وأشمل كثيراً من الداروينية علمياً وفلسفياً وفكرياً، بل إنَّ الداروينية ليست الوحيدة تطوُّرياً حتى في الميادين الحيوية وعلم الأحياء/البيولوجيا، لذا، وعوداً على بــدء، لا يجوز التعبير بغير مصطلح **التطورية الاجتماعية** (بديلاً عن الداروينية الاجتماعية المفتعلة وغير الصحيحة ولا الدقيقة وهذا مثال تفسير الأسبق كأنه لاحق). والتطورية أشمل مــن البيولوجيا ومن الاجتماعية إذ تجدها في الطبيعــة ككل بمعناها الأوسع، وفي المنطق والتفكيــر وتطورّ الفكــر والنفس والنفسية والعلم والمعارف، وفــي الديالكتيك الفلسفي مع

هيغل والفلاسفة الألمان الكلاسيكيين الأسبق خاصة، وكلُّه قبل سبنسر وداروين معاً، هذا مع العلم أن **التطورية الاجتماعية** (وليس الداروينية ا.) لازمت اسم هربرت سبنسر الذي مثَّلها أنموذجياً بجدارة.

إن عدم الرجوع إلى اللغة الأصل في المصطلحات مضافاً إليه الارتجال واللا مسؤولية واللا مبالاة مع اختلاف الاستيعاب اللغوي في الاتجاهين الأجنبي والتعريبي هو الذي يجعلنا في حيرةٍ من أمرنا في حالاتٍ كثيرة، منها مثلاً الحديث عربياً عن أحد مصطلحات هيغل الفلسفية المركَّبة من شطرين - ولكليهما وفرة من المقابلات العربية - المنتشرة فعلياً لا نظرياً فحسب: الروح المطلق، والعقل الكلي، والفكرة الكلية، والفكر المحض/ العقل المحض ← العقل/ الروح/ الفكر / التفكير: البشري... إلخ.

مقابل التطور التدريجي تجد وفرةً من التعابير عن التطور غير التدريجي: الطفروي/ المفاجئ/**الطارِئ** (هـ. ج. ديفريس) تعبيراً في الأغلب عن الصِفة emergent أجنبياً، وكنت أرفِقُها غالباً مع المرادِف «طارِئ» الأقل استخداماً عربياً أو الغائب، مع أنه الأقرب إلى الإلفة وإلى الأصل الأجنبي، ولاسيّما أن كلمة طوارئ شعبية وشبه عمومية لدينا - emergency، فتكتيك الاختيار الأمثل للمصطلحات يجب أن يأخذ في الحسبان عوامل كثيرة كهذه: الأصل والتأصيل، والدقَّة، والإلفة... إلخ، ثم إن الديالكتيك بانتشاره الواسع ثقافياً في كل مكان وعندنا أيضاً يحتوي قانون التغيرات/التطورات الكمية والكيفية أي التدريجية، وخلافها غير التدريجية في صيغةِ الكيفية والنوعية... إلخ، وكان بالمستطاع دمج هذا التراث والفكر المتواشج كله معاً لتكوين تصورات فكرية وفكروَعلمية متناغمة وكليانية أوسع وأشمل وأعمّ: طفروي/مفاجئ/طارئ/كيفي/نوعي... إلخ.

التطوُّرية مقابل مختصر فعال لـ evolutionism والحديث عنها - كطريقة أيضاً - من الجانب **النشوئي**: لاحظ أهمية اللازم والمتعدي لدينا، الذي هو من ثروات ذخيرة العربية - فالنشوئي متميز جيداً عن الإنشائي. «صِفة النشوئية... genetic تلقى وفرةً من الاجتهادات والبعثرات الإضافية، ولاسيما في صيغة التكوينية لتصبح الطريقة النشوئية وكأنها «منهج تكويني»؟ ولو بقيت **جينيتيكية** (كما الأصل) لكان المصطلح أرحم بالدلالات الفعلية؛ والمثال هنا من كتاب بياجيه، العالم الشهير، حول «الإيبيستيمولوجيا الجينيتيكية» Genetic Epistemology إقلاباً للصفة والموصوف عما هو كذلك بالفرنسية - .ep. G-، الذي جاء

عنوانـــاً في إحدى الترجمات العربية بصيغة «الإبستمولوجيا التكوينية» ولا ضير في النشوئية هنا أيضاً، إذ ستجد التكوينية وقد وقعت في ورطة عند مقارنتها بالتكوينية التربوية الكادرية الإعداديـــة للكفاءات من ميادين أخرى مختلفة، وتجد في العربية مقابل الجينيتيكية السالفة المذكورة نفسها مصطلح التوليدية أيضاً، ولاسيما تعبيراً عن توليدية تشومسكي في لسانياتهِ ونحوهِ وقواعده «التوليدية» بدورها، ومن ميدان ثالث مختلف بدوره عما سبق.

وفي المحصلة تكون العربية الفعلية/الواقعية التي نعرفها الآن وتعيش معنا مدخَّرةً برصيد لغـــوي مصطلحي وفير مقابل «**الجينيتيكية**» «المفــردة» أجنبياً (المفردة «المفردة») أمثال : **التكوينيـــة – التوليديـــة** ... وغيرها ربمـــا، وفضَّلنا إثراءها وإغناءها تدقيقيـــاً إضافياً بما يأتي: **النشـوئية والتطورية** و(النشوئية **الارتقائية** أيضاً)؛ ومع أنَّ **الإنشـائية** قريبةُ رحم، بائنة تجاذريـــاً مع النشوئية فلم ولا ننصح باستخدامها البتة فـــي هذا الحقل النشوئي الجينيتكي. لمـــاذا؟ لأن مجرد الانتقال من حالـــة اللازم إلى المتعدّي، فعلياً ومصدريـــاً، ستقربك كثيراً مـــن مصطلح آخر مشابه جداً إنمـــا في سياق آخر مختلف وفي ميـــدان جديد تماماً، أعني الطريقـــة الإنشائية/البنائيـــة، التي هي مباينـــة نوعيـــاً – Constructive– وبعلائم وسمات إعماريـــة تعميرية تشييدية... إلـــخ، وأي هفوة أو غفوة اصطلاحيـــة أو مصطلحية هنا تقود – وقـــادت فعلياً – إلى كارثة دلالية، إذ تجد التكوينية وقـــد استخدمت عربياً في واقع الحال اللغـــوي للتعبير عن مصطلحين أجنبيين متباينين معاً: genetic وconstruetive سواء بسواء! هذا عدا الإشكاليات الإضافية عند الدخول – المنطقي لغوياً – إلى خط الوراثية **والتوريثية** (مـــن جين gen). بل إنَّ إشكالاً كهذا قائم فـــي المرجعيات الأجنبية نفسها – والمتخصصة من بينها ضمناً – عندما يجري الحديث عن إحدى الطرائق (.M) البحثية الاستعرافية على أنها «طريقة كونستروكتيفية (جينيتيكية)» هكذا ترديفاً بالأقواس «.Constructive (Genetic) M» فتزيـــد الطِينَ بلَّـــةً لتخلط ما هو هندسي إنشائي بنائي تعميـــري من جهة، مع ما هو نشوئي ولادي توليـــدي تكويني تطوري ارتقائي وراثي توريثي مورثي...، إلى آخر القائمة الافتراضية المنطقيـــة الكبرى من جهةٍ أخرى مغايرة. وهنا تلزم الفطنة والمهارة والحنكة في الاصطلاح واختيار المصطلحات وابتكارها وتأصيلها.

نحن نستخدم مصطلح الطريقة (والمقاربة) «**التطورية**» بهدف التكثيف والاختزال المضموني الفعال في هذه المجالات، على الرغم من ندرة من وجدناه يستخدم المصطلح أجنبياً، إلا أنه من بَعدِ تآلفنا معه بوصفه اختزالاً معبّراً تطورياً (نشوء – ارتقاء – منتهى/ مقصد)، استطعنا التقاط

بعض الاستخدامات الأجنبية اللامعة لدى قامات فكرية وفلسفية شهيرة وذات مصداقية مثل كارل بوبـــر الذي وثّقنا في أحد عناوين أو مفاصل كتبه هـــذا المصطلح في الأسبوع الأدبي، ع١٥٦٦-٢٦/١١/٢٠١٧م، وكما يلي : Evolutionary Approach (الإسناد السابق).

إن الأمـــر الأصعب والأدق والأرهف – ولاسيما في الثقافة العربية – هو الفصل والتمييز بين المتشابهات، ولاسيّما حين تأتي «مترادفة»! قسراً في الأصول الأجنبية كما في **الإنشائية (الجينيتيكيـة)**- (Genetic Constructive)، وكان يلزم فصلهما (كطريقتين بصورة خاصة) بحيـــث تكون الأولى .constr إنشائية /بنائية إعماريـــة تعميرية تشييدية (هندسية ومنطقية ورياضية... إلخ عامة)، والثانية – .genet الجينيتيكية نشوئية ولادية/توليدية ارتقائية تطورية وراثيـــة... إلخ، مع ضرورة الدخول في التفاصيل وتحكيـــم عالم الاصطلاح التدقيقي الأكثر تخصصاً وتشعباً، لكثرة المرادات العربية هنا، ولاسيما حين حسبان وجود التكوينية أيضاً في الواقع اللغوي الفعلي ترجمةً وتعريباً وممارسةً لغوية (كتابةً وشفاهاً).

إن التركيبـــة الهجينـــة– Constructive (Genetic) M. تخلط الأمور جدّياً بين النشوئية، والإنشائية/البنائية، وهما يردان معاً بوصفهما طريقةً واحدة، أجنبياً وعربياً، بتسمية هجينة أيضـــاً وتهويمية عربياً خاصة، ولهذا السبب ارتأينا وقمنا بفصلهما فعلياً – بخلاف الإشكال الأجنبي العربي معاً – إلى طريقتين متمايزتين هما :

١- **الطريقـــة النشـوئية – الارتقائيـــة (ط. التطوريـــة)** Genetic M، وكذلك ٢ – الطريقة الإنشائية/البنائية Constructive M، وكان تعليقي على هذه الإشكالية وملاحظاتي كما يأتي:

إذا كان الهجيـــن المصطلحي قائماً أجنبياً في لغات الأصل مـــع إشكالاته، فعليك تصوُّر فداحـــة الكارثة واستفحال الإشكالية عند نقلها إلى الفوضـــى المصطلحية العربية في هذا الحقل، **لذا أفضّل إلغاء** المرادف جينيتيك من تسمية وعنوان هذه الطريقة الهجينة من الأساس لاختلاف الدلالات وعدم الترادف أصلاً (عنيت أن genetic لا تكافئ ولا ترادف constructive ممّـــا تجده مختلطاً وإشكالياً ليس عربياً فحسب، بل أصلاً فـــي الروسية والإنكليزية أيضاً). وفضّ الاشتباك بين المصطلحات المتشابهات من أعزّ وأدقّ الأمور وأعسرها.

– ثمة ترادفات غير خصيبة ولا ذات مصداقية أيضاً – في العربية فحسب – مقابل أصول أجنبية متباينة دلالياً قمنا بفضّ الاشتباك بينها عربياً كما يأتي (ومما لم يلقَ، ترجمةً وتعريباً، مـــا يستحقّه من اهتمام): البنيوية والبنائية مقابل: structuralism وConstructivism تتالياً،

وأيضاً: التفكيكية والتدميرية deconstructivism و← destructivism على التوالي. وللتدقيق أصــولاً لا بدَّ من الانطلاق من أفعــال وأسماء أبسط بُني عليها، مصطلحيــاً أجنبياً، لِتسميةِ المذاهــبِ والتياراتِ المذكورة، أعني ما يلي تناظــراً: structure ← construct ← destroy (وتالياً destruction ← destruct ← ... إلخ).

– إن التكوينيــة (عربياً) هي بمنزلــة وسيط مقبول ومفهوم بيــن النشوئية والإنشائية – بيــن الجينيتيكية والكونستروكتيفية، لكن في حقــول وميادين الأدب والفن والتشكيل والخلق والإبــداع (الإبداع الخالق/الخلّاق...) (كما في عنــوان أحد كتب هنري برجسون المشهورة: التطــور الخالق/ الخلاق/ المبدع). التكوينية هنا تصبح مفهومةً أكثر مع التوليدية – خلقياً إبداعيــاً – لكن الجسر المشترك بين المصطلحين من حقليــن متباينين فعلياً هو التكوينية فحسب، افتراضاً واحتمالاً، للعبور بين النشوئية والإنشائية.

– البنيويــة بوصفهــا طرائقيــةً/ مناهجية (استرشاداً بمبــدأ تأنيث الــكل أسلوبياً مثال علــى طروحــات سابقة هنا)، كمــا أنَّ التمييز ضــروري بين العلوم الاجتماعيــة ← والعلوم المجتمعيــة للتدقيق عربياً، مقابل ما هــو إنكليزياً social وَ ← societal (روسياً: سوتصيال+ أوبشيستفين).

– كتــاب جان بياجيه في «الإبستمولوجيــا التكوينية» يجعلهُ في صيغتهِ هذه عنواناً عربياً غمامياً، وعلينا البحث عن تحديد للتكوينية على أنها النشوئية بين أقواس، ولاسيّما أن الأصل يعتمد الصفة الجينيتيكية – genetic.

الذهنية والعقلية مفردتان في العربية تأتيان بدلالات متنوعة في سياقات مختلفة، وكثيراً مــا قد نضطر إلى التحديد في صيغــة «ذهنية/منتالية»، ولاسيما تعبيراً عن طروحات ليفي شتراوس **الأثنوغرافية والإناسية والثقافوية** (الإناسية أي الأنثروبولوجية، والثقافوية أي علم الثقافيــة)، وكلامه عن «البنى الذهنية/المنتالية» الثابتــة (الشموليات universals) – أقول الشموليّــات مقابل المفردة الأجنبية هنا التي قد توحي حرفياتها وارتجالياتها عربياً – وهي فعلت وتفعل ذلك – توحي وتغري بالمقابل الفاشل: الكونيّات بما لا يلائم سياقاً كهذا أبداً.

الطرائــق والمنهجيات البنيوية (وتأنيث الكل)، واختصاصية وبين اختصاصية، والنشوئية الارتقائية التطورية، **وتراتبية** الموضوع **وهرميــة** تركيبه/أو تركيبته (من مفردات التعبير عن البنيويات)، والكليانــي والترابط الكلياني، والكليانية مذهباً وتيــاراً مقابل هوليزم holism:

«الترابــط الكلّيانـــي بين الموضوع بوصفه بنيــة ومنظومة وتطوراً، وارتقـــاء وبوصفه وظيفة توظيفـــاً (القيام بوظائــف)...، واستخدام وإدخال الرياضيـــات... (**التربيض**)... إلى عالم البنيوية **المحدَّثة المطوَّرة**.

– أهمية وضع **منظومة شاملة مـــن الطرائق والمنهجيات للمعرفة والاستعراف**... (لننتبــه إلى التمييزات **الشفيفة**). مقابل العلوم الطبيعيـــة وما إليها، غالباً ما نجد العلوم الاجتماعيـــة أو الإنسانية (وتغييب «**المجتمعية**» الأشمـــل والأدقّ)، لذا ارتأينا التذكير بها جميعاً بوصفها فصيـــلاً مقابلاً للطبيعية في صيغة «الاجتماعية / المجتمعية الإنسانية»، وإذا أردنا التعبير المكثَّف عنها جميعاً فالأحرى اختيار المجتمعية غير المألوفة تماماً بعْد في العربية.

– الطـــرق والطرائق والمنهجيات (إنّنا في لغـــات أصلية أوروبية نجد: ميتود– ميتوديكا– ميتودولوجيـــا)، + النهج/السبيل: ((نرغب ونطمح إلى إنشاء «**علم للفكر العلمي**» ككل و«علم الأفكار/الفكريـــاء»، «إفتـــاء وتفتية» وقيامة معنى أيديو/لوجيـــا» + «البنيوية... في تلاحمها التواشجي التناغمي المتزايد مع طرائق ومقاربات عصرية أخرى في صيغة: بنيوية – وظيفية، و«بنيويـــة – منظومية» أو «منظومية – بنيويـــة» بتوثيق السائد أجنبياً وليس عندنا بعد))، وهنا مزيد من المقتطفات والمنتخبات المدوَّنة المسجلة بداية العام:

«**بنيوية – تطورية**» («**بنيوية – ارتقائية**»، وكذلك «**بنيوية – تاريخية**» رديفاً مرافقاً «للبنيوية الجينيتيكيـــة» – أي النشوئيـــة توثيقاً لأصـــول أجنبية) + بنية الموضـــوع الداخلية (**تراتبيتها وهوميّتها**...) + **السيمياء/ السيمولوجيا** (علم العلامات والإشارات – **علم السمات**): أسلوب ملائم للعرض وإيضاح نواة الفكرة **السِّماتيّة**+ **الإثنولوجيا (علم الإثنات والإثنيّات)** + **ما بعديّات (ميتـــا...)** (مـــا بَعد/ميتا المنطق والرياضيـــات) + **النشاط/السلوك/العملانية** + العمليات المشروطة **وسيطياً** بالاختلاط بين المشاركين/الفاعلين + البنى القديمة، غالباً ما سميت في لغات العالم وكأنها وضيعة عبر صفة «البدائية»، وفضَّلنا الحكم عليها بغير حكم قيمة على أنها بدئيـــة وليست بدائية (والفروق شفيفة ولكنها كبيرة)، وذلك في الصيغة الإيضاحية التوصيلية الآتية: «البنى ... التقليدية القديمة (**الابتدائية/البدْئية/ «البدائية»**)».

– «**الطـــرق والطرائـــق**» البنيوية (تذكَّر معي تفارُقات: «**ميتود وميتوديكا**») + طرق وطرائق الترميـــم الداخلي للمنظومات اللغوية (إعادة إعمارهـــا وإنشائها) + بين الاختصاصية (بينيّة

وتداخلية الاختصاص/ميزو اختصاصية)، هذه «**الطرق والطرائق**» البنيوية... لها «**حدودها وتحديداتها، الاستعرافية...**» + ميتودولوجيا/منهجيّة (تأنيث الكلّ).

– التطوّرية «و» التاريخيّة + التحليل «البنيوي– الوظيفي» معروف عربياً بخلاف **البنيوية – الجينيتيكية (النشوئية)، والبنيوية – المنظومية** + مدخل/منطلق/مقاربة: مثال آخر لاستنفار المترادفات العربية الحاضرة الدوّارة في حقل منهجي كهذا.

الهوامش

(١)- واقع اللغة العربية في عصرنا الحاضر؛ المؤتمر السنوي العاشر لمجمع اللغة العربية بدمشق ٢٦-٢٨ شباط ٢٠١٩م (قاعة المجمع في دمشق).

(٢)- غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد؛ وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٩م.

(٣)- المقولات العلمية العامة ونَمذجة تكامليات العلم؛ الأسبوع الأدبي، ع١٥٩٨، في ٢٠١٨/٧/١٥م، ص٦.

(٤)- الإبيستمولوجيا والتجريبية – النقدية؛ الأسبوع الأدبي، دمشق، ع١٥٦٦، في ٢٠١٧/١١/٢٦م، ص٧.

المصطلح النقدي العربي بين واقع التعدد وآفاق التوحد

د. سعيد بوعيطة ❀

يجمع أغلب الباحثين على أن إشكالية المصطلح أو أزمته في الثقافة العربية (مع اختلاف درجة الحدة)، ليست وليدة اللحظة أو الأمس القريب، بل قد ترجع إلى زمن بعيد في التاريخ العربي ابتداء من احتكاك العرب بالثقافات الأعجمية بعد ظهور الإسلام واحتياج علماء المسلمين إلى تدوين ونقل تلك العلوم والفنون والمعارف من لغتها الأصلية إلى اللغة العربية ترجمة وتعريباً، إذ وجدوا أنفسهم أمام إشكالية صياغة المصطلحات المنقولة. مما وجههم عصرئذٍ «للبحث في اللغة العربية واستخراج مصطلح يناسبهم وإن عجزوا استخدموا اللفظة الإغريقية أو الهندية، وعدّوها مصطلحاً يفي بالغرض»[1]. فنزعوا من خلال ذلك بحكم الضرورة الثقافية العلمية نحو إرساء جهاز اصطلاحي شامل. شهدت اللغة العربية آنذاك «حركة اصطلاحية، لم يعرف لها تاريخ البشرية مثيلاً من قبل، وكانت هذه الحركة الاصطلاحية نواة لوضع مصطلحات الحضارة والعلوم والفنون، واللغة، والأدب، والفقه، والتفسير، والحديث،... إلخ)[2]. ولا يعني هذا أن العرب باجتهاداتهم الرصينة

❀ كاتب مغربي.

قد وقعوا في أزمة مصطلح حقيقية كالتي يشهدها العصر الحديث، فقد عملوا بما أوتوا من مهارات وكفاءات لغوية راقية، على تجاوز إفرازات ذلك التلاقح العلمي بين مختلف الأمم والحضارات من حيث قدرتهم على استيعاب المصطلح الوافد بمرونة بالغة واحتواء واعٍ. لهذا، يبدو أن الأزمة تطرح نفسها بعمق ولا سيما في ارتباط حالة المصطلح بصورة الواضع الحالي، بمعنى ذات الباحث العربي المأزومة حضارياً إزاء الحضارة الغربية المنقول عنها، والتي تعد المصدر الأساس لاستجلاء المصطلحات بشتى فروعها وألوانها، وحمولة هذه المصطلحات الوافدة من حيث قيمها المعرفية والثقافية والحضارية المختلفة في أصولها ومرجعياتها عن الثقافة العربية، لأن جلَّ تلك القيم المعرفية القادمة مع المصطلح من لدن الآخر، تختلف في نظر الناقد عبد العزيز حمودة بل تتعارض أحياناً مع القيم المعرفية التي طورها الفكر العربي المختلف(٣). وكأن هذه الأزمة في الأصل أزمة حضارية تمس الهوية والذات العربيتين، فكان المشكل الاصطلاحي، مظهراً بارزاً لهذا المشهد الحضاري المرتبك على حد تعبير الباحث حمزة المزيني(٤). مما يفرض تعاملاً خاصاً في تعاطي الباحث العربي مع المعرفة الغربية الوافدة وتربتها وما يمكن أن تسببه من إشكاليات ثقافية معقدة، تعود سلباً على البحث العربي بشكل عام، ذلك أن الباحث العربي يتعامل راهناً مع المعرفة الإنسانية فوق أرض غريبة، فكان طبيعياً ألا تكون مختلف المصطلحات الناتجة موحدة. بل إن المراجع ليست كذلك، فضلاً عن أن هذه المراجع يشيع فيها الاختلاف الاصطلاحي أكثر من الاتفاق(٥)، بمعنى أن هذه الإشكالية عبارة عن «إشكالية بنية حضارية، ترتبط بمجمل الخصوصيات الفكرية والمعرفية التي تختلف عن البنية المحتضنة للمصطلح»(٦). إن هذه المدلولات التي تحملها المصطلحات الوافدة، غربية في أصلها، ترتبط بحركة فكر الآخر وتطوره العام(٧). على الرغم من أن الأمر بحكم ما يوسم بالعولمة والمشترك الحضاري والإنساني، يقتضي هذا الاحتكاك وهذه المثاقفة بين الحضارات واللغات واصطناع مقابلات للمصطلحات الأصول، فإن «احتكاك اللغات، وظاهرة المثاقفة والاستفادة المعرفية من الإنتاج الإنساني، تقتضي التعامل مع المصطلحات بالتقابل»(٨). ومن هنا، يمكن رصد جملة من النماذج والعينات، بقصد تبيان معضلة التعدد المصطلحي وإشكاليات الترجمة والتمثل والوضع لدى كثيرٍ من المترجمين والباحثين والمصطلحين المعاصرين. سواء أكانت المصطلحات مفردة أم مركبة.

انزياحات الترجمة وإشكالية المصطلح العربي

يعد الانزياح على مستوى الترجمة من أبرز أوجه هذه الإشكالية، ففي مختلف الترجمات العربيــة، نقف علــى انزياحات عدة، لعل مــن أبرزها الاختلاف بين المغــرب في مصطلح «أفق الانتظــار» والمشرق في مصطلح «أفق التوقعات» مقابــل المصطلح الأصل «horizon d'attente»، فإننا لا نكلف أنفسنا أحياناً عناء التساؤل عن الخلفيات الفكرية في تاريخ أفكار هــذه المصطلحات واستعمالاتهــا عند الأب الروحي في صنعهــا. إن ياوس لا يستعمل «أفق الانتظــار» فحسب، بل يتوالد هذا الأفق لكي يعطي: (أفق التجربة/ أفق تجربة الحياة/ بنية الأفق/ التغييــر في الأفق/أفق الفهم المادي/ أفق المعنى/ أفــق الوصف/ أفق الموقف... إلخ). فهل على المتلقي العربي الاكتفاء بالبعد المعرفي الأول لانزياح المصطلح النقدي بين مترجمين مختلفين أم أن عليه استقراء السياق المحيط وتجاوز التسميات إلى مسمياتها، أي تجاوز الكلمة إلى الشيء؟

انطلاقــاً من هذا السؤال المحوري، يشيــر الباحث منير أحمد التريكي في السياق نفسه «أذكر أن كلمة modality التي إذا ما فتحنا قاموس اللسانيات وجدناها تترجم باللا مشروطية. وهذه ترجمة لا تعني للقارئ العربي شيئاً، غير أننا إذا حاولنا أن نعرف معنى كلمة (modality) من خلال رجوعنا إلى تعريفها وضوابطها وما قاله عنها العلماء في اللغة الإنجليزية رأينا أن بإمكاننا أن نترجمها **بصبغة القول**. وهو تعبير يشتمل على المحتوى وعلى وجهة نظر المتكلم فيمــا يقول، وصبغة القول بذلك تعبر عن فهم للكلمة الأجنبية وتعني شيئاً كذلك في الثقافة العربيــة»[٩]. كما يندرج هذا الانزياح ضمن استبدالية التعريف الخاضع لآليات النقل بتعريف يقتضي تجاوز الأول بدعوى فراغه من الدلالة العربية المألوفة من جهة، واستبدال هذا الأول بتعريــف يفترض فيه وجود الشحنة الدلالية العربية. أما كيف ولماذا يتم هذا الاستبدال فهو أمــر يمكن أن يُتنازع فيه بين انزياح التعريفيــن، لأن المصطلحين معاً لم يخضعا لاختبارية، كما أننا لا ندري شيئاً عن صدى تلقيها وتداولها. ولا يكفي الاجتهاد هنا في حالات الاستبدال والتصحيح التي قد يكون بإمكان المرسل أو المتلقي أن يجريهما على أي اصطلاح كيفما كان نوعــه، لأنه قابل باستمرار للخضوع لهذا النوع من الجراحــات التجميلية والباطنية، لأن أي عملية من هذا النوع، لابد لها من تأويل مقبول في النظرية النقدية وفي تاريخ الأفكار. يشير الباحث حمزة قبلان المزيني إلى أنَّ «المصطلح في لغته والمصطلح المترجم كليهما متوازيان فــي علاقتهما بالمسمى ولذلك أقول إنَّ المصطلــح المولد في لغته ليس أقرب في التسمية

مـن المصطلح المترجم إلى الشيء المسمى، فكلاهمـا في الواقع يمكن النظر إليه على أنه إبـداع للتسمية»(١٠). وبهذا فلا تكمن القضية في إبداع شيء معين بل في إبداعه ضمن منطق يمتلك كفايته النقدية، بل يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك باعتماد نقد مزدوج للأصل والفرع على السواء، لأن الإشكالية ليست (أحياناً) في الترجمة أو التكييف بل في النوعية والمقبولية. وفـي هذا الإطار يشير حسن عطية طمان إلى أن «إدخال المصطلح عن طريق جماعة اللغة أنفسهـم أمر سهل ولكن الإحلال وهو أن نجد كلمة تحل محل كلمة، وتقوم بطردها، وهو أمر صعـب. فإذا استقر اللفظ الأجنبي كان علـى المصطلح العربي أن يقوم بمهمتين؛ الأولى أن يجـد لنفسـه قبولاً في الجماعة اللغوية، والثانية أن يطرد اللفـظ الأجنبي... وهذا يعني أن هناك ضوابط عقلية»(١١).

نسـوق في هذا الإطـار كتـاب «new horizon in the study of language and mind» لـنعـوم تشومسكي. إذ يبدأ الاختلاف بين المترجمين من البداية بعنوان الكتاب، فقد ترجمه الباحـث حمزة بن قبـلان المزيني بـ: آفاق جديدة في دراسة اللغـة والذهن (٢٠٠٥م)، فيما ترجمه الباحث عدنان حسن بـ: آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل (٢٠٠٩م).

ومـن أجل الاقتراب أكثر من هذا الاختلاف، نورد مجموعة من المصطلحات لتبيان مدى الاختلاف بين الترجمتين من خلال الجدول الآتي:

الصفحة	مصطلح حمزة المزيني	الصفحة	مصطلح عدنان حسن
صفحة العنوان	الذهن	صفحة العنوان	العقل
١٤٤	عود الضمائر	١٠٢	الأنفورية (العائدية)
١٤٤	معين	١٠٢	محدد
١٤٥	الصواتية	١٠٣	الفونولوجي
١٤٥	المقولات الفارغة	١٠٤	الفئات الخالية
١٤٦	اللايقين	١٠٤	الاحسمية
١٤٩	القضايا الغيبية	١٠٧	القضايا الميتافيزيقية
١٥٠	البحث العلمي الطبيعي	١٠٩	الاستعلام الطبيعي
١٥٠	طريق النطق	١٠٩	اللفظ
١٥٠	الصرف	١٠٩	المورفولوجيا
١٥٠	بنية الجملة	١٠٩	تركيب الجملة

يرى الباحث صابر الحباشة - انطلاقاً من هذا الاختلاف- أن الترجمات المتعددة للأثر الواحد تدل على وعي بأهمية ذلك الأثر، لكنها تعبر كذلك عن ضعف التنسيق بين المترجمين العـرب، ومن ثم الحاجة إلى قائمة عامة بالأعمـال المترجمة، حتى لا تضيع الجهود سدى. فلـو ترجمنا كتاباً آخر لتشومسكي لـكان أفضل من إعادة ترجمة كتاب واحد له، ولاسيما أن صاحـب الترجمة اللاحقة - كما يبدو- لم يطّلـع- سهواً أو قصداً- على الترجمة الأولى(١٢). فيمـا يـرى الدكتور سعد السريحـي «أن (ترجمة المصطلح تشكل عبئـاً آخر، فنحن حينئذٍ لا نسمـي شيئاً ننتجه بل نحاول أن نعثر على تسمية لمنتج خارج سياق اللغة التي نتعامل بها، ولذلك فإن ترجمة المصطلح لا تعني تسمية الشيء بقدر ما تعني تسمية تسمية الشيء... ومن هنـا فإن الاعتباطية التي تقوم بين الدال والمدلـول لا تتحقق تماماً. لأن العلاقة هنا ليست بين دال ومدلول وإنما بين دال ودال آخر ينتسب كل واحد منهما إلى ثقافة تختلف عن ثقافة الآخر»(١٣). وحتى لا نظل عند حدود إعلان النوايا، نورد مجموعة من النماذج البارزة في إطار هذه الترجمات من خلال ما يلي:

١- تعدد المصطلح النقدي:

ترتبـط إشكاليـة المصطلح في ثقافتنا العربية، ارتباطاً وثيقـاً بإشكالية انتقال النظرية المعرفيـة عامة وحـراك المفاهيم والأفكار التي تشكل المسـار الطبيعي للعمليات الذهنية المتعاملـة مع قواعد المعرفـة والنظرية، نظراً لوجـود مساحة كبيرة فاصلـة من المعاني والـدلالات والطاقات المحركة للتأويل والقراءة ضمـن عملية الترجمة، وهذه الأخيرة تشكّل نوعـاً من التحويل من لغـة إلى أخرى حسب الباحث طه عبد الرحمـن(١٤). لكن على الرغم مـن ذلك، فإننا لا نعمل على تعميم إشكالية المصطلـح. ففي مجال النقد الأدبي على سبيل المثـال لا الحصـر، تنشط جهود ملحوظـة في حفر مصطلحات عربيـة تتقاطع مع تجارب وممارسـات منغمسة في النصوص والمـادة الإبداعية بشكل عام، على الرغم من تميز بعض هـذه الحفريات بنوع من الفوضى والمفارقات الدالة على ارتباط تعددية المصطلح، بتعددية القـراءة ولاسيّما عند تأمل مظاهر انزياحات أعمال الترجمـة في أغلبها. ويقضي المجمل العام لمشاغل النقد العربي، بتحولات يكمن مصدرها في تمثل النظرية والمنهج والمصطلح التـي تمثل ممارساتها أساساً عند كثيرٍ ممن تُرجِم لهم: جـورج لوكاتش، ولوسيان جولدمان، ورولان بـارت، وميشال فوكو، وجاك دريدا وغيرهم. مما يجعل إشكالية المصطلح، أبعد مما نتصـور. كما أنها لا تقتصر على ميدان دون غيره، بـل تطأ مجالات المعرفة برمتها وتهاجر

منهـا إلى أخرى، وتطأ تخـوم النظرية، فتمارس آلياتها وشبكـة تصوراتها من أجل أن تنسل أفكارهـا في نظرية جديدة، وتطأ الأجناس الأدبية أيضـاً، فتهاجر من جنس أدبي إلى آخر، وتطأ ميدان الإصلاح اليومي بكل تشعباته وتعقيداته.

– Introduction à l’analyse structurale des récits: ترجـم عنـوان هـذه الدراسـة المنسوبـة إلى صاحبها رولان بارت، ترجمات عدة: مدخل إلـى تحليل السرد بنيوياً، والنقد البنيـوي للحكايـة. لدى أنطوان أبي زيد. ومدخل إلى التحليـل البنيوي للقصص، عند نخلة فريفـر. والتحليل البنيوي للقصة القصيرة، لدى نزار صبـري. ومدخل إلى التحليل البنيوي للسرد، عند كل من بشير قمري وسيد بحراوي. ومدخل إلى التحليل البنيوي للمحكيات، عند غسان السيد. ومدخل إلى التحليل البنيوي للقصة وكذا للقصص عند منذر عياشي[١٥].

– La stylistique: تُرجِـم هذا المصطلح بـ: الأسلوبيـة والأسلوبيات وعلم الأسلوب وعلم الأسلوبية[١٦].

– La modernité: ترجـم هـذا المصطلح من خلال مصطلحات كثيـرة مثل: الحداثة، والحداثوية، والحداثانية، والتحديـث، والمعاصرة، والعصرية، والعصرانية، والمودرنيزم[١٧]. ويبـدو الخلط الواضح بين هذه المقابلات ومصطلحات أخرى مجاورة مثل: modernisme، modernisation.

– Le formalisme: ويقابله على الأرجح مصطلحات متفاوتة شكلاً على نحو: الشكلانية، والشكلية، والشكلنة، والشكل[١٨].

– Lecture، récepteur: القـارئ، والمتلقي، والمستهلـك، والمؤول، والشارح، والموضح، والمفكك، والمفسر، والمرسل إليه، والمخاطب، والمروي له، والمحكي له[١٩].

– La nouvelle، short story: القصـة، والقصـة القصيـرة، والقصـة القصيرة جداً، والأقصوصة، والقصة الصغيرة، والقصة القصيرة الطويلة، والرواية الصغيرة[٢٠].

– La littérature féministe: الأدب النسـوي، والأدب الأنثوي، والأدب النسائي، والكتابة الأنثوية، والكتابة والتعبير النسائي، والكتابة النسائية المؤنثة، والنص الأنثوي، والنص النسوي، والطرح النسوي[٢١].

– Le déconstructualisme، la déconstruction: يقابلهما غالباً: التفكيكية، والتشريحية، والتقويضية، والتقويض، والتفكيك، والتشريح[٢٢].

- La sémiologie، la sémiotique، semiotics: السيميولوجيا، والسيميولوجية، والسيميائية، والسيميائيات، والسيميوطيقية، والسيميوطيقا، والسيميوتقي، والسيميوتيكية، والسيمية، والسيمياء، وعلم الدلالات، والدلالئلية، وعلم العلامات، والعلاماتية، وعلم الإشارة، والإشاراتية، وعلم الأدلة، والدراسة العلامية، وعلم الرموز، والرموزية.إنها مصطلحات كثيرة ومختلفة في الصياغة والوضع، غير أننا نجد الناقد فاضل ثامر يفضل ويؤثر مصطلح السيميائية على سائر المصطلحات. يقول في هذا الشأن: «أفضل هذه المصطلحات، هو السيميائية لأنه يحمل جذراً عربياً،كما يحمل معطى صوتياً عربياً للصوت الأجنبي، ويقبل الإضافة والجمع والنسبة والاشتقاق»[٢٣].

- L'intertextualité: عرف كذلك مجموعة من التقابلات أهمها: التناص، والتناصية، والبينصية (غازي مختار طليمات، وعبد العزيز حمودة)، والتفاعل النصي (سعيد يقطين)، والتداخل النصي (عبد الله الغذامي)، والنصوص المتداخلة (سعيد الغانمي)، والحوارية (حميد لحمداني) ومصطلحات أخرى مثل: تفاعل النصوص، والتعالق النصي، والنص الغائب، والنص المفقود[٢٤].

- Le paratexte: عتبة النص، والمناص، والنص المصاحب، والنص الموازي، والمحيط النصي، ومحيط النص، والموازي النصي، وسياج النص، والنص المحاذي، والنصحبة (النص+المصاحبة). إنها «أسماء كثيرة لحقل معرفي واحد. أخذ يسترعي اهتمام الباحثين والدارسين في غمرة الثورة النصية التي تعدّ إحدى أبرز سمات تحولات الخطاب الأدبي بشكل خاص، والخطابات المعرفية التي تقتسم معه إشكاليات القراءة والتفاعل والإقناع والتواصل بشكل عام»[٢٥].

- Le structuralisme: البنيوية، والبنوية، والبنائية، والبناء، والألسنية، والهيكلية[٢٦].

- La poétique: يقابله مصطلح الشعرية عند كل من حسن ناظم ونور الدين السد وكمال أبي ديب، ورشيد بن مالك وصلاح فضل، ومصطلح الشاعرية عند عبد الله الغذامي وسعيد علوش ونهاد التكرلي، ومصطلح الإنشائية عند حسين الواد وكثيرٍ من الدارسين التونسيين، ومصطلح البويتيك لعبد المالك مرتاض، والبويتيك عند عبد السلام المسدي، والشعريات عند مرتاض، ونظرية الشعر عند علي الشرع، ومصطلح بويطيقا عند خلدون الشمعة وبشير القمري وجابر عصفور وسعيد يقطين وعبد السلام المسدي، ومصطلح علم الأدب عند

جابر عصفور ومجيد الماشطة. ومصطلح فن الشعر عند يوسف عزيز ومجدي وهبة والحاج عبد الرحمن صالح، ومصطلح الأدبية عند حسن ناظم، وعلم النظم عند بسام بركة ومبارك المبارك.كما أن هناك مصطلحي القول الشعري وعلم الشعر. غير أن مصطلح الشعرية في نظر بعض الباحثين، يتفوق على غيره من المصطلحات المتراكمة، لما يمتاز به من كفاءة دلالية وشيوع تداولي، جعله يهيمن على ما سواه من المصطلحات الموازية[٢٧].

– La narratologie: يقابل هذا المصطلح النقدي والسردي في الوقت نفسه، مصطلحات كثيرة بعضها متداول وبعضها محدود التداول، مثل: السردية، والساردية، والسرديات، وعلم السرد، والمسردية، والسردلوجية، والنراتولوجيا، ونظرية القصة، والقصيات... إلخ.

– Le fantastique: يتداخل هذا المصطلح في أغلب الأحيان مع مصطلحات مجاورة: «l'étrange» وLe merveilleux وla fantaisie. لهذا نلفى مقابلات كثيرة متداخلة وغير دقيقة، من قبيل: العجائبي، والعجائبية، والعجيب، والخوارقي، والغريب، والغرائبي، واللامعقول، والسحري، والخرافي، والفانتاستيك، والفانتاستيكي، والعجاب، والفانتازي، والوهمي، والمدهش... إلخ.

– L'herméneutique: على الرغم من تداخله مع مصطلحات أخرى في المجالات نفسها مثل: interprétation، exégèse، فإننا نلفى له مقابلات على هذه الشاكلة: الهرمينوطيقا، والهرمنوتيك والهرمنوتيكية(كما عند سعيد علوش)، والتفسير، ونظرية التفسير، وعلم تفسير النصوص، وعلم التفسير، والتأويلية، و التأويل، وفي التأويل، وعلم التأويل، وفلسفة التأويل، ونظرية التأويل...[٢٨].

– Vers libre، free verse: الشعر الحر، والشعر المنثور، وشعر النثري، والشعر المتحرر، والشعر المنطلق، و نظم مرسل حر، والشعر الحر الطليق، وشعر التفعيلة، والشعر المطلق أو المرسل... إلخ.

٢- تعدد المصطلح اللساني:

تعد اللسانيات كذلك من أكثر الحقول المعرفية التي ارتبطت بها إشكالية المصطلح. لتشعّبها من جهة ولارتباطها بمختلف الحقول المعرفية الأخرى، على رأسها النقد الأدبي. يقول محمد رشاد الحمزاوي: «وتزداد القضية تشعباً عندما ننظر إلى الأساليب الفنية التي ترجمت بها هذه المصطلحات. ولا بد أن نشير في هذا الصدد إلى أن كل الترجمات لا تعي

فنياتهــا وعياً علمياً مركــزاً»[٢٩]. كما أن اللجــوء إلى الترجمة (حسب تصــوره) يثير قضية المطابقة بين المصطلح اللغوي والواقع وكذا قضية الترادف بين اللغات. ويضيف: إن اللجوء إلى الترجمة لن يؤتى أكله «إلا إذا استقلت اللغة المترجم إليها بنظرياتها، وأصبح لها من الزاد الاصطلاحــي الذي يوفر لهــا التكثيف والتحوير والإسقاط»[٣٠]. يربــط أغلب الباحثين هذه الإشكالية بمجموعة من القضايا الأخرى، نذكر من بينها:

أ- **عدم الدقة في إدراج المصـطلح**: يربط الباحث أحمد مختار عمر المصطلح في بحثه - دراســة الصوت اللغوي- بعدم الدقة في فهم مــا يعبر عنه (أو ما يُترجَم). ويورد مجموعة مــن الأمثلة للتدليل على ذلك. ومن ذلك مثلاً، عــدم التفريق بين المصطلحين الإنجليزيين: nasality nasalization مــع أن الأول يعني تسرب الهواء كليا من خلال فتحة الأنف، والثاني يعنــي تسرب الهواء من الأنف مــع استمرار تسربه من الفم، وذلك كما يحدث في نطق بعض العلــل. وقد استخدم المهتمون للأول مصطلح الأنفيــة وللثاني مصطلح التأنيف. أما المثال الثانــي فيتجلى في عدم التمييز بين الغاري Palatal والمغور palatalized. فالأول ينطق عن طريق نطق مفرد في منطقة الغار، والثاني ينطق باجتماع النطق الغاري مع نطق آخر معين، وبهذا يمكن التفريق كذلك بين الصوت الطبقي velar والمطبق velarized، والصوت المهموس والمهمس، والصوت المجهور والمجهر.

ب- **اختلاف الباحثين في ترجمة المصطلح (نماذج)**: يرى الباحث التونسي عبد السلام المسدي أنّ هذه المصطلحات تَعرِفُ نوعاً من التنوع في طريقة وضعها بين التعريبين الكامل والناقصــ، والترجمة الحرفية، والترجمة الواسعة والتفسير[٣١]. ويبرز هذا بشكل جلي، حين يترجمُ الكتاب نفسه مترجمان أو أكثر.

- Science du langage أو la linguistique: أحصــى الباحــث عبد السلام المسدي في قاموســه نحو ٢٣ اسماً مقابــلاً للمصطلح المذكور (المسدي، قاموســ اللسانيات، ص٥٥). ويقابله غالباً مصطلح الألسنية عند ريمون طحان وأنيس فريحة، وخليل إبراهيم سعفان، وكذا صالح القرمادي ومحمد عجينــة ومحمد الشاوش ويوسف غازي ومجيد نصر[٣٢]. ومصطلح علــم اللغة عند أحمد نعيم الكراعين ويوئيل يوسف عزيز[٣٣]. ومصطلح علم اللسان عند عبد القادر قنينــي[٣٤]، ومصطلح اللسنيات عند الباحث المغربــي أحمد الأخضر غزال[٣٥]، وكذا مصطلــح اللسانية عند عادل فاخوري، وعلم اللسانيات عند مــازن الوعر. وأيضاً «مصطلح

اللسانيـات» الـذي يعد علـى الأرجح مغاربياً، علـى الرغم من أنه اتُّفِق فـي الدورة الرابعة للسانيات سنة (١٩٧٨م) على استعمال مصطلح اللسانيات والتخلي عن غيره من المصطلحات التـي تثير كثيراً من الغموض والالتباس، وعلـى الرغم من إجماع الدارسين اللسانيين العرب أنفسهـم حول ضرورة تداول مصطلـح اللسانيات، فما فتئ عدد غير قليل ولاسيما في مصر وسوريـة والعراق يلجأ إلى مصطلحـي فقه اللغة وعلم اللغة دون مراعـاة للعواقب النظرية والمنهجية عن استعمال المصطلح القديم في سياق حديث وما يثيره من التباس وغموض(٣٦).

كمـا يمكن ذكـر مصطلح علم اللهجات أيضـاً الذي استعمله صالح القرمـادي، خالطاً بينه وبين Dialectologie أحيانـاً في الترجمة، فضلاً عن اللغويات ثم اللانغويستيك عند محمد الأنطاكي(٣٧).

- Paradigmatique : ترابطي، جدولي، استبدالي، تصريفي(٣٨)
- Syntagmatique: تركيبي، سياقي، نسقي، ركني.
- Synchronique: سكروني، تزامني، وصفي، متعاصر، متواقت، آني.
- Diachronique: دياكروني، تطوري، تعاقبي، تاريخي، زماني.
- Le signe: العلامة، الإشارة، الدليل، السمة.
- Métalangage: ما وراء اللغة، اللغة الواصفة، اللغة الانعكاسية، اللغة الشارحة.
- Phonème: الفونيم، الصوتم، اللافظ، المستصوت، الصوت المجرد.
- La pragmatique: يترجم المصطلح غالباً بكثير من المقابلات مع تفاوت درجة التداول والاستعمال. كما يخلط بينه وبين مصطلح آخر قريب منه لفظاً، لكنه يختلف عنه دلالةً ومجالاً وهو مصطلح «pragmatisme» الذي ينتمي إلى الحقل الفلسفي، على نحو مصطلحات أخرى: التداوليـة، والتداوليات، والبراغماتيـة، والبرجماتية، والبراكماتيـة، والذرائعية، والذرعية، ومذهـب الذرائع، والذريعيـات، والوظيفية، والاستعمالية، والتخاطبيـة، والأغراضية، وعلم الأغراض، والتخاطبية، والنفعية، والسياقية، وعلم المقاصد، والبراغماتكس، والبراغماتزم، والتبادلية(٣٩).

لعـل هذا الاختلاف والتبايـن بين الباحثين والمترجمين وأهـل الاختصاصات في وضع المصطلـح اللساني ونزعة التعدد في شأنه، قد يكون مـرده بحكم طبيعة المجال إلى جملة من الأسباب التي أشار الباحث عبد السلام المسدي إلى أهمها من خلال قوله: «إن اختلاف

الينابيع التـــي ينهل منها علماء العرب اليوم بين لاتيني وسكسوني وجرماني وسلافي وطبيعة الجدة المتجددة التي تكسو المعرفة اللسانية المعاصرة، وتراكيب الأدوات التعريفية والمفردات الاصطلاحية مما يقتضيه تزاوج مادة العلم وموضوعه في شيء واحد هو الظاهرة اللغوية، ثم طفرة الوضع المفهومي وما ينشأ عنه من توليد مطرد للمصطلح الفني بحسب توالي المدارس اللسانية وتكاثر المناهج التي يتوسل بها كل حزب من المنتصرين للنظرة الواحدة أحياناً. كل ذلــك قد تضافر، فعقد المصطلح اللساني. فجله إلــى الاستعصاء والتخالف أقرب منه إلى التسوية والتماثل»[٤٠].

المصطلح العربي بين واقع التعدد وآفاق التوحد

يتسم واقع المصطلحات العربية المنقولة من نظيرتها الغربية يتسم بالاضطراب والغموض والعفوية والمزاجية الفردية وعدم التناسق إلى درجة الفوضى، مما دفع الباحثين والمختصين العــرب إلى التفكير والعمــل على خلق مبادرات توحيد هــذه المصطلحات وتأطيرها ضمن معاجم موحدة ومشتركة، لتشكل مرجعاً أساسياً وحتمياً للجميع دون استثناء، لأن الغرض من توحيــد المصطلحات وتأطيرها ضمن معاجم موحدة ومشتركة، تكون مرجعاً أساسياً وحتمياً للجميــع دون استثنــاء، لما في توحيدها مــن نفع عام يجني ثماره كل أبنــاء الوطن العربي. ذلــك «لأن الغرض من توحيد المصطلحات هو تهيئة الأرضية اللغوية الصالحة لوحدة الأمة الفكرية والاجتماعية والسياسية»[٤١].

تلوح مشكلة توحيد المصطلح العربي قضية أساسية من القضايا التي باتت تشغل الباحثين منذ زمن بعيد لتفاقمها وحساسيتها. ومن ثمّ قد يؤدي تعدد المصطلحات وعدم توحيدها إلى الوقوع في التناقض والخطأ أحياناً[٤٢]. لقد تحدث بخصوصها مصطفى الشهابي (ت ١٩٦٨م) في الخمسينيات حين قال: «إن الشعور بضرورة توحيد المصطلحات العلمية، أصبح في البلاد العربية شعوراً عاماً، والآراء متضاربة في الوسائل التي يجب التوصل بها لبلوغ هذه الغاية»[٤٣]. على الرغم من وجود بعض من يعترض على إمكانية نجاح مبادرات ومحاولات التوحيد، وذلك حين يزعمون أنه لا يمكن توحيد المصطلحات أو وضع مقاييس محددة لاستحداث مصطلحات جديدة، لأنَّ ذلك قد يقود إلى إحداث الجمود في اللغة والتحجر في البحث العلمي. لعل هذا مــا يدعو إليه أغلب الباحثين. إذ «إن الدعــوة إلى توحيد المصطلح، تبدو قضية زائفة وعلى غاية من السطحية، لأنها تحجب عنا القضايا الحقيقية التي ينبغي أن نركز فيها اهتمامنا، ثم

إن طرح مسألة التوحيد يصبح خطراً لأنه في بعد من أبعاده حكم على البحث العلمي بالجمود، والعلم إنما يجد تربته الخصبة في وجود الاختلاف والخلاف»[٤٤]. قد يكون هذا الرأي صحيحاً نسبياً في تصوره للقضية من جانب معين، لكن قد لا نوافقه فيما يذهب إليه من أن الدعوة إلى التوحيد هي دعوة إلى تجميد البحث العلمي وتهميش القضايا الجوهرية للباحث العربي. لكن ينبغي الإقرار في هذا السياق، بأن التعدد والتشتت في وضع المصطلحات وعدم تحديد الإجماع حولها هو ما يشكل خطراً حقيقياً على الدراسات العلمية والأدبية والنقدية والإنسانية بشكل عام، نظراً للفوضى التي يمكن أن تترتب عن ذلك وهي الفوضى التي غدت داءً عضالاً مهدداً في نظر سعد مصلوح[٤٥]. إلى درجة أن هناك من يرى أنَّ أي باحث في أي مجال باستطاعته أن يقطع بوحدة الأمة فكرياً وسياسياً من خلال وحدة مصطلحاتها اللغوية في العلوم والتقنيات والإنسانيات[٤٦]. لهذا، فإن للمصطلح دوراً فاعلاً في تحديد وتكوين أطر المعرفة وتسييجها وضبطها، مما يجعل اضطرابه واختلال دلالته سبباً في اضطراب نسق وبنية قياسات أي ضرب من العلوم، ومن ثمّ اختلال نظامها وتهاوي أنسجتها[٤٧]. أو مثلما يتصور بعض الباحثين بأن ثقافة أي أمة من الأمم قد تقوض وتفكك بعلة اضطراب دلالة المصطلح أو تكاثر المصطلحات لمفهوم واحد وتعارض مفاهيمها وعدم استقرارها[٤٨].

لعل هذه الصورة التي يرسمها اختلال المصطلحات واضطرابها وتعدد دلالاتها وألفاظها، يجسدها كذلك بوضوح في الدرس اللغوي ما يسمى المشترك اللفظي أو الترادف اللغوي homonymie /أو synonymie. عكس التعدد الدلالي للفظ واحد/ Polysémie، الذي قد يفضي بدوره إن أسيء استعماله إلى إشكالية في التلقي، وخلق نوع من التنافر بين اللفظ الموضوع وسياقه الدلالي، ذلك أن ظاهرة الترادف اللغوي التي في مجال المصطلحات وترجماتها، تبدو ظاهرة إشكالية ترقى لدى بعضهم إلى درجة الخطورة وذلك «لأنها من العوامل التي تفقد المصطلح أهم ما يجب أن يتصف به من الصفات المتجلية خاصة في الدقة والخصوصية. لكي يتميز عن اللفظ اللغوي العام، وينفرد بمعنى خاص به اصطلاحاً نهائياً لا لبس فيه ولا إشكال)[٤٩]. لعل هذا ما يجعلنا نلفي رأياً واقعياً لأحد الباحثين، يلخص من خلاله ثنائية التعدد والتوحد التي تعتور المصطلح ودوره في البحث العلمي. يقول في هذا الشأن: «إن القيمة الحقيقية لأي مصطلح لا تتحقق إلا بشرطين أحدهما التوحد، وثانيهما الشيوع. وأعني التوحد: أن يكون لكل مفهوم اصطلاحي شكل خاص لا يشاركه فيه سواه. وأن يكون لكلِّ مشكل اصطلاحي مفهوم واحد لا يتعداه. أما إذا أصيبت اللغة الاصطلاحية

بالترادف أو تعدد الدلالة، فإنها تفسد. وأعني بالشيوع، انتشار المصطلح ودورانه في ميدان استعماله، لأن المصطلح لغة للتواصل بين المشتغلين به في ميدان خاص، ومن أغفل هذا الشرط أصبح ذاتياً لا قيمة له»(٥٠).

تأسيساً على ما سبق، يمكن النظر إلى هذه الإشكالية القائمة التي قد تعصف بجهود المشتغلين على المصطلح، نظرة واقعية واستشرافية كذلك. قصد معالجتها وتطويقها والحد من استشرائها، فالحاجة ملحة إلى تعطيل تمدد هذه الإشكالية واستفحالها من خلال فعل التنسيق بين جهود الباحثين كافة، وكذا المجامع العلمية (العراقي، والأردني، والسوري، والمصري...). من أجل توحيد المصطلح بعيداً عن النزعة الفردية ونعرة القطرية، لأن التنسيق هو السبيل الوحيد إلى توحيد المصطلحات(٥١). فضلاً عن دور مكتب تنسيق التعريب بالرباط الذي مازال يعد أكبر هيئة عربية تضلع بتنسيق المصطلح العربي وتوحيده. إلا أن محاولة التنسيق كما يرى الباحث عبد الرحمن الحاج صالح، قد لا تقنع في أحيان كثيرة بعد وقوع البلبلة مع ما تقتضيه الضرورة من وضع قائمة المصطلحات التي يضعها الواضعون في كل بلد عربي تحت تصرف كل باحث في المصطلحات، مع الدلالة على الذي دخل فيها في الاستعمال بالفعل، ويذكر لذلك المصادر التي وردت فيها(٥٢). وذلك في إطار فعل معرفي جماعي بعيداً عن الرغبة الفردية التي تخضع في أغلبها لميول شخصية. إنها الآفة التي استفحلت كذلك بسبب انقطاع التواصل بين الباحثين ليس في الأقطار العربية جمعاء فحسب، بل في القطر الواحد كذلك. وهو ما يجعل بعضهم ينظر إلى فعل التنسيق سواء بين الأفراد أم بين المجامع بعين الريبة إن لم نقل بعين اليأس والسخط في قوله: «وما أظن أن هذه الغاية يمكن تحقيقها في ظل المجامع اللغوية القائمة التي يتوزع مجهودها المصطلحي بين مختلف العلوم والفنون، والتي ينقص معظمها الكفاءات اللغوية المختلفة التخصص. سواء على مستوى أجهزة التحضير أم الإعداد والمتابعة أم مستوى البت وإصدار القرار. كما يعيب أمثال هذه المجامع إيقاعها البطيء وحركتها المتئدة وعجزها عن متابعة سبل المصطلحات والمفاهيم التي تنهمر علينا في كل يوم دون رصد أو متابعة. فضلاً عن دراسته ووضع المقابلات العربية له. لقد كان بطء المجامع الشديد، من بين المشكلات الأساسية التي فَتَحَتْ الباب على مصراعيه أمام الاجتهادات الشخصية، وإفساح المجال أمام الأفراد ليصولوا في الميدان ويجولوا، ثم تدخلت بواعث السبق وحب الريادة، فأفسدت أي محاولة للتنسيق»(٥٣). كأن الجميع يحاول أن يفتخر بأنه أول من استعمل هذا المصطلح أو ذاك. ولا أحد يرضى بتوحيد المصطلح.

يمكننا أن نستنتج انطلاقاً من هذين الرأيين، أن صاحبيهما يبدوان يائسين وغير مطمئنين تجاه مسألة التنسيق بين المختصين وإمكانية توحيد جهودهم والإجماع على مصطلح واحد أو لفظ واحد بدلالة موحدة واضحة ودقيقة. وكذا تجسيد الإسهامات فعلياً في الميدان على الرغم من أن توحيد المصطلح في الثقافة المعاصرة، أصبح ضرورة من ضرورات حياة العرب الفكرية والمعرفية من أجل إثبات الذات وتأصيلها بتراثها في خضم المشهد الحضاري المعقد، لأن «التطور العلمي في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل تطور الحضارة السريع، لا بد له من عداد متقن ومنسق بعد أن أصبحت البشرية عالماً وحيداً مشتركاً في مختلف قضاياها العامة. إنها لا تشكل اعتزازاً بالنفس واعتداداً بالإقليمية، وإنما هي قضية مصير موحد وقضية مستقبل الحضارة والعلوم في الوطن العربي. لذا، فمن الطبيعي أن تأخذ الأمور بالجد واحتواء الحضارة الغربية ومواجهتها بفهم علومها ومصطلحاتها»[٥٤]. لهذا ينبغي في سياق هذه الضرورات، أن يُصاغ المصطلح ويوضَع ويُوحَّد ويُدرَج في معاجم متخصصة. يرجع إليها جميع الباحثين حسب تخصص كل منهم، حتى لا تتشتت الجهود. مع وجوب الإقرار بأن توحيد المصطلح في كل المعارف والحقول ولاسيما في النقد واللسانيات، رهين «باستعماله وتداوله، ولوسائل الإعلام، والصحف والمجلات والكتب، ومختلف مواطن التداول الأخرى أعمق الآثار في ذلك. فالاستعمال وحده هو الذي يدخل ويغربل، ومن ثم المصطلح الموحد بقانون البقاء للأقوى أو الأنسب»[٥٥]. من ثمة، فالاستعمال والتداول عاملان مهمان في تأسيس المصطلح ومفهومه، ذلك أن الاستعمال هو(المنبع الأول الذي يجب أن يرجع إليه الواضع للمصطلح والباحث الاصطلاحي خاصة)[٥٦]. فضلاً عن الحاجة إلى جهد جماعي والاهتداء إلى مصدر واضح في التعامل مع المصطلحات بوصفها مفاتيح للعلوم، وكذا أدوات ناجعة في مقارنة النصوص وتحديد جل المنهجيات. إن القصد من الاعتناء بالمصطلح لدى بعض الباحثين، عبارة عن توجه نحو قيمته الحقيقة والنظر إليه على أنه جزء من منهج يوظف لمقارنة النصوص الإبداعية[٥٧]، ولاسيّما أن وسائل وضع المصطلحات وطرائقها متعددة وثرية في اللغة العربية التي تتسع بما تتصف به من قدرات لاستيعاب العلوم والآداب والفنون. يتجلى ذلك على سبيل المثال في: الوضع والقياس والاشتقاق والمجاز والتوليد والتعريب والنحت وغيرها من الوسائل والصيغ والأساليب.

الهوامش

(١)- بارة، عبد الغني: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٥م، ص٢٩٣.

(٢)- النويري، محمد: واقع العلم وهواجس توحيد المصطلح، مجلة علامات في النقد، الجزء٨، النادي الأدبي بجدة، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٣م، ص٢٥٦.

(٣)- حمودة، عبد العزيز: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيكية، عالم المعرفة، العدد: ٢٣٢، الكويت، ١٩٩٨م، ص٣٥.

(٤)- المزيني، حمزة: التحيز اللغوي وقضايا أخرى، ط١، مؤسسة اليمامة، الرياض، ٢٠٠٤م ، ص٢٠٤.

(٥)- عقون، محسن: واقع الترجمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ٢٠٠٤م، ص٦٥.

(٦)- المزيني، حمزة: مرجع سابق، ص٢١٥.

(٧)- مفيد، نجم: الكتابة النسوية، إشكالية المصطلح، التأسيس المفهومي لنظرية الأدب النسوي، مجلة نزوى، العدد: ٤٢، سلطنة عمان، ٢٠٠٥م، ص٩٢.

(٨)- الربيع، آمنة: البنية السردية للقصة القصيرة في سلطنة عمان، ١٩٨٠م، ٢٠٠٠م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٣٨- ٦٥.

(٩)- العروي، عبد الله: الأيديولوجية العربية المعاصرة، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٠م، ص١٥٦.

(١٠)- كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي، ط١، دار الملايين، بيروت، ١٩٨١م، ص٧.

(١١)- للمزيد من المعلومات حول مسألة المصطلح النقدي، يمكن الاطلاع على كتاب: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ط١، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٨م.

(١٢)- الحباشة، صابر: مقاربة بين ترجمتين عربيتين، ضمن مجلة: العربية والترجمة، العدد١٠، صيف ٢٠١٢م، ص٩١.

(١٣)- الحمزاوي، محمد رشاد: مشاكل وضع المصطلحات اللغوية (ندوة اللسانيات واللغة العربية، تونس، ١٩٨١م، ص٢٦٤- ٢٦٥.

(١٤)- طه، عبد الرحمن: الفلسفة والترجمة، ط ٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ٢٠٠٠م، ص١٢٣.

(١٥)- منذر، عياشي: اللسانيات والدلالة، ط١، مركز الإنماء العربي، دمشق، ٢٠٠٧م، ص١٤٣.

(١٦)- الشيخ، ممدوح: التفكيكية من الفلسفة إلى النقد الأدبي، مجلة الآطام، العدد٨، نادي المدينة المنورة الأدبي، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٠م، ص ٤٧- ٥٨.

(١٧)- الشيخ، ممدوح: المرجع نفسه، ص٥٣.

(١٨)- عبد الرزاق، بلال: مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي، ط١، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٠م، ص٢١.

(١٩)- السد، نور الدين: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ط١، دار هومة للنشر والطباعة، الجزائر، ١٩٩٦م، ص١٤.

(٢٠)- قدورن، أحمد محمد: اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠١١م، ص١٢٠.

(٢١)- قدورن، أحمد محمد: مرجع سابق، ص١٤٣.

(٢٢)- وغليسي، يوسف: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي الجديد، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص٢٨٧.

(٢٣)- فاضل، تامر: اللغة الثانية، في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي الحديث، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ١٩٩٤م، ص١٦٩.

(٢٤)- غلمان، مصطفى: اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، ط١، منشورات كلية الأدب، عين الشق، الدار البيضاء، ١٩٩٨م، ص١٤٩- ١٥٠.

(٢٥)- غلمان، مصطفى: مرجع سابق، ص١٥٤.

(٢٦)- حمداوي، جميل: التداوليات وتحاليل الخطاب، ط١، مكتبة المثقف، المغرب، ٢٠١٥م، ص١٠٦.

(٢٧)- القاسمي، علي: تخطيط السياسة اللغوية في الوطن العربي ومكانة المصطلح الموحد، مجلة اللسان العربي، العدد ٢٣، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، ١٩٨٣م، ص١٥.

(٢٨)- القاسمي، علي: المرجع نفسه، ص٢٣.

(٢٩) البازعي، سعيد: إشكالية المثاقفة في النقد الأدبي العربي الحديث، مجلة- عالم الفكر، الكويت، العدد الرابع، ٢٠٠٠م، ص١٢٧.

(٣٠)- عز الدين، إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، ط١، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٤٥.

(٣١)- خوري، منح: الشعر بين نقاد ثلاثة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م، ص١٤.

(٣٢)- المسدي، عبد السلام: اختلاف المصطلح بين المشرق والمغرب ضمن حوار المشارقة والمغاربة، مجلة العربي، العدد٢، الكويت، ٢٠٠٦م، ص٢٧.

(٣٣)- فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، ط١، دار آفاق عربية، العراق، ١٩٨٥م، ص٨٨.

(٣٤)- فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة: عبد القادر القنيني، ط١، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ١٩٨٧م، ص١٣٢.

(٣٥)- الأخضر، غزال: المنهجية العامة للتعريب المواكب، ط١، معهد الدراسات والأبحاث والتعريب، الرباط، ١٩٧٧م، ص٩٥.

(٣٦)- بوجادي، خليفة: في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط١، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩م، ص٦٥.

(٣٧)- الأنطاكي، محمد: الوجيز في فقه اللغة، ط٣، مكتبة الشرق العربي، بيروت، ١٩٦٩م، ص٧.

(٣٨)- الفاسي الفهري، عبد القادر: اللسيانيات واللغة العربية، ط١، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٦م، ص٤٨٣.

(٣٩)- فرديناند دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة: يوسف غازي ومجيد نصر، ط١، المؤسسة الجزائرية للنشر، ١٩٨٦م، ص٨٤.

(٤٠)- المســدي، عبد الســلام: قاموس اللسانيات، مع مقدمة في علم المصطلح، ط١، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٤م، ص٥٥.

(٤١)- العيســ، سالم: الترجمة في خدمة الثقافــة الجماهيرية، ط١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سورية، ١٩٩٩م، ص١٠٣.

(٤٢)- لحسن، عمر: اللسانيات والترجمة، مجلة الآداب الأجنبية، العدد ١١٥، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م، ص٤٢- ٤٣.

(٤٣)- الشهابــي، الأمير مصطفى: المصطلحات العلمية والفنية في اللغة العربية في القديم والحديث، ط٢، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ص١٤١.

(٤٤)- الحمزاوي، محمد رشاد: المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنظيمها، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٧.

(٤٥)- مصلوح، سعد: الأسلوب، ط٣، عالم الكتب، القاهر، ١٩٩٢م، ص٣٠.

(٤٦)- بوخاتــم، مــولاي علي: مصطلحــات النقد العربي السينمائــي، الإشكالية والأصــول والامتداد، ط١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م، ص٣١.

(٤٧)- الملائكة، جميل: المصطلح العلمي ووحدة الفكر، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد٣، ١٩٨٣م، ص٩٠.

(٤٨)- المتــوكل، أحمــد: الوظائف التداولية في اللغــة العربية، ط١، دار الثقافة، الــدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥م، ص٨.

(٤٩)- الشوا، أيمن: من قضايا المصطلح العلمي عند الأمير مصطفى الشهابي، مجلة التراث الأدبي، العدد٩، ١٠، اتحاد الكتاب العرب، سورية، ٢٠٠٥م، ص١٩٢.

(٥٠)- القاسمي، علي: مقدمة في علم المصطلح، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٧، ص٧٦- ٧٧.

(٥٢)- إبراهيــم بن مراد: المسائــل المنهجية في نقل المصطلح العلمي الأعجمــي إلى العربية، ط١، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية، تونس، ١٩٨٣م، ص٤٩٩.

(٥٣)- الحاج صالح، عبد الرحمن: أدوات البحث العلمي في علم المصطلح الحديث، مجلة: المجمع الجزائري للغة العربية، العدد ٧، ٢٠٠٨م، ص١٤.

(٥٤)- الحمــزاوي، محمد رشاد: العربية والحداثة أو الفصاحة، ط١، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٨٢م، ص٨٥.

(٥٥)- عمر، أحمد مختار: المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجية، مجلة عالم الفكر، مجلد ٢٠، العدد ٣، الكويت، ١٩٨٩م، ص٢٠- ٢١.

(٥٦)- أوكان، عمر: اللغة والخطاب، ط١، إفريقيا، المغرب، ٢٠٠١م، ص١٠٦.

(٥٧)- رزوق، خيــر الدين: ترجمــة المصطلح النقدي، أسئلة وإشكالات، مجلة الحيــاة الثقافية، العدد ٢٥٣، تونس، ٢٠١٤م، ص٢١.

مقدمة حول «الأدب المجاور»[(١)]

دانيال كوينياس
ترجمة: د. وائل بركات

علينا أولاً أن نحدد - على الأقل وبإيجاز- مفهوم «المجاور أو المشابه أو المماثل» para، وسنقتصر هنا على المعاجم التي ستكون كافية لنا في توضيح المقصود بهذه الزائدة préfixe [أي المقطع الذي يتكرر في بداية الكلمات (السوابق)] التي تعني «المرافقات أو المجاورات»، فهي تعني معاً: بالقرب من près de أو حول autour de (مثيل الحمى التيفية)[(٢)]، كما تعني «ضد» contre المقابل للمفارق (paradoxe). وبما أن «ضد» نفسها لها معنى مزدوج فيمكنها أن تكون أيضاً بمعنى القريب تماماً أو في الجوار tout près (أن تبقى مقابلاً أو مجاوراً لي).
جان تورتيل، «حوارات حول الأدب المجاور»، بلون، ص ١٦.

إن مصطلح «الأدب المجاور paralittérature» من التعبيرات التي ستثير بعض المشكلات حين نستخدمها ونسمعها ونقرؤها. فهو صندوق باندورا[(٣)] Boîte de Pandore، الصندوق الجهنمي الذي يحمل في ذاته عدداً من التداخلات المنهجية والثقافية وحتى الأيديولوجية. ويمكننا القول: نادراً ما قيل هذا المصطلح أو كتب بطريقة محايدة، لذلك -ومن باب الاحتياط- يوضع ضمن قوسين تصريحاً أو تضميناً ليحتفظ المتكلم بمسافة تفصله عنه. بعضهم يرفض مفردة (مجاور para) نفسها: فهي تدل على «انحراف»، وتتنافس مع «تحت sous» أو مع « الأكثر عمقاً infra [«الأتحت» ولو خالفت القاعدة العربية]»، وتبدو لهم، من غير وجه حق، أنها فجة وغير ملائمة أو أن دلالتها غير صحيحة، لأنها تنطبق على أعمال يقدرونها

جيـداً، ويصفونهـا بأنها أدبية بالمطلق [على عكس ما يحملـه مصطلح «الأدب المجاور» من تقليـل قيمتها الأدبية]. وحين يستخدمها آخرون بصورة عادية فلأنها، ربما قد تسربت بهدوء إلى الاستعمال، لكن هؤلاء لا يغفلون عن تحفظاتهم المنهجية القوية تجاهها. وهناك مجموعة أخرى ترفض ما تحيل عليه هذه المفردة التي تشي بـ «أدب رديء» أو بـ«أدب الأكشاك littéra- ture de kiosque أو أدب محطات القطارات littérature de gare»... إلخ. إننا نتفهم جيداً أن هؤلاء وأولئك لا يتحدثون عن أمور واحدة مشتركة، وأن معاييرهم الجمالية نادراً ما تلتقي.

صحيـح أن استعمـال مصطلح «الأدب المجـاور» دون حد أدنى من الحـذر سيؤدي إلى الابتـذال أو التبسيـط، وسيطرح عدداً مـن الأسئلة دون أن يقدم أكثر مـن إجابات سطحية محـدودة. علاوة على ذلك، وبتجاوز المصطلح، لابد مـن مناقشة مشكلة قديمة هي مشكلة «المقاييس الأدبية وتركيبة الأنواع الأدبية».

قـد سهلت الحقبة الكلاسيكية التجاور المتـوازي الذي لا يرفضه أحد، وهو التجاور بين الاجتماعـي مـن جانب والأدبي من جانب آخـر. في إطار الثاني (الأدبـي) تجاهلت الأنواع «النبيلـة» والرسميـة التي سادت البلاطات بصـورة واضحة إمكانية وجـود أدب شفوي في البيئة الريفية. لقـد خلط تطور الرواية منذ نهاية القرن الثامن عشر الأوراق وجعل القضية أكثـر تعقيداً وذلك تزامناً مع تطور العالم فـي الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والصناعية والعلمية والثقافية. إذ بدأ نجم الرواية بالصعود- على الرغم من أنها كانت موضع اختبارات وشكوك متعددة- فقد أفادت دون شك من تطور الطباعة في ميدان الكتب ومن ثم في مجال الصحف والمجلات. وظهرت فنّاً يلاقي الاستحسان ويرحب بها الجمهور بطريقة خاصـة، وسجلت تطوراً مستمراً في الشكل، وعكست تألقاً متجدداً. ونجد في تطورها صدى لنقاشـات وجدالات في المجتمع القديم لا تخلو من الفتنـة والإثارة والاضطراب أيضاً، وقد تركـزت حول: الصراع والشعور والشخصية النمطيـة والشخصية القابلة للتشكيل، فخلخلت بالفعل تراتبية الأنواع الأدبية التقليدية وبنيتها. وباللعب على الطابع التأثيري أسهمت الرواية في خلق جمهور جديد من القراء: إنه جمهور النساء.

بالنسبـة إلى بعضهم، سينظرون إلى الرواية بوصفها نوعاً أدبياً خطراً لأنه غير أخلاقي. وبالنسبة إلى آخرين، إنها كناية عن الوهم وعن غير الحقيقي، وصنِّفَت رمزياً نقيضاً للواقع، إنهـا تجسد الفخ الذي يمكن لأصحاب الأرواح الساذجـة أو الخيالية أن يقعوا فيه. من جهة

أخـرى رفض فريق ثالث ما سموه «ابتذالها» الواقعي ومـن ثمَّ الخاصية الطبيعية التي تتسم بهـا. وعلى الرغم من ذلك سيترسخ في غضـون قرنين من الزمان تقريباً، تراث روائي طاغ، وستغـزو الرواية قطاعات النشـر المختلفة، وتهيمن على جمهور كبير مـن القراء. وستؤدي حقيقـة ثنائية «النفسي- الواقعي» التي تعيـد إنتاج أوجه الواقع المختلفة، إلى ردة فعل عند المنظّريـن والمبدعين للرواية الجديدة الذين سيرفضـون بالمجمل العناصر الذاتية للرواية نفسها، والسرد والفعل الزمني، والإيهام المرجعي، والشخصية. وأخيراً -وها نحن فيها- يبدو أن الرواية استطاعت ضمن المسيرة المضطربة لما يطلق عليه بعضهم بطريقة غير واضحة: «ما بعد الحداثة» أن تسجل حضوراً متجدداً بوصفها فناً روائياً أكثر من أنّه تجريبٌ، وأحياناً حكاية عاطفية romance بمقدار ما هي قصة طويلة novel.

يعنـي مصطلح الحكايـة العاطفية بالإنكليزية شكلاً سردياً نثريـاً طويلاً، يميل أكثر نحو المتخيَّـل، وقد استعـاد في نهاية القرن الثامن عشر بعضـ الموضوعات والعناصر السردية التي كانت سائدة عبر تراث موغل في القِدَم يمكن أن نذكر فيه الأوديسة Odyssée، والرواية اليونانية[٤]، وكريستيـان دو تروي[٥] Ch. De Troyes، والرواية القيِّمة أو الثمينة[٦] le roman précieux، والحكاية الشعبية le conte populaire، والرواية العاطفية، le roman sentimen-tal والمكتبـة الزرقـاء[٧] la Bibliothèque bleue. فالحكاية العاطفيـة إذن هي أيضاً من دون شـك نقطة انطلاق للرواية الحديثة ذات الانتشار الواسـع، وهذا يحتم علينا أن نقدر أهميتها الحقيقية في تاريخ الأدب. فقد درس موريس ليفي M. Lévy الرواية «الغوتية[٨]» الإنكليزية بين عامـي (١٧٦٤- ١٨٢٤م)[٩]. كما اهتم آليس كيلين A. M. Killen بتأثيرها في الأدب الفرنسي حتـى العام (١٨٤٠م)[١٠]. ولا يزال الموروث الأسـود «الغوتي» حاضراً في عدد من التجسيدات ولـم يغب تماماً. فالإثارة والغموض والرعب والمغامرات جميعها تكررت ألف مرة، كما تعرّض الأبطال الفعليون للاضطهاد على أيدي الأشرار المرعبين: هذه العناصر وغيرها، ولاسيّما حين نشرها في الصحف، أسهمت أيضاً في ولادة الرواية المسلسلة عام (١٨٣٦م) التي بقيت طريقة شائعـة للنشر حتى عام (١٩١٤م). وقد التبس اسمها مع النوع الذي سمِّيَ بـ «الرواية الشعبية». ومن بعد الحرب العالمية الأولى حتى يومنا هذا، كثرت الاختيارات والسلاسل ذات الموضوعات المختلفـة التي تنضوي تحت صفـة «الشعبي» مع استمرار موجة الروايـة البوليسية policier التـي نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ورواية الجاسوسية espionnage، ورواية الخيال العلمي science-fiction، والروايـة الفنتازية fantastique، ورواية الرعب horreur،

وروايــة «رعاة البقر» «western»، ورواية المغامرات العاطفيــة sentimental أو الإباحية éro-tique... إلــخ. وتلاشــى الإرث «الغوتي» بفضل نشوء عدد من الأجناســ الفرعية. ومنذ وقت قصيــر جداً فرض هذا السيلُ العارمُ من أعمــال الخيال التي رسَّخها ذوق الجمهور منذ عقود -إذا لــم نقل بأدنى حد إنها استحقت هذا الاهتمام- حضــورَه وأهميتَه على المعلقين والنقاد المتخصصين في المعاهد الأدبية والمدرسية والجامعية.

في عام (١٩٦٧م) عُقِدَت في المركز الدولي بسيريزي لاسال Cerisy-la-Salle بالنورماندي ندوة بمشاركــة كل من: نويل آرنو N. Arnaud وفرانسيس لاكاسان F. Lacassin وجان تورتيل J. Tortel موضوعها: «حوارات حول الأدب المجاور Entretiens sur la paralittérature»[١١].

عالجــت المحاضــرة الأولى لـ«جان تورتيل» القضية الأساسيــة الفعلية وعنوانها: «ما هو الأدب المجاور؟». طرحت هذه المداخلــة وأغنت إشكالية المعايير الأدبية واستبعاد «الباقي كله، أي: إهمال كمّ هائل منشور... وذائع الصيت».

بالواقع، كان تورتيل يتصور تعريفاً أو على الأقل مجالاً واسعاً للأدب المجاور، إذ أضاف إلــى «الأدب المجاور التخييلي» ما سماه «الأدب المجاور التعليمي» إضافة إلى «كل أدوات العمــل والتأثيــر في مجموعة بشرية عبر الــكلام المكتوب أو المنطــوق» التي تنتمي إلى البلاغة.

مشــارك آخر هو «فرانســوا لو ليونيه» F. Le Lionnais عرض منذ بداية أيام هذه الندوة الاهتمام باللوحة الجدارية graffiti والرسوم الجنائزية على القبور épitaphes و«كاتالوغات» الأسلحــة والأدوات التــي يحتاجها الإنسان فــي حياته اليومية، وهذا مــا أطلق عليه «النوع الثالث»، أي ما يأتي بعد الأدب وبعد الأدب المجاور. إنه برنامج واسع وواسع جداً!

بالنهاية اقتصرت الندوة على الاهتمام بأنواع الميلودراما mélodrame وبالرواية الشعبية roman populaire وبالرواية المصورة photoroman وبالرسوم المتحركة bande dessinée وبرواية الخيال العلمي science-fiction وبالسلاسل السوداء[١٢] «série noire».

كانــت هذه الندوة، بغناها، على الرغم من بعض اضطرابهــا، الفضاءَ الأوسع للتحليلات الموضوعاتيــة والتاريخيــة والاجتماعية. لكن المحاضر الذي كلــف بتلخيص أعمال الندوة والمناقشــات لاحظ أن المشاركيــن، باستثناء «شارل غريفيــل» Ch. Grivel لم يهتموا كثيراً بالمقاربة النصية الدقيقة للأعمال، فغابت التحليلات الأسلوبية واللسانية. ومع ذلك، فلقاءات

هــذه الندوة، على الرغم مما فيها من غموض وارتباك، كانت نواةً للأفكار. كما أنها أطلقت، بمشروعية أكيدة، مصطلح «الأدب المجاور» في الخطاب النقدي المعاصر.

ولكن هذه التأملات الركيزية التي نتجت عن ندوة سيريزي لن تكون أبداً تفاعلية إلا على المستوى الفردي وبمواعيد محدَّدة وبمناسبات معينة كاجتماع أو مقالة أو نقاش. وعلى الرغم من ذلك، وفي مواقع مختلفة كالمؤسسات أو غيرها، بدأ الاهتمام بآداب هامشية marginales تقع على حواف الأدب.

ونلاحظ - بغض النظر عن صورة ما يحدث في الولايات المتحدة - أنه صدر على مستوى فرنســا وَما يسمى «فانزين fanzines» التي تعني (fan + magazine) أي المجلات المتخصصة بالآداب غيــر المعترف بها، أي الأنواع المذكورة آنفاً، وهي غالباً نشرات تقتصر متابعتها على المهتميــن، وفيها أيضاً محاولات نقديــة تتسم بأنها غير منظمة ومنهجيتها ضعيفة، وقد تكون مثيرة للجــدل، وتتوافر على كمية هائلة من المعلومات الواقعيــة والسيرية الذاتية المرجعية، وتقــدم خصائص الأعمال المتعلقة بالتعلم الذاتي وعيوبها. ومن الملاحَظ أن النقد الصحفي وأشــكالَ النشر المتنوعة قــد زادا اهتمامهما بالرواية البوليسيــة (مهرجانا رانس وغرونوبل) وبالخيــال العلمي، وبالرسوم المتحركة (معرض آنغوليم). وقد اشتغل فرانسيس لاكاسان، كثيراً علــى إعادة تقديم عدد من الكتَّاب المنسيين نوعاً مــا، ولا سيّما في سلسلة (١٠/١٨) وسلسلة (بــوكان Bouquins) إذ تُقــدَّم الكتب ويُعلَّق عليهــا وبذلك يتجاوز القــارئ المقاربة الساذجة للسلاسل الشعبية التي تقتصر على نص الرواية وحدها.

وأخيــراً بدأت الجامعات الاهتمام بالآداب «الهامشية» والشعبية، وأنشِئَت مراكز متخصصة فــي نانسي وليون وفي جامعات أخــرى (باريس الثالثة، غرونوبــل، إكس-مارسيليا، تولوز...)، وعمــل على هذه الموضوعات عدد من الأساتذة الجامعيين ولاسيما أولئك المتخصصون بأدب القرن التاسع عشر.

فــي ميدان الرواية الشعبية بالذات، ظهرت جماعة من المهتمين، بزعامة رينيه غيز والراحل ميشيل ناتان، وقامت هذه الجماعة بعمل لا غنى عنه في تحديد المجموعات الروائية الشعبية وتجديد نشرها والحفاظ عليها.

وظهرت خــلال ثمانينيات القرن العشرين بعض المعالم في مسيرة تجديد ظاهرة الأدب المجــاور. ففي سيريــزي نفسها انعقدت نــدوة في عام (١٩٨٢م) حــول موضوع «القصص

البوليسية والأدب» نظمها فرانسوا ريموند وجان-كلود فاري Vareille دافعت الندوة عن مبادئ النقد النصي الذي يتمتع بصفتي: الانفتاح والحذر، (كذلك أقيمت ندوة أخرى عام (١٩٨٦م)، وكانت مخصصــة لمناقشة «الرواية المسلسلة لأوجين سيــوي Sue، وعقدت في بونسون دو تيــراي»، وكشفت عن مزيد من التاريخ الأدبي لهذا النوع من الكتابات). وقد شهد هذا العقد أيضاً نشر بعض الأعمال التي أكدت اهتمام النقد المعاصر بأنواع من الأدب «الهامشي»، من مثــل: عمل اللساني جان-بول كــولان J.-P. Colin «الرواية البوليسية الفرنسية القديمة»[١٣]، وكتاب آن-ماري تييس «رواية اليوميات[١٤]» القائمة عموماً على مقاربات مع القراء الشعبيين فــي بداية القرن العشرين، ومؤلَّفا جان-كلود فاريي Vareille، المتخصص بدراسة آلان روب غرييه، القائمان على دراسة الرواية الشعبية والرواية البوليسية الأولية[١٥].

تسعى هذه الدراسات المتمحورة حول الأدب الشعبي في حقبته المزدهرة إلى الكشف عن عناصر ثابتة وبُنَى وآليات متكررة، وتسهم في رسم الخطوط العريضة لمختلف الأنواع الفرعية: رواية شعبية ورواية بوليسية. ويحاول كتاب ميشيل بيكار Picard «القراءة لعبٌ»[١٦]، المختلف فــي مشروعه والمحفِّز في موضوعاته كلها، رسم الحــدود المتداخلة للأدب ولمجاوراته في مقاربــة تحليلية نفسية فيها نــوع من الالتباس، وتستند إلى نظريــات ياوس Jauss في «أفق التوقع l'horizon d'attente».

مهــم جداً وذو دلالة أيضاً اختيــار المجلة الجامعية الكنديــة «المتلون Protée» موضوع عددها رقم (٢) المجلد (١٧) الاتجاهات الجديدة للتحليل الأدبي وللأدب المجاور من خلال عنوان «القراءة والأنواع الرديئة»[١٧].

إذن، أدركنــا أننا بدأنا منذ الآن بتطبيق مفهومــات «الاستقبال» و«القراءة» و«أفق التوقع» و«عقــد القراءة» على الأدب «الهامشــي»، ولم تعد حكراً علــى الأدب «التقليدي أو الشرعي (المتعارف عليه) فحسب».

وهــذا يعني، إذا كانت الدراسات الجزئية والرسائل العلمية الموقوفة على اكتشاف كاتب، أو على تحليلات حول الأنــواع الفرعية، قد تضاعفت منذ ندوة سيريزي عام (١٩٦٧م)، وإذا تابعنــا العمــل بالطريقة نفسها، فإننــا سنتمكن من اختصار الوقــت لتوضيح مفهوم «الأدب المجاور». إذن، وكما لاحظنا في بداية هذه الدراسة، يتردد استخدام المصطلح كثيراً، ويسهم الاهتمام بتوضيح هذا المفهوم -بشكل أو بآخر- في الإظهار النسبي لتقارب الأعمال السابقة،

ولـو كان عدم تجانسها واضحاً، بحيث تظهر لحمتها خلف تنوعها. ويبدو لي أنه من الممكن، بـدلاً من قبول المصطلح معطـى فحسب، أن نبني ونؤسس بصـورة عقلانية مفهوم «الأدب المجـاور». مع ذلك، ربما يلزم سلفاً وسريعاً تقديم توصيف موقفين شائعين فيما يخص هذا الموضوع أراهما غير مناسبين ومن ثمّ أحاول دحضهما.

أول الموقفين يخلط بين «الأدب المجاور» و«الأدب الرديء»، وبهذا يمكننا أن نلخص الأمر – مستعينيـن بشيء من الكاريكاتورية– على الوجـه الآتي: «الأدب المجاور موجود، يا للأسف! لننسه إذن». وقد تبنت هذا الموقف المعياري كتب التاريخ الأدبي في ستينيات القرن العشرين. وهكذا سيُعرَّف «الأدب الرديء» باقترانه بـ:

١- **موضوعات معينة:**

– قصصـ المغامرات الخيالية غيـر المتوقعة إذ علينا أن ننظر إلـى هذه الصفة بمعناها العـادي جداً: فهي لا تتماشى مع أحداث الواقع ولا مع أفق التوقع لمجموعة اجتماعية ما يسعى هذا المعيار الصارم إلى استبعاد إنتاج أدبي يتمحور حول الفانتازي والخيال العلمي والمتخيَّل.

– شخصيـات بسيطة غير ناضجة نفسياً أو، وفق المعيـار السائد، تفتقر إلى خاصيتين هما: «الغموض أو التعقيد» و«التردد أو الالتباس». وتوصف باختصار فوراً ومن دون تردد بأنها غيـر قابلة للشرح أو التفسير لأنها تندمج بالضرورة فـي نظام المعطيات السردية الواضحة والبسيطـة، إنها لا تتصف بالتعقيـد، ولا تثير مشكلة معينة مثلما هـو الحال في شخصيات لورينزاسيو Lorenzaccio وجوليان سولير sorel، وإيما بوفاري Bovary)[١٨].

هذه الانتقادات، كما نرى، تحيل إلى «الواقع» مثلما تدل على مفهومات أخلاقية إننا نعيب علـى «الأدب المجاور» طابعه في الجريمة واللا أخـلاق: إنه إثاري ومنحرف. ما كتبه جورج ريبار Raillard عن «الكاتب المدرسي» أي التقليدي، ينطبق على أي كاتب ذي جودة أو معترف بـه وفـق خطابه المكتوب بأنه كاتب جيد: «... لا يوجد الكاتـب المدرسي إلا إذا انخرط في نموذج محدد سابقاً للخطاب»[١٩].

٢- **شكله:**

يتصـف بأنه مكتوب بأسلوب رديء، وربما غير مكتوب [شفوي]، وبجميع الأحوال مهمل. ويتميـز بفقره في ابتكار الأشكال الصياغية، وبالتكرارية، والاجترار وبأنماط سردية محددة، وبالمبالغة في الطابع الكاريكاتوري.

مقابـل هذه الصفات التي تنبثق غالباً مـن أروقة السلطة المؤسساتية «لجمهورية الأدب» تحضـر نظيراتهـا التي تصدر عن مناهضي النظام الأدبي القائـم. وهؤلاء يرفضون إعطاء «الأدب المجـاور» أي نـوع من التعريف أو القبول، ويمكن تلخيصـ موقفهم بالمفارقة الآتية وهو ما يدفع إلـى مزيد من النقاش: «الأدب المجاور غير موجود: اقرؤوه، ادرسوه!» وأحياناً يقولـون: «لا تقرؤوا ولا تدرسوا غيره!». يشيرون إلى استحالة تحديد المعايير التي تجعل من الممكـن التمييز بيـن «الأدب» و«الأدب المجاور»، وهذا مشابه لمـا عُرِفَ في الماضي بفرز الحصـى من كيس عدس... كما سجلـوا -ومعهم شيء من الحق- أنهـم برغبتهم في إيجاد تعريـف بأي ثمن لـ «الأدب المجاور» فإنهم سيخاطرون بإيجاده على جثة خضوعه، وسينسون في الوقت نفسه الأعمال التي لا تنضوي تحت إطار المفهوم النظري.

فـي محاولة توجيه النقد إلى هذيـن المفهومين المتناقضين اللذين لا نستطيع رفض أي منهما كلياً، سأعرض طريقة أخرى لمقاربة قضية مفهوم «الأدب المجاور».

من السهل جداً، للرد على المفهوم الأول الذي يدّعي أن الأدب المجاور هو الأدب الرديء، إظهار أن غير القابل للتصديق والخارق للطبيعة ليسا من مظاهر «الأدب الرديء» المزعوم. فمعـروف أنـه لا يُنظَر إلى هوميروس ولا إلـى كريستيان دو تروي ولا إلـى شارل بيرو[٢٠] Ch. Perrault -كـي لا نذكـر أكثر من ثلاثة أمثلة- بوصفهم كتّـاب «أدب مجاور». للأسباب نفسها، تسقط فوراً حجة عدم الاتزان النفسي عن شخصيات: أميرة كليف la princesse de Clèves، سلامبو Salammbô وجيرفيز[٢١] Gervaise التي انتُقدَت أيضاً في زمانها بوصفها شخصيات تتصف بـ«اضطرابها النفسي». من الصعب جداً أيضاً إدانة «الأدب المجاور» باسم الأخلاق وإلا سنجد أنفسنا بمواجهة هذا السؤال: هل علينا محاكمة أو«إعادة النظر» بـ لاكلو Laclos، وبـ ساد[٢٢]، وبـ بودلير وحتى بـ زولا؟ أما بالنسبة إلى النقد الموجه إلى الشكل فيمكننا أن نتـذرع بالتنوع في أعمال كتـاب معروفين في تصنيفهم ضمن «الأدب المجاور»: التقليدية عنـد دوماس الأب مع أنه لا يتصف بالمدرسية دائماً كما يرى جان تورتيل[٢٣]، الوضوح الأنيق عند لوبلان Leblanc، والباروك عند لورو[٢٤] Leroux.

فيمـا يتعلق بالمفهـوم الثاني «الأدب المجـاور غير موجود»، علينا التسليـم مبدئياً بأن تعريف الأدب المجاور من منظور السمات أو المعايير الموجودة في نتاجاته «الأدب المجاور»، أو بالعكـس غائبـة عنه وموجودة في أعمـال (الأدب)، يبدو أمراً مستحيـلاً لأنه مفرط في

الاختصــار. الأدب -بمعنــاه الواسع- متنــوع وغني جداً ومعقد للغاية. لكــن لنؤكد أيضاً أن الأعمــال الأدبية لا تُقَــدَّر كلها بمستوى واحد (هل علينا أن نرسم مجــدداً المعالم الواضحة لتقدير العمل الأدبــي؟) وأن هناك إستراتيجيات للكتابة بمسارات متناقضة وقواعد منطقية مختلفة، وأنها لا تؤدي بالضرورة إلى إيجاد أعمال نموذجية يمكنها التوفيق بين هذه المسارات والقواعد من جميع الجوانب.

إذن، هل يجب أمام تعقيدات هذه القضية، التخلي نهائياً عن مفهوم «الأدب المجاور» الذي هو مصدر الغموض، ومبعث الأحكام المتنافرة؟ لا أعتقد ذلك، فالمصطلح مريح بالنسبة إليّ، ولا يمكن الاستغناء عنه.

إن الحديــث عــن «الأدب المجاور» يعنــي الإحالة ضمنياً إلى شيء مــا، وهو الأدب الذي رُسِمَــت معالمه المعروفــة في لغتنا منذ نحو القرنين من الزمــن فحسب[٢٥]. ستكون منهجية جيــدة ألا يغيب عن بالنــا أن الكلمات ومعانيها تتطور مع مرور الزمن وفق المعطيات الواقعية والمتطلبــات التاريخية والاجتماعيــة والاقتصادية. ستكون إشكالية هــذه الدراسة بارزة في سنوات النصف الثاني من القرن العشرين، ولو أنها تحيل على أمثلة سابقة جداً لهذا التاريخ.

مــن بين العوامل الأخرى التي قد تكون صلتها بالعلمية أكثــر وضوحاً، يمكننا أن نحسب أن تطــور وسائل الاتصال الإعلامي في أي حضارة أوروبية لم يتحقق إلا بربطه مع التأملات والمراجعــات حول «الأدبية» -التي شهدت في حينــه شيئاً من الانحسار بسبب الأهمية التي اكتسبتهــا قراءة النصــ- وقد كان لها سابقــاً أهمية «تكتيكية» وأخــرى توجيهية في مقابل السيرية الذاتية والمراحل الزمنية للتاريخ الأدبي القوي جداً.

خلال ستينيات القرن العشرين نشأ نزاع بين مؤيدي العقيدة الأدبية التقليدية القائمة على المعطيــات التاريخية وعلى المبالغة في تقدير الأعمــال الكلاسيكية، ومعارضين من أنصار «نقــد جديــد nouvelle critique»، يستندون إلى معطيات علميــة، وكان أحد أوجه المعركة تطويــر النشر، وازدهار عصــر التلفاز خاصّةً. هذا يعني وضع مجموعــة من القيم الثقافية التقليدية المؤسَّسة على «الأدب» والذوق الرفيع وسعة المعرفة المعمقة، وأيضاً ببساطة على هيمنة الكتابة. وراء القضايا الرمزية تختفي القضايا المادية والاقتصادية.

إن اللجــوء إلى مفهومات جديــدة يترجم دون شك التطلعات لبــدء مرحلة أكثر عقلانية للخصوصية «الأدبية»، ويعكس أيضــاً الاهتمام بأوجه أخرى بقيت مهملة حتى الآن، وإضافة

إلـــى تطوير الإنتاج الطباعي وطرائق النشر بمختلــف أشكالها، فقد انتعشت طباعة نتاجات «الأدب المجاور». وهذا ما كان سواء بحماس الرواد في (ندوة سيريزي عام ١٩٦٧م)، أو على العكس، على مضض وبازدراء بعضهم الآخر.

«داخــل النموذج الاجتماعي للأدب الذي يجب العــودة إليه، يكتب آلان ري Rey: الأحكام التصنيفيــة... مشبعة بالقيم. وهنـــا أيضاً، الحدود غير واضحة ومفتوحــة، إذ تتأسس وفق أحــكام اجتماعية متعددة ومتناقضة. وكما قلنا سابقاً، فقد أربكت -بصورة جلية- مفهوماتٌ مثل «المجــاور» أو «ما تحت الأدب» و«الأدب الهامشي»، مواجهــة الأحكام القيمية التقليدية تجــاه الظواهــر الاجتماعية التي لا يمكــن تجنبها، كما أنها في الوقــت نفسه أعاقت عملية الحفاظ على هذه الأحكام»[٢٦].

كيــف نختلف مع مــا سبق ونميِّزه؟ باستثناء بعض الحــالات المتطرفة فإن «الحدود غير واضحــة». أقترح تحليل الفرضيات المسبقة لمفهوم «الأدب المجاور» بدلاً من لصق شهادات أو علامات على الأعمال أو تصنيفها. بعبارة أخرى أقترح، بتروٍّ، تفحص الذوق الأدبي التقليدي الذي لايزال يسيطر على المؤسسات الثقافية والصحفية والجامعية والأكاديمية. من الواضح أننا بتسليط الضوء على هذه المعايير المحبِطة سننجز في وقت واحد رسم الصورة التكميلية لنوع من العلاقة مع الكتابة وأخرى مع القراءة. بالطبع لن نغفل عن الرؤية التي تقول لا شيء سهل، فآليات السخرية ومحاكاة الأعمال المميزة والتناصية قد عقّدَت القضية وسعّرَت النزاع فـــي موضوع الأدبية. هناك شفافية في إنتاج «الجيد» و«الــرديء» عند الكتَّاب. وعلاوة على ذلك، فإن مسيرة كاتب ما ليست دائماً متجانسة.

سـيعتمد منهجنــا هنا على مفهومين متكامليــن: الأول قائم على نموذج للأدب المجاور modèle paralittérair تحقــق بتوالــي إنتاج صفحاته، وسيستخدم هــذا النموذج، بناءً على معالــم محددة، في إشـــادة مثال نموذجي تجريدي يأخذ بالحسبــان مفرزات حقيقة مفادها أنــه مصنف خارج حــدود الأدب. وقد بيّنت سابقاً وبسرعـــة أن رفض الأدب المجاور لا يمُّر مــن دون بعض التناقضات، وعلى الرغم من ذلــك، فإنشاء هذا النموذج للأدب المجاور لن يكــون عملياً وفي موضعه ما لم نعترف لـــه بمنطق خاص به ومحدد ولو نسبياً، أو على الأقل ما لم نرسم معالم ثابتة أو هيكلية بنائية واضحة لمعايير الحكم الأدبي. لنتذكر أيضاً أن الأمر يتطلب عملاً تأسيسياً مفهوماتياً يؤطر للحدود الجمالية: بحيث إن أي عمل موجود لن يصل

إلـــى درجة الإنجاز المثالي لهذا النموذج والتطابق معه، بالمقابل، لن يستطيع هذا الأخير أن يستوعب أو يحيط بكل هذا الغنى والتنوع الموجودين في هذه الأعمال.

المفهـوم الثانـي الذي يستند إليه منهجنا سيكـون معايير الأدب المجاور التي تسمح بالتعــرف إلى حضور/غياب العناصـــر المكونة للنموذج. إننا نسلـم بـ«تشتت» مواصفات الأدب المجـــاور إلى درجة تؤدي إلى نزع خاصية الأدبية عن عمل ما، وبتنوعها وانتشارها الواسع بين النصوص وفيها. قد نجد في رواية ما مجموعة من المعايير الواضحة للأدب-المجـــاور وحضورها سيكون كثيفاً. دعونـــا نكرر، هناك استحالة لتصنيف معظم الأعمال فـــي جدول ثنائي التوزيع أو التعارضــ أي بين أدبي وشبيه بالأدبي. «يمكننا أن نجد بعض الأعمـــال التي تحتوي عناصر جنس العمل بوضوح نسبـــي أكثر من غيرها، كما قال كارل فييتور Viëtor، لكننا لن نصل في أي لحظة إلى القول إن (النمط) قد تحقق في واحد من هـــذه الأعمال، كمـــا أن جنس العمل، بالمقابل، ليس حاضراً فيها بكليته، ومن ثمَّ لن تصل سيرورته المنجـــزة إلى كمالها المثالي»[٢٧]. في هذا الإطـــار، لا نستطيع تجاهل المشكلة النظريـــة الحتمية التي تطرحها دراسة الجنس التي تعثَّر فيها أولئك الذين عالجوا قضية «الأدب المجاور».

يلخصـــ الفيلسوف ج. ميولير G. Müller، وفق ما يستشهد به كارل فييتور[٢٨]، الأمر كما يأتي: «يصادف كل مؤرخ للأجناس الأدبية معضلة تتمثل في أننا لا نستطيع -على ما يبدو- أن نقـــرر ما الذي ينتمي إلى هذا الجنس أو ذاك إلا إذا عرفنا مقدماً التعريف الجنسي، كما أنه لا يمكننـــا أن نعـــرف ما هو الجنسي إلا إذا قررنا أن هذا العنصر أو ذاك ينتمي إلى جنس ما» (Philos. Anzeiger، III، p. 136). سنرد على هذا الاعتراض المهم بتقديم حجتين:

- الحجة الأولى ذات طابع عام للغاية، وتنطلق من معاينة واقعية بسيطة: إن استعصاء حل هـــذه المشكلة النظرية مرفوض، ويدحضه (الاستعصاء) التطوّرُ الفعلي الذي حققه الباحثون وبعدهم تاريخ الأجناس. في المقالة المشار إليها أعلاه، يلاحظ كارل فييتور برؤية صحيحة «وجود قضيتين أساسيتين هما المشكلة الرئيسة في فن التفسير والمشكلة الجوهرية في فن التأويل. إذن، تبدو الحركة متقدمة رغم أنف (مفارقة زينون)[٢٩].

- الحجـــة الثانية: ربما سنهرب مـــن المعضلة التي أثارها ميوليـــر باللعب أيضاً على الانـــزلاق الملحوظ منذ أكثر من عقدين من شعرية النص poétique du texte إلى شعرية

القراءة poétique de la lecture . لاحظنا سابقاً أنه كان من العقيم الحديث عن الرغبة في تقسيم الأعمال بين «الأدب» في جانب و«الأدب المجاور» في جانب آخر. «الأدبية» و«الأدب المجاور» يضيء كل طرف صاحبه مثلما يتناقض معه بوضوح بالغ حين نناظر بينهما بطريقتين للقراءة تظهران تباينهما . إن نتائج طريقتي القراءة قابلة موضوعياً للتحديد والتوضيح بوساطة آلية العمل الرسمية للهيئات المختصة: (نقاد وجامعيون)، وهم يصدرون أحكاماً ويضعون معايير ويحددون تصنيفات ويؤثّرون في سلوك الجمهور المتعلّم. وكذلك هي قابلة للتحديد والتوضيح في آليات الإنتاج والتوزيع وفي الأداء الاقتصادي لصناعة النشر. ربما سنهرب من مظلة طريقة الأحكام المسبقة بمحاولة تفحص نوعية –من الداخل– لهذه الممارسات المتنوعة للقراءة. بدلاً من الحكم على هذه الأعمال وتصنيفها، سنلاحظ وجود هذه التصنيفات قبلاً، ويمكننا تفحص ملاءمتها . إنه النهج الذي اعتمده جان-ماري شيفر Schaeffer حين قال: «مهمتنا المستعجلة والملحة ليست في تقديم تعريفات جديدة بقدر ما هي تحليل عمل الأسماء الجنسية أياً كانت، ومحاولة النظر فيما تحيل عليه»(٣٠).

الهوامش

(١)– هذه الدراسة مقدمة لكتاب يحمل عنوان Introduction la à Paralittérature الصادر في باريس، ضمن منشورات Seuil وسلسلة Poétique المشهورة.

والمقصود بالمصطلح Paralittérature أعمال شفوية أو كتابية أو فنية أو تعبيرية بطريقة ما، ليست في الأدب الرسمي تماماً (التقليدي أو المتعارف عليه)، وإنما تقع على هامشه وقريبة منه، ولها جمهورها الواسع من القراء، ونجدها ضمن أنواع مثل: الخيال العلمي، والفنتازي، والرواية المسلسلة، والرسوم المتحركة، والرواية البوليسية، وسيناريوهات الأفلام والمسلسلات التلفازية أو الإذاعية... وما شابه ذلك. وقد اقترح بعضهم عدة مصطلحات عربية ترجمة له قد لا تفي بالغرض أو لا تؤدي المعنى المراد، مثل: الأدب الموازي، وموازيات الأدب، ومصاحبات الأدب، ومرافقات الأدب، والأدب المرافق ... وغيرها، لكنني آثرت مصطلح «الأدب المجاور» لاعتقادي أنه مقابل معقول للمصطلح الأجنبي. (المترجم).

(٢)– طبياً هناك حمى تيفية ليست جرثومية تسبب السالمونيلا التيفية، وهناك نظيرة لها تسبب الأعراض والمضاعفات نفسها لكنها ليست نفسها، ومع هذا فهي تتطلب العلاج نفسه. (المترجم).

(٣)- صندوق من الميثيولوجيا الإغريقية حملته باندورا وهو مملوء بالطباع السيئة. وقد دفع الفضول زوجها إلى فتحه، فخرجت منه شرور البشر جميعها، فسارعت إلى إغلاقه، لكن لم يكن قد بقي فيه سوى شر وحيد هو فقدان الأمل. (المترجم).

(٤)- انظر في هذا الموضوع كتاب ماسينو فيزيبو «ولادة الرواية»، باريس، منشورات سوي، سلسلة بويتيك، ١٩٩١م. تنطبق عادة «تسمية الروايات اليونانية» على مجموعة من الأعمال «وفق التقاليد، ذات الطابع الجنسي»، وهي تسير على نمط سردي واحد: ثنائي فتاة وشاب عاشقان عليهما أن يواجها مجموعة طويلة ومعقدة من العقبات والصعوبات والمغامرات قبل أن تجمعهما نهاية سعيدة، ص١٠.

(٥)- شاعر وكاتب فرنسي (١١٣٠-١١٩١م)، وهو واحد من أوائل الذين كتبوا روايات الفرسان. (المترجم).

(٦)- حركة أوروبية تعود إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر، تقدم شخصيات حب مثالية. وتحكي قصصها بأسلوب متقنٍ ومختلف عن المعايير العامة، وتهتم بإظهار الأناقة والأخلاق والسلوك الخاص. وقد ارتبطت برغبة نسوية تسعى إلى الاعتراف بالمرأة في عالم الفنانين والأدباء. (المترجم).

(٧)- وتعني الشكل الأولي للأدب الذي يطلق عليه «الشعبي» والذي ظهر في فرنسا في بداية القرن السابع عشر. (المترجم).

(٨)- تُعرف بالرواية السوداء الإنكليزية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر، وانتشرت خاصة في الأدب الأنغلو-ساكسوني خاصة، وتسمى بالرواية الغوتية. (المترجم).

(٩)- «الرواية الغوتية الإنكليزية ١٧٦٤-١٨٢٤م»، أطروحة دكتوراه دولة، تولوز، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٦٨م.

(١٠)- «الرواية الرهيبة أو الرواية السوداء، من والبول إلى آن رادكليف وتأثيرها في الأدب الفرنسي حتى عام ١٨٤٠م»، أطروحة نوقشت عام ١٩٢٠م، باريس، هنري شامبيون، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.

(11)- En volume chez Plon, Paris, 1970.

(١٢)- نوع من الروايات البوليسية التي تجري أحداثها في جو يستجيب لمعايير معينة يحددها اسم السلسلة التي تنتج هذه الروايات، وتشهد أحداثاً متشابهة مثل الحوادث وما يعقبها، المصائب ونتائجها وما يترتب على هذه الأمور من عواقب متقاربة. (المترجم).

(13)- Le Roman policier français archaïque, un essai de lecture groupée, Berne, Peter Lang, 1984.

(14)- Le Roman du quotidien. Lectures et lecteurs populaires de la Belle Epoque, Paris, Le Chemin vert, 1984.

(15)- Filatures. Itinéraire à travers les cycles de Lupin et Rouletobille, Grenoble. Presses universitaires de Grenoble, l98O; L'Homme masqué, le Justicier et le Détective, Lyon, Presses universitaires de Lyon, 1989.

(16)- Paris, Minuit, 1986.

(17)- Printemps 1989 (sous la direction de Paul Bleton), université du Québec à Chicoutimi.

(١٨)- لورينزاسيــو، مسرحيــة ألفريد دو موسيه كتبهــا عام (١٨٣٤م). جوليان سوليــر، بطل رواية ستندال «الأحمــر والأسود» التي ظهرت عام (١٨٣٠م). إيما بوفاري، بطلــة رواية فلوبير الواقعية «مدام بوفاري» التي نشرت عام (١٨٥٧م). (المترجم).

(١٩)- مقالة «مخطط لصورة-آلية للكاتب في القرن العشرين وفق كتب الأدب التعليمية» المنشورة في in Littérature، n 7، op. cit. يلاحظ أن كتب الأدب بتلوينها شخصية الكتّاب، تبرز ثلاثة أنواع من القيم: الاجتماعيــة والأخلاقية والأدبية. «...تقتصر القيم الأدبية على ترديد القيم الاجتماعية والأخلاقية. في الواقع، لا تنتج هذه الأخيرة عن الأولى، لكنها تدخل في نظام من التبادل المزدوج: الذهاب والإياب va-et-vient والإحالــة عليها والإنتاج منها بحيث يُعرّف بشخصية الكاتب ويُوصَف العمل. وإذا كان الأسلوب يحضــر أحيانــاً، بوصفه إضافة يتأسس عليها -باتساق- أكبر عدد من القيم، فإن الكاتب الكبير هو الذي يجتمع فيه العدد الأكبر والأرفع من الصفات»، (ص٨٥).

(٢٠)- رجل أدب فرنسي (١٦٢٨-١٧٠٣م) عرف بقصصه «حكايات أمي». (المترجم).

(٢١)- الأميرة كليف، رواية كتبتها ماري-مادلين لا فاييت، نشرت من غير اسم مؤلفتها عام (١٦٧٨م). سلامبو، روايــة تاريخية لفلوبيــر ظهرت عام (١٨٦٢م) تتحدث عن حروب المرتزقــة. جيرفيز، بطلة رواية بلزاك «الخمارة» المنشورة عام (١٨٧٧م). (المترجم).

(٢٢)- لاكلــو، كاتب فرنســي (١٧٤١-١٨٠٣م) عاصر الثورة الفرنسية وكتب عنهــا بموضوعات متنوعة، وقد اشتهــر بتحفته «العلاقات الخطرة» التي كتبت في الرسائــل. وساد، المعروف بالماركيز دو ساد (١٧٤٠-١٨١٤م). (المترجم).

(23)- Entretiens sur la paralittérature, ap. cit., p. 17.

يقــف جان-إيف تادييه موقفاً معارضاً لتورتيل في إشادته القوية، والمستحقة حسب رأيي، بـ دوما: «يمكن أن تكون رواية المغامرات، أو قد لا تكون، أدبية. أما رواية دوما فهي كذلك في الصفحة وفي الفصل، ونصّه يلفت الانتباه بشكله الخاص وليس بالعدو المحموم للبطل، ولا بصليل السيوف أو أزيز طلقات المسدس.

(Le Roman d'aventures, Paris, PUF, 1982).

(٢٤)- موريســ لوبلان، كاتب فرنســي (١٨٦٤-١٩٤١م) اشتهر بالروايات البوليسيــة، وهو مبتدع الشخصية البوليسية المشهورة آرسين لوبين. لورو، هو غاستون لورو (١٨٦٨-١٩٢٧م) روائي فرنسي مشهور برواياته البوليسية وبقصص المغامرات. (المترجم).

(25)- Voir L'article d'Alain Rey dans le Dictionnaire des littératures de langue française (sous la direction de J.-P. de Beaumarchais, D. Couty et A. Rey), Paris, Bordas, 1984.

(26)- Ibid., t.2, p. 1311.

(27)- «L'histoire des genres littéraires», in G. Genette, H.R. Jauss, J.-M. Schaeffer, R. Scholes, W. Dieter Stempel, K. Viitor, Thiorie du genres, paris, Editions du Seuil, 1986, p. 28.

ينظر أيضاً في هذا العمل دراسة «الأدب الوسيط ونظرية الأنواع الأدبية» إذ يلاحظ ياوس على وجه الخصوص فيها: «من الضروري أيضاً التخلص من فكرة التجاور بين الأنواع المغلقة على نفسها، والبحث عن العلاقات المتبادلة بينها التي تشكل النظام الأدبي في لحظة تاريخية معينة»، (ص٦٥).

(28)- Ibid., p.29.

(٢٩)- وتقول بكذب أي دليل ناتج عن الحواس. (المترجم).

(30)- Qu'est-ce qu'un genre littéraire?, Paris, Editions du Seuil, 1989' p.75.

يستشهد بـ ماري-لور ريان: «إذا كانت الأجناس هي الهدف من بحثنا بدلاً من أدواتها، وإذا كان الأمر يعني كيانات معينة هي بحاجة إلى شرح، فإن طابعها الفضفاض لن يكون عيباً نظرياً، بل ظاهرة تتطلب التوضيح».

(«On the Why, What and How of Generic Taxonomy», Poetics, 10 (2- 3)'1981, p.110).

بدراسته لتاريخ نظريات الأجناس الأدبية المتعاقبة، (ولاسيّما عند برونتيير [فرديناند فانسان برونتيير (١٨٤٩-١٩٠٦م)، وهو مؤرخ فرنسي للأدب وللنقد الأدبي (المترجم)] وقد تميز بمقاربته للأدب بطريقة جديدة مع أنها لم تكن ثورية تماماً)، يستخلص جان ماري شايفي Schaeffei مايأتي: «ما لا تستطيع أي نظرية في الأجناس الأدبية، أياً كانت، فعله هو أنه لا يمكنها بالتأكيد توزيع الأدب في فئات من النصوص، بحيث يمتلك كل منها جوهره الخاص به، ومن ثمَّ طبيعة داخلية تميزه من غيره، ويتطور من خلالها وفق برنامج داخلي وعلاقات منهجية منظمة ضمن إطار منظومة كلية تدعى «الأدب» أو «الشعر». وستمارس هذه المنظومة نفسها نوعاً من التنظيم العالي بحيث تغدو أجناسها المختلفة أعضاء فيها، (ص٦٣).

أبناء كنعان يبحرون إلى الغرب

«البحارة الفينيقيون في أمريكا؟»

تأليف: فاليري غوليايف
ترجمة: طارق معصراني

«مدينة قديمة سكانها تحدّروا من صور، اسمها قرطاجة- بعيدة عن مصب تيور، مقابل إيطاليا، كانت غنية وفي المعارك لا تهاب».

فرجيل، القرن الأول قبل الميلاد.

جاء في إحدى الموسوعات البحرية: «لم يعش أيٌّ بحر وأية قارة حياة عظيمة ونبيلة كتلك التي عاشها البحر الأبيض المتوسط. لقد فتن عشرين شعباً عاشت في أراضٍ مقفرة، وحينما أتت إلى شواطئه الساحرة مع محاربيها الشجعان وعرّافيها وآلهتها، وضعت عند قدميه سلاحها ودينها، خاضعة لسلطته الغامضة. عشرون حضارة ازدهرت في ألق البحر وبادت، بعد أن وصلت إلى ذروة القوة والعظمة. وضفر البحر أطلالها في التضاريس المتناسقة لخلجانه المشمسة، ورؤوسه البرونزية، وجزره التي صنعتها الأمواج ونقشت نزواتها على شكل أسس لمعابد مقبلة، أسس لم يكن من النادر أن تنشق عن مغائر تصدح فيها ألحان أرغن البحر. في تاريخ الضفاف المتنوعة لهذا البحر صفحات تتضمن الإجابة عن أي سؤال يطرحه الإنسان: هناك فكر في مصائر البشرية الفلاسفة والكهان والشعراء والعلماء والغزاة...».

تؤكد الأغلبية الساحقة من العلماء أن البحر الأبيض المتوسط كان منذ أقدم الأزمنة ميدان تجارب لقوارب ومراكب وسفن تزداد تعقّداً. يكتب المؤرخ خانكي (ألمانيا): «إن البحر

الأبيض المتوسط، بخط شاطئه الذي تقطنه الخلجان، وبجزره العديدة والمتخلص إلى درجة كبيرة من لعبة الجزر والمد المتقلّبة، كان منذ البداية مدرسة مثالية للملاحة الأوروبية».

والمياه الساحلية للبحر الأبيض المتوسط، الشفافة كالبلور والدافئة، تحتفظ في أعماقها بمقابر كاملة لسفن كل الشعوب والحضارات التي وجدت هناك على امتداد الآلاف الأخيرة من السنين. أين ومتى ولدت أوّل مرة فكرة بناء سفينة بأشرعة ومجاذيف؟ ربما فيما بين النهرين، على النهرين الآسيويين العظيمين دجلة والفرات؟ أو ربما في وادي النيل؟ النماذج الفخارية للزوارق، بما في ذلك الزوارق الشراعية، معروفة في الآثار السومرية لما بين النهرين منذ الألف الرابع قبل الميلاد. ومن البردي بنى المصريون، معاصرو الأهرام الأولى والفراعنة الأوائل، سفناً وزوارقَ خفيفة مخصصة للتنقل على النيل.

ولكن أكبر النجاحات في تطوير الملاحة حققها في الألف الثالث قبل الميلاد مؤسسو الحضارة المينوية في كريت، وفي الألف الثاني قبل الميلاد سكان الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط (سورية ولبنان حالياً). وقد اخترع الأخيرون وبنوا من خشب الأرز اللبناني المتين أوّل سفينة بحرية بقارينة واطر. وكانت هذه السفن، المنخفضة والراسخة ذات أشرعة ومجاذيف شأن السفن المصرية.

بدأ غزو البحر بتفقد الخلجان الداخلية الكبيرة. ثم حل الزمن للقيام برحلات أبعد. وتشكل أسطورة المركب العجيب «آرغو»، الذي تغنّت به عبقرية هوميروس، تذكاراً جليلاً لكل ملّاحي الطرق البحرية المجهولين.

في تلك العصور تعلَّم الناس أن يضعوا الخرائط، ويقيسوا الأعماق، ويعيِّنوا إحداثيات المدن والمستوطنات الساحلية، ويحسبوا بدقة وفق النجوم المسافات التي قطعوها، ويستخدموا لأغراضهم قوة الرياح والمد والتيارات البحرية. ولكن الأمر الرئيسي هو أن الإنسان تعلّم بناء مراكب بحرية متينة للرحلات البعيدة. جاء في موسوعة بحرية: «دخل المركب تاريخ الفن كفلك محمَّل بآمال المستقبل وأحلامه».

نتيجة للصراع الضاري والاصطفاء الطبيعي ظهرت قبائل جديدة، قاهرة للبحار. ويطلق عليها في الأسفار القديمة اسم «الشعوب البحرية». «كل الانفعالات البشرية تساعد على هذا الاصطفاء الذي يحتمه القدر: الطموح والكراهية والتطلع إلى الحرية والنفعية والحب. وتتحول المحطات المؤقتة على شواطئ الخلجان إلى مرافئ، أي إلى مدن بحرية يغذّيها البحر بثماره».

كان بيـن هؤلاء، الذين «اختارهـم القدر»، الفينيقيون، الشعب سامـي اللغة الذي استقرَّ منـذ أقدم الأزمنة على الساحـل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، في أراضي سورية ولبنان حاليـاً. هناك، عند ميـاه البحر اللازوردية، تحت ظلال جبال لبنـان المغطاة بغابات الأرز، ظهـرت وازدهرت المدن الفينيقية الشهيرة بيبلوس وصور وصيدون. هذه البلاد كان الإغريق القدماء يسمونها بفينيقيا، أما السكان المحليون فكانوا يسمونها بكنعان. لم تشتهر يوماً بوفرة مكنوناتها الطبيعية، ولكن أراضيها كانت خصبة وأنهارها الجبلية الصغيرة وينابيعها الطبيعية وآبارها كانت مصدراً سخياً لتزويد الناس بالمياه. وكان البحر غنياً بالأسماك.

لا أحـد يعرف بدقة متى ظهرت المدن الفينيقية على وجه التحديد. كانت صيدون تدعى المدينـة الأقدم، ولكنها ترجـع بأصلها إلى قرية متواضعة لصيد السمك، الأمر الذي انعكس في تسميتها: «صيدون» تعني «سمكة».

يرجـع تاريخ صور إلى الألف الثالث قبل الميلاد، أمـا بيبلوس (جوبل بالفينيقية، وجبيل فـي الكتاب المقدس)، فيعود تاريخها إلـى الألف الخامس قبل الميلاد. وعلى أي حال، فقد تحولـت بيبلوس في تخـوم الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد إلـى مركز كبير محاط بسور حجري قوي.

بقيت معلوماتنا عن الفينيقيين، إلى أن هب الآثاريون للمساعدة في أواسط القرن التاسع عشـر، تتوقف كليّاً على الشهادات الكتابية للشعوب الأخرى، مثل العبريين (اليهود) والإغريق والرومان. وكانت هذه الشعوب تعقد شتى الصلات بالفينيقيين، مع العلم أن هذه الصلات لم تكن ودية على الدوام.

أمـا المخطوطات الفينيقية بالذات ففنيت كلها تقريباً، ولهذا نشأ وضع يستحيل فيه عدّ اللوحة التي ترسمها المصادر الكتابية موضوعية وكاملة دائماً.

وهكـذا، فإن بلوتارك، المؤلـف اليوناني، الذي كتب في القـرن الأوَّل قبل الميلاد، بعد سنوات كثيرة من سقوط قرطاجة، أعلن ما يأتي عن الفينيقيين:

«إنهم أناس طافحون بالمرارة والتجهم، خانعون للحكام وطغاة على من يحكمونهم، حقراء (أذلاء) في الخوف، مسعورون حينما يمسهم أحد، راسخون (صلبون) في القرارات ومحدودون إلى درجة أنهم ينظرون بنفور إلى كل فكاهة وطيبة».

وثمة ملاحظات انتقادية مماثلة عند أبيانوس، اليوناني من الإسكندرية، الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد: «إنهم في عهد ازدهار قرطاجة فظّون ومتغطرسون إزاء كل الناس، ولكنهم أذلاء (خانعون) في المصيبة (في الخطر)».

ولكن منَ الخطأ إسباغ أهمية كبيرة على هذه المحاكمات. فثمة آراء أخرى أكثر ودّاً إزاء الفينيقيين أعرب عنها المؤلفون القدماء مثل بومبونيوس ميلا، الإسباني الذي كتب باللاتينية في القرن الأوَّل الميلادي: «كان الفينيقيون شعباً حكيماً ازدهر في الحرب وفي السلام، امتازوا (برزوا) في الكتابة والأدب، وفي الفنون الأخرى، وفي الملاحة، وفي الفن العسكري والبحري، وفي إدارة الإمبراطورية».

ساعدت الأبحاث الآثارية كثيراً على تكوين نظرة إلى الفينيقيين أكثر اتزاناً.

كان الفينيقيون باحثين ومؤسسين للمستوطنات في الأزمنة القديمة يأتون في الدرجة الثانية بعد الإغريق. وكانوا بصفتهم تجاراً وباعة يوصلون وينقلون الخامات والبضائع المنتجة في مدنهم إلى كل أرجاء العالم المعروف حينذاك. وهم لم يظهروا جرأتهم محاربين شجعان في الصراع الطويل بين قرطاجة وروما فحسب، بل كذلك في المقاومة التي أبدتها صور وصيدون لسكان ما بين النهرين وللغزاة الآخرين، وفي عملهم في الأسطول البحري لمصلحة فارس. ولكن كل هذا يبهت أمام إنجازهم الأعلى والخالد، أمام الأثر الذي خلّفوه لكل الأزمنة، ألا وهو الأبجدية.

هذا الشعب، الذي تحدثنا عنه بكل هذا الكلام، شغل منذ القدم شريطاً ضيقاً من ساحل الشام يمتد من طرطوس في الشمال إلى جبل الكرمل في الجنوب. يسمِّي الكتاب المقدس سكان العصر البرونزي لهذا الشريط الساحلي ومنطقته الخلفية بالكنعانيين. وكانوا ساميين ويتكلمون بلغة سامية. فمن أين أتى اسمهم الآخر «الفينيقيون» الذي عرفوا به في التاريخ. إنهم لم يخترعوه بأنفسهم. ويبدو أن الإغريق أطلقوه عليهم، ويفترض أنهم الميقينيون الذين عقدوا صلات تجارية بالفينيقيين في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد. ويصادف هذا المصطلح أوَّل مرة في قصائد هوميروس (المفرد- «فينيقس»، الجمع- «فيونيقس») وكان يعني أوَّل الأمر اللون الأحمر الغامق أو الأرجواني أو البني. ثم صار يطلق فيما بعد على النخلة وعلى الكنعانيين السمر.

عاشت فينيقيا على البحر وكانت حياتها متوقفة على البحر في كل شيء. كان البحر يوفر للفينيقيين الغذاء والخامات لمختلف الحِرَف مثل: (محار الرخويات «موركس» لإنتاج

«الأرجــوان» الشهير، الصباغ الأحمر الثابت)، ويشكل طريقاً مريحاً واسعاً للاتصال بالجيران القريبيــن والبعدين. فهل ثمة ما يبعــث على الدهشة في أنَّ سكان فينيقيا أصبحوا منذ أبكر الأزمنة مشهورين في كل البحر الأبيض المتوسط صانعي سفن وملّاحين مهرة.

يقــدّر العلم المعاصــر عالياً دور «أبناء كنعان» في تطوير الملاحــة القديمة. يكتب المؤرخ شيفمــان: «اضطلع الملّاحون الفينيقيون الشجعان بدور لا يستهان به في إنشاء الطرق البحرية في منطقة البحر الأبيض المتوسط. لم تبق بقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط لم يبحروا إليهــا. وكانت البلقان وكريت وصقليــة وبيرينه والمناطق المتاخمة للبحر الأسود ترى المراكب الفينيقيــة «ذات الجوانب السوداء» المثقلة بالحمولة، وتسمع الكلام الفينيقي الحلقي، وتنتظر بفــارغ الصبر أحياناً وبرعب أحياناً أخرى ظهــور الأشرعة الموشاة المعروفة جيداً في الأفق. بيــد أن الفينيقييــن لم «يقتصروا على البحر الأبيض المتوسط وحــده. إنهم، وقد تغلبوا على الخوف الطبيعي بالنسبة إلى زمنهم، خرجوا من مضيق جبل طارق وتابعوا طريقهم البحري إلى الشمــال، إلى الجزر البريطانية. وانطلقوا إلى الجنوب، بمحاذاة ساحل إفريقيا على الأطلسي. وكان الفينيقيون أوَّل من قام في تاريخ البشرية برحلة حول إفريقيا، من البحر الأحمر إلى جبل طارق. حتى إنّهم تجرؤوا على الإبحار إلى رحاب المحيط الأطلسي، بعيداً عن الشواطئ.

لم يبحث الفينيقيون قطّ عن مجد المكتشفين الأوائل للطرق البحرية، ثم إنهم في الواقع لــم يكونوا، على ما يبدو، المكتشفين الأوائل. وثمة مسوغات للتفكير في أنهم، إذ أبحروا إلى بريطانيــا، مثلاً، استخدموا المعطيات التي تلقوها من البحــارة المحليين والبريطانيين في جنوبي إسبانيا. وعلاوة على ذلك لم يضع الفينيقيون أمامهم عموماً مهمات للبحث. فما كانوا يعرفونه أو يسعون إلى معرفته عن المناطق النائية للعالم المعروف قديماً لم يتجاوز نطاق ما هو ضروري على نحو ملــح للقيام بالتجارة البحرية. بحث الفينيقيون عن أماكن يستخرجون منها المعادن النادرة في ذلك الزمن والثمينة ويمكن فيها الحصول على العبيد وبيع البضائع دون التعرضــ للخطــر. كانوا يتطلّعــون إلى الربح، ولذا سعوا بكل السبــل إلى أن يخفوا عن منافسيهــم الطرق البحرية التي يعرفونها، وكانوا، إذا لم يتسنَّ ذلك، يتحدَّثون بمعلومات غير صحيحة، محاولين إخافة كل من يستطيع أن يقتفي أثرهم بالأحاديث عن الظواهر الطبيعية الغامضــة والحيوانات الخيالية... وربما لهذا السبــب بالذات لا نعرف إلّا قليلاً عن البحارة الفينيقييــن ولم تصل إلينا أسماؤهم إلّا في حــالات استثنائية نادرة. ومن يدري، فلربما قام الفينيقيون برحلات أبعد لم يبق لها أي ذكر في أعمال المؤلفين القدماء؟».

أصبح الآن معروفاً على وجه الدقة أن «أبناء كنعان» وصلوا في المحيط الأطلسي إلى جزر أسور (دفينة من العملة القرطاجية تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد في جزيرة كورفو).

ولكن هذا كان، على ما يبدو، الحد الجغرافي الأقصى الذي استطاعوا أن يصلوا إليه في الغرب. ومع ذلك يوجد سواء في الماضي أم الآن أناس كثيرون يعلنون من دون أيّ براهين أن المراكب الفينيقية زارت مراراً الساحل الأطلسي لكل أمريكا (الشمالية والوسطى والجنوبية)، حتى إن طواقمها أسست مستوطنات في عدة أماكن. تقوم هذه الحقائق عادة على مسلّمتين رئيستين: أوّلاً، على المستوى الرفيع للملاحة وبناء السفن الفينيقيّين اللذين أشير إليهما بالإجماع في كثير من الوثائق التاريخية القديمة في أواخر الألف الثاني ومستهل الألف الأوّل قبل الميلاد؛ ثانياً، على بعض الشهادات الضبابية والغامضة للمؤلفين الإغريق والرومان حول رحلات «أبناء كنعان» إلى الغرب، وراء «أعمدة هرقل» (مضيق جبل طارق)، إلى أرجاء الأطلسي الزرقاء، وحول اكتشاف جزر وأراض جديدة هناك.

فلننظر إلى كل من هذه المسلمات بمزيد من الإمعان.

إن مقتضيات التجارة البحرية (الناشطة مع مصر بشكل خاص) قد حولت بالفعل في وقت مبكر جداً مدن صور وبيبلوس وصيدون الفينيقية إلى مراكز كبرى لبناء السفن.

«يبدو أن المراكب المخصصة لنقل الحمولات إلى مسافات قصيرة نسبياً، في نطاق الجزء الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط، كانت تبنى على نمط قوارب الصيد. وقد عثر على أقدم صُوَر لهذه السفن في مدفن مصري يعود إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد. كانت سفناً بصارٍ واحد، وغاطس صغير، ومقدمة ومؤخرة مرتفعتين إلى الأعلى، وشراع رباعي ضخم. كان أساس السفينة يتكون من عصا معترضة، قارينة، ترتكز عليها أطر مغطاة بالألواح. وتجنباً للرشح كانت كل الشقوق تجلفط بعناية. ولم تكن الأكناف العلوية متواصلة. ولم تكن هناك بعد أيّ وصلات طولانية أو عرضانية: كانت الجوانب عمليّاً متصلة بوساطة ألواح السطح. وكانت المقدمة والمؤخرة تتكونان من عصوين خاصتين مثبتتين عمودياً على القارنية. وهاتان العصوان (الكنف العلوي والقائم الخلفي) ترتفعان إلى أعلى من الجوانب والسطح بكثير. والشراع يثبت على عارضتين؛ والعارضة السفلى معلقة على حبال كثيرة. وكانت ترتفع إلى الأعلى حينما ينطوي الشراع. كان يمكن إعطاء هذا الشراع أي وضع بالنسبة إلى هيكل السفينة، مما يمكّن الملاحين من المناورة عند الضرورة. ويقع في المؤخرة مجذاف القيادة. وكان يمكن باستخدام

التيارات المؤاتية اجتياز طريق على هذه السفينة من مصب النيل إلى رأس الكرمل في غضون يوم واحد، أما طريق العودة فكان يتطلب مدّة تتراوح بين ثمانية وعشرة أيام.

كان التجـــار يضعون على السطح حمولتهم المكوَّنة مـــن الصوف والخشب وزيت الزيتون المحفـــوظ في جرار فخارية كبيرة. وثمة بضائع أخرى كان الفينيقيون ينقلونها إلى مصر... (الثيران، والذهب، والعبيد السود والبيض).

يبـــدو أن الفينيقيين صنعوا فـــي الألف الثاني قبل الميلاد مراكـــب مخصصة للرحلات البعيدة، وهي ما يسمى «السفن الترشيشية». وقد ظهرت هذه التسمية لأنَّ بلاد ترشيش (ترتس في جنوبي إسبانيا) كانت تعدُّ في الشرق الأوسط «نهاية الدنيا». بيد أننا لا نعرف كيف كانت المراكب «الترشيشية» في تلك المدّة وكيف كان تركيبها».

تغيـــر الوضع مع الزمن بشكل ملحوظ وصار البحـــارة الفينيقيون يقطعون البحر الأبيض المتوســـط من طرف إلى طرف بثقـــة متزايدة. واكتسبت الرحلات إلـــى ترتس، إلى ضفاف المحيـــط الشاسع والفاتـــن طابعاً دائماً إلى هـــذه الدرجة أو تلك. وكانـــت الفوائد من هذه الرحلات تنمو مع كل سنة.

ولكـــن كان الطريق من الحافة الشرقية للبحر الأبيضـــ المتوسط إلى حدِّه الغربي صعباً وخطـــراً، فضلاً عـــن بعد المسافة التي تفصل بين ترتس وفينيقيا. وحتى الآن، بعد أن تحول البحـــر الأبيض المتوسط إلى مصح عملاق لاستجمام ملاييـــن السياح من كل أرجاء الدنيا، تحدث هناك من حين إلى آخر جوائح طبيعية مروعة، وتهب العواصف ويهلك الناس والسفن. فمـــاذا يمكن القول عن الأزمنـــة القديمة، حينما اصطدم الإنسان وجهـــاً لوجه في خطواته الأولى على الطريق إلى الحضارة مع الضراوة الجامحة للطبيعة العذراء.

لم يتسم البحر الأبيض المتوسط «اللازوردي» بوداعة خاصة في يوم من الأيام. «العواصف فيـــه سريعة الهبوب وقاتلـــة وغادرة كالنساء. مـــا إن يبدأ تهديد الريـــاح المتكوّنة على خط الاستواء بإقلاقه حتى يشرع في اضطراب متمرد. ولكن قبل أن يتمرد، تتخذ مياهه لوناً غريباً وكأن قوتهـــا المتوعدة تطلق شراراً دامياً ذهبياً... الأبراج القوية في إسبانيا والمغرب تصون البحـــر الأبيض المتوسط من أنواء المحيط. ولكن أرجـــاء اليابسة التي تضغط البحر تنهال عليـــه بعواصفهـــا التي تنطلق عبر أودية كثيرة من كاتالونيا إلـــى قرمان، متنفسة برد الجبال وحرارة الحجارة المتوهجة...».

كانت الجولات البحرية، حتى القصيرة نسبياً، تعدّ في الأزمنة القديمة أمراً خطراً جداً. غالباً ما كان المؤلفون الإغريق والرومان يتحدثون عن عواصف وأنواء تقذف السفن سهلة الانقلاب بعيداً عن هدف الرحلة. وإذ كان الملاحون يفقدون السيطرة على السفينة والاتجاه، لم يكن من النادر أن يصلوا إلى بلدان وأصقاع لم يشاهدوها من قبل. وهذا ما حدث، مثلاً، لليوناني كوليوس من جزيرة ساموس، الذي توجه إلى مصر نحو عام (٦٠٠ ق.م). في الطريق قذفت ريح قوية مركبه إلى جزيرة بامبا عند شواطئ إفريقيا الشمالية. وبعد أن انتظر كوليوس هناك بعض الوقت، توجه مجدداً إلى شواطئ مصر، ولكن الريح قذفت بلا رحمة سفينته إلى الغرب. وعوضاً عن وادي النيل وجد الملاح اليوناني نفسه فجأة في جنوب شبه جزيرة بيرنيه، في دولة ترتس (ترشيش).

كان الناس القدماء العاجزون في صراعهم مع الطبيعة لا يعولون إلَّا على رحمة الآلهة الذين يثيرون العواصف، في رأيهم. وليس عجباً أن البحارة، الذين يحسنون الاسترشاد بالنجوم، كانوا يحاولون عدم ترك الساحل يغيب عن أنظارهم. حتى كتب الإرشاد البحري فيما بعد، المسماة «بيريبلات»، التي كانت شائعة عند اليونانيين، لم تكن تتضمن سوى قائمة بالنقاط الآهلة التي يجب أن تمر المراكب قربها، مع الإشارة إلى المسافات بينها».

بيد أن فوائد الرحلات البعيدة للتجارة البحرية كانت تفوق كل الأخطار المرتبطة بها. ولم يعد الفينيقيون يقتصرون على البحث عن أراضٍ غنية جديدة وعن الشركاء التجاريين الممكنين فيها، بل سعوا أيضاً إلى تعزيز مواقعهم في أكثر النقاط الساحلية فائدة. وهكذا، ظهرت المستوطنات الفينيقية الواحدة إثر الأخرى: ليكس (لكوس) في إفريقيا، خلف جبل طارق؛ قادش (قاديكس) في جنوبي غربي إسبانيا، وفي جزيرتي صقلية وسردينيا، وفي أوتيكا (إفريقيا الشمالية)... إلخ. وأخيراً أسس في عام (٨٢٥ ق.م)، على ساحل خليج تونس، أهم ميناء فينيقي، وهو قرطاجة. وكلمة «قرطاجة» تعني «المدينة الجديدة». اتسعت المدينة بسرعة لا نظير لها. «وموقعها المناسب جذب إليها حشداً من المستوطنين، مع العلم أنهم لم يكونوا من الفينيقيين فحسب، بل كانوا من الإغريق والإيطاليين والأتروسكيين. وكان أهم معالمها كثيراً من الترسانات وورش تصليح السفن، حيث كان يعمل عبيد تابعون للدولة وللأفراد.

بقي الفينيقيون أمداً طويلاً يبنون الميناء الاصطناعي، «الكوتون». كان يمكن للمراكب أن تحتمي هناك من الطقس الرديء بشكل يعول عليه أكثر مما في المرسى الطبيعي. وكان

الميناء يتكون من قسمين يصل بينهما مجرى ضيق صغير: ميناء بحري له شكل دائرة منتظمة تقريباً، وميناء مدني مستطيل».

بدا أن هذا السيل الاستيطاني العارم لا ينضب. «كانت المدن الفينيقية ترسل إلى كل الجهات فاتحي الأراضي الجديدة الذين كانوا يعودون بأنباء مثيرة. كانوا يجدون مصادفة، بسبب هبوط اضطراري أو طوعي إلى الشاطئ، أراضي يمكن إخضاعها. فتنطلق قوافل السفن في رحلة بمحاذاة شواطئ إفريقيا الشمالية أو ساحل أوروبا الجنوبي. وكانوا يتزاحمون على شكل مستعمرات كثيرة، حيث يقيم الطريدون والمغامرون الموانئ ويستقبلون البضائع من المدن- المتروبولات ويرسلون بالمقابل الثروات المستخرجة من الأراضي الجديدة...».

جابت البحار على مدى سنتين عمارة مراكب أرسلها في القرن السابع قبل الميلاد الفرعون المصري نخاو حول إفريقيا. وفي القرن الخامس قبل الميلاد اجتاز القرطاجي غنون على عدة سفن «أعمدة هرقل»، وإذ أبحر بدقة إلى الجنوب، وصل إلى ساحل إفريقيا الجنوبية، جنوب جزر الرأس الأخضر.

لم يعد البحر يثير في أفئدة الناس الذعر الذي كان يستولي عليهم حينما تبتعد عن أنظارهم الأرض التي يعدّونها بيتهم الوحيد. ومع ذلك كانت الرحلات البحرية تقترن بمخاطرة كبيرة في ذلك الحين.

«كانت قد طرأت في ذلك الزمن عدة تغيرات على تصميم المراكب الفينيقية. اكتسبت شكلاً أكثر استدارة، وصار هيكلها أعلى مما جعل غاطسها أكبر. ولهذا زادت حمولة السفينة وتحسنت خصائصها الملاحية، ولا سيّما استقرارها. ولعله اخترع أيضاً تثبيت الهيكل بوصلات معترضة، إما بعصا معترضة وإما بحبل... ثمة إمكانية عندنا للاطلاع أيضاً على المراكب «الترشيشية» من النصف الأوَّل للألف الأوَّل قبل الميلاد. على مقدمة هذا المركب، المصممة على نحو شاقولي بصرامة، كان يوضع تحت خط الماء كبش يحطم به في المعركة جانب السفينة المعادية. كانت المؤخرة ملتوية، وكانت ترتفع عالياً فوق السطح وتغطيه جزئياً، ولذا كانت تحميه بشكل يعول عليه من الهجمات الآتية من الخلف. ولحماية الكوى من العدو كان الفينيقيون يثبّتون على امتداد الكنف العلوي دروعاً وقائية. وكان للسفينة صاريان، أحدهما عمودي في منتصف السطح (الصاري الرئيسي)، ويحمل شراعاً رباعياً كبيراً، وهو المحرك الرئيسي، والآخر شراع المقدمة الذي يتخذ وضعاً مائلاً على المقدمة ويحمل كذلك شراعاً

رباعياً يستخدم للمناورة... وثمة صور آشورية تعود إلى القرن السابع لسفن «ترشيشية» بصار واحد وأشرعة مطوية. ويتكوّن جهاز الدفة من مجذافين طويلين في المؤخرة.

طبيعـي أنّه لا يمكن دوماً، عند الإبحار، الاتكال علـى الطقس المناسب والريح المؤاتية، ولـذا كانت كل السفـن- «الترشيشية» منها والمخصصة للجولات إلـى مسافة قريبة مزودة بالمجاذيف. بمحاذاة كل جانب كانت توجد على صفين، كما يظهر من الصور، تسعة أو عشرة مجاذيـف يجلس خلف كل منها عدة مجدّفين من العامليـن المأجورين والعبيد. كانت دقات الطبل الرتيبة تحدد وتيرة العمل، أما سوط المراقب فكان يحث من يعوزه النشاط.

كان غياب منشآت السطح العلوية خاصية مميزة للمراكب الفينيقية في ذلك الزمن. وكانت كل أماكـن الطاقم والركاب، وكذلك مستودعات الحمولـة والمعدات تقع تحت السطح داخل المراكب. وكانت السفن الفاخرة للتجار الفينيقيين تحدث انطباعاً كبيراً في معاصريهم.

ومن ثمَّ، كان يوجد في البحر الأبيض المتوسط منذ الألف الأوَّل قبل الميلاد أناس وسفن قادريـن على القيام برحلات بحريـة بعيدة، أي كانت هناك ولو إمكانية نظرية بحتة للوصول إلـى سواحل العالم الجديد. وكانت العوامل الطبيعيـة تساعد على هذا. يفصل بين إفريقيا وأمريـكا في أوسع جزء ٣٥٠٠ ميل من أرجاء المحيط (مـن رأس سان روكي في أمريكا إلى الساحـل الإفريقـي). بيد أن المسافة بين مدينة ناتال في البرازيـل وفريتاون في سيراليون (إفريقيـا) لا تتجاوز (١٦٠٠) ميل. وفي المنطقة نفسها، أي في الجزء الأوسط من الأطلسي، تهـب من الشرق إلى الغرب في أغلب أوقات السنة رياح دائمة (شمالية شرقية)، وفي الاتجاه نفسه تقريباً يندفع تياران محيطيان قويان، وهما تيار كناريا والتيار الثابت الشمالي. ويتراوح متوسط سرعتهما بين (١٥- ٣٠) ميلاً في اليوم. وتساعد على الانتقال من إفريقيا الاستوائية إلى سواحل العالم الجديد ريح جنوبية شرقية مواتية وتيار ثابت جنوبي.

يقول الجغرافي فويتوف: « وهكذا، توجد في المحيط الأطلسي عدة خطوط كان يستطيع أن يتبعها الملاحون القدماء سواء من أوروبا إلى أمريكا، أم من إفريقيا».

هنـا تأتي أعقد نقطة. كانت الإمكانية النظرية للرحلات عبر الأطلسي موجودة، ولا شك، ولكن هـل نفذت في الممارسة؟ وما الذي كان يعرفه القدماء عـن العالم الشاسع والغامض المحيط بهم؟ كانت حدود الرحلات البحرية لأي شعب تعينها، كما جاء في الموسوعة البحرية، معـارف زمنه وأساطيره. هذه الحدود كانت تشكلها فـي العصر اليوناني- الروماني «أعمدة

هرقل»، المخرج إلى «بحـــر الظلمات؛ وفي القرون الوسطى «المرجل الأسود» الذي يستحيل اجتيازه (على خط الاستواء)؛ وفي مستهل عصر النهضة رأس العواصف وخليج ماجلان».

فـــي القرنيـــن الثامن عشـــر والتاسع عشـــر، ونتيجة لنجاحـــات علم الآثـــار الكلاسيكي (الإغريقي- الروماني)، أخذ بعضــ العلماء يبحثون بإصرار عن منابع الحضارات الأمريكية فـــي ثقافات أوروبـــا والشرق القديم والبحر الأبيض المتوسط. هكـــذا ظهرت فرضية تغلغل البحـــارة المصريين والفينيقيين (القرطاجيين)، ومـــن ثم الإغريق والرومان في نصف الكرة الغربي القائمة على شهادات معاصريهم حول فن الملاحة عند هذه الشعوب، وكذلك الأخبار الضبابيـــة للمؤلفين القدماء عن الرحلات البحرية البعيـــدة إلى الغرب، خارج نطاق «أعمدة هرقل».

كان الفينيقيون بحارة مهرة وشجعاناً حقاً. وتشهد على ذلك رحلاتهم حول إفريقيا، وربما إلـــى الهند (بلاد أوفير) المثبتة في الوثائـــق التاريخية على نحو يعول عليه. ومما يبعث على دهشة أشد نجاحاتهم في القبض على ناصية مياه الأطلسي الساحلية. في عام (١٧٤٩م) عثر فـــي جزيرة كورفو (جزر أسور) على جرة فيها عملة قرطاجيـــة من أعوام (٣٣٠- ٣٢٠ق.م)، وهي برهان واضح على إقامة البحارة القرطاجيين هناك.

جـــرى الحديث أوَّل مرة عن هذا الاكتشاف الفائـــق الأهمية في عام (١٧٦١م) في رسالة للعالم السويدي يوهان يودولين:

«في نوفمبر عام (١٧٤٩م)، بعد عاصفة استمرت عدة أيام، جرف البحر جزءاً من أساس أحـــد المباني الحجرية الخربة علـــى ساحل جزيرة كورفو. واكتشف فـــي غضون ذلك وعاء فخـــاري فيه كثير مـــن العملات. وقد نقلت مع الوعاء إلى دير، إذ وزعت العملات على سكان الجزيـــرة الفضوليين المجتمعيين. وأرســـل عدد من هذه العملات إلى لشبونة، ثم أرسلت من هناك إلى الأب فلورس في مدريد.

لا نعـــرف عدد العملات التي اكتشفت في الوعاء وكـــم أرسل منها إلى لشبونة. وقد أرسل منها إلى مدريد ٩ قطع، وهي:

- عملتان ذهبيتان قرطاجيتان رقم ١ و٢.
- ٥ عملات نحاسية قرطاجية رقم ٣- ٧.
- عملتان قيروانيتان من المعدن نفسه رقم ٨ و٩.

وقد أهداني الأب فلورس هذه العملات إبان زيارتي لمدريد عام (١٧٦١م) وقال إن كل اللقية كانت تتكون من عملات لها النوع نفسه الذي للعملات التسع هذه، وإن هذه العملات اختيرت لأنها احتفظت بشكلها على أفضل نحو. ولأنَّ هذه العملات من أصل قرطاجي جزئياً، ومن القيروان جزئياً أمر لا شك فيه. وهي ليست نادرة على نحو خاص، باستثناء العملتين الذهبيتين. بيد أن ما يدهش هو المكان الذي عثرت عليه فيه.

من المعروف أن البرتغاليين اكتشفوا جزر أسور أوَّل مرة زمن ألفونس الخامس. ولا توجد أيُّ مسوغات لافتراض أن أحداً دفن هذه العملات في زمن أحدث. ومن ثمَّ، لا بد أنْ تكون قد وصلت إلى هناك مع مراكب برتغالية. إلَّا أنّني لا أستطيع أن أؤكد أن هذه المراكب قَدِمَت إلى هناك عمداً. إذ يمكن أن تقذف بها عاصفة إلى هناك. وكانت قرطاجة وبعض المدن الموريتانية ترسل مراكبها عبر مضيق جبل طارق».

ولكن ماذا يمكن القول عن الاكتشاف نفسه؟

لم يبق سوى تقرير أصلي واحد: تحدث العالم السويدي بودولين أنّه تسنى له أن يعلم بلقية جزيرة كورفو عندما كان في مدريد عام (١٧٦١م) من الأب فلورس، الاختصاصي المعروف في المسكوكات. حتى إنَّه توجد في رسالة بودولين رسوم للعملات التي تلقاها هدية من فلورس.

يكتب المؤرخ الألماني المعروف ريخارد هنيغ: «لا توجد أيُّ مسوغات للشك في حقيقة لقية العملات في جزيرة كورفو. يعدّ إنريكي فلورس (١٧٠١- ١٧٧٣م) عالماً إسبانيّاً بارزاً تقدر مؤلفاته عالياً في الموسوعات المعاصرة... بالإضافة إلى أنه لا توجد أي شكوك في صحة العملات نفسها».

ومع ذلك، وجد على أي حال مشككون ينفون صحة اللقية في جزيرة كورفو. بيد أن هذه الشكوك تبددت بعد التقرير المؤهل للبروفسور بيرنخاردت، الاختصاصي المعروف في المسكوكات من ميونخ.

وهو يعدّ أن «الشك الذي أعرب عنه بعضهم والذي يوحي بأن الأب فلورس قد خدع في حينه، ومن ثمَّ لم تجلب العملات من جزر أسور، لا أساس له بالمرة، إذ إن هذه اللقية صحيحة ولا شك، أي إنَّ العملات جلبها قرطاجيون. ويمكن البرهان على ذلك بأنه في ذلك الزمن نحو عام (١٧٦٠م) لم يكن في وسع حتى محتال أن ينتقي بشكل صحيح سلسلة رائعة

على هذا النحو من العملات العائدة إلى مدّة محدودة كهذه، أعوام (٣٣٠- ٣٢٠ق.م). لم يكن الاختصاصيون في تلك المدّة قد درسوا العملات القرطاجية والقيروانية إلّا على نحو ضعيف للغاية، ولم يكن علم المسكوكات قد وصل بعد إلى درجة من التطور تمكنه من وضع سلسلة من العملات التي تعود إلى مدّة محدودة كهذه، والتي عثر عليها في إفريقيا الشمالية أو إسبانيا. ولو أراد أحد أن يمارس الاحتيال في ذلك الحين لجمع في أفضل الأحوال كل ما يمكن من العملات من مختلف العصور، لأنَّ أحداً لم يكن ليلاحظ الخداع حينذاك».

وهكذا، برهن على صحة اللقية في جزيرة كورفو، ومن ثمَّ يمكن استنتاج أن القرطاجيين وصلوا إلى جزر أسور في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد.

وتستثنى كذلك الفرضية القائلة إنَّ وعاء العملات وصل إلى جزيرة مورفو مع حطام سفينة مدمرة غادرها طاقمها. ينطلق التيار البحري من جزر أسور مباشرة إلى المياه قرب مضيق جبل طارق الذي كان يبحر عبره القرطاجيون بانتظام. ومن ثمَّ، فإنَّ انسياق حطام السفينة الغريقة ضد التيار أمر غير وارد. ولا يبقى إلّا افتراض أن السفينة وصلت إلى الجزيرة مع طاقمها.

يمكن للسفينة القرطاجية أن تبحر من الشاطئ الإسباني إلى المحيط. وثمة حالات مماثلة كثيرة معروفة جيداً. فقد لوحظ، مثلاً، في منطقة الرياح الثابتة والتيارات الاستوائية انسياق السفن إلى مسافات بعيدة جداً. ففي عام (١٧٣١م)، على سبيل المثال، انجرت إلى سواحل جزيرة ترينيداد سفينة صغيرة بطاقم من ٦ أشخاص تنقل حمولة نبيذ من جزيرة تنريف إلى جزيرة هوميروس المجاورة. في نحو عام (١٧٦٠م) قذفت عاصفة إلى عرض المحيط بصندل يحمل الحبوب متوجه من جزيرة لانساروتا في كناريا إلى تنريف، ولم تنقذها سفينة إنكليزية إلّا على بعد مسيرة يومين من سواحل فنزويلا. ولذا يمكن أن يصحّ الافتراض القائل إنَّ عاصفة قذفت القرطاجيين إلى جزيرة كورفو.

ولكن يبدو أن هذا كان الحد الأقصى الذي استطاعوا أن يصلوا إليه في الغرب. يكتب ريخارد هنيغ: «وإذا كان مع ذلك يعرب غالباً عن رأي مفاده بأنَّ الفينيقيين أو القرطاجيين أو غيرهم من الشعوب التي كانت تمارس الملاحة قد وصلوا إلى أمريكا، فينبغي وصف هذا ثمرة لخيال صرف. بيد أنه لا يجوز أن ننفي من حيث المبدأ إمكانية أن يستطيع قديماً بعض سكان البحر الأبيض المتوسط الوصول مصادفة، لا بإرادتهم، إلى أمريكا وممارسة تأثير

ثقافي في العالم الجديد. ولكن يمكن التأكيد بالتحديد نفسه أنه لا توجد إلى الوقت الحاضر أيّ مصادر أدبية أو معطيات آثارية تدعم هذا الافتراض الجريء».

ومع ذلك بذلت مراراً محاولات لتقديم «براهين مادية» على الصلات المبكرة بين العالمين القديم والجديد. وأعني لقيات كثيرة من الأشياء «الفينيقية» في القارة الأمريكية. ينوه هنيغ، قائلاً: «إلا أنه بعد الفحص الدقيق تبين أن كل هذه الأقوال متهافتة تماماً. والتزويرات الناجحة إلى هذه الدرجة أو تلك لمثل هذه «البراهين» حظيت، للأسف، برواج كبير في الولايات المتحدة، البلد الكلاسيكي للخداع والإثارة».

وهكذا، مثلاً، اكتُشِفَ في عام (١٨٦٩م) على ضفة نهر أونونداغي (ولاية نيويورك) في الأرض تمثال حجري ضخم عليه نقوش فينيقية بحالة رديئة. وأثار ضجة حقيقية أيضاً العثور على لوح برموز كتابية فينيقية في ولاية بارايبا (البرازيل) عام (١٨٧٤م). وقد فضح الاختصاصيون تماماً حينذاك حقيقة اللقيتين كلتيهما.

ولكن بعد سنة ظهر خبر باكتشاف نقش جديد في منطقة بارايبا تعهد بصحته الدكتور فلاديسلاف نتو، مدير المتحف الوطني في ريودي جانيرو. وقال نتو إنَّ نص النقش يتحدَّث عن نجاةِ عدة أشخاص زمن هلاك قرطاجة في عام (١٤٦ ق.م) اجتازوا المحيط وبعد (٩- ١٠ سنوات)، عقب موت رفاقهم وقائدهم، أصبحوا في وضع لا مخرج منه بسبب «الحر الذي لا يطاق».

وبعد عدة سنوات وقعت صورة لهذا النقش في يد أحد أفضل عارفي الكتابة الفينيقية، وهو البروفسور لتمان (تيوبينغن، ألمانيا). وكم كانت دهشته كبيرة حينما حدد بسهولة أن أمامه شكلاً جديداً، معدلاً على نحو طفيف، للقية الأولى من بارايبا التي فضح زيفها منذ زمن بعيد. فهل ثمة من مسوّغ للحديث عن أن الأمثلة التي أوردناها من شأنها أن تزيد الشك المشروع في مثل هذه «الاكتشافات» و«اللقيات» فحسب. استمرت قصة «حجر بارايبا» الطويلة بإفراط إلى أيامنا. في (٢٩ كانون الأوَّل عام ١٩٦٨م) اطلعت جريدة «كومسومولسكايا برافدا» قرّاءها في مقالة بعنوان «لا كولومبس، ولا إريك الأحمر»، على شكل جديد لنقش بارايبا الذي اكتشفت نسخة له في أوراق قديمة للصحافي الأمريكي الراحل أولبيرفورم إيمس. ولسخرية القدر تلقى هذا الخبر المثير المنسيّ تماماً حياة جديدة في الولايات المتحدة بالذات. وقد بعثه من العدم المدعو سايروس غوردن، البروفسور الفيلولوجي من جامعة برانديس.

إنـــه، وقد قرأ الكتابة الفينيقية في مفكرة إيمس، أكد صحتها وأعطى الترجمة الآتية للنص: «نحـــن أبناء كنعان من صيدون، مدينـــة الملك. أودت بنا الأمور التجاريـــة إلى هذا الشاطئ البعيـــد، إلى حافة الجبال. في السنـــة التاسعة عشرة من (حكم) حيرام، ملكنا الجبار، قدمنا شاباً قربانـــاً للآلهة والآلهات. أقلعنا من إيزيون غيبر إلى البحر الأحمر وتوجهنا برحلة على عشـــر سفـــن. تنقلنا معاً في البحر حول أرض حام (إفريقيـــا)، ولكن فرقتنا يد العاصفة ولم يعـــد رفاقنا معنا. وهكذا وصلنا إلى هنا، اثنا عشر رجلاً وثلاث نساء، إلى... الشاطئ الذي خضع لي، أنا الأميرال. فلتباركنا الآلهة والآلهات العظام!» ولكن تاريخ النقش كان مغايراً هنا. ويعزوه غوردن إلى القرن السادس قبل الميلاد.

بيـــد أن أغلـــب الاختصاصييـــن الفيلولوجيين لـــم يوافقوا على حجج غـــوردن. فقد بيَّن البروفسور فرنك كرس من جامعة هارفارد بشكل مقنع على أسس لغوية بحتة الطابع المزيف لهذا الشكل الجديد من نقش بارايبا. فهذا، حسب قوله، «خليط» من الأحرف التي وجدت في مُدَد شتى من تاريخ فينيقيا. ولهذا لا مجال لأنَّ تجتمع في إطار نص واحد.

ولكي يبدو موضوع المستوطنات الفينيقية في أمريكا أكثر إقناعاً، يستشهد غوردن بنقاط التشابه الجلية بين ثقافتي الشرق الأوسط والعالم الجديد في عصر ما قبل كولومبس: «كان الأتستيكيـــون يعرفـــون الرياضيات ويحسنون حساب حركة الشمـــس والأرض والزهرة. وكان عندهـــم كذلك تقويم مـــن ٣٦٠ يوماً وخمسة أيام إضافية، كما عنـــد المصريين... ويصعب تفسيـــر منشأ هذه العمارة (الأهرام على مقربة من مكسيكو ومن القاهرة) والعلم. إذ لا توجد أيُّ سمات لارتقاء طبيعي من الدرجة الثقافية السابقة».

وهبت لمساعدته الملاحظات و«الوقائع» التي جمعها قبل ذلك الأنصار الآخرون لرحلات الفينيقييـــن المنتظمـــة إلى أمريكا. فقـــد اكتشف تشارلز بولاند فـــي مستوطنة مهجورة في نيوهيمبشيـــر (الولايات المتحـــدة) مباني حجرية وحجارة للقرابين وآثـــاراً لمعالجة الحديد تعود، على حد زعمه، إلى المستوطنين القرطاجيين في المدّة من القرن الخامس إلى القرن الثاني قبل الميلاد. ثمة، كما يقول، آثار كهذه للاستيطان الفينيقي في ولاية بنسلفانيا (وادي نهر سوسكيهن، تشيسابيك).

مـــا الـــذي حمل «قاهري البحر» الشجعـــان هؤلاء على ترك وطنهـــم الحبيب إلى قلوبهم والهرب عبر المحيط إلى السواحل المتجهمة لأمريكا الشمالية؟ ثمة، في رأي بولاند، تفسير

واحد، وهو السعي إلى ممارسة دينهم المتعصب والوحشي بحرية. بعد جملة من الهزائم التي ألحقتها الجيوش اليونانية والرومانية بقرطاجة، بدأ في المدينة التضييق على أنصار هذا الدين الكالح الذي يتطلب قرابين بشرية دائمة. وقرر أكثر ممثلي الدين القديم غيرة الهرب إلى العالم الجديد لكي يتمكنوا من أداء طقوس الأسلاف الدامية.

وفي عام (١٤٦ ق.م)، حينما حطمت الفيالق الرومانية المظفرة قرطاجة نهائياً، فرَّ بقية سكانها في المراكب التي بقيت سالمة إلى الغرب عبر الأطلسي، بحثاً عن «أرض الميعاد». وطبيعي أن يعثر على آثارهم في الولايات المتحدة، لا غيرها: بضع مئات من الحجارة ذات النقوش «البونيكية» التي اتضح من النظرة الأولى أنها مزورة؛ وقطع حديد لا شكل لها مجهولة العمر والمنشأ... إلخ، وهذا كل ما يشكل إلى الآن ذخيرة براهين أكثر أنصار «الفرضية الفينيقية» غيرة.

حسب أقوال الصحف المحلية، عثر في وادي نهر ساكسويهانا (الولايات المتحدة) في عام (١٩٤٠م) على جملة من النقوش الفينيقية التي تشهد على نشاط مكثف للمعدنين الفينيقيين في منطقة مدينة بلتيمور المعاصرة. وقد عثر المدعو وولتر سترنغ هناك على (٤٠٠) حجر لا أكثر ولا أقل، عليها رموز كتابية كنعانية، وتوصل على هذا الأساس إلى استنتاج يزعم أنَّ الفينيقيين صاروا يبحرون إلى أمريكا الشمالية ابتداء من عام (٣٧١ ق.م). ومع أنّه لم يجر بعد تحليل علمي مفصل لأحجار بلتيمور، يمكن القول بكل تحديد إنَّ هذا الخبر لا يبعث إلَّا على قليل من الثقة شأن كثير من الأخبار السابقة.

ومهما كان الأمر، فإن أيّاً من الحقائق لم يزعزع إلى الآن صحة استنتاج المؤرخ الألماني المعروف كروناو الذي سمى كل اللقيات الفينيقية- القرطاجية في العالم الجديد «تزويراً وقحاً».

يكتب العالم شيفمان: «تظهر من حين إلى آخر في الصحف والمطبوعات العلمية المبسطة أخبار تقول إنه عثر في أمريكا على نقوش فينيقية. ويهرع الصحافيون سريعو التصديق إلى إدهاش العالم بالأخبار المثيرة: اتضح أنَّ الفينيقيين، والقرطاجيين منهم على الأرجح، كانوا أوَّل من زار أمريكا. نحن مضطرون إلى إثارة خيبة أمل القراء: عند النظر إلى هذه النقوش عن كثب يتضح أنها تزوير ساذج جداً. لا يجوز أن يعزى إلى الفينيقيين شيء لم يفعلوه. لقد أدّوا قسطاً كبيراً في القبض على ناصية الطرق البحرية في العالم القديم. وهذا يكفي تماماً».

يستحـــق الأمر أن نستمع أيضاً إلى تقديـــرات اختصاصي- مؤرخ كبير آخر، وهو العالم الألماني ريخارد هنيغ. يكتب في مؤلفه الضخم عن تاريخ الجغرافيا العالمية: «يمكن القول بثقة إنَّ الفينيقيين كانوا بعيدين عن اجتراح كل تلك المآثر الملاحية المهمة التي كنا نعزوها إليهـــم سابقاً وغالباً ما تعـــزى إليهم الآن أيضاً. وكان هذا لتفسيـــر بعض الحقائق البارزة مـــن تاريخ التجارة، ولا سيّما ظهور الكهرمان في البحـــر الأبيض المتوسط قبل هوميروس بوقـــت طويل. ونحن نعـــرف الآن أن رحلات الفينيقيين التجاريـــة البحرية المنتظمة، التي كانـــت تفترض سابقاً، إلى بحـــري الشمال والبلطيق، أي إلى بلـــدان القصدير والكهرمان، وإلـــى النروج والهند... إلخ، يجب أن ينظر إليها بوصفها محض خيال. يبدو أن الفينيقيين لـــم يقوموا غالباً بالرحـــلات البحرية والتجارة إلَّا في المياه التـــي درسها قبلهم الكريتيون والمصريون، وربما الكاريون...

يمكن في الوقت الحاضر التأكيد بكل ثقة أن الفينيقيين لم يوغلوا في المحيط الأطلسي بعيداً عن جبل طارق... ويبدو أن زيارة جزر كناريا الشرقية والوسطى ومجموعة جزر ماديرا هي الاكتشاف الجغرافي الوحيد الذي يمكن أنَّ نعزوه إلى الفينيقيين بثقة...».

عبور

موفق نادر

تسيرينَ
يا روعةَ المشي
حين الخطا من قرنفل
والحبُّ يهمي جوىً في خطاكِ
أراكِ
وأتبع ظلَّكِ
لا شيءَ يجرؤُ أنْ يحتويكِ
سوى نسماتِ الصباحِ
تداعب شعرك
ثم تعود قليلاً
تعبُّ من العطرِ
نشوى
إذا ما تمادتْ تزنّر خصرك

إذنْ فالإلهةُ أنثى
بساقين من مُخمل الدفءِ
والأقحوانْ
لها قدمان من النرجس البلديِّ
وخفّانِ من عشبِ
ضوءِ الزمانْ
أنا لا أصدق أنَّ الحديقةَ تمشي
أكاد أجنُّ
تنام ؟
أجلْ
تخيّلتها
تتوسّدُ نهراً
وتحلم بالنَّسمات البريئةِ

- العمل الفني: الفنان علي الكفري.

فوق الجسدْ
تنام
وتهمي الظلالُ
كأحجية للأبدْ
صغارٌ يجسّون غرّتها
وقد يستبدُّ بهم لهوهمْ بين أحضانها
ضحوةً
كأنْ لا يراهم سواهم أحدْ
فيحضن أشقاهمُ نهدَها باليدينِ
ويلثم برعمةً
من زبدْ
أنا هؤلاء الصغارُ جميعاً
كبرتُ على غِرّة
من نشيج الولدْ
فيا امرأةً من بساتين لوزٍ ونورْ
لماذا نهضتِ مع الصبحِ
رحتِ تسيرين تحت الظلال الرخيّةِ
أجفلتِ كلَّ الكلامِ
وكلَّ اللغات
وبعثرتِ كلَّ الشهورْ
بدا الناس مثلَ السُّكارى
يسيرون حيث تمرّينَ
تترى
خفافاً



كأنّهمُ بُعثوا من خفايا الدهور
فقد لجَّ في روعهم نفخُ صُورْ
إذنْ
فالحديقةُ تمشي
وفي الناسِ
يسري يقينٌ بأنَّ الخليقةَ
في موكبٍ من زهورْ
وخصرُكِ يلتاث زهواً
ويعلنُ:
هذا زمانُ النّشورْ

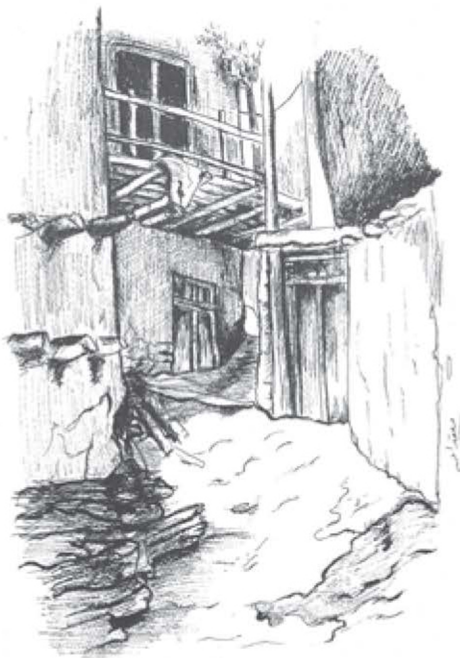
❁ ❁ ❁

دمشق

علي عبد الله الجاسم

(١)

دمشقُ:
كأنّكِ والياسمينُ
احتفالٌ بروضِ الخلودِ،
تطلّينَ عبرَ الجهاتِ
بوجهٍ صبوحٍ يُريحُ القلوبَ
إذا ما ابتكرْتِ فضاءَ التّباهي.
دمشقُ عروسٌ
تُفاخرُ كلَّ الجميلاتِ
منذ الأزلْ
لكِ العرشُ، والتّاجُ،
أنتِ المَليكةُ،
تحتشدُ الكائناتُ إليكِ،
لتأخذَ منكِ السّناءَ،



- العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

وحين استدارَ الإلهُ على العرشِ
كوّنَ صُبحَك،
لوّنَ وجهَك بالوردِ،
فانتثرَ الياسمينُ
ينيرُ أديمَك بالعطر
فاشتُقَّ منك الضّياءُ،
ليعتكفَ العتمُ خلف الحدودِ،
فإن قمتِ قامِ البهاءُ،
وإن همتِ حبّاً يثورُ الصّفاءُ،
ارتقيتِ ذُرا المجدِ،
سيفُك حتفٌ...
يؤجّجُ ليلَ العِدا بالسّعيرْ

(٢)

حبيبةَ قلبي:
سفكْتُ الغرامَ
على ثغرِك العذبِ،
أرشفُ طعمَ النّدى والهيامِ
حنيناً إليك،
أقبّلُ فيك التهابَ الحضارةِ،
أعشقُ صَحوَك
حين تنامُ العواصمُ،
أشربُ ماءَك حين تجفُّ الكؤوسُ
سُلافاً معتّقةً،
أنتشي حين أنطقُ لحنَك...
فيحـــاءُ...
بالنّغمةِ المرسَلةْ

(٣)

يرتجفُ الكونُ
حين تقومينَ باسقةً،
ينطوي تحت خُفّيك كلُّ الطُّغاتِ،
فتهوي مَكائدُ أصنامهم كالحُطامِ
يبعثرُها العنفوانُ
على قدمِ الفارسِ المنتصرْ
ألفُ كيدٍ تحطّمَ
كالفُلْكِ في بطنِ هائجةِ الموجِ
لوحاً فلوحاً،
حُطاماً يضيعُ كلونِ هَباءٍ
تطايرَ في الكونِ...
ثمّ عَفا

(٤)

تنامُ المَدائنُ،
والياسمينُ له عبقٌ لا ينامُ،
يعطّرُ كلَّ الأماكنِ
بالعزِّ،
والكِبْرِ،
يا قاسيونُ:
ألستَ شهيداً على المجدِ؟
قل ما تشاءُ من الشِّعرِ،
آنَ الغناءُ،
وطابَ النّغَمْ

❁ ❁ ❁

الشعر...

وقادِمُ عُمري سِمان

إسماعيل ركاب

-١-

- عجافٌ... ومَرَّتْ،
وقادمُ عُمري، حبيبَةَ قلبيْ، سِمانْ
-جراحُكَ نَزْفُ،
وليلُكَ صرخةُ ثكلى،
ودربُكَ غدرٌ وذبحٌ وخطفُ،
و«عبسُ» تمادتْ،
و«ذبيانُ» توغلُ في الدَّمِ...
حتَّى جمام الطِّعانْ
وعُهْرُ «مُسيلمةَ» الآنَ فاقَ حُدودَ الخَيالِ،
يَقودُ حُروبَ «الفِجارِ»... السُّعارِ... الدَّمارِ،
على الأنبياءِ،
على الشُّهداءِ،
على المسلمينَ،
على الطَّيِّبينَ،
على اللّه،
يحشدُ كُلَّ جُموعِ الزُّناةِ،
يُراقصُ شيطانَ «بيتِ السَّوادِ»،
ويدفَعُ دونَ حِسابِ،
ويوصي بقطعِ الرُّؤوسِ،
وسبي الحرائِرِ،
حَرْقِ المحاصيلِ،
هدم البُيوتِ،
وإطفاءِ نورِ المدارسِ والجامعاتِ،
ودورِ العبادةِ والمكتباتِ،

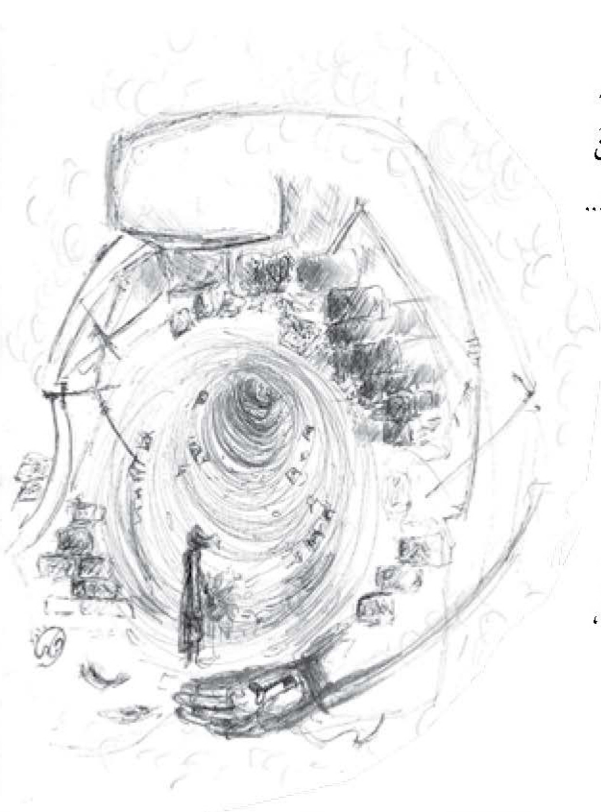
- العمل الفني: الفنانة ناديا داود.

فكَمْ مِنْ دُهورٍ سيلزمُ حتَّى...
نُرمِّمَ هذا الخرابَ،
ونُرجِعَ ذاكَ الجَمالَ...
إلى وطنِ البيلسانْ؟!
و«خيبرُ» فازتْ...
بكُلِّ جوائزِ سوقِ النَّخاسَةِ...
عندَ الأعاريبِ،
حينَ على مسمَعِ الكونِ صاحوا:
أمانٌ... عليها الأمانْ!
فعُذراً، أيا شعرُ،...
حينَ تُحيلُ إلى الرَّمزِ قصَّةَ «يُوسُفَ»؛
أُخوةُ هذا الزَّمانِ..
أناخوا على القلبِ شُمروخَ غدرٍ،
يفوقُ كثيراً،
يُنكِّسُ رأسَ الزَّمانْ
فقُلْ لي، بحقِّ السَّماءِ،
على أيِّ شيءٍ، أيا شاعرَ الحُلْمِ،...
تعقِدُ هذا الرِّهانْ؟!

-٢-

-تسلَّلَ فجراً إلى غُرفةِ النَّومِ...
طيفٌ مِنَ النُّورِ،
شَعشَعَ أرجاءَ هذا المكانْ
ملاكٌ شفيفٌ... رحيمٌ،
وصوتٌ رخيمٌ،
وخُيِّلَ لي أنَّني قدْ رأيتُ «إمامَ الزَّمانْ»
فَحيَّا،
وقالْ:
سلامٌ عليكَ،
على الصَّامدينَ الرِّجالْ
وطوبى لكُلِّ شهيدٍ،
وكُلِّ جريحٍ،
وكُلِّ الَّذينَ استماتوا...
ليبقى تُرابُ البلادِ مُصانْ
وأبشرْ فقد «حَصْحَصَ الحقُّ»؛
نَصْرُ الشَّامِ قريبٌ،
ونجمةُ صُبْحِ الشَّامِ بَيانْ
هيَ الآنَ جولَةُ حَقٍّ،
«أبو بكر» يجمَعُ جيشَ الرَّسولِ،
و«خالدُ»... «عمرو» يقودانِ فُرسانَ دينٍ حنيفٍ،
يَصولانِ عاصفةً في بلادِ الحضارةِ،
منْ أرضِ «بابلَ»... «تدمُرَ»،
حتَّى تُخومِ الأصالةِ في «كوكبانْ»[1]
وتفتحُ «مملكةُ الموتِ» أبوابَها كي...
تَضُمَّ بكُلِّ حنانٍ مَنِ ارْتَدَّ أو خانَ،
أو كانَ نذلاً عميلاً جَبانْ!
أفقتُ على صوتِ فرقعةٍ في سماءِ دمشقَ،
صواريخُ عُدوانِ «حلفِ الدَّمارِ» تَصيرُ...
بهمَّةِ جيشِ العُروبةِ، ألعابَ عيدٍ،
تُضيءُ الفضاءَ،

وتُعلنُ أنْ:
لا عدوَّ على الأرضِ يسطيعُ قَهْرَ...
السِّيادةِ والحَقِّ في وطنِ السِّنديانْ
وأحفادُ «سلطانَ»... «صالحَ»... «يوسُفَ»...
يَسْتأسِدونَ،
ويسْتنسِرونَ،
ويسْتأصلونَ غرابيبَ «أبرهةَ» الحبشيِّ،
معَ الأصدقاءِ،
معَ الشُّرَفاءِ،
ويقتلعونَ جُذورَ الجريمةِ والمجرمينَ،
وفي وَضَحِ العُمْرِ يستعذبونَ الشَّهادةَ،
كيما تظلَّ البلادُ بيارقَ عزٍّ،
وأيقونةً منْ جُمانْ
وشعبٌ أبيٌّ يُقيمُ احتفالاتِ مجدٍ،
ويرفَعُ راياتِ نصرٍ،
وتزهو الأهازيجُ،
تعلو الزَّغاريدُ... تعلو،
تُشكِّلُ غيمةَ عشقٍ،
يطوفُ على جَنْحِها المهرجانْ!
أقولُ وقد أزهرَ الحُلْمُ،
وانْقشعتْ غيمةٌ مِنْ ضَلالٍ،
وبانتْ مُروجُ التَّآمُرِ، بينا،
على صهوةِ المجدِ حلَّقَ...



رُمحٌ صقيلُ السِّنانْ:
شآمُ العُروبةِ بيتُ القصيدِ،
وزهرُ الرِّهانْ!

-٣-

هيَ الآنَ تخرُجُ مِنْ «جسدِ الحوتِ» أكثرَ عزماً،
وأجملَ وجهاً،
وأعذبَ صوتاً،
وأطيبَ ريحاً،

ومِنْ مُقلتيْها تُشعشعُ نُقطةُ نونِ الحقيقةِ،
والنُّقطةُ الرَّمزُ، في قصَّةِ الخَلْقِ،...
جوهرُ هذا الوُجودِ،
وسِرُّ الخُلودِ،
وروحُ البقاءِ،
وموتُ الفَناءِ،
وجسرُ العُبورِ إلى كوكبِ النُّورِ،
أو ضفَّةٍ مِنْ جِنانْ!
أيا دُرَّةَ الكونِ،
كُرمى لعينيكِ تُزهرُ قافيةُ النُّونِ،
يزهو المُغنِّي،
ويُبدعُ في اللَّحنِ عازفُ هذا الكمانْ!

❁ ❁ ❁

الهوامش

(١)- كوكبان: مدينة في اليمن، تقع على قمة جبل شديد الانحدار، لم يستطع أي غازٍ الوصول إليها في التاريخ.

❁ ❁ ❁

مقطوعتان على حبال الضوء

فينوس الحسن



١ - سيأتي ذات هفوة

ما زلت لا أتذكَّر
كم من مرَّة نجوت من الحبِّ
ثـمَّ انطفأ وهمــي، وتذكَّـرت أنَّ قلبي مســوَّر
بقفص،
لأنَّه شاغب وشاكس وعاند التوبة كثيراً
ثمَّ سقط سهواً خارج التغطية

❀❀❀

ما زلت لا أتذكَّر
كيف كنت أعدُّ لنفسي وجبة من نفسي
لأملأ فراغ قصيدتي بفائض الغياب.

- العمل الفني: الفنان حسام وهب.

ما زلت لا أتذكَّر
بحَّة قلمي حين أحيا وسط حرب مبلَّلة بالتعب:
لا هدوء يبقى
لا نسمة ريح
لا صباح ولا مطر
بل فصل بلا ألوان
خراب في كلِّ مكان

❀❀❀

ما زلت لا أتذكَّر
يقظتي ما بعد الوقت،
وأنا أفكِّر ألَّا أفكِّر فيك،
بل أشرد مع مسافة للرصاص
شظايا حرب طاحنة
رماد ذاكرتي
حريق أصابعي

❀❀❀

مازلت أتذكَّرني على قيد الشقاء
كرحيلك المباغت
موت صوتك
فأيقنت أنَّ النسيان أحد هفواتي
وباقي الهفوات نسيتها...

٢- يا ظلِّي المتعب

ما جئت من زهرة
بل دوَّنت ملائكة يديه معلَّقات شغفٍ
لفَّني برداء تعب من جعبة الوقت
يأكل انتظاري
تعريني أوراق أيلول
تنزع من تنانير عمري خيوط الأمل
وبصنّارتين أغزل مدامع قلبي
ليس يلفُّ قامتي نداء مراياه
فلا أحد يعلم تنهيدات ليلي
وغرق جدائلي في التّيه
لم يرتِّل بياضه داخلي مثل براءة طفل
بل أشعل دمي بجفاء أبدي
فقيرة ببوحي
قدمت قرابين خجلي
كي لا أرى مزيداً من ظنونه
لا غصن يحتضن شمس غروبي
لا صلاة لظلِّي المتعب من الشوق
لم أعد بحالة توق إليك
ولا نداؤك بات يصنع سلاماً بين يديّ
اعتصمت بمجيئك المتأخِّر
ما عدت أغمض وجعي عليك...

❀ ❀ ❀

عدوى

د. يوسف جاد الحق

حين أتينا على ذكر البيت والزوجة، في حديثنا غير الهادف لشيء سوى قتل عدوِّنا المشترك... الوقت، دون غيره من أعدائنا الكثر، قال صديقي (صابر) بعد أن أنهى توّاً شكواه من أوضاع أشاركه فيها:

- ألم أقل لك يا صديقي إنني أحمد البارئ عز وجلّ على أن زوجتي (نهى) خبيرة اقتصادية فذّة...؟ هي هبة من البارئ عزّ وجل خصّني بها دون سائر خلقه...!

ولما كان قد حدّثني في شأنها فيما سلف، لزمت الصمت، وإن كنت قد غبطته في سرّي، وتمنيت لو كانت لي زوجة مثلها، ذات مشروعات ناجحة ربما تعينني على تحسين أوضاعي الخاصة والعامة معاً، فضلاً عن امتلاكها قدراً لا بأس به من الجمال الرصين.

ولكيلا يدرك ما يدور في خلدي قطعت صمتي لأبادره بقولي:

- هذا شيء جيد يا صديقي (صابر)، ولا بدَّ أنه مدَّعاة لراحتك النفسية، غير أني ألمح نبرة الشكوى في صوتك... أليس كذلك؟

ردَّ صابر:

- العمل الفني: الفنان حسام وهب.



- أبداً... من قال لك هذا؟ يمكنني يا (نديم) أن أحدِّثك عن إنجازاتها في مشروعاتها لعشر ساعات على الأقل... أثار صابر فضولي، فأسرعت إلى القول:

- حدثني عنها بربك يا صابر، وأعدك بأن أنقل ما تخبرني به بحذافيره إلى زوجتي (مها) لعلها تحذو حذو السيدة (نهى) حرمك، وتقتفي أثرها في مشروعات مماثلة أبقاها الله لك ذخراً وسنداً..!

بعد هنيهة صمت، وقبل أن يطلق صابر تنهيدة ذات مغزى، ملحَّنة على مقام (حجاز كار)، قال صابر:

- هي يا صديقي خبيرة في سائر أمور البيع والشراء. وقد قررت الآن. حماها الله ورعاها. بيع منزلنا الذي نقطنه.

- هذا يعني أنها سيدة أعمال عظيمة، ومن ثمّ فدخلكما جيد... وما من شك في أنكما تملكان أرصدة في البنوك.

قاطعني بدوره، ربما بسبب مقاطعتي له آنفاً، ليس لأي سبب آخر فقال:

- نعم... دخلنا جيد... وجيد جداً أيضاً!

قلت مبتهجاً:

- لقد أسعدتني حقاً يا صابر، أفهم من هذا أنكم سوف توظفون ثمن البيت في مشروع استثماري: سيارات سياحية ذات لوحة زرقاء مثلاً... اللهم زد وبارك، أو في إقامة معمل للصابون، أو الشامبو، أو العلكة، أو المياه الغازية... هذه كلها مشروعات ذات جدوى اقتصادية كما يقول أصحابها عنها على الفضائيات فضلاً عما تحققه من نفعٍ عام لا ينكر للوطن والمواطنين!

قال صابر وهو يبسط ذراعيه في الفضاء:

- هنا بيت القصيد، زوجتي يا صديقي خبيرة في باب زيادة الإنفاق وليس في باب زيادة الدخل كما قد يتبادر إلى ذهنك فأنت متسرّع في استنتاجاتك دائماً.

- إنك ما تنفك تثير فضولي يا صابر... كيف تكون زوجتك...

قاطَعَني قبل أن أسترسل:

- إذا وعدتني أن تحتمل معي صبراً حدثتك.

- ستجدني إن شاء الله صابراً، ولن أعصي لك أمراً.

- في أول هذا الشهر، في سهرة ذلك المساء قامت أثيرتي -هكذا أناديها تودداً- إلى جهاز التلفزيون فأسكتته مرة واحدة، على الرغم من أني كنت أود متابعة حوار كان محتدماً بين مفكرين متعاكسين... قلّما تخرج منه بشيء في نهاية المطاف! وبالخبرة أصبحت أدرك أن هناك أمراً على قدر من الخطورة ترغب في طرحه عليّ.

جلست إلى جانبي اتكأت بذقنها الدقيقة الجميلة على راحة يدها البضة وبمرفقيها على ركبتيها أو أعلى قليلاً لكي تقول بهدوء مدهش:

- الغسالة تعطلت يا عزيزي.

لن أصف لك ذلك الإحساس الذي انتابني، كارتفاع الدم في عروقي، بيد أني تمالكت نفسي وعملت بتلك الحكمة العتيدة (ضبط النفس) في مثل هذا الظرف العصيب، ثم قلت:

- ولكننا أصلحناها منذ يومين فحسب يا عزيزتي، ودفعنا عشرة آلاف ليرة، من أجل ذلك الإصلاح، ولعلك تذكرين.

أجابت بتحفز ممزوج بالدهشة مركزة عينيها الجميلتين في عيني لتقول:

- ولكنها تعطلت ثانية يا بن الناس... هل تظن أنني عطلتها عامدة؟! تعطلت الغسالة من تلقاء نفسها ورب الكعبة!

ولكي أحول دون تصاعد الموقف، قلت في استسلام، نشداناً لسلام غير شامل ومؤقت فحسب قابل للنقض في أيٍّ لحظة من قبلها فهي الأقوى في شأن كهذا:

- نصلحها ثانية يا (بنت الحلال). أمرنا إلى الله العلي القدير، وليذهب نصف راتب هذا الشهر إلى الجحيم، عوضنا على الذي لا تأخذه سنة ولا نوم...

قالت وقد اربدّ وجهها:

- لِمَ كلُّ هذا يا صابر؟ لم تقع كارثة ولا نحن أصابتنا مصيبة يا رجل.

قلت في حيرة بادية:

- ولكني حتى الآن لم أعرف ما هي المشكلة يا صابر؟

قال:

- ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً..؟!

ثم تابع مردفاً:

- في اليوم التالي، قالت زوجتي الأثيرة، متبعةً قولها ذاك بابتسامة رقيقة أقنعتني بأن زوجتي (نهى) لو أن الله هداها واحترفت التمثيل قبل زواجنا لبرعت فيه، ومن ثمَّ قلت في نفسي: لو أنها فعلت ذلك هل كان ممكناً أن تصبح زوجة لي؟ كنت سأراها في الأمسيات على مسرح الأزبكية شأنها شأن أي منهن هناك! وشأني شأن غيري من هواة الفرجة!

تابع صديقي إذ رآني مصغياً إليه بكليّتي:

- بادرتني في اليوم التالي، بعد فنجان قهوة ذلك الصباح على الشرفة بسرد طلبات ذلك النهار الأبلج، ومن بينها لوازم المدرسة للأولاد من دفاتر وأقلام ومساطر وحقائب وو...

قلت محتدّاً هذه المرة:

- ويحك يا نهى! ألم تشتريها لهم نهار أمس؟

- بلى، ولكن ألوانها لم تعجب الأولاد فأهديتها إلى أبناء (تفيدة) زوجة بواب العمارة!

قلت في ضجر:

- حتى الآن لا أرى أين هي المشكلة الحقيقية التي من أجلها قررتم بيع منزلكم. وما هي علاقة كل ما تفضلت به في المسألة؟!

قال منفعلاً:

- هي التي قررت وحدها...

- ليكن... ليكن يا صابر... المهم الآن.

- المهم... المهم... صدقني لو أني أردت أن أسرد عليك حكايات مماثلة لاقتضى ذلك أياماً، ألم أقل لك ذلك من قبل؟ لقد تملكت زوجتي نزعة استهلاكية مفزعة فأمست تنفق بغير حساب، ودون مسوِّغات وجيهة... تشتري وتشتري لمجرد الرغبة في الشراء.

قاطعته:

- ولكن يا صابري الحبيب هل يبلغ الأمر، مهما كانت مشترياتها، حد الاضطرار لبيع المنزل...؟!

- نعم يا صاحبي، بل هي حين لا تجد أمامها جديداً يدفعها إلى اقتنائه لن تعدم ابتكار وسيلة أو اختلاق ذريعة من نوع ما، فقد تلجأ إلى تغيير غرفة الصالون مثلاً، لأن لونها البني أصبح

(موضة) قديمة، والجديدة هي الأزرق الغامق، بعد أن تنجز هذه المهمة سوف تكتشف أن الستائر أصبحت غير ملائمة للجدران...! وبعد أيام تقول لها إحدى الجارات إنَّ أثاث غرفة الجلوس لا يتناسب مع المستجد في غرفة الصالون. بعد ذلك لا بد أن يأتي دور المطبخ، خزائنه، وأدواته والثلاجة والغسّالة... إلخ، وهكذا ترى أنه ينبغي لك أن تكون مالكاً لبئر من النفط أو الغاز أو شركة هاتف خلوي تتقاضى الملايين، ثمناً لكلام في الهواء، لكي تتمكن من تغطية نفقات مشروعاتها ذات الجدوى (الجمالية..!).

- فهمت... فهمت... على أيِّ حال في وسعكم الاقتراض من أحد البنوك، مع الكف، في الوقت نفسه عن مزيد من الشراء، وهكذا يمكنكم الاحتفاظ بمنزلكم العامر بأثاثه الجديد المتناسق منذ الآن، والاحتفاظ بما قد يتبقى منه للظروف الطارئة المحتملة.

ألم أقل لك مراراً إنَّك يا صديقي قليل حيلة؟ دلني إن كنت صديقي حقاً على بنك يقرض دون رهن لملكية جديرة بتأمين السداد، أما إذا عنيت البنك الدولي فهذه مسألة أخرى.

أضحكني قوله فوجدتني أصيح به:

- ويحك...! هل جاء على لساني ذكر للبنك الدولي...؟

- لم تقل ذلك، ولكنك عنيته بلا ريب. حتى هذا لن يقرضني بعد أن أصبح رئيسه (بول وولفتز) المحرض الأول على غزو العراق...!

- المهم الآن، ما الذي تنوي عمله كي تنجو من هذه الورطة...؟

- ليس في وسعي عمل شيء يحول بين زوجتي وبيع المنزل. قراراتها في أحوال كهذه قاطعة مانعة غير قابلة للنقض...!

ثم أردف ساخراً، إذ كان يعلم أني خالي الوفاض تماماً:

- أتشتريه أنت؟ سأجعلها تمنحك حسماً مناسباً...!

ضحكت حزيناً من أجله...، ومن أجلي نهضت معتذراً أدعو الله في سرّي ألا تصيب زوجتي (مها) عدوى هذا الداء الوبيل، الذي تمكّن من زوجة صديقي صابر، فالسيدة (نهى) لا تنفك عن زيارة زوجتي (مها) من حين إلى آخر، ولاسيما أنه ليس هناك لقاح يقي المرء عدوى هذا المرض اللعين الوافد الذي يطلقون عليه عندهم الـ SHOPPING... وأسماء أخرى ذات وقع موسيقي على الآذان، وإن يكن وقعه غير ذلك على الجيوب...!

❁ ❁ ❁

شجرة القتيل

عماد الدين إبراهيم

خبر: (قام عناصرُ من تنظيم داعش الإرهابي بذبح عدد من أهالي قرية... بحجة أنهم لا يلتزمون بتطبيق أحكام الدين الإسلامي، وجديرٌ بالذكر أن هذا التنظيم الإرهابي يعتمد سياسة القتل ذبحاً بالسواطير لبثّ الرعبِ والخوفِ في كل مدينةٍ أو بلدةٍ يدخل إليها).

- ترى هل سأموت ذبحاً؟

❁❁❁

عام (١٩٦٩م)

عمري (٣) سنوات، أصبت بالربو الطفولي، كنت أعاني من ضيق في التنفس إذ تتشنج القصبات ولا يدخل الهواء إلى رئَتَيَّ، لذلك رافقني طوال عمري خوفٌ من أن أموتَ اختناقاً، شعورٌ صعبٌ جداً أن تشعر بالحاجة إلى الهواء... إلى الأوكسجين، لكنَّ صدركَ مغلقٌ، نبضاتُ قلبك تزداد خفقاناً، وأضلاع صدرك تعلو وتهبط بسرعة، ولكنْ لا هواءَ يدخل إلى الرئتين، نصفُ شهيق ونصفُ نفَس، تستمر الحالة نحو الساعة أو تزيد، وبين الحين والآخر تدخل دفقة هواء تجعلك حياً. هذا الضيق في التنفس ما يزال يعاودني بين الحين والآخر، ولاسيّما عندما أشعر بحزنٍ عميق، لذلك تغلغل

- العمل الفني: الفنان علي الكفري.



في نفسي الخوف من الموت اختناقاً، كنت أسأل نفسي:

- ترى أيهما أصعبُ الموتُ اختناقاً أم الموتُ ذبحاً؟

لا أدري، يقولون الموت هو الموت، تعددت الأسباب والموتُ واحد، لم يرجع أحدٌ من الموت ليخبرنا عن مصاعبه وأهواله، يقولون أيضاً إن الإنسان المؤمن يموت ميتةً سهلةً، تخرج روحه من جسده كالشعرة من العجين، أما الكافر فتكون سكراتُ الموت عليه طويلةً ومؤلمةً، هكذا قالت لنا أمي حين توفيت جدتي رحمها الله، التي نامت ولم تستيقظ، لم نشعر بأي صوت أو حركة لها، إيه... يا أمي لا بد أنّك تفكرين بنا كثيراً وتشعرين بالقلق علينا، طلبتِ مني كثيراً أن نترك بيتنا هذا ونعود إلى منزل الأسرة، صحيح أنّه صغير لا يتسع لنا جميعاً، لكنه أكثر أمناً وسلاماً، كلما سمعتِ خبراً عن حادثة أو تفجير تتصلين للاستفسار عن وضعنا والاطمئنان علينا، إنه قلب الأم الذي يبقى قلقاً على الأولاد حتى لو أصبحوا آباءً وكَبِروا. تحضرني الآن ذكرياتٌ كثيرةٌ عن أمي، حين بلغت العاشرة من عمري، وفي إحدى السهرات حين يسترسل أهلي في أحاديثهم، ويتطرقون إلى كثيرٍ من الحكايات والوقائع والذكريات، روت لنا أمي ما بين الجد والمزاح أنني عندما بدأت أتعلم النطق، وكان عمري نحو السنتين أو الثلاث سنوات بدأت أتلفظ ببعض الكلمات عن زوجتي وأولادي، وعن ضيوف جاؤوا إلى بيتي، كان عددهم أكثرَ من عدد الكراسي الموجودة في المنزل، فطلبت من زوجتي أن تذهب إلى الجيران لتستعيرَ بعض الكراسي، وحين ذهبتْ وأصبحتُ وحيداً معهم... ذبحوني.

ذات يوم سألتُ أمي جادّاً عن صحة ذلك، فروت لي من جديد أنني فعلاً كنت أتلفّظ ببعض الكلمات عن زوجةٍ وأولاد وضيوف ذبحوني، قلتُ لها: لكنني لا أذكر شيئاً من ذلك، فحاولت

تغييرَ الحديث وشغلت نفسها بما بين يديها من عمل، وكلفتني بإحضار بعض الحاجيات، بما يعني عدمَ الاسترسال في الحديث عن هذا الأمر. في أحيان أخرى كانت أمي حين أسألها عن الموضوع تنفي وتقول: هي قصص وخرافات غير حقيقية، ثم تعود في مرات تالية لتتحدث عن الأمر جادةً، أبي لم يكن يتدخل أبداً، وإنما كان ينظر إليها نظرةً ذاتَ مغزى، وفي إحدى المرات فُتِحَ الموضوع بحضور بعض أقربائنا، في سياق أحاديث كثيرة عن فلانٍ الذي تحدث عن حياته السابقة، أو فلانة أو... إلخ. حينها قال أبي جملةً واحدة:

- أمك هي السبب، خافت أن يعلم قاتلوك أنك عشتَ مرةً أخرى فيعودوا لقتلك، لذلك صارت تطعمك من فمها حتى تنسى حياتك السابقة.

هي قناعة في مجتمعنا أن الأم إذا أطعمت ابنها اللقمة بعد أن تلوكها في فمها ينسى حياته السابقة، ولا يعود إلى ذاك الحديث. لكنني لم أنسَ، وبقي هاجس هذا الموضوع حاضراً في ذاكرتي، وأضيف إلى تخوُّفي من الموت اختناقاً تخوُّفٌ جديدٌ ازداد حضورُه مؤخراً كسؤالٍ معذِّبٍ: ترى هل سأموت ذبحاً؟

❀❀❀

غيرت المحطة التلفزيونية، ضاق صدري وشعرت بالحاجة إلى الخروج من البيت للمزيد من الهواء النقي الغني بالأوكسجين، الوقت مساءً والنسمات باردات في هذا الفصل الشتائي، تجولت في الشوارع الخالية إلا من بعض المارة، والفكرة ما زالت تشغل بالي وتثير في نفسي الخوف والهلع، أخبار اجتياح هؤلاء القتلة للقرى والمدن والبلدات تغزو وسائل الإعلام في العالم قاطبة، يجتاحون المدن كالجراد ويعملون بسكانها قتلاً وذبحاً، ترى هل يصلون إلى حيث أقيم؟

لم أبتعد كثيراً عن المنزل، تمشيت في الشوارع القريبة منه، تمرُّ بين الحين والآخر سيارة أو بعضُ المارة، لكنَّ الفراغ والظلام هما سيدا المكان، زوجتي وأولادي يتابعون ما يعرض على التلفاز من برامج، كلنا نكتم ما بداخلنا من مشاعر يتقاسمها القلقُ والخوفُ حيناً، واستبعادُ أن يحصلَ مثل هذا الأمر في منطقتنا السكنية الحديثة حيناً آخر، فهي محاطة بالحواجز الأمنية لحمايتها وبالقرب منها ثكنات عسكرية، إذن فلا مجال لتسلل هؤلاء إليها، لا... لا... لا يمكن أن يصلوا إليها، وهكذا كنا نركن إلى هذا الشعور الذي يبعث في النفس نوعاً من الاطمئنانِ الحَذِر،

ولكنْ مهلاً... أتذكرُّ جيداً أنهم دخلوا إلى مساكن عدرا العمالية وهي ضاحية حديثة البناء، وعملوا فيها مجازر يهول لذكرها المرء... الذبح والقتل والحرق في الأفران و... إلخ.

- ترى هل سأموت ذبحاً؟

❀❀❀

صيف عام (١٩٧٨م)

أُقيم في مدرستنا مهرجانٌ رياضيٌّ كبير لم أعد أذكر تفاصيله، ولكن ما لم أنسه أبداً هو ذاك المنظرُ الذي لم يغب عن مخيلتي، باحة المدرسة ممتلئة بالطلاب الذي يقدّمون لوحات رياضيةً ضمن المهرجان، الناس سعداء مسرورون، كنت مع بعض رفاقي قد تسلقنا سور المدرسة، وجلسنا عليه لنتفرج على العروض الرياضية، فجأةً ظهر شابٌّ في الثلاثين من عمره يلوح بيديه للحضور وقد برز في صدغه الأيسر مقبضُ سكين بنيُّ اللون، أما نصلها فقد دخل في الرأس، انقلب الاحتفال رأساً على عقب وتحول إلى صخبٍ وهرجٍ ومرج، أنا لم أستطع تحمل المنظر، ركضت باتجاه البيت لا ألوي على شيء، وصلت منهاراً من التعبِ والخوف، رأتني أمي على حالتي تلك فسألتني عما بي، لم أستطع الإجابة كنت أشير بيدي إلى صدغي الأيسر و... لم أعد أذكر شيئاً. بعد ثلاثة أيام استيقظت... أهلي يتجمعون حولي، وأمي تبكي، علمت منهم فيما بعد أنني دخلت في غيبوبةٍ وارتفعت حرارتي وكنت أهذي بكلامٍ عن سكين في الرأس.

بعد ثلاث سنوات كنت في المرحلة الإعدادية، هَربنا من حصة الدرس أنا ورفاقي وذهبنا لنلعب لعبة (الفيشة) اقترحوا أن نذهب لمحل ناجي حيث توجد فيه ثلاث طاولات فيشة، وهناك كانت المفاجأة، إنه الشاب نفسه الذي رأيته والسكين في صدغه الأيسر، إنه ما يزال حيّاً يُرزق، كيف؟ سألتُ عن الموضوع تذكَّره بعضُهم وأجابني أحدهم قائلاً:

- صحيحٌ ما تقول لقد ضربه بالسكين شخصٌ غريبٌ عن المنطقة قصير القامة كان ناجي يسخر منه لقِصَرِ قامته، وتشاجرا فما كان من ذاك الغريب إلا أن قفز ليطاولِه وأولج السكينَ في رأسه، ولكنْ بما أن ناجي – كما تراه - يعاني من شللٍ في نصفه الأيسر، وهو يعرج في مشيته ويده اليسرى مشلولة، لذلك لم يمت وبقي حيّاً.

أصبحنا نقصد محله للَّعبِ في ساعات الفراغ، وكنت أرقبه خلسةً مدققاً في أثر الطعنة الباقي كتجعيدة فوق سالفه الأيسر، يبدو أنه نسي ما جرى له، ويعيش حياته منسجماً مع شلله،

أما أنا فمازلت أتذكر ذلك الموقف وكأنه حدث بالأمس، وأستحضر صورة السكين، لتتداعى إلى ذهني الصورةُ المتخيَّلةُ الأخرى من حياتي السابقة المنتهية بالذبح، فأشعرُ بغصةٍ ومرارةٍ وأتساءل:

- ترى هل سأموت ذبحاً؟

❀❀❀

صيف عام (٢٠٠٨م)

أتذكر جيداً أن حلماً كان يراودني منذ أن وعيت، كلَّ سنتين أو ثلاث سنوات يأتيني فأرى نفسي فيه محلقاً كطائرٍ في منطقةٍ جبليةٍ مرتفعة، على سفحِ أحدِ الجبال غابةٌ من أشجار الكستناء، وشجرةٌ كبيرةٌ معمرةٌ تنفرد وحيدةً وتفرد ظلَّها على مساحةٍ كبيرةٍ من الأرض، الفصلُ خريف واللونان الذهبيُّ والبنيُّ هما الطاغيان على المنظر، وكأنَّ الطبيعة منتعشةٌ بعد زخةٍ من المطر، حين أستيقظ أروي الحلم لأهلي مستغرباً أنني لم أشاهد مثل هذا المكان أبداً، وتمضي السنون تباعاً، في هذا العام خطر لي أن أتجول برفقة زوجتي وأولادي بسيارتنا بين القرى والجبال في أماكن لم نزرها سابقاً عسى أن نعثرَ على مكانٍ جميل نتناول فيه طعام الغداء، وهناك كانت المفاجأة، في إحدى المناطق رأيت المنظر نفسه الذي كنت أراه في الحلم وبكل تفاصيله، شعور بالدهشة ينتابني، توقفت أتأمل المنظر، سألتني زوجتي: ما بك؟ فأخبرتها بما بي وكنت قد قصصتُ لها عن الحلم، فازدادت دهشةً، بحثتُ عن شخصٍ ما أتحدث إليه، رأيت رجلاً متوسط العمر يجلس أمام بيته، تقدَّمت بالسيارة حتى أصبحت قربه، نزلت وأخذت أسأله عن اسم المنطقة، وفي حين هو يجيبني أتفحَّصُ أنا المكان بنظري، سألته عن تلك الشجرة المعمرة المنفردة التي تغطي بظلها مساحةً كبيرةً، كما كنتُ أراها في الحلم تماماً، فقال:

- هذه شجرة القتيل.

- أيُّ قتيل؟ سألت. فأجابني:

- هناك في ذاك البيت القديم المهجور قرب تلك الشجرة ذبح بعض الأشخاص الغرباء عن القرية صاحبَ البيت، جاؤوا إليه متنكرين بزي ضيوف، لم يَعرِفْ أحدٌ من أهل القرية السببَ، ولمّا كبر أولادُ القتيل هجروا البيت، ولم نعد نعرف عنهم شيئاً، ومن يومها صار أهلُ القرية يطلقون على الشجرة اسم (شجرة القتيل)، منذ ذلك العام لم يعد ذاك الحلم

يأتيني أبداً، لكنَّ هاجسَ الذبح يحضر في ذهني دائماً، وفي ظلِّ ظروفِ الحرب الحالية كنت أسائل نفسي:

- رباه... هل يعيد التاريخُ نفسَه؟ وهل سأموتُ مرةً أخرى مذبوحاً؟

❁❁❁

كدت أصطدم بشجرة مزروعة على الرصيف تفرد أغصانها العارية غير المشذبة، يبدو أنني شردت عن نفسي، حاولتُ تجنُّبَها والنزول عن الرصيف، فإذا بسيارةٍ مسرعةٍ خُلقت فجأةً بمواجهتي، يبهر ضوءُها بصري فلم أعد أرى شيئاً، تساءَلتُ ولثوانٍ معدودة بين الوعي واللاوعي / الجد والمزاح: ترى هل ستصبح هذه أيضاً شجرة القتيل؟!

❁ ❁ ❁

حالة إسعافيّة

أريج بوادقجي

هذه هي اللفّة الخامسة، ألفُّ وأدورُ، حولَ المكانِ نفسه، ولا أجدُ مكاناً لسيّارتي الرماديّة ذات الخرير...

قـرّرت لحظّة، ومن شـدّة الدوار، أن أتركها وسـطَ الشـارع المُكتظّ، لتخرّ وحيدةً، أو لتصـمتَ وحدَها، فأنين أسـناني فاقَ زميرَ السيّارات الزاحفة... لولا أنّ مكاناً ضيّقاً في الزاوية كان يصفّق ويصفّر لي من بعيد...

ركنتُ السيّارةَ، وكأني سأتركُها إلى الأبد، إلى جانبِ لافتة كُتِبَ عليها: «المكانُ غير مخصّص للعموم»...

على العموم، وعلى مرآهم، ركنتُها، لأصل إلى عيادة الطبيب أخيراً، وأنا مقطوعُ النَفَسِ، رماديّ النَّفس، أُنفّس عن غضبي وأُبربر...

وضـعتُ قدمي اليمين على العتبة، كمحاولة جادةٍ للتفاؤل والاستبشار، فرمقني الجميع بنظراتٍ مصحوبة بوجوه متبرّمة، وكأنّهم يقولون: «الله لا كان جاب الغلا»...

ارتعدتُ، وبتّ أُنقّل نظري بين المقاعدِ الممتلئة، علّي أجد لنفسي مكاناً...

لكنـي، كسـيارتي العتيقة، لم أجد مكاناً مخصّصـاً للعموم، فركنتُ ظهري إلـى زاويةِ الحائط، وعقدتُ ذراعيّ، وبدأتُ أستمعُ لتمتمات المنتظرين...

- العمل الفني: الفنان علي الكفري.



- إنني هنا منذ الصباح...
- وأنا كذلك... لا يمكننا إلا الانتظار...
- كيفَ لا... والطبيب (خريج برّا، فقد تخرّج بدرجة امتياز في جامعة موزنبيق)؟!
- لا... لا... أعتقدُ أنّه خريج جامعة أديس أبابا.
- لا يهم... المهم أنّه خريج (برّا)، وسيمنحني الابتسامة الهوليوديّة...
- بل قولي الابتسامةَ الإفريقيّة.
- هاهاهاها... لا فرق...
- نعم، الطبيب (شاطر)، ويستحقّ الانتظار...
- تسلّي بألعاب الفيديو...

استغرقَ المتمتمون في اليقين، فاستغربتُ مبالغتَهم، وعَجِبتُ من يقينِهم المُفرط وعدتُ بذاكرتي إلى بضعِ ساعاتٍ خلَت، كُنت أقرأ فيها مقالةً عن الإنسانِ الحديث، يقولُ كاتبها:

«الإنسانُ الحديثُ إنسانُ شكٍّ وارتياب، لا يستقرّ مع يقين... لا من أجل السلب والنفي والجحود، بل من أجل تجلّيات العقل والإرادة»...

شردتُ لحظةً في سقفِ الغرفة، وسألتُ نفسي: «ما سرّ يقينِهم هذا؟».

لأعود بعدَها إلى الأرض، ولأنظر إلى الممرضة، ذات الوجه الكَلِح المتجهّم، والشفاهِ المُتقلّصة، فنظرت إليّ كأنّني الطّير وكأنّها الفزّاعة...

- ماذا تريد؟ تفضّل!

وضعتُ يدي على فمي، وقلتُ لها: «أعاني من ألم شديدٍ... حالتي إسعافية!».

فعاودَت سؤالي ببرود، بعد أن نكّست ذقنها، وصرفَت عني عينَها: «هل لديكَ موعد مع الطبيب؟».

فشردْتُ من جديد، وعدت أردّد في قلبي ما قرأته اليوم، بعد أن عاينتُ ملامِح وجهها جيداً:

«الإنسانُ الحديثُ يأنَفُ التجهّمَ والعبوس، هو إنسانُ بهجةٍ وفرحٍ وغِبطة»...

فقاطعتني المُمرّضة الصفراء قائلةً: «ماذا قلت؟».

فأجبتُها مُبتسماً، وأنا أحثّها على الإسراع: «أليست هذه العيادة الحديثة لطبّ الأسنان؟ قلتُ لكِ إنّ حالتي إسعافية!».

فقالت بصوت يشبه النُّباح أو الصياح: «كيف تسمح لنفسك أن تحدّثني بهذه الطريقة؟!».

أشــارت إلي بأطراف أصــابعها المطليّة بلونٍ قانئ، وهي تقول: «انظــر إلى جموع المنتظرين... انتظر دورك لو سمحت!».

أطعتُها كطفلٍ ساذج، ونظرتُ إليهم، كانوا نسخاً متشابهة، وجوهٌ مطليّة إلى حدّ التحنيط، وشفاه مزمومة، وأصابعٌ تتسابقُ على ألواحهم الإلكترونيّة...

وشوَشت إحداهن الأخرى:

- كم هو فجّ!

- لكن، شخصيّتها قويّة... و(بيستاهل)...

- نعم، إنها مُلبّكة... سأعطيها بخشيشاً!

- ياه! تستحق... وأنا كذلك...

نَــدِيَ جبينــي خجلاً، وفكّرت لحظَــةً أن آخذ حقي، لكني تراجعت، وكظمــت غيظي بعد أن عدت إلى ذاتي قليلاً، وتذكرت نصيحةً قالها لي أحدُ العرّابين: «إذا نطَقَ السفيه فلا تُجبهُ... فخيرٌ من إجابتِه السكوتُ»...

تمنيت لحظة، أن أكون مثلهم، مُدمِناً على لعبةٍ من ألعابِهم الإلكترونيّة، علّي أتخدّر وأنسى ألمي، بل لأسكت تماماً...

لكن ســرعانَ ما حاصــرتني فكرةٌ من أفــكار المقال الذي قرأت، كانت تلحّ علــي إلحاحاً، وتنقر رأسي، كأنّها النقّار، وكأنّه الخشب:

«الإنسانُ الحديثُ يعبّر عن ذاته على أكملِ وجه... نعم، على أكمل وجه».

أحاطــت بــي العبــارة، بل حمَلتني على أن أضــعَ يــدي على كلّ قلبي، وأســألَه: «مــاذا تريد؟»... فنبَض... تحسّسته ثانيةً فنبَض كذلك!

ودون أن أنظر حولي، توجهت مُحلّقاً إلى باب الخروج، باب الخروج من العيادة، ولم أصفق البابَ خلفــي، بل صــفّقت بجناحيّ إلــى الطرقاتِ العامة، لأمشــي دون وجهة، وأنا أحكي وأشكو للقِطط الشاردة وللغيوم الداكنة ألم أسناني، الذي نسيتُه مع مواءِ أوّل قطّة وهطولِ أوّل زخّةِ مطر.

❁ ❁ ❁

صديقان إلى الأبد

سامية إسبر



امرأة ممتلئة بالحب، معطرة بندى الأزهار، في داخلي بركان من المشاعر والأفكار، تحيط بي النجوم، تتساقط على شعري، على ثيابي، تلونني بألوانها المتوهجة، ترسم طريقي أحلم أني أطير فوق الأرض بقفزات عالية، أفتح يدي كجناحي طائر وأحلّق فوق كل شيء جميل في هذه الحياة، أرسم العالم، أحلم بالحب، بالفوضى، رومانسية أنا إلى أقصى درجة وهذا كله كان في داخلي وداخلي فحسب، أمّا خارجي فأنا جامدة جداً وأبدو للآخرين كجدار أبدي لا يتحرك.

- العمل الفني: الفنان منى المقداد.

عندما أسمع الموسيقا التي أحبّها، أطير، قلبي يرتجف وحين أرى لوحة جميلة أرقص فرحاً بها.

أحبُّ وحبي لا نهاية له، وها أنا قد كبرت ولم أستطع أن أطير قط أو أجد الحب، فأصبحتُ امرأة جامدة تمشي إلى الخلف وأحياناً تعود إلى الأمام قليلاً، أجلس الآن على مقعدي في بيتي وقد وضعت عليه غطاءً جميلاً تراثياً بلون أحمر، كنت دائماً أرغب في أن يكون بيتي مملوءاً بألوان الجمال، أحلق فوق أيامي أحلم وأحلم.

أنظر إلى يميني فأرى ابني جالساً يرسم، إنه يجلس من صباحه حتى مسائه لا يبارح دفتره إلا وقت الطعام هكذا يعبّر عن نفسه، إنه يرفض أن يتكلم بعد أن تعب من الحوار معنا ولاحظ أننا لا نفهم عليه أبداً.

أعوام مرّت، لا أصدق كيف مرّ هذا الزمن، زمن مملوءٌ بالألم والعذاب ثم الحب والحب والحب.

جاء يزن في يوم شتوي طويل ومؤلم، عندما سمعت الخبر نمت نوماً عميقاً طويلاً وحلمت أني أحلم وأن كلام الدكتور مجرد حلم كاذب، استيقظت من الحلم، بين ذراعي طفل صغير، ملامحه التي تؤكد أنه مصاب بمتلازمة داون أيقظتني من عالمي الذي عشته في شبابي، عالم الحب والموسيقا، عالم لا يوجد إلا في الخيال، وبدأ مشواري الطويل بالسنوات الأولى من عمره بالهروب من كل شيء حولي، فأدمنت الألم كما أدمنت حبوب الاكتئاب، إلى أن استيقظت يوماً على لمسة يد لطفل صغير جميل يداعب شعري ويضع يده فوق رأسي ويضحك، إنه يزن.

إنه جميل، رقيق، يتعلم أي شيء بسرعة ولكن كانت مشكلته الأساسية هي النطق، كان يحزن كثيراً إذا لم نفهم عليه.

فقلت لوالده: لنضعه في روضة.

دخل يزن الروضة وكان نشيطاً، جميلاً، يحبه الجميع، وبدأنا في المنزل نرتاح شيئاً فشيئاً ونحب هذا الضيف الذي اقتحم حياتنا فجأة وقَلَبَها رأساً على عقب، ثم انتقلنا إلى بيت ثانٍ، وكان قد كبر وأخذ يلعب مع الأولاد، لم أعد أحلم، إنه يزن صديقي الصغير، إنه واقعي وحاضري وكل لحظة من لحظات حياتي، أين ذهبت تلك المرأة الرومانسية الحالمة الطائرة فوق الأرض، التي لم تستطع أن تحقق أي حلم من أحلامها.

أجلس إلى جانبه، أرسم له، أكتب له، أغسل له يديه ووجهه، لقد أصبح كل شيء في حياتي، لم أعد أرى أحداً، غيره، نسيت أباه، نسيت أخاه، أمسكت بيده جيداً ومشينا في طريق لا أعرف أين سينتهي وكلما كبر يزن كبرت صداقتنا إلى أن أصبح صديقي الوحيد ونسيت كل آمالي وأحلامي

السابقة، تخليت أيضاً عن حبوب الاكتئاب وبدأت رحلتي الجديدة في الحياة والمجتمع والناس. كل يوم نذهب إلى المدرسة ويعود يزن ليرسم ويقرأ ويكتب، الجميع يحبه، لكن دائماً هناك نقص ما في الحياة، فأحياناً عندما أمشي أنا وهو في الشارع ينظرون إليه كأنه طفل قادم من الفضاء، لماذا؟... إنه جميل، نظيف، لماذا لا نربي أنفسنا أولاً ثم أطفالنا ثانياً على تقبّل الآخر على حب الآخر، وهنا كانت مأساتي، يزن بحاجة إلى الشارع والأصدقاء، لكي يلعب مع أطفال من عمره ولكن كيف في مجتمع يجهل التعامل مع طفولة كطفولة يزن.

كل يوم أحضر له دفتر رسم وينتهي دفتره سريعاً، وكم رغبت في أن يكون ليزن معرضٌ للوحاته، ولرسوماته الصغيرة، لكن من سيساعدني، من معي، لا أحد، لا أحد... يحب الكرة كثيراً، يحب الناس، يحب المشاركة لكن من هناك لا أحد، لا أحد... حتى الأقرباء علي أن أرجوهم ليلعب أولادهم مع يزن.

كبر يزن، إنه في سن المراهقة، يريد أن يخرج، يريد أن يلعب، يريد أن يحب، لكن من سيقبل به؟

ذات يوم، استيقظت في الليل على يزن يضحك بصوتٍ عالٍ ومتقطع، ذهبت إلى سريره، فرأيته جالساً لا يستطيع النوم، وكنت قبل يومين قد وجّهت ملاحظة لمعلمته وقلت لها هناك شيء ما قد تغيّر في يزن، إنه لا يكلمنا لا ينظر إلينا، يرفض الطعام والشراب وهو الذي كان لا ينهض عن المائدة حتى ينهي كل ما وضعته عليها، ماذا حدث له؟

في صباح اليوم التالي، جلس على الكرسي، جسده يهتز كاملاً، لا ينظر إليَّ، لا يكلمني، لا أسمع منه كلمه ماما، يتبول على نفسه، على فراشه، على كل شيء حوله وهو الذي كان يحذر جداً من هذا حتى لا يزعجني أو يغضبني، لقد كان نظيفاً جداً. إنه الآن يضحك ويبكي في الوقت نفسه، تظهر على وجهه تعابير ألم شديد وبعد قليل يضحك، ماذا حصل لك يا بني الصغير، كان يبقى طوال الليل واقفاً لا ينام، أنا المرأة الضعيفة، الحالمة، عشت شبابي كله أحلم بالحب، بالحبيب بالمطر بالربيع، بكل شيء جميل، يا الله ما أجمل أن يحلم الإنسان ويحلم ويطير فوق أحلامه، لأن الحقيقة هي أسوأ شيء في الحياة.

ذات يوم قلت لوالده أن يأخذه في نزهة، وعندما عادا وضع يزن وجهه بين يديه وبكى بكاءً شديداً كأنه رجل كبير أصابه ألم شديد، ترى ماذا حصل، من أذاك يا بني الصغير؟ وتنقلت بين الأطباء وحالة يزن تزداد سوءاً فسوءاً، كان لا يستخدم يديه، لا يتكلم أبداً، ولا يستطيع النوم أبداً، يشعر أن هناك من يحاول أن يؤذيه فيضرب بقدميه ويديه في الهواء ويصرخ.

وفجأة بدأ يضرب نفسه بعنف، بيديه، يضرب على بطنه على رجليه، وأنا أصرخ وأبكي كفى يا يزن، كفى يا يزن.

قالوا لي: هؤلاء عمرهم قصير، سيموت يزن...

لا تقولوا هذا أبداً، أبداً لن يموت...

كنت أنظر في المرآة، لا أعرف نفسي.

آه الحياة، لا شيء إنها وهم ووهم فحسب.

يزن مريض جداً، يجب أن أسافر إلى دمشق لأعالجه...

هكذا قلت لوالده، ذهبت إلى دمشق ووصف الدكتور ليزن حبوب الاكتئاب وقال لي: إنه مصاب بالاكتئاب، عندما وعى نفسه واكتشف أنه مختلف عن الآخرين ولا يستطيع أن يفعل شيئاً يريده، أصابه الاكتئاب.

إنه الاكتئاب الذي أصابني عندما ولد...

يا حبيبي من منا يستطيع أن يفعل ما يريده، عندما تشفى سأحكي لك حكايتي مع الحياة وستعرف أنني لم أستطع أن أحقق شيئاً أريده، كلنا مثلك يا يزن وأنت مثلنا، لا تظن نفسك مختلفاً عنا، كان عليك أن تكون مرتاحاً أكثر منا في هذه الحياة الجامدة الميتة، عزيزي، كان من الصعب عليّ جداً أن أعطيك حبوب الاكتئاب، ولكن لم يكن لدي خيار وحالتك من سيّئ إلى أسوأ وليتني لم أعطك إياها، لقد غبت عني أكثر وأكثر وتركت كل شيء تحبه، من أذاك يا يزن، لو أعرف، لو تتكلم وتقول لي ماذا حصل.

مرّت سنة وعدة شهور وأنت على هذه الحال وأنا لم أفقد الأمل قطّ، أنتظر وأنتظر...

إلى أن استيقظت ذات صباح ورأيتك تنظر إلي بعينين حنونتين، النظرة الجميلة، التي افتقدتها منذ زمن، أشرت لي إلى بطنك دون أن تتكلم وفهمت فوراً أنك جائع...

كنت سعيدة جداً بأي شيء إيجابي تقوم به، رميت الأدوية كلها، جلست إلى جانبك واشتريت لك الألوان والدفاتر، لكنك ما زلت ترفض الكلام معنا، لماذا؟ هل تعرف من أنت، كأنك تعرف أشياء كثيرة، هل اكتشفتنا؟ لقد حاولت كثيراً أن أوهمه أنني أفهم عليه عندما يتكلم، لكن كأنه اكتشفني فرفض الكلام مع الجميع إلا بالإشارة عندما أنظر إليك وقد تحسنت حالتك وأصبحت أفضل... أشعر بالسعادة تغمرني، سعادة افتقدتها منذ أيام الشباب الأولى، السعادة المفقودة، التي نعيش حياتنا كلها نبحث عنها وبالكاد نستطيع أن نلمسها، قد تكون سعادتي

معك أنت من يدري، وقد أحببتك كل هذا الحب وأصبحت كل حياتي، تنظر إلي، تبتسم، كأنك تقول لي: أنا بخير...

صديقي الصغير أنا أنتظر ولن أمل الانتظار حتى تناديني ماما، وأوهمك أنني قد فهمت عليك كل شيء، أرجوك يا يزن، أوهمني أنت أيضاً أنك صدقتني، تعال نحلم، نطير معاً ونحلّق مع الموسيقا، تعال نجمع رسوماتك ونطير، ثم نرميها من السماء فتراها الشمس، القمر، النجوم والطيور، تسقط على الأشجار على الأزهار وعلى كل شيء جميل في هذه الحياة ويكون لك معرضٌ كبيرٌ، لم يحصل عليه أي رسام قبلك مهما كان عظيماً وأنا سأحقّق حلمي بأن أطير خارج هذا العالم الجامد الذي دمر كل ما رسمته لنفسي في شبابي، أن أكسر المرايا التي تظهر شعري الأبيض وأضع يدك في يدي نحقق حلمنا معاً.

نظرة الشفقة التي تنظرون إلي بها تجعلني أحزن عليكم لا منكم، أنتم لا تفهمون شيئاً ولن تعرفوا أني لم أشعر بالامتلاء حتى جاء يزن وأصبح صديقي الجميل الذي ملأ حياتي بالجمال، صديقي، ما هي مشروعاتنا اليوم وغداً وبعد غد؟ تعال نرسم برنامجاً ونلصقه على الحائط إلى جانب رسوماتك الرائعة حتى لا ننسى، وقريباً جداً سيكون عيد ميلادك الخامس عشر، لم يبق إلا أسبوع، سأصنع لك الكاتو ونضع الشموع ونغني فأنت تحب أن تغني كثيراً وتحب الحياة، الآن، عندما أنظر إليك، أشعر أني قد بدأت أحقق شيئاً من أحلامي، فسعادتي معك وبك، صديقان إلى الأبد...

❁ ❁ ❁

الخائن

تأليف: رومان ميخينكوف
ترجمة: د. ثائر زين الدين
د. فريد حاتم الشحف

- أنت نذل وخائن للوطن!

ساخطاً كسرَ بيريوزكين قدح الفودكا الممتلئ على الطاولة، ودفع بكبرياء صحن البلاستيك مع التشيبوريك[1] الذي ما أتمَّ أكلَهُ.

سعل أوزودين وأشار طالباً أن يُضرَبَ على ظهره:

- لا تُضحكني، كدت أختنق بسببك.

دفعَ بيريوزكين عدة مرّات جليسه في الشراب بقبضة يده بين أكتافه قائلاً:

- لو لم تكن صديقي لشوّهت وجهك.

تربط توليك بيريوزكين وإيديك أوزودين، منذ أربعين عاماً تقريباً صداقة حقيقية، هي نفسها التي وصفها كلّ من الأديبين دوما وكافيرين: «واحد يضحي من أجل الجميع»، و«أعطيك القميص الأخير»، و«اسحب الفتى إلى الجبال»، و«المعرفة في ورطة»[2]. لقد طوّرا علاقتهما، في أثناء جلوسهما على مقاعد الدراسة بجانب أحواض الورود الفخارية، على خلفية نشاطهما في منظمتي الطلائع والكمسومول. شاركا معاً في معسكرات الطلائع والعمل، ولعبا «لعبة الحرب» و«البرق».

- العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وَوَقَعا كلاهما في السنة الأولى في جامعة موسكو الحكومية في حب سفيتا- الطالبة الأجمل في كليّة الآداب. وهي فضّلت إيديك ذا الساقين المنحنيتين على توليك الجميل الممشوق. لكن ذلك لم ينعكس على صداقتهما، فقد كان أوزودين شاهداً على زفاف الزوجين بيريزكين.

ترك إيديك العملي والجريء كلية الآداب وعمل في التجارة: كان يشتري بضاعة ويبيعها، في بازار لوجنيكي، ثم تحوّل لبيع «أرجل بوش»[٣]، ومنها تحوّل إلى تجارة الكمبيوترات. تخرّج توليك في جامعة موسكو ومنذ ذلك الحين عمل محرّراً في دار نشر صغيرة، واعتاش على غرور هوس الكتابة[٤].

اقترح أوزودين من وقت لآخر على توليك:

- توليك، اترك دار النشر، وتعالَ نعمل معاً.

يجيبه بيريوزكين قائلاً:

- إمّا التجارة، وإمّا الصداقة، أنا أختار الصداقة.



أدرك إيديك، الذي كان يملك شبكة من محطات صيانة السيّارات وعدداً من المخابز ووكالات الإعلان، في منتصف عام (٢٠٠٠م): أنَّ الوقت قد حان للعيش من أجل متعته. باع ممتلكاته جميعاً واستثمرها في عشرات الشقق في مبان قيد الإنشاء. والآن يؤجر الشقق ذات غرفة نوم واحدة للزائرين، دون أن يقلق على أي شيء، ولا يحرم نفسه من شيء.

التقى الصديقان مرّة واحدة في الأسبوع يوم الجمعة، في مطعم تشيبوريك في شارع سوخاريفسكايا، توليك ما استطاعَ أن يسمح لنفسه بزيارة المطاعم. وليس مصادفة أن يقترح إيديك الذي يحترم شعور صديقه هذا المطعم.

إذ تختفي في مطعم تشيبوريك «الصداقة» الفوارقُ الطبقية تماماً: فإلى الطاولات المجاورة يمكن أن يجلس بكل بساطة الطلاب الفقراء ومديرو الطبقة الوسطى، والمصرفيون والمشردون السكارى. توقفت عند المدخل سيارات «المرسيدس» و«البنتلي» الرياضية والشياطين التي

مازالت في الخدمة من صناعة السيارات المحليّة. مساحة فريدة من دون أقطاب اجتماعية وهميَّة وألذّ تشيبوريك في موسكو.

تصدّع درع أخوّة الرجال الذي لا يتزعزع في أكثر الأماكن غير المتوقعة:

- أنا وطنيّ ولا أسمح لك بصبّ الأوساخ على وطننا بحضوري! - قال ذلك ذات مرّة بيريوزكين ردّاً على تعليق بريء حول البلدوزرات التي سحقت الجبن المستورد.

أصلحا التصدّع على الفور، بعد أن اتفقا على عدم الحديث في السياسة مرّة أخرى - الصداقة أغلى. ولكن من وقت لآخر، وبعد الزيادة في كميةِ الفودكا المشروبة في مطعم التشيبوريك، انتقل أحد الأصدقاء بالضرورة إلى موضوع زلق.

❀❀❀

سأل إيديك:

- توليك، من المستحيل جسديّاً خيانة الوطن. كيف تتخيّل ذلك؟

- كلماتك هذه هي خيانة للوطن.

واستدار بيريوزكين نحو النافذة.

- أنا أتكلّم بجدّية. إذا تحدثت عن البلهاء الذين سحقوا الطعام بالبلدوزرات - فأنا أتحدّث بالتحديد عن البلهاء، الذين سحقوا الطعام بالبلدوزرات. وإذا فرحت أنهم أقفلوا الفجوة التي كان اللصوص يسرقون منها، فأنا أفرح لأنهم أقفلوا الفجوة التي كان اللصوص يسرقون منها. ما شأن الوطن هنا؟

- البلد يمرّ بأزمة، وأنت تشمت.

- أيّها الرب، أناتولي أنتم تخيفونني!

سوء الفهم القمعي دفع إيديك، أوّل مرّة أن يتوجّه إلى صديقه بلغة الجمع.

- اتفقنا على عدم الخوضِ في هذا الموضوع. فلنحفظ كلمتنا ولا نتراجع.

شربا الخمر بصمت.

قطع أوزودين الصمت قائلاً:

- لديّ فكرة، أراهن على قطعة تشيبوريك.

- على ماذا نضع الرهان؟

اقترح إيديك:

- أنت تضع قطعة تشيبوريك، وأنا- شقة في ماريينو، ذات غرفة نوم واحدة. لا، ثلاث شقق في ماريينو.

- على ماذا الرهان؟

- لديك أسبوع كي تخون الوطن.

- عليك اللعنة- ارتعشت يده، ورشق توليك الحساء على صدر جاكيته- لتذهب إلى الجحيم، ستعرف سفيتا أنّني كنت في مطعم التشيبوريك، وستؤنّبني.

دُهش إيديك قائلاً:

- تؤنّبك حتى الآن؟

- أحياناً. إنّها تطهو الطعام بطريقة مذهلة، أنت تعرف ذلك، وأنا أحبّ التشيبوريك.

- لقد انصرفنا عن الموضوع. أنا لم أقترح عليك خيانة الوطن بالمعنى الحرفي للكلمة، ولاسيّما أنّني غير واثق من إمكانيّة ذلك لديك. ستفكر خلال أسبوع بطريقة، يمكن بها خيانة الوطن. طريقة فحسب. فإذا استطعت، ستكون ثلاث شقق من ذوات غرفة النوم الواحدة ملكاً لك، فإن لم تستطع تدفع قطعة تشيبوريك.

استغرق بيريوزكين في التفكير. وبدا الرهان في كلّ لحظة تمرّ أكثر جاذبية له. أولاً: هو لا يخسر شيئاً. ثانياً: تأجير ثلاث شقق من ذوات غرفة النوم الواحدة- هذه نقود لائقة كلّ شهر. بالإضافة إلى ذلك، هو أخيراً سيغلق فم هذا «الليبرالي المتعالي».

مسح توليك يده بمنديل، واستعدّ لعقد الرهان:

- اتفقنا.

- الشرط الوحيد: هو أن تصيغ بوضوح مصطلح «الوطن»، يجب أن أفهم، من تنوي أن تخون.

- لا جدال.

❁❁❁

تحدّث بيريوزكين إلى نفسه، منتشياً بحرارة الفودكا، وهو في طريقه إلى البيت قائلاً:

- سأضع أمامه ليس طريقة واحدة فحسب، بل ثلاث طرائق على الأقل، الانتقال لصفوف الأعداء- واحدة. التجسّس- اثنتان. إفشاء أسرار الدولة- ثلاثة.

❁❁❁

فضّلت سفيتا، بعد أن قيّمت حالَ زوجها، السخرية منه بدلاً من الغضب:

– لو أكتشف مرّة واحدة، أحمر الشفاه على ياقتك. لا، بقع التشيبوريك فحسب. بيريوزكين، ألا يعجبك طبخي؟

– سفيتا، أنا آسف، كنت أنا وإيديك...

حاول توليك تقبيل زوجته على خدّها، لكنّه لم يتمكّن، وضرب شفتيه بباب الحمّام.

– يا لك من مُحنّط...

– حسنا، أنا آسف...

– الأفضل لو أنّك خنتني، أليس كذلك.

تذكّر بيريوزكين الرهان قائلاً:

– ليس الآن. عليّ الآن أن أخون وطني.

استدارت سفيتا قائلة:

– آه منكما لقد زدتما في الشراب. اذهب إلى النوم.

أنشد بيريوزكين نشازاً، محاولاً إيقاف دوران السقف:

– من أيننن... يبدأ الوطن(٥)...

***

حلم أناتولي بحقول قمح لا نهاية لها، تحيط بها أشجار البتولا على طول الأفق. والموجات الذهبية للسنابل الناضجة تحصدها الحصّادات. تُذكر ببكرات طبول أوراق اليانصيب الرابحة. انتزعت الحصّادة المسمرّة من البكرة ستّ كرات وقدمتها لبيريوزكين. انحنى أناتولي احتراماً وأخذ الكرات، نظر إليها وارتعب: كان مرسوماً على كلّ واحدة منها الرقم ستة. وومض حقل القمح على الفور، ونما قرن وذيل للحصادة، وظهر رمح متعدد الرؤوس في يديها.

اندفع بيريوزكين راكضاً، لكن جامعَ الحبوب ذا القرون غرز الرمح متعدد الرؤوس أسفل ظهره قائلاً:

– قرّرت بيع وطنك، أيّها العاهر؟

استيقظ أناتولي، واكتشف أنَّ جهاز التحكم بالتلفزيون تحت البطانية يضغطُ على ردفه الأيمن، ألقاه على الأرض وهدأ. لم يشعر بالصداع، فالسكرة لم تكن ثقيلة، وألهمته الثقة في بداية اليوم.

قرّر توليك بعد أن تذكر الرهان التفكير بحجج على أكبر قدر من التفصيل، لأنّه كان يعرف مواهب إيديك الجدلية.

فكّر بيريوزكين وهو يتمدّد على السرير: «من الغريب، أن هناك ضرورة لشرح مثل هذه الأشياء بشكل عام. خيانة الوطن مثلها مثل فهم الوطن، تُرضَعُ مع حليب الأم. هذه ميّزات غير قابلة للشرح. إنّها أسمى من الكلمات. الآباء يحبُّون أبناءَهم، والأبناء يحبُّون آباءَهم، وهم جميعاً يحبون دولتهم، ووطنهم، ويفخرون به، حتى لا يمكنهم التفكير بالخيانة».

«لكن هذا لن يكون كافياً بالنسبة إلى إيديك، ويجب أن أعبّر عن ذلك بالكلمات. حسناً- تريد ذلك بالكلمات- إذا تلقّى. هذا سيزيد الإهانة، سأقول عندما أوضّح له كلّ شيء، بأنّني أشعر بالوطن في قلبي».

«لنفترض أنّني أعمل ليس في دار النشر، بل... في مصنع حربيّ. أصوّر مخططات سلاحٍ سرّيٍّ وأقدمها للعدو- هل هذه خيانة للوطن؟ بالتأكيد.

لكن إذا: أرسلوني لأحارب في... أوكرانيا، وأنا انتقلت إلى صفوف العدوّ، لأنّ نصف أقاربي أوكرانيون. هل هذه هي خيانة؟ طبعاً.

وبالنسبة إلى العقوبات نفسها. أمرني الوطن أن أقضي على الجبن، وأنا أحضرته إلى بيتي وأكلته. أليست هذه خيانة؟ أم لا، لا يعدمونني بالرصاص. لكن لن أُقدِم على ذلك أبداً».

وردت «خيانة الوطن» في الموسوعة الحرّة مادّةً تعود إلى العهد الستاليني القمعي. فتح بيريوزكين، وهو يتذكرُ والد جدّه، الذي أُعدم بالرصاص بسبب هذه الخيانة بالذات جرّاء تقرير كاذب، ملفاً على شاشة الكمبيوتر لصور الأسرة، ونظر طويلاً إلى وجه سلفه المبتسم، الذي تعرّض للقمع.

مثير للاهتمام كيف حصل له ذلك؟

وتابعت الموسوعة الحرّة مكرها: «فعل ضد الملك أو الدولة».

«لنفترض أنني أريد الإطاحة بالملك من أجل إعطاء السلطة للشعب. بالنسبة إلى الملك أنا خائن للوطن، وبالنسبة إلى دولة العمال والفلاحين، فأنا بطل الوطن، غريب. الوطن هو نفسه، وأنا، كما اتّضح، خائن ثم بطلٌ».

نادته سفيتلانا من المطبخ قائلة:

- حبيبي، إذا هضمت التشيبوريك، تعال لتناول الفطور.

فكر بيريوزكين وهو يلتهم الفطيرة مع مربّى التوت البرّي: «لم يذكر إيديك عبثاً تفسير كلمة «وطن». لقد كان يعلم هذا الوغد، أنّه سيكون هناك التباس».

❀❀❀

مرّت عطلة نهاية الأسبوع في زيارات طال انتظارها إلى الأقارب وشراء مواد غذائية بالجملة. ألهمنا الأصدقاء بالحماس الوطني، وأزعجتنا محلّات السوبر ماركت بأسعارها: كل شيء ازداد سعره. واختفى عن الرفوف كلّ ما هو لذيذ.

استاء بيريوزكين بصمت: «إنّها العقوبات. مخلوقات بلا أرواح. لا يكفي أنّهم خفّضوا أسعار النفط، بل منعوا الاستيراد. اللعنة على وزارة الخارجية الأمريكية».

سألته سفيتلانا في قسم الألبان:

– ما رأيك بوصفات تحضير الوجبات الفلكلورية؟

– عمّ تتحدّثين؟

دفعت الزوجة العربة من أمام رفوف الأجبان قائلة:

– عن العصيدة(٦) المصنوعة من الفأس(٧).

فكّر بيريوزكين ثم قال:

– اصبري يا عزيزتي حتى يوم الجمعة، سأفوز بالرهان ثلاث شقق، ذات غرفة نوم واحدة. إنّه مبلغ كبير، ويمكننا حينها التسوق في متاجر مختلفة تماماً. وسنسافر إلى باريس بالتأكيد.

❀❀❀

كتب مساء الأحد في محرّك البحث «غوغول» على الإنترنت «الوطن». استجاب الإنترنت بعشرات العروض لزيارة دور السينما بهذا الاسم أو التصويت لحزب أو مشاهدة مسلسل تلفزيوني. حدّد توليك أكثر: «الوطن هو». لا جديد. أرض الآباء، الوطن الأصلي. المكان الذي ولد فيه الشخص. ولد بيريوزكين في موسكو. سافر إلى منزل والديه الريفي في غوليتسينو فحسب، وإلى منتجعات «أول إنكلوزيف» الرخيصة في الغادرة حالياً، تركيا. كان سيذهب في الصيف الماضي إلى منطقة سوتشي، لكن تبيّن أن الرغبة في السباحة في البحر وطنياً أغلى سعراً من إمكاناته.

فكّر بيريوزكين:

- كيف يمكنني خيانة موسكو؟ هل أنتقل للعيش في بطرسبورغ؟ لا أريد. ومن يحتاج إليّ هناك. وهل أترك شارع أربات؟ ما هذا الهراء. وهل أمتنع عن دفع أجور مواقف السيّارات؟ ستزداد الغرامات.

قد اضطر لاستخدام المترو، بعد أن فرضوا دفع أجورٍ على مواقف السيارات. وقد ضربه ذلك في صميم كبريائه، لكن لم يصبح الأمرُ سبباً في دفع ثلث مرتبه الشهري لموقف سيارة «الكيّا» القديمة أمام دار النشر.

أكّد إيديك أن الأموال القادمة من عدادات مواقف السيارات تتدفق مباشرة إلى حسابات المسؤولين في بنوك الأفشور(٨)، ولكن بيريوزكين لم يتحقق حتى من هذه الكذبة الواضحة، وكذلك من مزاعم أوزودين بتزوير انتخاب المحافظ وسرقات مسؤولي المدينة في كل سنتيمتر مربع من أراضي موسكو. إنّ التغييرات في مظهر العاصمة أثارت تساؤلات عند بيريوزكين، لكنّه لم ينوِ نقاش قرارات قيادة المدينة مع أحد.

خيانة أراضي روسيا كلّها، من جزر ساخالين إلى مدينة كالينينغراد بدت أكثر تعقيداً. فهو لم يسافر في وطنه أبعد من مدينة تولا. كيف يخون مدينة لابيتانغي التي لم يرها، حتى إنّه يصعب نطق اسمها؟ وقد سمع توليك اسم المدينة مُصادفةً في محطة ياروسلاف للقطارات قبل عام. ومنذ ذلك الحين، يحاول تخيل هذه النقطة على خريطة الوطن: كيف يعيش الناس هناك، وعلى ماذا يعيشون؟ والآن يفكر: كيف يخون مدينة لابيتانغي؟

❁❁❁

هاجم حاملو الرهن العقاري بالعملة الصعبة المخدوعون، يوم الإثنين بنك «ميجبرومباتريوت» الواقع مقابل دار النشر. نظر إليهم أناتولي، من خلال زجاج مُعتّم، دون التوقف عن التفكير في خيانة الوطن «لقد عاش الناس لأنفسهم، وعملوا على سداد القرض، ليس بالضبط هكذا، الدين للبنك هو أداة. لقد عملوا من أجل مستقبلهم. من أجل السعادة، التي سوف يجدونها في شققهم أو في منازلهم بعد سداد القرض، آملين في الاستقرار. وفجأة الأزمة، وانهيار سعر صرف الروبل. كيف حصل ذلك؟ من خان هؤلاء الناس؟

نطق بيريوزكين وهو يفكر:

- أعتقد أنّهم يحتجون الآن أيضاً في مدينة لابيتانغي...

دُهشت المصحّحة ليليشكا قائلة:

– أين؟

– في لابيتانغي.

– أين تقع هذه المدينة أناتولي ستيبانوفيتش؟

– أنا نفسي لا أعرف.

❁❁❁

فُرِّقَ المُتظاهرون يوم الثلاثاء. «من الغريب أنّ ممثلي السلطة يعاقبون الناس بسبب سخطهم العادل تماماً». دُفِعَ أكثرُ الناس اضطراباً إلى داخل حافلة لها شبك حديدي على النوافذ، وتفرّق الباقون من تلقاء أنفسهم. وأمسكَ رجل شرطة قويّ بناشطة من إحدى المجموعات المحتجّة، وهي امرأة شابة، ولوى ذراعها بحركة مضبوطة وضرب بكل ما أُوتيَ من قوّة وجهها بزجاج نافذة مكتب بيريوزكين. شوّه وجه المرأة من شدّة الضربة: وتسطّح أنفها الأنيق وانتقل إلى خدّها. سال الدمّ على الزجاج. كانت المرأة تشبه كثيراً زوجته سفيتلانا: امرأة سمراء طويلة القامة لها فم حلقي وعينان لوزيتان. التقطت نظرتها لحظة، كانت مملوءة بالدهشة وعزلاء تماماً. هرع أناتولي، الذي لم يكن يتخيّل كيف يمكن رفع اليد على امرأة، إلى المخرج. أراد التدخل، ومعاقبة الجاني، لكنه علق في الطابور عند باب الحراسة الدوار، وعندما ركض إلى الشارع، كانت الحافلة المحمّلة بالمعتقلين قد غادرت المكان. قد أنقذ التأخّر القسري الفارسَ من السجن. وبرد الغضب. وعدا عن ذلك، لم يعد رجل الشرطة الذي تعامل بوقاحة مع المرأة موجوداً.

تحدّثوا في دار النشر عن القروض ووكالات التحصيل.

«أتساءل، لو قمتُ بتزوير الوثائق، كي أغلق قرض هذه المرأة، هل أكون قد خُنت بنك «ميجبرومباتريوت»؟

أقلق بيريوزكين كثيراً تفريق حاملي الرهن العقاري بالعملة الصعبة. اختلطت عليه الأفكار. وشَخصَ أمام عينيه وجهُ المرأة المُدمّى. ومرّ أناتولي وهو يُغادر إلى البيت بجوار نافذته ومسح خيوط الدم المتجمّد بالثلج الوسخ. أصابته حالة من الغثيان. «لقد قضى على الآثار – وكأنّ شيئاً لم يكن».

هتفَ إيديك مسروراً في سماعة الهاتف: يوم الجمعة الساعة السابعة؟

أجاب بيريوزكين متعباً: كالعادة.

- مـا بك متعب، هل خيانة الوطن سـيّئة إلى هذه الدرجة؟ جرّب خيانتـه «بالمفرّق»، «بالجملة» سيكون الأمر أصعب.

ضغط توليك على زرّ إيقاف المكالمة قائلاً:

- فلتذهب إلى الجحيم؟

«وإذا حاولنـا بشـكل مختلف؟ هل يمكن للوطن أن يخون مواطنيه؟ إنّـهُ لم يحم هذه المرأة؟... يا لـه من هراء. وما شـأن الوطن هنا؟ المرأة نفسـها تورّطت في الدين. وكانـت تعرف على ماذا تُقدم. لكن من سيدافع عنها الآن؟ وهل يجب على الوطن أن يدافع عن مواطنيه، أم أنّ المواطنين فحسـب هم من يجب أن يدافعـوا عنه ويحبّونه؟ وأين الوطن في هذه الحالة؟ رجال الشـرطة هم الوطـن؟ لا، فقـد أتوا ليعاقبوا... غيـر المحميين نيابةً عن الوطن. ولماذا يعاقب الوطن شخصـاً ما؟ أم أن ذلك ليس هو الوطن. رجال الشـرطة موظفون حكوميون. الحكومة تدفع لهم. تدفع لهم ضـرائبنا. أي أنـا وإيديك، وزملائـي و... هذه المـرأة... نحن ندفع لهم لحمايتنـا. لا ليس الأمر كذلك. فالشرطة حمت البنك من المرأة. لكن من سيحمي المرأة نفسها؟».

فرح بيريوزكين، عندما فرّقت الشـرطةُ خونةَ الوطن ذوي الشـرائط البيضـاء. عليهم ألّا يقفوا ضـد السلطة المنتخبة. لكن هنا أناس بائسون دون شعارات سياسية... «لكن لو كانت سفيتا مكان هذه المرأة؟ لا. هذا مسـتحيل. أنا لسـت أبلهاً، ولم أكن لأسمح لها أن تقترضَ بالعملة الصعبة في هذا البلد». بصق بيريوزكين تحت مصباح شارع أربات، عندما التقط نفسه فكرةَ «في هذا البلد». لم يسمح لنفسه من قبل أبداً أن يقول مثل هذه الأفكار، ولاسيّما بصوت مسموع. وهنا... «ثمَّةَ خطأ ما، ثمّةَ خطأ كارثي...»- تألّم أناتولي، لكنّه لم يستطع فهم المسألة.

❀❀❀

أخذ بيريوزكين إجازة مرضـية يوم الأربعاء. أعدت له سـفيتلانا الأطايب للنهار بأكمله وذهبت إلى العمل.

أرهقته الفكرة حول المرأة العزلاء. من سيحميها؟ لا توجد إجابة. السؤال الذي سقط من تلقاء نفسه «ما العمل؟»، استدعى سؤالاً منطقياً: «من المذنب؟».

لماذا حصل ذلك؟

قرّر أناتولي أوّل مرّة في حياته، إجراء تحقيقه الخاص، ليوازن ويقارن كل التحليلات، والفرضيات ووجهات النظر. حاول بداية فهم سبب انهيار سعر صرف الروبل، الذي كان سبباً في إضراب أصحاب الرهن العقاري بالعملة الصعبة. نقّب بيريوزكين في أكوام محلّلي سوق النفط، ولم يفهم شيئاً، حتى ربط انخفاض أسعار النفط بالأحداث في أوكرانيا. وتشكّلت في ذهنه سلسلة منطقية: نحن نعيد القرم للوطن- وتفرض وزارة الخارجية الأمريكية و«غيروبا[٩]» عقوبات، وتفتعل حرباً في سورية، كي تضرب أسعار النفط. أي، نحن نُنقذ شعب القرم الشقيق من الطغمة الحاكمة في أوكرانيا، وهم يعاقبوننا من أجل ذلك. نحن نجلب السلام للدونباس- وهم يمنعون عنّا استيراد المواد الغذائية الجيّدة. بدا له، أنّ باستطاعة أصحاب الرهن العقاري بالعملة الصعبة أن يتحمّلوا مكائد الأمريكيين لقاء السماء الهادئة فوق القرم والدونباس.

تناول بيريوزكين وجبة من البطاطا المشوية الساخنة وعاد إلى الإنترنت.

دُهِشَ بعد أن فكّك جوهر العقوبات بسبب عدم التوافق: اتضح، أنّ العقوبات فيما يتعلّق بالوطن طالت مجموعات اللصوص المعروفين وممتلكاتهم، لكنّ الوطن وكإجراء جوابي قام بمنع استيراد الجبن والخضار والفواكه. وأثارت العقوبات الانتقامية، الاستغراب. كيف يمكن منع استيراد المواد الغذائية الجيدة الرخيصة وتسميم الناس بكل أنواع النفايات؟ وهذا لم يؤثّر في أيّ شكل على اقتصاد المورّدين وألحقت الأذى بسكان روسيا. بالناس. لكن أكثر ما عذّبه هو الشعور بعدم فهم الوطن. أين هو الوطن في هذه الحالة؟ هل هو في المسؤولين الذين ارتكبوا السرقات؟ أو في زملائهم الذين منعوا الطعام اللائق؟ كان بيريوزكين مستعداً لأن يرسل هؤلاء وأولئك إلى الجحيم. لكن أين اختفى الوطن فحسب ؟ إنّه في خطر، لقد حاصروهُ بالعقوبات، والأعداء موجودون في كلّ مكان. على من فرضوا عقوبات؟ ومن فَرَضها؟

سحب بيريوزكين من الثلاّجة «الروكفور»[١٠] الحقيقي، الذي أحضره أوزودين من الخارج، وأكل بمتعة ثلاث قطع كبيرة.

❀❀❀

انطمس مفهوم الوطن يوم الخميس نهائياً. انزعج أناتولي بعدما أدرك، بأنّ الدولة هي مجموعة من المسؤولين من مختلف المستويات، عُيِّنوا لخدمة المواطنين، وهي ليست الوطن أبداً، استاءَ أناتولي ؛ كم كان الأمر بسيطاً، قبل أن يفكّر بذلك: الوطن يعادلُ الحكومة. أيعقل أنّ يكون قد أخطأ

كثيراً هكذا؟ لقد اتضح أنّه أخطأ. وتوقف تماماً عن فهم مصطلح «البلد». الكلمة ظهرت في صيغ وطنية غير مفهومة، لكن لم تضف له معنى. ما هي «البلد»؟ هل هي المساحة التابعة للدولة؟ لكن أين «الوطن»؟، لقد سأل بيريوزكين نفسه والإنترنت ولم يجد جواباً.

حاول إيقاف انهيار خيبات الأمل عن طريق تشغيل التلفزيون، لكن أدرك أنّه لا يستطيع التقاط المعنى في تيّار الأخبار. فقد شعوذ مقدمو البرامج والصحافيون بكلمات وعبارات لا معنى لها حول الأزمة والعقوبات. أيعقل أيضاً أنّهم لا يفهمون عمّا يتحدثون؟

شعر أناتولي أخيراً، بحلول المساء، بعد أن صاغ جوهر الحرب العالمية الثانية، أنّه خائن للوطن، لكن لم يفرح بإمكانية الحصول على ثلاث شقق من ذوات غرفة النوم الواحدة في منطقة مارييـنو لقاء ذلك. اتضح له أنّ اثنين من القادة الكبار قضيا على عشرات الملايين من الناس، في محاولة للسيطرة على الأراضي والموارد.

«لقد قتل ذلك العدد الهائل من الناس، وأنا أُخضع كلّ شيء لمعادلة بسيطة» – لعن بيريوزكين نفسه. لكن جوهر المعادلة كان دقيقاً إلى درجة أنه انغرس في الوعي. وربّما إلى الأبد. وأخيراً، شعر أناتولي بالضيق من مقال كتبه «ليف تولستوي» بعنوان «حول الوطنية». لم يستطع ألاّ يثق بالكلاسيكي المعترف به و«مرآة الثورة الروسية»، لكن الكونت تولستوي سمّى الوطنية بالحقارة والمضاربة غير الشريفة. كيف يكون ذلك ممكناً؟

قال بيريوزكين لنفسه: «ممكن» وأغلق الكمبيوتر المحمول.

لم يعد التجسّس، والانتقال إلى صف الأعداء والمتاجرة بالأسرار الحكومية، بالنسبة إليه أفعال خيانة. لم يكن هناك أحد يخونه. أمّا خيانة المخادعين، فإنّها تذكره أكثر بالفضل أمام الكارما[١١] الخاصّة به.

حلم أناتولي في ليلة الجمعة، بمدينة لابيتنانغي البعيدة. يفتتح السكان رسمياً نصباً تذكارياً في الساحة الرئيسة. عند الاستفسار عن النصب التذكاري، اكتشف بيريوزكين: أنّه للخائن الرئيسي للمدينة. عندما عزفت الموسيقا الاحتفاليّة، وأزيل الغطاء الأبيض عن النصب، رأى أناتولي نفسه مسكوباً بالبرونز على قاعدة من الغرانيت. بدأ الجمهور الصفيرَ ورمي المواد الغذائية المحظورة بسبب العقوبات على النصب. قطعة من الجبن لم تصل إلى الهدف، وسقطت على كتف بيريوزكين. إنّها قطعة «روكفور»– عرفها أناتولي واستيقظ.

❁❁❁

وجد الصديقان طاولة حرّة، بعد الوقوف في طابور لأخذ الفودكا والتشيبوريك. وضع إيديك ثلاثة مفاتيح أمامه ونظر إلى توليك مبتسماً. فكر بيريوزكين: «آه، سفيتكا، لن تسافري إلى باريس»، ووضع بصمت صحن التشيبوريك على المفاتيح. رن جرس هاتفه.

أجاب توليك:

- نعم، حبيبتي. نعم أنا أخونك... نعم، في مطعم التشيبوريك.

❁ ❁ ❁

الهوامش

(١)- طبق قومي عن تتار شبه جزيرة القرم، يتكوّن من فطيرة محشوّة باللحمة. (م).

(٢)- أسماء ومقاطع من أغان روسية، تتحدّث عن الصداقة، منها للشاعر والمغنّي المعروف فلاديمير فيسوتسكي. (م).

(٣)-كانت تطلق هذه التسمية على أرجل الدجاج الأمريكية المجمّدة، التي كانت تباع بكثرة في روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، نسبة إلى الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب، الذي كان حينها رئيساً للولايات المتحدة. (م).

(٤)- هوس الكتابة (بالإنكليزية: Graphomania) المعروف أيضاً باسم scribomania، يشير إلى الهوس بالكتابة. وعند استخدامه في سياق نفسي محدد، فإنه يسمى حالة ذهنية مرضية تؤدي إلى كتابة الكلمات والعبارات المرتبكة، وغالباً ما تتحول إلى تتابع لا معنى له للكلمات. استُخدمَ مصطلح «graphomania» في أوائل القرن التاسع عشر بوساطة جان إتيان إسكيرول، ولاحقاً بوساطة يوجين بليولر... (م).

(٥)- مطلعُ قصيدة خلال الحرب الوطنية العظمى تحوّلت لأغنية: «من أين يبدأ الوطن؟» للشاعر م.ماتوسوفسكي. (م).

(٦)- العصيدة (تسمى أيضًا الثريد أو حساء الشعير، وغيره) هي طبق يُصنع عن طريق غلي الشوفان (المفتول أو المسحوق أو الكامل) أو وجبات الحبوب الأخرى في المياه أو اللبن أو كليهما. وعادة ما تُقدم ساخنة في وعاء أو طبق. قد تُستخدم الحبوب أو البقول الأخرى، على الرغم من أن الأطباق التي تُعدُّ بالمكونات الأخرى يُشار إليها في كثير من الأحيان بأسماء أخرى، مثل بولينتا (polenta) أو جريتس (grits). (م).

(٧)- حكاية شعبية روسية، تتحدث عن جندي مرَّ جائعاً على عجوز بخيلة، قالت له إنّه لا يوجد ما يؤكل عندها. لاحظ الجندي فأساً موضوعةً في أحد الأركان، فقال لها، ما دام لا يوجد شيء، فهيّا نحضّر عصيدة من الفأس. استغربت العجوز وناولته الفأس. غسله الجندي ووضعه في قدر ماء يغلي، والعجوز تنظر مستغربة. ذاق الجندي المرق. سألته العجوز كيف المذاق؟ قال لها مذاق جيّد، لكن للأسف، لو كان هناك قليل من الملح لكان ألذ. أحضرت له الملح.. وهكذا حتى أكمل مكونات العصيدة، أحضرت الخبز

فيما بعد وأكلا. ثم سألته: والفأس؟ قال لها يحتاج إلى الغلي أكثر، سآخذه معي في الطريق، وسأغليه أكثر، وأتناوله على الفطور. وهكذا أكل الجندي وحصل على الفأس. (م).

(٨)- مصـــرف أوفشور أو مصـــارف الأوفشور أو المصـــارف الخارجية هي البنوك الواقعـــة خارج بلد إقامة المُودع، وتكون غالباً في بلدان ذات ضرائب منخفضة أو مؤسسات مالية لا تخضع للرقابة الدولية. وكثيراً مـــا ترتبـــط هذه المصارف مع السوق الســـوداء والجرائم المنظمة عن طريق التهـــرب الضريبي وغسيل الأموال. (م).

(٩)- غييرويـــا: تركيب لفظي مؤلف من كلمتين: «غيي»- المثلـــي الجنسي+ «أوروبا» وهو مفهوم يستخدم في الإنترنـــت وفي النقاشات السياسية الشعبية فـــي روسيا. بداية كان مصطلحاً، يعني أوروبا بوصفها موطناً للمثلييـــن الجنسيين، لكن فيما بعد تحوّل إلى مفهوم يعني أوروبـــا المنهارة، وروسيا بوصفها حامياً للقيم التقليدية. (م).

(١٠)- روكفور: نوع من أنواع الجبن الفرنسية ويصنع من حليب الأغنام فحسب، وينضج في كهوف في منطقة مقاطعة رويرج التاريخية في فرنسا. (م).

(١١)- كارما (لغة سنسكريتية: कर्म) وتعني العمل أو الفعل. هي مفهوم أخلاقي في المعتقدات الهندوسية والبوذية واليانية والسيخية والطاوية. ويشير إلى مبدأ السببية إذ النوايا والأفعال الفردية تؤثر في مستقبل الفـــرد. حســـن النية والعمل الخير يسهم في إيجاد الكارما الجيدة والسعـــادة في المستقبل، النية السيئة والفعـــل السيئ يسهم في إيجاد الكارما السيئـــة والمعاناة في المستقبل. وترتبط الكارما مع فكرة الولادة الجديدة في الديانات الهندية. (م).

❁ ❁ ❁

التقويم البابلي

The Babylonian Calendar

د. عيد مرعي

اهتم سكان بلاد الرافدين بعلم الفلك Astronomy منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وعرفوا الكواكب والنجوم ومساراتها وحساب الزمن. ولعل ما تذكره أسطورة خلق الكون البابلية (إنوما إليش Enuma Elish) التي يعود زمن تدوينها الأوّل إلى عصر حمورابي، أفضل دليل على معرفة سكان بلاد بابل التقويم وحساب السنين. ففي اللوح الخامس من هذه الأسطورة نقرأ:

صمّم (المقصود الإله مردوك بطل الأسطورة) منصات للآلهة العظماء.

أمّا بالنسبة إلى النجوم، فقد وضع لكلٍّ منها

كوكبات تقابلها.

وعيَّن السنة وحدَّد أقسامها

ووزع حصصاً من ثلاثة أنجم لكلٍّ منها

الأشهر الاثني عشر.

وبعد أن وضع خططاً لأيام السنة،

أسّس منصة نجم القطب (نبرو) ليحدد مسيرتها

كيلا يُخطئ أيّ منها أو يتيه.

وثبَّتَ إليها أيضاً منصة إنليل وإيا.

فتح بوابات في الضلعين

وصنع مزلاجين قويين إلى اليسار واليمين.

وحدَّد الأعالي بكبدها (بكبد الإلهة تيامات غريمته)،

وجعل هلال القمر يظهر، وائتمنه على الليل

وعيَّنه جوهرة الليل ليحدد به النهارات.

«انطلقْ بهالةٍ كل شهر من دون إخفاق،

لتشعَّ على الأرض بداية كل شهرٍ.

تلتمع بأبواقٍ تحدد ستة أيام»،

وفي اليوم السابع ينتصف الإكليلُ.

وسيكون اليوم الخامس عشر أبداً نقطة الوسط،

منتصف كل شهر.

وعندما ينظر إليك شماش (إله الشمس) من الأفق،

أبهتْ رؤياك تدريجياً وادخُل المُحاق.

واجعل يوم أفولك دائماً على مقربةٍ من مسار الشمس،

وفي اليوم الثلاثين، تتساوى السنة

دائماً لأن شماش مسؤول عن السنة[1].

مما تجدر الإشارة إليه أن أسطورة خلق الكون البابلية تتحدث عن الصراع بين النظام الكوني والفوضى. وسميت بحسب الكلمات الأولى منها «إنوما إليش»: عندما في العلى. وكانت تُلقى في اليوم الرابع من احتفالات رأس السنة البابلية التي كانت تتم في بداية شهر نيسان. وقد كُتبت بالكتابة المسمارية، باللغة الأكادية، اللهجة البابلية القديمة، على سبعة ألواح طينية. والنسخة الموجودة حالياً تعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، عُثر عليها في منتصف القرن التاسع عشر في خرائب قصر آشور بانيبال في نينوى، ونشرها أوّل مرة جورج سميث G. Smith في عام (١٨٧٦م) بعنوان«The Chaldean Genesis : **التكوين البابلي**». ويرقى تاريخ هذه النسخة إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، إذ يظهر فيها مردوك، الإله الحامي لمدينة بابل، بطلاً يتفوَّق على بقية الآلهة. وهناك نسخة أقدم من هذه النسخة كُتبت باللغة السومرية القديمة، أبطالها الآلهة آنو وإنليل ونينورتا.

وقــد بلغ علم الفلك أَوَجَ تطوره وازدهاره في بلاد بابل نحو (٦٠٠-٥٠٠ ق.م) وعرفوا في عام (٣٨٠ ق.م) أن طول الشهر القمري يبلغ (٥٣٠٥٩٤)، (٢٩) يوماً، مقترباً بذلك من الطول الحقيقي المعروف حالياً وهو (٥٣٠٥٨٩)، (٢٩) يوماً.

استخــدم البابليون التقويم القمــري lunar calendar، القائم على حساب دوران القمر حول الأرضــ دورة كاملة الذي يبلغ تسعة وعشرين يوماً وربع اليوم، أي شهراً، وبما أن السنة مؤلفة من اثني عشر شهراً فالمجموع يساوي نحو (٣٦)، (٣٥٤) يوماً، أي سنة قمرية واحدة. لكنهم لاحظوا فرقــاً بين دورة القمر ودورة الشمس بين اعتدالين ربيعيين التي تساوي سنة شمسية Solar year عدد أيامها (٣٦٥) يوماً وخمس ساعات و(٤٨) دقيقة و(٤٦) ثانية (أي إنّها أطول من السنة القمرية بأحــد عشر يوماً وربع اليوم تقريباً)، ولاحظوا أيضاً اختلاف تعاقب الفصول والظواهر الطبيعية فأضافــوا شهراً إلى السنة كل ثــلاث سنوات، أوكلما كانت الأوضاع تستدعي ذلك، أي استخدموا «الكبس». وهناك كثيرٌ من الرسائل المتعلقة بذلك من عهد حمورابي ملك بابل المشهور في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ومن عهد نابونيد آخر ملوك بابل (٥٥٥-٥٣٩ ق.م).

اعتبــاراً ومن السنة (٣٨٠ ق.م) يلاحظ اتبــاع دورة مؤلفة من تسع عشرة سنة تكون فيها السنــة الثالثة والسادســة والتاسعة والثانية عشرة والرابعة عشــرة والسابعة عشرة والتاسعة عشرة سنوات كبيســة، أي مضاف إليها شهرٌ ثالث عشر (السنة الثانية عشرة فيها شهر أيلول Ululu شهر كبيســ، والبقيــة فيها شهــر آذار Addaru. أمــا في القرن الخامس قبل الميلاد فيمكن ملاحظة بعض الشذوذ عن هذه الدورة، وفي القرن السادســ قبل الميــلاد كان توزيع السنوات الكبيسة نفسه تقريباً. مما تجدر الإشارة إليــه أن تسع عشرة سنة شمسية تســاوي (٢٣٥) شهراً قمرياً (بالتحديــد ١٩ × ١٢ شهراً + ٧ أشهر كبيسة)[٢].



دائرة تمثل التقويم البابلي

إنَّ دورة التسع عشرة سنة هذه انتقلت إلى بلاد الإغريق، إذ عمل على تطبيقها في أثينة المدعو **ميتون** في عام (٤٢٥ ق.م)، وسُميت باسمه فيما بعد «دورة ميتون Meton Cycle».

وكانت السنة[٣] تبدأ في بلاد بابل في فصل الربيع مع بداية شهر نيسان إذ تتم احتفالات ضخمة تعبّر عن فرحة الناس بعودة الخصوبة إلى الطبيعة تدوم بضعة أيام. وعدد أيامها (٣٥٤) يوماً مقسمة إلى اثني عشر شهراً، عدد أيام كل شهر ثلاثون أو تسعة وعشرون يوماً بشكل متتال، بدءاً من شهر نيسان.

وقد قُسمت أيضاً إلى ثلاثة أقسام هي: رأس السنة resh shatti ريش شَتّي، ومنتصف السنة: mishil shatti ميشيل شَتّي، ونهاية السنة kit shatti كيت شَتّي.

أما التقسيم الأكثر انتشاراً في بلاد بابل للسنة فهو ذلك الذي يقسمها إلى قسمين رئيسين هما: الأول الربيع والصيف، ويبدأ في شهر آذار وينتهي في أيلول، والثاني الخريف والشتاء، ويبدأ في شهر تشرين الأول، وينتهي في آذار، ويأتي الحصاد وجني المحصول في منتصف القسم الأول، ويدوم نحو شهرين، وتسمى هذه المدّة «الحرّ»، كما يسمى منتصف الشتاء «البرودة»[٤].

إن هذا التقسيم يشبه الوضع السائد حالياً في العراق وأجزاء واسعة من سورية إذ يمر فصلا الربيع والخريف بسرعة إلى درجة لا يكاد المرء يشعر إلا بالفصلين الرئيسين الصيف والشتاء.

يتحدث أحد نصوص الفأل المتعلقة بالنجوم عن الصيف والشتاء فيقول:

«في الصيف يسود حرٌّ شديد، وفي الشتاء تسود برودة شديدة».

(ina ebūri umšu dannu ibašši ina kuşşi kuşşu dannu ibašši)[٥].

وأرّخوا نسبة إلى سنوات حكم ملوكهم. فالسنة التي يعتلي فيها الملك العرش تسمى عادة باسم تلك المناسبة، وتؤرخ السنوات التالية بأهم الأحداث التي جرت فيها، كاحتلال مدينة أو شق قناة للري، أو بناء معبد لإله المدينة وهكذا، مثل السنة الثالثة والثلاثين من حكم حمورابي أُرِّخت بمهاجمة حمورابي مدينة ماري واحتلالها. والوحدة الزمنية الأولى عندهم كانت اليوم[٦] الذي يبدأ مع بزوغ شمس اليوم وينتهي مع شروق شمس اليوم التالي، وقد قسّموه إلى اثنتي عشرة ساعة مزدوجة، أسموا الواحدة منها «بيرو bēru» (bi/eru(m: بالسومرية danna: ساعة مزدوجة، جزء من (١٢) من اليوم[٧]، وقسموا كل bēru إلى ثلاثين

جـزءاً متساوياً أسموا الواحد منه «أوشـ Uš»، ويساوي كل أوش أربع دقائق تماماً، وقسموا الأوشـ إلى ستين جزءاً سميت NINDA. وهناك تقسيم آخر لليوم إلى أربعة أجزاء: الجزء الأول مـن مغيـب الشمس إلى منتصف الليل، والجزء الثاني مـن منتصف الليل إلى شروق الشمسـ، والجـزء الثالث من شروق الشمس إلى الظهيرة، والجـزء الرابع من الظهيرة إلى مغيـب الشمس. كمـا عَرَفُوا تقسيماً ثالثاً لليوم يتألف من ستـة أقسام، ثلاثة للنهار وثلاثة لليل، ويبدأ النهار بشروق الشمسـ (بالأكادية نَباخ شَمشي napach Shamshi: نَفْخُ شماش إلـه الشمس)، ويليه القسـم الثاني الذي يُسمّى باللغة الأكاديـة «موصلالو (muşlālu(m»: الظهيرة، وقت الظهيـرة (مشتقة من الفعل «صَلالو» şalālum «يظلل»[٨]. أما القسم الثالث فهو «الغروب»، أي مغيـب الشمس (باللغة الأكادية إيريب شَمشي ereb šamši) أو «المساء» (باللغة الأكادية ليلاتي lilati).

أما **أقسام الليل فهي: الأول**: ظهور النجوم وباللغـة الأكادية بَراريتو barārītum: «بداية المسـاء»[٩]. **والثاني**: منتصف الليل وباللغة الأكاديـة قَبْليتو qablitum: وسط»[١٠]. **والثالث**: بـزوغ الفجر وباللغة الأكادية شَت أوري šat urri: «الصباح الباكر»[١١]. وقاس البابليون الزمن بوساطة ساعات مائية[١٢].

أمَّا الوحدة الثانية فهي الأسبوع الذي لا يطابق دورة فلكية محددة وأخذوه عن السومريين، ويتألـف من سبعة أيام إما لأن عدد الكواكب التي يستطيع الإنسان رؤيتها بالعين المجردة هو سبعـة: (الشمس، والقمر، وعُطـارد، والزُّهَرة، والمِرِّيخ، والمُشْتَـري، وزُحَل)، وهي آلهة في نظرهـم، أوهو تقسيم للزمن بين مرحلتين مـن مراحل القمر، مرحلة الهلال ومرحلة البدر. وكانوا يحتفلون باليوم السابع من الأسبوع «سيبوتو sebûtu» يوماً مقدساً، وأسموه «يوم الشر» الذي يعني عدم القيام بأيِّ نشاطات أو أعمال.

لكنهم كانوا يقدمون الأضاحي للآلهة ليلاً: لمردوك Marduk (إله بابل الرئيس)، وعشتار Ishtar (إلهة الحب والحـرب والخصب) في اليوم السابع من الشهر، ولنينليل Ninlil (سيدة الريـح)، ونيرجال Nergal (إله الطاعـون والعالم السفلي) في اليوم الرابع عشر، ولسين Sin (إلـه القمر)، وشماش Šamaš (إله الشمس) فـي اليوم الحادي والعشرين، ولإنكي Enki (إله الأرض والحكمة والمـاء العذب)، وماخ Mach (إحدى الإلهات الأم السومرية، وهي اختصار لـ«نين ماخ Ninmach: السيدة الكبيرة» في اليوم الثامن والعشرين).

وورث البابليون نظام تسمية أيام الأسبوع بحسب الكواكب السبعة المقدسة التي كانت آلهة في نظرهم عن السومريين (مع اختلاف في الأسماء التي تظهر هنا باللغة الأكادية)، وهي الآتية:

الأحد: يوم شماش Šamaš إله الشمس.

الإثنين: يوم سين Sin إله القمر.

الثلاثاء: يوم آنو Anu إله السماء.

الأربعاء: يوم إيا Ea (إنكي بالسومرية، وكوكبه عُطارد).

الخميس: يوم إنليل Enlil (المشتري).

الجمعة: يوم عشتار Ishtar (الزُهرة).

السبت: يوم نينورتا Ninurta (زُحل).

وقد أعطى الإسلام للعدد سبعة بعداً دينياً، ومن ثمّ اكتسب قدسية كما تشير إلى ذلك بعض آيات القرآن الكريم. ﴿**ألَم تَرَوا كيفَ خَلَقَ اللهُ سبعَ سموات طباقاً * وجَعَلَ القمرَ فيهنَّ نوراً وجَعَلَ الشَّمس سِراجاً**﴾ (نوح: ١٥-١٦)، ﴿**إنَّ ربكم اللهُ الذي خَلَقَ السموات والأرضَ في ستَّة أيام ثم استوى على العرش يُغشي اللَّيلَ النَّهار يطلبُهُ حَثيثاً والشَّمسَ والقَمَرَ والنجُوم مسخَّرات بأمره ألا له الخلقُ والأمر تَبَارَك اللهُ ربُّ العالمين**﴾ (الأعراف: ٥٤).

والوحدة الثالثة هي الشهر (warchum وارخوم)[١٣] المبنية على مراحل ظهور القمر، وهذه المراحل هي:

١-warchum وارخوم: اليوم الأول، الضوء الجديد.

٢-sebûtu سيبوتو: اليوم السابع، الهلال[١٤].

٣-shapattu شَبَتُّو: اليوم الخامس عشر، البدر.

٤-u4-na-a: يوم الاختفاء، اليوم التاسع والعشرين[١٥].

ونورد فيما يلي أسماء أشهر التقويم البابلي النموذجي الذي ساد في بلاد بابل منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد (عصر حمورابي البابلي)، وهي الأسماء التي تبناها الآشوريون منذ عهد تيكلات بيليصر الأول Tiklatpileser I. (١١١٤- ١٠٧٦ ق.م)، واليهود خلال وجودهم في بابل في القرن السادس قبل الميلاد (مرحلة السبي البابلي) أو بعده، واستُخدمت في التقويم الآرامي. السرياني مع تعديلات في أسماء بعض الأشهر، وهي التي ما زالت مستخدمة حتى

اليوم في العراق وبلاد الشام بصيغتها الآرامية - السريانية. علماً أن كلمة «وارخوم» معروفة في معظم لغات المشرق العربي القديم، وهي على الأغلب أصل كلمة «تاريخ» و«تأريخ» و«مؤرخ» في اللغة العربية الحالية. نلفت الانتباه إلى أن المدن الرافدية والسورية المختلفة عرفت قبل القرن الثامن عشر قبل الميلاد تقاويم كثيرة تختلف فيها أسماء الأشهر من مدينة إلى أخرى، فهناك تقويم ماري وتقويم سيبار، وتقويم نيبور، وتقويم لاجاش، وتقويم إشنونا، وتقويم إبلا، وغيرها[١٦]. وقد قام حمورابي، الملك البابلي المشهور (١٧٩٢-١٧٥٠). بتوحيدها في تقويم واحد بشكل يتماشى مع فكرة الدولة المركزية الواحدة التي أنشأها هو وشملت كل مناطق بلاد الرافدين، وربما بعض المناطق المجاورة لبلاد الرافدين. ويُعرف ذلك التقويم بالتقويم البابلي القياسي The Babylonian Standard Calender، الذي ساد في كل بلاد الرافدين وأجزاء واسعة من سورية، من القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحتى نهاية الألف الأول قبل الميلاد، واستمر بشكل معدل في التقويم السرياني.

شهور رأس السنة

١-warach Nisannu: وَراخ نيسانُّو: شهر نيسان، وهو أول أشهر السنة، وهو شهر الإلهين أنو (إله السماء) وبيل (مردوك) إله مدينة بابل الرئيس، وبحسب وثيقة آشورية هو شهر سين إله القمر (نانا باللغة السومرية)، الابن الأول لإنليل كبير الآلهة السومرية، وهو الشهر السابع في التقويم الآرامي السرياني، ويقابله في التقويم الغريغوري مارس/أبريل[١٧]، وعدد أيامه ثلاثون يوماً. وبما أن حضارات الشرق القديم حضارات زراعية فقد كان يُحتَفَل بقدوم الربيع، ولا سيَّما في بلاد الرافدين وسورية ووادي النيل. وذلك لأن الإنسان في هذه المناطق كان يتملكه خوفٌ كبير في نهاية فصل الشتاء من عدم عودة الخصب والحياة إلى الطبيعة في بداية فصل الربيع، ولا سيَّما أن حياته كانت تعتمد بالدرجة الأولى على زراعة الحبوب، المصدر الأساسي لغذائه. في هذا الشهر تخضَرُّ الطبيعة ويعود الخصب إليها وتتفتح النباتات وتزهر، وتدب الحيوية في الحيوانات والطيور، لذلك كان يُحتَفَل في بداية هذا الشهر بالسنة الجديدة (مهرجان أكيتو Ak-itu)، ويدوم ذلك الاحتفال اثني عشر يوماً تقام فيها صلوات وطقوس دينية وتُرتل أسطورة خلق الكون (إنوما إليش) في اليوم الرابع منه. وكان أهم حدث فيه قدوم نانا إله القمر الذي رمزه سطوع القمر في السماء، وإعادة تمثاله بوساطة مركبٍ من خارج المدينة إلى معبده فيها. ويبدو أن الموطن الأصلي لهذا الاحتفال كان مدينة أور Ur السومرية (حالياً تل المقير في جنوبي

ويقـــال في وصف جماله «نيسان يأتـــي بالأمطار، وأيار يأتي بالأزهار». وهو الشهر الثامن فـــي التقويم الآرامي- السرياني (بالعبرية والآراميـــة «إيّارو»)، ويقابله في التقويم الغريغوري أبريل/مايو. وعدد أيامه تسعة وعشرون يوماً[٢٢].

نقرأ فـــي تاج العروس للزبيدي، مادة «أير»، ٩١/١٠: «أيّـــارُ بالتشديد شَهْرٌ قبل حَزيران مُكَبَّـــراً، قال شيخنا: وقـــع في كلام سعدي أفندي قبل حزيران وضَبَـــطَ حُزَيْرَانَ بالتصغير، قال الصغانيّ: وأيّارُ معظم الربيعِ ويقال له بالشام: أَيَّارُ الوردِ والصحيح أنه بالسُّرْيانِيَّة وهو الشهر الثامن من شهورهم بين نيسان وحزيران». ونقرأ في القاموس المحيط، الجزء الأول، (ص ٣٨٠)، «أيار شهر قبل حزيران».

ونجد في لسان العرب، المجلد الأول، باب الهمزة، (ص ١٨٩) في مادة «أير» مايلي: «أير. إيرٌ، ولغـــة أخرى أَيرٌ، مفتوحة الألـــف، وأَيِّرٌ، كل ذلك من أسماء الصَّبا، وقيـــل الشَّمال، وقيل: التي بين الصَّبا والشَّمال، وهي أَخْبثُ النُّكْبِ. والإيرُ: ريح الجنوب. والأُرُ: العَارُ. والإيارُ: اللوح، وهو الهواء».

٣- warach Simānu: وَراخ سيمانـــو: شهر سيمانو، وهو شهـــر إله القمر سين (نانا عند السومريين)، ويقابله فـــي التقويم الغريغوري مايو/يونيو، وفي التقويم العبري «سيوان»، وفي التقويم الآرامـــي- السرياني حَزيران. وعدد أيامه ثلاثون يوماً. تُكتب كلمة «ليبيتُّو. libittu»: لَبِنة الأكادية بالرمز المسماري sig٤، ويُكتب اسم شهر سيمانو بالرمز المسماري iti sig4: أي شهـــر اللبن (الطين المجفف تحت أشعة الشمســـ). ويبدو أن السبب في التسمية هو ملاءمةُ الأحوال الجوية لصنع اللبن وبناء البيوت وأماكن السكن[٢٣].

كانت تجري احتفالات في الأول والتاسع والخامس عشر منه في مدينة أوروك السومرية المعروفة. أما في بابل فكان يجري الاحتفال في الخامس عشر منه بعيد «سيدة الآلهة»، وفي الثاني والعشرين منه بعيدٍ له علاقة بالإله نابو Nabu، إله الكتابة والكتَّاب. وهناك أسماء علم كانت تسمى باسم هذا الشهر، ربما للتيمن والبركة، أو لأن هذا الشهر فيه شيء من القداسة، مثل: سيمانو (للمذكر) وسيمانيتو (للمؤنث)، وتعني: «المولود في شهر سيمانو». كما أن هناك كلمة أخرى باللغة الأكَّادية لها اللفظ نفسه وهي «سيمانو Simānu»، لكن معناها مختلف وهو: فصل، زمن، ميقات[٢٤]. ربما يكون لهذه الكلمة علاقة بكلمة «زمن» العربية. ففي لسان العرب، المجلد الثالث، باب الزاي، (ص ١٨٦٧) نقرأ مايلي:

«زمـــن. الزَّمَنُ والزَّمان: اسم لقليل الوقت وكثيره، وفـــي المحكم: الزَّمن والزَّمانُ العَصْرُ، والجمـــع أَزْمُنٌ وأَزْمانٌ وأزمنة. وقال شَمِرٌ: الدَّهْرُ والزَّمانُ واحد. قال أبو الهيثم: أخطأ شَمِرٌ،

الزَّمــانُ زمانُ الرُّطَبِ والفاكهة وزمان الحَرِّ والبرد، قال ويكون الزمان شهرين إلى ستة أشهرٍ. والزَّمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه».

4-warach Dumuzi/Tammuz: وَراخ دوموزو / تموز: شهر تموز[٢٥]، وله الاسم نفسه في التقويــم الآرامي – السرياني، وهو الشهــر الثامن فيه. ويقابله في التقويم الغريغوري يونيو/ يوليــو. يعني اسم تموز باللغة السومرية «ابن الحيــاة»، «الابن البار»، «الشاب الكامل». وتموز كان أحــد ملوك مدينة أوروك السومرية في بداية الألف الثالــث قبل الميلاد، الذي أُلِّه بعد وفاته نتيجة ورعه وتقواه، وأصبح أهم آلهة الخصب في بلاد الرافدين. وكانت مراسم الحزن بغياب وموت تموز تتم في الأول والثاني والتاسع والسادس عشر من هذا الشهر عندما تموت النباتات والأعشاب نتيجة ارتفاع درجة حرارة الجو.

ويُحتَفَــل بعودته حياً في بداية فصل الربيع في شهر نيســان مع بداية السنة الجديدة، إذ يجــري الاحتفال بانبعاثه حياً بالرقص والغناء والفرح. وكان تموز ولقبه «الراعي» عشيق وزوج إنانــا (عشتــار) إلهة الحب والحــرب والخصب في بلاد الرافديــن. وهناك أسطورة سومريــة تتحدّث عن علاقته مع الإلهة إنانــا (عشتار) هي «نزول إنانا (عشتار)، إلى العالم السفلــي «التي تخبرنا أن إنانا هــي التي أرسلت تموز إلى العالــم السفلي (عالم الأموات) بــدلاً منها. وتوجد أسطورة ثانية بعنوان «حلم تموز» التي تتحدث عن رؤية تموز حلماً يتنبأ بموتــه. وقد تحقق الحلــم على الرغم من محاولة تموز الإفلات منــه. وهناك شبيه لتموز فــي حضارات الشــرق القديم الأخرى كأوزيريس في مصر، وبعــل وأدونيس في سورية، إذ كانــت تقام مهرجانات ومناحات للاحتفال بذكراهم في مناسبات معينة، وعُرفت هذه حتى فــي بلاد الإغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل. وهناك إشارة ترد في العهد القديم (سفر حزقيال ٨: ١٤) تتحدث عن البكاء على تموز (وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز).

شهور منتصف السنة

٥- warach Abu: وَراخ آبــو: شهــر آب، وهو شهر الإلهــة آرورو Aruru (إحدى الإلهات الأم السومرية)، وهو الشهر الحادي عشر في التقويم الآرامي - السرياني، ويقابله في التقويم الغريغــوري يوليو/أغسطس. وعدد أيامه ثلاثون يوماً[٢٦]. يوصف في أحد النصوص الأكادية التــي تتحدث عن فصول السنة بأنه الشهر الذي «ينــزل فيه غيرًّا Gerra (بالسومرية غيبيل

Gibil) إله النار من السماء ويدخل في منافسة مع شماش Šamaš إله الشمس»[٢٧]. ربما يفسر هذا شدة الحرّ في هذا الشهر.

٦- warach Ulūlu (m): وَراخ أولولو Elūlu (m)، Elūnu (m) إلولو / إلونو: شهر أيلول (شهــر التطهر)، وهو شهر عشتار (إنانا عند السومريين) إلهة الحب والحرب والخصب. وهو شهــر جني التمور في بلاد الرافدين. والاسم مشتق مــن المصدر الأكَّادي «إيلو elelu»[٢٨]: يكون نقياً طاهراً. وهو الشهر الثاني عشر في التقويم الآرامي. السرياني (بالآرامية والعبرية إيلول)، ويقابله في التقويم الغريغوري أغسطس/ سبتمبر.

وعدد أيامــه تسعة وعشرون يوماً. ويوصــف حالياً بأنه «أيلــول المَعَاصِر»، نظراً لعصر العنــب والزيتون فيه. كما يقال عنه إنَّ «ذَنَبَه مبلــول»، بسبب سقوط الأمطار في أواخره في بعض السنوات.

٧- warach Tashritum: وَراخ تَشْريتيــم: شهــر تشريت (شهــر بداية النصف الثاني من السنــة)، وهو شهر الإله شماش (أوتو عند السومريين) إلــه الشمس والحق والعدالة. وكانت بعضــ المدن السومرية تحتفل في بدايتــه بالنصف الثاني من السنة (أكيتو Akitu). ويقابله فــي التقويم الغريغوري سبتمبر/أكتوبر. وعــدد أيامه ثلاثون يوماً. وهو أول شهر في التقويم السريانــي الذي يضم تشرينيــن «تشرين قديم وتشرين حراي»، أي تشريــن السابق وتشرين اللاحــق. وتعني كلمة تَشْريتو في اللغة الأكادية «بداية»[٢٩]، التي يبدو واضحاً أنها مشتقة من المصدر «شورُّوم šurrûm»: يبدأ، يستهل[٣٠]. ويصفه أحد النصوص الأكادية بأنه الشهر الذي «تُفتح فيه بوابة المحيط السماوي باب أبسي إبَّاتي bab apsi ippatti»[٣١]. ربما يشير هذا إلى بداية سقوط الأمطار فيه.

وكان هــذا الشهــر أول شهور السنة عند الآشوريين، إذ كانت السنة تبدأ عندهم في فصل الخريف. ربما بسبب جني محصول التمر في هذا الوقت، أو البدء بالقيام بالعمليات الزراعية. و«تشرت» اسم لأحد الأشهر في مملكة أوجاريت الساحلية السورية.

٨- warach Samna: وَراخ سمنــا: الشهــر الثامن (شهر وضع الأساسات)، وهو شهر الإله مــردوك إله بابل الرئيس، ويقابله في التقويم الغريغــوري أكتوبر/نوفمبر. وعدد أيامه تسعة وعشــرون يوماً. ويعني اسم هذا الشهر باللغة السومريــة (Iti Apin) شهر المحراث. ويُذكر هذا الشهر فــي وثيقة آشورية أنه «شهر الفأس والمحراث وبذر البذور في الحقل، وهو شهر

الإله أدد مفتش قناة السماء والأرض»[٣٢]. ونقرأ عنه في نصٍ أكادي أن المرء يُخرج فيه الفأس والمحراث إلى الحقل، ويُحتَفَل فيه بعيد موكب بذر البذور[٣٣].

شهور نهاية السنة

٩- warach Kislimu: وَراخ كيسليمو: شهر كيسليمو، وهو شهر نيرجال إله الطاعون والعالم السفلي عند السومريين، ويقابله في التقويم الغريغوري نوفمبر/ديسمبر. وعدد أيامه ثلاثون يوماً.

١٠- Tebetu warach: وَراخ طيبيتوم: شهر طيبيت (شهر المطر الشديد)، ويقابله في التقويم الغريغوري ديسمبر/يناير. وعدد أيامه تسعة وعشرون يوماً. ويسمى أيضاً «شهر كانونو (kanūnu (m/ كينونو kinūnu (m): شهر موقد النار (الكانون) لشدة البرد فيه[٣٤]. و«كينونو» كان اسم الشهر السابع في ممالك ماري وإشنونا وقطارا (تل الرماح)، والشهر التاسع في مملكة نوزي. ويُوصف في نص أكادي أنه الشهر الذي يؤثر فيه شماش إله الشمس في حرية الأرض ونومها الهادئ[٣٥].

ويعني الجذر «كن» في اللغة السريانية الأساس والقاعدة والثبات والاستقرار. وتعني كلمة «كانو (kânu(m» الأكادية «يكون، يدوم»[٣٦].

ويبدو أن لمعنى الاسم علاقة بـ«الكنّ والبقاء في البيت في فصل الشتاء بسبب توقف الأعمال الزراعية نتيجة شدة البرد وسقوط الأمطار الغزيرة». وعند السريان «كانونان»، كانون الأول (قديم) وكانون الآخر (حراي).

بالعربية: «كنن. الكِنُّ والكِنَّةُ والكِنَانُ: وقاءُ كل شيء وَسَتَرَه. والكِنُّ: البيت أيضاً. الكانونُ والكانونةُ: الموقد، والكانون المصطَلى. والكانونان شهران في قلب الشتاء، رومية كانون الأول وكانون الآخَر، هكذا يسميها أهل الروم. قال أبو منصور: وهذان الشهران عند العرب هما الهرَّاوان والهبَّاران، وهما شهرا قُماحٍ وَقِماحٍ»[٣٧].

١١- warach Shabatum: وَراخ شَبَطوم: شهر شباط (شهر تدفق الماء، شهر المطر)، وهو شهر الإله إرّا Erra إله الطاعون، وهو الشهر الخامس في التقويم الآرامي. السرياني (بالعبرية والآرامية شيباط)، ويقابله في التقويم الغريغوري يناير/فبراير. وعدد أيامه ثلاثون يوماً. ويظهر في أحد النصوص الأكادية على أنه الشهر الذي تنبت فيه كل النباتات في الحقول في وقتٍ واحد[٣٨].

وتعنـــي كلمة «شبط» بالسريانيـــة الضرب والجلد. أما في الأكاديـــة فتعني كلمة «شَباطو šabātu (m)»: يضـــرب، يهلـــك، يهب، يعصف، يدمر[٣٩]. حتـــى الآن يوصف شهر شباط «بأن ليـــس على كلامـــه رباط، ويُشَبِّط ويُلَبِّط»، للدلالة على كثـــرة الأمطار والرياح التي تهب فيه. حتى إلى عهد قريب كان البدو في بلاد الشام يسمون بعضاً من أفرادهم باسم «شباط»، ربما لاعتقادهـــم أن هذا الاســـم مبارك ويجلب الحظ لصاحبه. نقرأ فـــي لسان العرب، عن شهر شباط:

«سبـــط. وسُباطُ: اسم شهر بالرومية، وهو الشهر الذي بين الشتاء والربيع، وفي التهذيب: وهو في فصل الشتاء، وفيه يكون تمام اليوم الذي تدورُ كُسُورُهُ في السنين. فإذا تم ذلك اليوم فـــي ذلك الشهر سَمَّى أهل الشام تلك السنة عامَ الكبيس. وهم يتيمنون به إذا ولدَ فيه مولود أو قدم قادمٌ من سفر».

١٢- warach Ad(d)aru: وَراخ أدَّارو: شهر آذار، وهو شهر الإله آشور Aššur (إله الآشوريين الرئيس)، وهو الشهر السادس في التقويم الآرامي. السرياني، ويقابله في التقويم الغريغوري فبراير/مارس[٤٠].

وعدد أيامه تسعة وعشرون يوماً. ويطلق عليه الفلاحون في الريف السوري حالياً وصف: «آدار الهدَّار أبو الزلازل والأمطار»، لسقوط كميات كبيرة من الأمطار والثلوج فيه في بعض السنوات.

جـــاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي (مادة آذر، الجزء الأول، ص٣٧٦): «آذار الشهر السادســـ من الشهور الرومية». وورد فـــي تاج العروس للزبيدي (مـــادة أذر، ١٠/٤٠): «آذارُ بالمدِّ: اسم الشهر السادس من الشهور الرومية، وهي اثنا عشر شهراً وهي آب وأيلول وتشرين الأول... إلخ».

أما في لسان العرب فيرد «آذار» تحت مادة «قيظ»، (ص ٣٧٩٦): العرب تقول السنة أربعة أزمـــان، و لكل زمن منها ثلاثة أشهر، وهي فصول السنة: منها فصل الصيف وهو فصل ربيع الكلأ، أوله آذار ونيسان وأيار، ثم بعده فصل القيظ ثلاثة أشهر: حزيران وتموز وآب، ثم بعده فصل الخريف، وهو أيلول وتشرين وتشرين، ثم بعدها فصل الشتاء وهو الكانونان وشباط».

يعود سبب اعتقاد بعضـــ أصحاب المعجمات العربية أن أصول أسماء هذه الأشهر رومي إلـــى أنها كانـــت مستخدمة في بلاد الشام التي كانت خاضعـــة للإمبراطورية البيزنطية التي عرفها العرب قبل الإسلام بدولة الروم.

١٢- هـو شهـر آذار الثاني الذي يضاف مرة كل ثلاث سنـوات لموازاة السنة القمرية مع السنـة الشمسية. أو يُضاف بدلاً منه شهر أيلول الثاني بعد شهر أيلول، وذلك بأمرٍ من الملك وعـدد أيامه تسعـة وعشرون يوماً، وعدد أيـام أيلول ثلاثون. ويُسَمّى هـذا الشهر الإضافي بالأكادية «(وَ) ترو (ديري) **(w) atru (diri)** إضافة»، أو «تشنيتوم **tašnitum**: تثنية، تكرار»[٤١].

يتبين لنا مما تقدم أعلاه الاهتمام الكبير الذي حظي به التقويم وحساب الزمن في بلاد بابل. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على التقدّم الحضاري الكبير الذي بلغته تلك المنطقة في العصور القديمة، وذلك قبل اليونان والرومان بقرونٍ طويلة.

الهوامش

(١)- دالـي، ستيفاني، أساطير من بـلاد ما بين النهرين، طبعة جديدة منقحة ومـزادة، ترجمة نجوى نصر، بيروت ٢٠١١، ص ٣٨٢-٣٨٥.

(2)- Hunger , H., Kalender, in: Reallexikon der Assyriologie und Vorderasiatischen Archäologie , fünfter Band, Berlin-NewYork 1976- 1980, S. 298.

يورد هذا المعجم مختصراً على الشكل الآتي RLA.

(٣)- باللغة الأكادية «شَتُّوم (شَنتوم) **šattum، šantum**: سنة، وبالأوجاريتية «شنت»، وبالآرامية «شينا، شَتَّا»، وبالعبرية «شَنَه».

Akkadisches Handwörterbuch (AHw) , 1201 b;The Chicago Assyrian Dictionary (CAD), 17, Š, II, 197; Aistleitner,J. Wörterbuch der ugaritischen Sprache, Berlin 1963, 311.

قسّم البابليون السنة إلى أربعة فصول هي:

١- فصل الربيع: دَشْئو(م)، ديشو(م) **daš'ū (m)، dešû(m)**: ربيع، عشب الربيع

AHw 165 b; CAD 3 D, 163.

١- فصل الصيف: إبورو(م) **ebūru(m)**: صيف، وقت الحصاد، محصول.

AHw 183 b; CAD 4, E, 16.

وهنـاك تسمية ثانية للصيف هي: «أومّو أومّاتو **ummu ummātu**: أيام حارة. كما توجد تسمية ثالثة هي: أومشو(م)، أوشّو، أونشو **umšu، uššu, unšu**: صيف، حرّ.

AHw 1418 b; CAD 20 U and w , 137. Landsberger, S. 248.

٢- فصل الخريف: خَرِّبو(م) harpu (m): خريف، AHw 326 b; CAD 6 H، 106

٣- فصل الشتاء: كوصّو(م) kuşşu(m)، kuşu (m): شتاء، برد، AHw 516 a; CAD 8 K، 594.

Landsberger, B., Jahreszeiten im sumerischen-Akkadischen, in: Journal of Near Eastern Studies (JNES) VIII, 4(1949), S. 288-290.

(4)- Landsberger, B., Op.Cit. S. 253.

(5)- Ibid. S. 249.

(٦)- بالأكادية «أوموم ūmum: يوم»، AHw 1418 b.

(7)- AHw 130 a; CAD 2 B, 208.

(8)- AHw 679 a.

(9)- AHw 106 a.

(10)- AHw 887 a.

(11)- AHw 1433 a.

(١٢)- عرف البابليون الساعة المائية Clepsydra ذات الشكل الأسطواني المصنوعة من الطين منذ العصر البابلي القديم (٢٠٠٠-١٦٠٠ ق.م)، واستخدموها وسيلة مساعدة في الحسابات الفلكية. لكن لاتوجد للأسف نماذج مكتشفة منها في بلاد الرافدين (العراق) حتى الآن لأنها كانت تصنع من الطين. إلا أن الدليل على وجودها يرد في مجموعتين من النصوص المسمارية، إحداها تعود إلى المدّة مابين (١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م) (Enuma-Anu-Enlil)، والثانية إلى القرن السابع قبل الميلاد (MUL.APIN). وتشير نصوص هاتين المجموعتين إلى أن الساعة المائية كانت تستخدم في عمليات دفع الأجور للعمال.

(١٣)- بالأكادية «وارخوم، أورخوم warhum, urhum: قمر، شهر».

بالآرامية «يَرْخا»، وبالأوجاريتية «يرخ»، وبالعبرية «ييروخ».

وبالعربية الجنوبية «ورخ»، AHw 1466 b; CAD 1, A, II, 239.

بيستون، أ.، وآخرون، المعجم السبئي، بيروت: مكتبة لبنان، ص ١٦٢. وبالسومرية «ITI». أما الهلال فيسمى باللغة الأكادية أُوسُك/قاروم a/usk/qaru(m)، AHw 1438 a; CAD 20 , U and W , 278.

أما كلمة «شهر» العربية فأصلها «سَهْرا» و«ساهور» الآرامية - السريانية، التي تعني «القمر والهلال». انظر: أغناطيوس يعقوب الثالث، البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية، دمشق ١٩٦٩، ص ٤٥. ونجد كلمة «سهر» في لغات العرب الجنوبية بمعنى «هلال، مطلع شهر». انظر: بيستون وآخرون، المعجم السبئي (بالإنكليزية والفرنسية والعربية)، دار نشريات بيترز، لوفان الجديدة، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٢، ص ١٣٢.

ونقرأ في لسان العرب، المجلد الثالث، باب السين، ص ٢١٣٣ في مادة «سهر. السَّهَرُ: الأَرَقُ. وقد سَهِرَ، بالكسر، يَسْهَرُ سَهَراً، فهو ساهِرٌ. والسَّاهِرةُ والسَّاهُورُ: كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف، فيما تزعمه

العــرب. وقيل الساهورُ للقمــر كالغلاف للشيء. والسَّاهُورُ والسَّهَرُ: نفس القمــر. والساهور: دارة القمر، كلاهما سرياني».

حتــى في اللغــات الأوروبية نجد كلمة «شهر» مشتقة من اسم القمر. ففي الإنكليزية Month مشتقة من كلمة Moon الدالة على القمر. وفي الفرنسية كلمة Lune تعني «شهر وقمر».

وفــي الألمانية كلمة شهر هي Monat مشتقة من كلمة Mond: قمــر. وحتى في اللغة اللاتينية فالكلمة الدالة على شهر وقمر واحدة هي Mensis.

(14)- AHw 1034 a, CAD 15, S, p. 206..

سيبوتو sebûtu (m): اليوم السابع من الشهر. (CAD 15, S, 206; AHw 1034 a).

يبدو أن هذه الكلمة هي أصل كلمة «سبت» الآرامية والعبرية والعربية. فالسبت هو اليوم السابع في الأسبوع. نقــرأ في لســان العرب: «السَّبْتُ: الراحة. وسَبَتَ يَسْبُتُ سَبْتاً: استراح وسكــن. والسُّبات: نومٌ خفي. والسُّباتُ: النوم وأصله الراحة. والسَّبْتُ من أيام الأسبوع، وإنما سمي السابع من أيام الأسبوع سَبْتاً لأن ابتداء الخلق كان يــوم الأحــد إلى يوم الجمعة، ولم يكن في السبت شيء من الخلق. قالوا فأصبحت يوم السبت مُنْسَبِتَة أي قــد تمت، وانقطــع العمل فيها. وقيل سمي بذلك لأن اليهود كانوا ينقطعون فيه عن العمل والتصرف، والجمع أَسْبُتٌ وسُبُوتٌ». لسان العرب، المجلد الثالث، باب السين، ص ١٩١٢.

(١٥)- bubbulu أو ūm bubbuli: اليوم التاسع والعشرون من الشهر، القمر الجديد، طوفان، AHw 135 a.

(١٦)- انظر: Hunger. H., Op.Cit. S. 299 ff.; Cohen, M.E., Op.Cit., P. 23 ff. ق.م)

(17)- AHw 794 b; CAD 11, N, II, 265..

(18)- Cohen, P. 401, 406.

(19)- AHw 29 a; 1502 b; CAD 1, A, I, 267; 21, Z, 12.

(20)- Cohen, op.cit, p. 305-306.

(٢١)- لسان العرب، المجلد السادس، باب النون، ص ٤٥٧٣.

(22)- AHw 24 b, 25 a; CAD 1, A, I,229- 230.

(23)- AHw 1044 b; CAD 15, S, 271.

(24)- AHw 1044 b; CAD 15, S, 268.

(25)- AHw 179 b.

(26)- CAD 1, A, I, 75; AHw 8 a

(27)- Jahreszeiten im sumerisch-Akkadischen, in: JNES VIII, 4(1949), S.274. Landsberger, B.,

(28)- AHw 197 b , 216 b, 1411 b ; CAD 4, E, 80,136

(29)- AHw 1340 a; CAD 18 T, 297.

(30)- AHw 1285 b.

(31)- Landsberger, Jahres, S. 274.

(32)- Cohen, op.cit. p. 331.

(33)- Landsberger, Op.Cit, S. 274.

(34)- K, 393. AHw 481 b; CAD 8,

(35)- Landsberger, Op.Cit., S. 274.

(36)- CAD 8, K, 159, 171; AHw 438 b.

(٣٧)- لسان العرب، المجلد الخامس، باب الكاف، ص ٣٩٤٢-٣٩٤٣.

(38)- Landsberger , S. 274.

(39)- AHw 1119 a; CAD 17 Š I 81.

(40)- CAD 1, A, I, 110; AHw 12 a.

(41)- AHw 1492 a; CAD 1 A, 501.

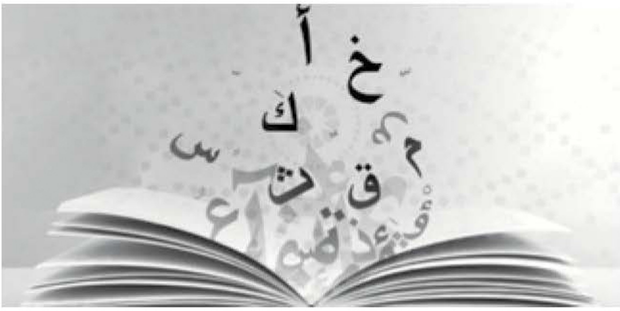
صُورٌ من آثارِ الحَرْبِ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

د. محمّد رضوان الدّاية

مدارُ البحث على الشّائع من المُفردات والعبارات والمُصطلحات. والأساليب المختلفة التي صدرَت ورشحت للتعبير عن سير الأحداث: أحداث الحَرْب على سورية وتداعياتها، إضافة إلى ما تأثرت به اللغة: الشفاهية والمكتوبة من حيث الأسلوبُ والصّياغة، والوقوع في المبالغات، وفي صرف الكلام عن مجراه اللّغوي العربيّ المتماسك، وزحْمِ اللّغة الأدبيّة بالمفردات والعبارات الجديدة.

وكلمة (الحرب) في البحث تشمل ما يجري على أرض سورية، وما يَطالُها من الخارج ممّا يَدْخُل تحت هذه الكلمة، أو المُصطلح: وفي ذلك:

- البيانات الرّسمية عن جهة ما من جهات الدَّولة.



- وما يصدر عن سائر الجهات الإعلامية الداخلية والخارجيّة؛ ومسوّغ ذلك أن الكلمة تقتحم، وتدخل حيث تشاء في زمن الإعلام السّريع المفتوح. الذي لا يحجزه حاجز.

- **ويدخل فيما نعتني به**، مما يخصُّ اللغة العربية، ما يخصّ الحَرْبَ بمعناها العسكري المَيْداني، والحربَ الإعلاميّة إذ يتسابق الفُرَقاء على التقاط المُفردات والعبارات والمصطلحات، وتوظيفها، والحرب النَّفسية، وهي موصولة بالحرب التقليدية والحرب الإعلامية.

ويهَدف البحث إلى رصد ما تأثّرتْ به اللّغة العربيّةُ في هذه المدّة (وهي طويلة جدّاً بالقياس إلى مجرياتٍ مماثلةٍ عند بعض الأُمم)، وتوضيحُ تلك الآثار وتبيينها، ووضع الاقتراحات المناسبة بحسب رؤيتي ومتابعتي.

والقياسُ الذي نقيسُ به، والأصْل الذي نرجعُ إليه في ذلك هو: مكانَةُ اللّغة العربية، وسلامَتُها: كما نصّ على ذلك دستور سورية، وما تقرّر في القوانين والأنظمة النافذة، وما تأخذُ به جهاتُ صيانة اللّغة ورعايتها وتطويرها: مجمع اللغة العربية، والجهات الأخرى مثل أقسام اللغة العربية في الجاهات السورية، وبعض الشخصيات ذوات العناية، وقواعدُ اللّغة العربية وأصولُها المقرّرة، وتنقيةُ اللّغة من الشوائب (العامية) وشوائب الأخطاء، ورطانة الأجنبية إذا لم يكن من ضرورة لاستعمالها (وإيرادها) على حالها.

والتّوصيات: نابعةٌ من مَجريات البحث، ومن إمكانيّة حماية اللّغة العربية من الأخطاء، والأخطار. ولكيلا يغلبُ الواقِعُ المفروضُ (كالعادة) الصِّحَّة والسَّلامة. ومعالجة الأمر في أوله أسهل، وأنجَعُ، وأقل كلفة من الانتظار إلى وقت استشرائه وتمكّنه.

بَسْطُ الكلام

١ - في هذه السّنوات الصّعبة دخلت اللّغَةَ العربيَّة مفرداتٌ ومصطلحاتٌ وعباراتٌ لم تكن ثابتةً فيها، وشاعت مُصطلحات أُخرى كانت نائمةً عن الاستعمال لعدمِ وجود دَواعي استعمالها، وصارت من العبارات اليوميّة، أو الدائمة.

وهذا الجديد، أو الداخل بقوّة في الاستعمال على أقسام:

- **منه ما جاءَ موافقاً للعربية**، واضحَ المعالم، لا مشكلةَ في استعمالِه من الغموض أو الإبهام أو عدم الدقة.

- **ومنهُ مصطلحات تحتاج إلى**:

- تأصيلٍ لغويٍّ، وتوضيحٍ وإبانة، ليكونَ المُصطلح مُستعملاً لمقاصد معلومة لكلّ سامع، وقارئ، ومتابع.

- ومنه مفردات دخلت الاستعمال من مفردات غير عربية: على سبيل النّقل المباشر، أو على التّعريب أو الترجمة، أو الاشتقاق من غير العربيّة.

٢ - المستوى اللغوي أو تداخل العامي بالفصيح:

في نقل الأخبار، ونخصّ هنا، النقل المباشر عن طريق الهاتف وغيره من وسائل النّقل الإعلامي قد يكون المتكلمُ من موقع الحَدث، أو المُخْبِرُ بخبرٍ بصفة عامة: مراسلاً أو مشاهداً، ومن هنا يكون:

- اختلالُ المستوى اللّغوي عن حدّ التعبيرِ الصحيح لغةً.

- واختلَاط العامّي بالفصيح. وإذا اختلط العامي بالفصيح كانت الغلبة للعامّي، قلَّ أو كثر إلا أن يكون المستعمَل كلمة أو عبارةً أو مصطلحاً لغرض ضروريّ.

ومعلوم أن أكثر هؤلاء المراسلين، والمشاهدين المتبرّعين بالكلام على مستويات مختلفة من إتقان اللغة. وقد يكون المتحدّث بعيداً عن التعبير الصّحيح السَّليم لعدم خبرته، وغلبة العبارات الدّارجة في كلامه.

٣ - قضيّة الإبانة، وحُسْن الأداء اللغوي:

أشير هنا إلى كثرة استقبال المحطات الفضائية لشخصيات أجنبيّة. في هذه الحال يكون الوسيط - بين الأجنبي الذي لا يعرفُ العربية، والمشاهد والسامع - ترجماناً.

والمتحدّث الأجنبيُّ عادةً لا يتريّثُ في كلامه انتظاراً للمُترجم لأَداء ترجمتهِ الفورية بأناةٍ وإتقان، وإن كان المترجم بارعاً.

وتكونُ النتيجةُ ضَعْفَ إبانةِ المُترجم عَمّا يقول المتكلّم، وعدم متابعة المُتَرجم فيما ينقلُه بتمكّن واستيعاب.

وينتج عن هذا شعورُ السّامع، المتابع، بعدم وُضوح الكلام، أو ((بغموض اللّغة))، والسّبب أو المشكل ليس في اللغة، ولكنّ في الوَصْف الذي قدّمتُه.

٤ - مصطلحات في موضوعات شتى:

وشاعت مصطلحات موصولة بين المصطلح الدبلوماسي (أو السياسي) والمصطلح العسكري، مثل:

- وقفُ إطلاق النّار.
- مناطق تخفيف التوتّر.
- هدنة مدّة كَذا يوماً.
- تثبيت الهدنة.
- خَرْق الهُدنة.
- إدارة أزمة.
- رسم حُدود النّفوذ.
- التّهدئة.
- الطريق الضامن/ الجهة الضامنة لوقف إطلاق النار.
- هدنة مؤقّتة.
- خَرْق وقف إطلاق النار.
- انهيار الهدنة.
- مناطق آمنة.
- التّصعيد (لاحظ: التهدئة أيضاً).

ب - شيوع مصطلحات سياسيّة:

- أزمة ثقة (ظهرت بين الفريقين أزمة ثقة...).
- معاهدة صداقة.
- مذكّرة تفاهم.
- وفد رسمي.
- المُعارضة هي: «معارضات»!..
- مؤتمر جنيف (١) أساساً.
- الهوّة واسعة بين الطرفين المتفاوضين.
- وجود (أو عدم وجود) أرضيّة مشتركة بين الطّرفين.
- تحالفات جديدة.
- معاهدة دفاع مشترك.
- رفع الغِطاء عن...
- وفد معارِض.
- المحادثات في طريق مسدود.
- تقريب وجهات النّظر.
- ردم الهُوَّة.
- اجتماعات مُجْدِبة: حصل معها تقدم (قدره... إلخ)/ أو:

ج - مصطلحات عسكرية:

- غطاء جوّي.
- مناطق محاصرة.
- محور المقاومة.
- حرب استباقية (هجمة استباقيّة).
- قوّة رَدْع.
- الغازات السّامة.
- (الموقف): أقلّ من حرب وأكثر من مواجهة.
- حماية الحُدود.
- منظومة رادارات.
- أسلحة متطوّرة.
- طيارات مُسَيّرة.
- منطقة ساقطة عسكريّاً.
- هجمة مضادة.
- القبة الحديديّة.
- الأسلحة الكيماوية.
- أسلحة محرَّمة دوليّاً.
- العدوان على الأرض الوطنيّة.
- إدارة أَزَمة.
- شريط أمني.

د - الخَبر (شيوعه وتكراره واختلاط العبارات فيه...):

- أُخبار رسميّة (عن جهة من جهات الدولة المأذونة).
- أخبار مؤكدة.
- أخبار غير مؤكدة.
- أخبار أوّلية.
- تسريب خبر.
- عن ناطق رسمي.
- رشَحَ من الأخبار.
- أخبار مَدْسُوسة (من الصحافة، من الشبكة...).
- اختراق الأسرار.
- حلّ «الشّفرة».
- فَبركة الخَبر (اختلاق الأخبار).
- قطع الخبر عن سياقه (قصد التّشويه والتشويش).
- خبر عاجل.

هـ- في مجال الإعلام:

- الإعلام الوطني.
- الإعلام الحيادي /حيادية الخبر/ حيادية الإعلام/.
- الإعلام المعادي.
- تضليل إعلامي.
- إعلام مُوَجّه.
- إعلاميون متخصّصون.
- إعلاميّون هُوَاة (مراسلون).
- «ثورة إعلاميّة».
- تقرير مُفَبرك.
- إعلام مضلل/ تضليلي.
- إعلام مُغرض.
- صرف الخبر عن سياقه الصحيح.
- تحليل الأخبار.

و- في مجال الوسطيّة والتطرف:

- الوسطية.
- الاعتدال.
- التطرّف/ الجماعات المتطرفة.
- التّكفيريون/ الجماعات التكفيرية.
- التعايش بين مكوّنات المجتمع. (تجاوز: العرقية والإثنية، والطائفية...).
- الدّاعشيّة.
- الجماعات السّلفية.
- النّزعات الطّائفيّة.
- النّزعات الانفصاليّة.
- بثّ روح المواطنة.
- الوهَابية.
- صوت العقل.

ز - من وسائل النقل:

- مُرَاسل.
- مندوب.
- مدير مكتب المحطة.
- موفد.
- شاهد عيان.

على الهاتف: سكايب.

ح - في مفردات الحصار الشّائعة /كثيرة التردّد/:

- معاناة النّاس المحاصرين.
- نفاد الأغذية، نفاد الأدوية /نقص الأدوية/.
- المَشْفَى المَيْداني.
- تعطّل الأجهزة الطبية.
- «حالات» كارثية.
- «نداءات» إنسانية.
- شح المواد الغذائية يتبعه: ارتفاع أسعار الموادّ/ غلاء أسعار جنونية.
- نفاد موادّ الطّاقة.
- الحالات الحَرِجَة (للمرضى).
- أدوية الأمراض المزمنة (ضرورتها ونفادُها).
- ظروف لا تُحتمل.

ط - مصطلحات إخبارية عامّة:

- في قلب الحدث.
- مناطق ملتهبة.
- التقاطع بين المحلّي والإقليمي والعالمي.
- تغطية جويّة.
- جس النّبض (كناية عن الاختبار، والاستطلاع).
- الاستقواء بالغريب.
- الحس الوطني.
- نيران صديقة (ونيران معادية).
- القصف العشوائي.
- سياسة الأمر الواقع.
- توفير غطاء دبلوماسي.
- بالونات اختبار.
- الاستقواء بالأجنبي.
- الشعور بالانتماء.

٥ - بين العربي والأعجمي:

أ - شيوع المختصرات بالعربية والأجنبية مثل:

- P.K.K
- U.N
- UNERWA
- UNICEF
- داعش: الدولة الإسلامية في العراق والشام.
- قسد: قوات سورية الديمقراطية.
- سانا SANA.

ب - دارت كلمات أجنبية دوراناً كبيراً، كما هي، بلا ترجمة ولا تعريب، مثل (هليوكوبتر، وميليشيا، وبروباغاندا).

- وكلمة هليوكوبتر شائعة لكن لها مفردات عربية كثيرة جاء في المورد (الإنكليزي - العربي) بأربع كلمات عربية للدلالة عليها وهي: طائرة عموديّة، أو مروحية، أو حوّامة، أو طوافة. Heliocopter على أنّني قرأتُ قديماً وسمعت تسميتها بالطائرة «السّمتِيّة».

- وميليشيا: militia في معجم المورد (عربي - إنكليزي): قوات مُسَلّحة شبه نظامية و militiamen: رجال الميليشيا.

- وبروباغاندا في معجم المورد (إنكليزي - عربي) propaganda الدعاية، الدعاوة، نشر الفكرات أو المعلومات أو الإشاعات خدمةً أو إيذاءً لمؤسسة أو قضية أو شخص.

ج - وسموا نوعاً من الطّيارات الصغيرة، لا طيّار معها بأكثر من اسم، فقالوا:

- طيارة مُسَيّرة، وطيارة من دون طَيّار، وطيارة تجسّس.

٦ - تطوُّر دَلالي:

استعملت كلمة المنصّة، في غمرة هذه الأحداث استعمالاً جديداً فقيلت لمعنى الفئة أو الجماعة أو الكتلة، توازيها كتلة أخرى. ومن هنا ورد ذكر ثلاث منصات في القاهرة والرياض وموسكو.

وكانت كلمة المنصّة تُستعمل لمقاصدها اللغوية، وفي المعجم المدرسي-مثلاً-: المنصّة: المكانُ المرتفع يُعَدّ للخطيب أو المدرّس، أو العروس. والجمع: مَناصّ، ثم استعملت الكلمة في المعجم العسكري: منصّة إطلاق الصّواريخ، ثم قالوا على التوسّع: منصّة القاهرة ومنصّة موسكو... إلخ، فهذا من توسّع دلالة الكلمة، واللغة تسمح بذلك.

٧ - وظهرت مفردات مشتقة من كلمات أجنبية، اشتقت على منهج العربية في الاشتقاق، وعلى أوزان شائعة. وهذه المفردات المشتقة من الأجنبية وردت في عدد من الأقطار العربية، ولم تكن مخصوصة بقطر واحد.

- قالوا: ناوَرَ:

وهي مشتقة من الأجنبية manoeuvre، واستعملوا ناور لمعنى حقيقي كناور السائق بالسيارة للاستدارة أو غير ذلك، ولمعنى آخر معنوي مجازي (مناورات سياسية مثلاً) ووضع المجمع العلمي كلمة (التدريب) بدلاً منها. واستعملت للتدريبات العسكرية وقالوا في نوعٍ من السياستين: مُناوِر.

- وقالوا: عَفشَ:

أورد مجمــع القاهــرة كلمة (العَفْش) فــي المعجم الوسيط نقلاً عن الشائــع من الكلام، قال: العَفْشُ: الأثاث أو متاع البيت (مج)، وأورد فعل عَفش (الثلاثي) قال: عَفَشَ الشيء عفشاً: جَمَعه.

واستُعمِــلَ فعل (عَفّشَ) في هذه المدة مضعّفاً (بتشديــد العين) لمعنى: دخل على الدُّور الخاليــة مــن أهلها وسائر المحال، وحمل منها ما استطاع حملــه. نوعٌ من السَّرقة في وضح النهار. ولم ترد في المعجم.

- وقَرْصَنَ:

القرصـــان من الإيطالية corsari معنـــاه: غازون، والمراد: لصوص البحر. وقد دخلت المعجم، قال في الوسيط القرصان: لص البحر، والجمع: القراصنة. والقرصنة: السطو على سُفن البحار.

وتوسّعت دلالة (قَرْصَنَ) لكل ما يُسْطى عليه، كالكتب والأشرطة وما شابه ذلك. واستعملوا القرصنة لعمليات خطف السفن والطائرات وغيرها.

- وفَبْرَكَ:

كلمــة fabrication تعني الادعاء والاختلاق والتلفيق والتزوير وما شابه ذلك. ولهذا قالوا فــي العربية تركاً للبدائل الفصيحــة: فَبْرَك فبركةً. تقال في المــادّي، والمعنوي، ومن ذلك فبركة الأخبار، وفبركة النتائج (كنتائج الانتخابات) إلى غير ذلك.

- ومَنْتَج:

اشتقــوا فعل منتج من كلمة montage. ومعناها الشائع اختيار وترتيب المسامع الصوتية والمشاهد المصوّرة لتخرج المادة المسجّلة متناسقة خالية من الشوائب.

واستعملوا مَنْتج لمعنــى التزوير والتحوير والتلاعب بالمادة المسجلة بحيث تؤدّي إلى ما يريد (الذي يفعل ذلك).

- قولهــم: بَلْطَــج، والمصـــدر بلطجة والاشتقـــاق هو من كلمة (بلطجـــي) وهي«لفظ من العصر العثماني معناه: حامل البَلْطَة، جمعه: بلطجية، وهم فرقة من حَرس القصور مهمتهم فــي الأصل مرافقــة مواكب نساء القصر وحمايتهــنّ، كانوا يُمسكون بأزِمّــة دواب العربات، ويصحبونهــا في الطرقات. وفي آخر العصر العثماني انصرف هذا اللقب إلى الرجال الذين لا عمل لهم، ويعيشون عالةً على حساب النساء».

وهذا نوع من الاشتقاق من الكلمات الأجنبية، ولم ترد في المعاجم.

- **فَيّشَ**

يقال اليوم: ذهب الموظف المسؤول بالاسم و«فيّشه» أو «ضرَبَ فيشه»: لمعنى بَحَث في صحيفته الأمنية، ونظر في سلامته.

وفعل فيّش مشتق من fiche الأجنبية، يقال فيّش المعلومات أي استخرجها من مكانها ووضعها على بطاقات. والفيش هو الجُذاذة أو البطاقة. وقال في معجم المنهل: «بطّق ومُبَطّق أي فيش ومفيّش». وفي الاستعمال أيضاً: «فيش المتهم عمل له بطاقة تعريف وتشبيه».

والخلاصة أن الاستعمال الذي شاع في هذه الأحداث (٢٠١١ - ٢٠١٨) لـ«فَيّش» هو نظر في الفيش (البطاقة) (ورقة المعلومات عن الشخص)، هو استعمال جديد يضاف إلى المادة.

- **فَدْرَل**

شاعت مادة فَدْرَل - والفيدرائية في الأعوام القليلة الماضية وفعل (فَدّرَل) مشتق من الأجنبية federal ومعناها اتّحادي.

وفي معجم المورد الوسيط: federal: فدرالي اتّحادي، ولم ترد في المعاجم العربية.

ملاحظة: استخدام بعض الجهات الداخليّة (الناشزة) والخارجية مادة الفَدْرلة والترويج لها لإخفاء خفيَّة نيّاتها بالتجزئة وقضم قطع من البلاد.

٨ - مفردات وعبارات تحتاج إلى تعريف جامع مانع:

أ- الإرهاب: من المفردات ذات الأهمية التي زادت غموضاً مع أحداث الحرب (في سورية وفي غيرها)، ولم يُوضع تعريف جامع مانع لكلمة الإرهاب معترف عليه.

وشاعت عبارات مثل: مجموعة إرهابية، وأعمال إرهابية، وإرهاب دُوَل، وإرهاب عصابات.

ب- وفي المفردات التي تحتاج إلى تدقيق في استعمالها، وتخليص خيوطها اللغوية المحض من دلالات استعمالها بما وراء الكلمات:

١ - الهجرة؛ الواحد مُهَاجِر.

- والتهجير، الواحد: مُهَجَّر.

- ويتبع ذلك عمليّاً ما يُطلق عليه: التطهير العرقي وذلك حين يكون التهجير قسريّاً، يُرغم الأفراد والأسر والجماعات على الهجرة، والانتقال، ولو كان الانتقال إلى «المجهول».

وقد عانى جزء من القطر العربي السُّوري من التطهير العرقي -كما نقلت الأخبار- ومثال ذلك ما حدث في القسم الشمالي الغربي من سورية.

ج- **ويلحق كلمة الهجرة**: مصطلحات أُخرى، لمناسبة تالية.

فقد توصف هجرة فرد أو أسرة أو مجموعة بصفة «الهجرة غير الشرعية». ويغلب أن تقال العبارة في المهاجرين الذين ينتقلون من بلد إلى بلد إلى أن يتسنّى لهم ركوب «زوارق» يمتهن أصحابها نقل الركّاب من دون علم السلطات، وما يسمى (تهريباً). فالواحد فيهم مهاجر غير شرعي، والعملية: هجرة غير شرعية.

ويكون هؤلاء الذين خاضوا هذه المغامرة الاضطرارية مخالفين للقوانين الناظمة في البلد الذي ينطلقون منه. ولنضرب مثلاً من ليبيا، ويكون هؤلاء مخالفين في قوانين الدولة التي تحطّ الزوارق المخالفة فيها. فهم بين طرفي كمّاشة.

د- وظهر مصطلح في هذه المدّة، ومن وراء هذا النشاط البحري (المخالف) هو **(زوارق الموت)**، فإن كثيراً من هذه الزوارق لا يكون ملائماً للرحلة المتوسطية بين بلدين، ويزيد أصحاب المراكب عدد الركاب المسافرين طمعاً في الربح السريع، ولو على حساب أعمار هؤلاء المُعَثّرين. ولتكرار غرق المسافرين على هذه الزوارق ظهر مصطلح (زوارق الموت).

وهو على رُعبه، هان عند المسافرين على مذهب من قال: «ما الذي رماك على المُرّ؟».

هـ- وظهرت وراء ذلك مصطلحات أُخرى، أو برزت مصطلحات كانت نائمة لقلّة الحاجة إليها أو استعمالها، فمن ذلك أسماء المراكب: الزوارق، المراكب، العبّارات.

ومن ذلك عبارة: المتاجرة بالبَشر (استغلالاً لتلك الظروف الصعبة).

والقَرْصَنة:

القرصنة من مصطلحات القرون الوسطى، لكنها عادت من جديد لهذه الظروف!

ز- تبع موضوع الهجرة مفردات أُخرى اصطلاحية مثل: معسكرات الإيواء، وفيها: **معسكرات إيواء** مؤقتة، أو معسكرات تجمّع أو تجميع، ثم معسكرات إقامة...

ومصطلح **لمّ الشمل** الذي يسعى إليه المهاجر الذي دخل بلداً أجنبيّاً وحده وأراد استقدام أسرته أو مَنْ يلوذُ به من الناس.

ح - وأفرزت أحداث الحرب استعمال عبارات لها ظروفها ومناسباتُها فمن ذلك:

- **الدُّروع البَشريّة**: اتخاذ البشر دروعاً يضعها المقاتل أمامه لكي تكون حمايةً له.

ومصطلح: «**تجنيد الأطفال**»، وتختلف السنوات التي تُعتمد عند الجهات التي تجنّدهم، ولكنهم جميعاً دون السنّ التي يرشّح فيها الفتى عادةً لدخول الجيش أو أداء الخدمة، و(تجنيد الأطفال) مادة إعلامية يتراشق بها فئاتٌ مختلفة من جهات المُوَاجَهة في أحداث الحروب في عدد من البلاد العربيّة.

ويرد في تعليقات المعلقين في المحطات الفضائية كلام على مخالفة: الدروع البشرية، وتجنيد الأطفال لحقوق الإنسان.

ح- الفلول في اللغة جمع فل:

واستعملت في بعض الأقطار المغربية (مثل تونس ومصر) للذين ظلوا على الولاء لعهد سياسيّ انقضى (حكم ابن علي، وحكم مبارك في مصر).

استعلمت في الحرب لبقايا مجموعة، أو جماعة بقيت على أحوالها، بعد الهزيمة العسكرية.

وقالوا في الاستعمال الدارج عن الواحد (فلول) بصيغة الجمع، وهم يريدون المفرد.

٩- تبديل جغرافي سكّاني:

من التشويه الذي يمس السيادة الوطنية السّورية استعمال بعض وسائل الإعلام العربية والأجنبية أسماءً أخرى غير الأسماء المدونة في الجغرافية السُّورية مثل: «القامشلي - قامشلو» و«عين العرب - كوباني».

تتجاوز الآثار السَّلبية للحرب المفردات، والعبارات والمصطلحات إلى الأسلوب والصّياغة؛ ومن ذلك ظاهرة المبالغة التي تصاغ على أساسها التقارير، وتؤسس التحليلات، وهي مبالغات تتجاوز ما يَسُوغ في الفنون البلاغية إلى تثبيت المبالغات القائمة على التهويل، وتمرير الدعايات المعارضة...

إنّ التأثّر بهذه المبالغات القائمة على التهويل والمبالغة المفرطة يؤذي الأسلوب أذىً مباشراً، ويؤثر في ثبات معاني المُفردات المعروفة، الموصولة باللغة السّليمة، وفي تشويه مقاصد الكلام، ويُحَرّفُ النصَّ (خبراً أو تعليقاً أو تحليلاً) عن سلامة مقاصده.

وفي هذا أذى بالغ للغة العربيّة، وتشويه للأساليب الصّحيحة السليمة.

كان «الإعلام بوسائله المختلفة» جزءاً أساسيّاً من الحال التي آل إليها القطر السوري، وأقطار أُخرى كثيرة في شرق بلاد العرب ومغربها. لقد ازدحمت المفردات والعبارات والمصطلحات في وسائل الإعلام، وجاءت رشقاً متواتراً على أذن السامع والمشاهد، وعلى

ضميره ووجدانه. ومعلوم أثر الإعلام في القبول والرفض وفي تكوين صورة عن الحال التي لا يراها مباشرة، ويسمع عنها ويرى، على الوجه الذي يصل إلى الشاشة الصغيرة وسمّاعة الهاتف المحوّلة إلى إذاعة من الإذاعات.

هذه المفردات والعبارات والمصطلحات التي عصفت بالقارئ والسامع والرائي كانت كثيرةً، متواترة كل يوم، وصادرة عن إعلاميين متخصصين، وإعلاميين أفرزتهم الأحداث فهم أقل خبرة وقدرةً، وهواة أو من يشبههم: لا خبرة لهم، ولا معرفة كافية باللغة من جهة وبأساسيات الإعلام من جهة.

وهي موصولة باللّغة العربية حيناً، بعيدة عن سلامة اللغة أحياناً. فالمعاناة من ضعف لغة المتحدّث (المراسل ومن هو في منزلته) ومن صنف قدراته.

- وضَعْفُ لغة هؤلاء أسهمت في شيوع المخالفات اللغوية والأسلوبية...

وإذا كان الإعلاميون المتخصّصون قادرين في الظروف الاعتيادية على ضبط لغة الكلام، وضبط ما يحرّره القلم، وعدم الخروج على أساسيات اللغة والأسلوب والتّعبير، فإن هذه القاعدة -ولنفرض أنها كافية من قبل- لم تكن كذلك في هذه السّنوات الطويلة.

ويمكن أن نلاحظ - ملاحظة عامة -:

١- نزول مستوى اللغة عند تغطية الأحداث السياسيّة والدبلوماسية والعسكرية، والاجتماعية والاقتصادية، وقد يصل بعض ما يقال أو يكتب إلى شيء من الغموض.

٢- اشتراك العامية الدّارجة مع اللغة الفصيحة، وذلك لضعف نفر غير قليل من الداخلين على العمل الإعلامي في اللغة، أو لإهمال عامل الضبط أو ضعفه في المحطات التي كانت تُعنى بالخبر نفسه على أيّ وجهٍ جاء، أو لاستسهال المتحدّث، وضعف الوازع اللغوي، وإن كان متمكّناً.

٣- فوضى المصطلح. وهذا يحتاج إلى وضع تعريفات محدّدة.

- تنخيل الشائع من المصطلحات.

- توحيد المصطلحات، فقد يشيع أكثر من عبارة أو مصطلح للموضوع نفسه.

٤- هبوط مستوى التّعبير بصفة عامّة، وهو هبوط نخشى أن يتمكّن من قلم الكاتب ولسان المتحدّث ويبقى شائعاً، فإذا بنا ندخل تحت خيمة: الخطأ الشائع، أو السَّهو الدّارج.

٥- تمكن اللفظ - والمصطلح الأجنبي، وتَواري البَديل العربيّ، الموجود أصلاً. وذهاب الحماسة الأصيلة التي تؤدّي إلى تمكين العربيّة الفُصحى.

هـذه المفردات والعبـارات والمصطلحات والأساليب ليست وقفـاً على جوانب الإعلام المختلفة، وإن كانت هي العنوان البارز. إنّ هذا الذي يجري على حقيقة اللغة شكلاً ومضموناً صـار تحت جهات كثيرة، ودخل الكلام الشفوي في اللقاءات والندوات والمحاضرات، ووصل إلى الكلام المكتوب في الصّحافة: الأخبار والمقالات، وأنواع التحليل.

وفـي عدد من الأنواع الأدبية: المقالة والخاطرة والقصـة والرواية والشعر، وسائر أنواع الإبداع، وفي محاضرات الأساتذة الجامعيين في أقسام الإعلام وغيرها.

ولا شكّ في أنّ هذا الطارئ الجديد كثير، ومتنوّع، وبعضه يجيء عشوائياً.

- نافذ في وسائل الإعلام وسائر ما يكتب ويقال.
- مختلط، ومشوش أحياناً.
- قادر على اللّصق، والالتحاق بالعربية.

اتضح إذن أن اللغة العربية بعد هذه السّنوات عانت من أمور مختلفة تؤثر تأثيراً سلبياً في سلامتها عامة، وهجمة الدارجة عليها، وهجمة الأجنبية واحتلال قطاع فيها، ومعاناة الضعف العام لضعف معالجي الإعلام ومشاركـي السّياسة والاقتصاد، وثبوتٍ مفردات ومصطلحات بقـوة الاستعمال والتدوين: ليسـت موافقة لأصول اللغة وقواعدهـا العامة، وظهور مفردات ومصطلحات بالقياس الفاسد أو الارتجال السّريع العارض..

وهذا يقتضي معالجة الأمور عامة.

- ولمّـا كانت موارد هذه الفوضى والخطأ والتشويه وما شابه ذلك متعددة الجوانب، لزم أن تكـون المعالجة قادرة على الإحاطة وتوفير النجاح والسَّلامة للقضية اللغوية في ظل هذه الأحداث، ولكن كيف؟

الاقتراح الذي أظنه مناسباً، فعّـالاً هو: تشكيل لجنة وطنية تخصّصية لدراسة الظاهرة: تفصيلاً بالاستعانة بكل ما يمكن جمعه ورصده ومتابعته.

والاقتراح يفترض تشكيل اللجنة من مهتمّين (مؤهلين) من:

- مختص باللغة العربية (أو أكثر من واحد).
- إعلامي متقن للعربية.
- حقوقي من تخصّص القانون الدولي مثلاً أو الاقتصاد (السياسي).
- عسكري متقن للعربيّة (ضابط متخصّص).

ونفترض أن تعالج هذه القضايا الطارئة معالجة صحيحة سليمة، وأن تجيء موافقة لقواعد اللغة تطوراً يحافظ على أسس اللغة المعروفة. وأن يقدّم بديل حسن لكل ما يقع الاعتراض عليه، وتوضع تعريفات علميّة للمصطلحات الشائعة...

فإذا أتمّت اللجنة المذكورة مهمتها يتخذ ما يصدر عنها أساساً يوزع على أجهزة الإعلام الرسمية، وسائر وسائل الإعلام داخل الدّولة، ويمكن أن تزوّد بعض جهات الإعلام المتعاونة مع الإعلام السّوري بنسخة منه.

وتبقى اللجنة قائمة في اجتماعات متباعدة؛ للمتابعة المستمرّة.

❁❁❁

إنّ إهمال ما يجري على اللّغة، يؤدي إلى التّثبت، ومع دوران ذلك الخطأ والسّهو والاضطراب تتراجع القدرة على الحفاظ على سلامة اللغة... وتضاف نتائج هذه السّنوات على اللغة إلى أمور كثيرة تصاب فيها اللغة مثل الذي تحدّثنا عنه... ودرْهم وقايةٍ خيرٌ من قنطار علاج.

المراجع

(١)- المورد - إنكليزي = عربي دار العلم للملايين.

(٢)- المورد: قاموس عربي - إنكليزي: روحي بعلبكي، دار العلم للملايين.

(٣)- المورد الحديث: إنكليزي - عربي، دار العلم للملايين.

(٤)- المعجم المدرسي.

(٥)- معجم الجديد، محمد رضوان الداية.

(٧)- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، د. مصطفى الخطيب، مؤسسة الرسالة.

(٨)- معجم أسلوبي حضاري، د. محمد رضوان الداية.

(٩)- المورد الوسيط، دار العلم للملايين، بيروت.

المرحلة الإسبانية في حياة نزار قباني وشعره

محمد طربيه

كلما قرأت سيرة حياة كاتب أو شاعر وعرفت من خلالها أنه يجمع إلى إبداعه الأدبي شعراً كان أم قصة أم رواية أو إلى تخصصه في الأدب تخصصاً آخر في الحقوق أو أنه يمارس مهنة القضاء أو المحاماة أو الدبلوماسية، اعتراني شيء من العجب والذهول والحيرة والاستغراب ذلك أن الجمع بين هذين الاختصاصين أو الاهتمامين «الأدب والحقوق» فيه قدر غير يسير من العنت والصعوبة والازدواجية. ففي حين أن المرء يجد في الأدب آفاقاً مفتوحة وعالماً من الرحابة والاتساع لا يعرف الحدود وفضاءات من حرية الخلق والتخييل والجمال واستعمالاً خاصاً للغة بكل ما تكتنزه من مجازات تشبيهاً واستعارات وكنايات وبديعاً... فإنه في مجال الحقوق أو الدبلوماسية يجد نفسه في عالم محدد محصور في إطار من الضبط والتقعيد والتقنين والدلالات المباشرة والحقيقية لألفاظ اللغة مع ما يستتبعه ذلك من إلغاء للخيال ولمتعة الخلق الفني وتفجير اللغة، إذ ينقلب المرء إلى مجرد منفّذ للنصوص الجامدة والقوالب المحددة والمواد القانونية الباردة أو يجد نفسه مضطراً لتصنّع لغة دبلوماسية مكررة خالية من الروح وفاقدة للخصوصية.

ومهما حاول المرء أن يُوفّق بين هذين الاهتمامين فغالباً ما تكون محاولته محكومةً بالإخفاق، لأنه يوفق بين أمرين يبدو لي أنهما متناقضان في طبيعتيهما إلى حد بعيد، إذ يمكن القول إنَّ التقيد الحرفي بالنصوص وتطبيق مواد القانون واصطناع اللغة الدبلوماسية



لا يترك مجالاً للاجتهاد أو الابتكار، ومن ثمَّ فإنه يقيد الإبداع ويحد من الخيال ويلغي مقومات الخلق الفني وإمكانات استعمال اللغة استعمالاً نوعياً مجازياً، ولابد والحالة هذه أن يطغى أحد الاهتمامين أو الجانبين على الآخر بحيث يعرف به المرء أكثر من غيره، فـ«**نجاة قصاب حسن**» على سبيل المثال معروف بوصفه حقوقيّاً كبيراً ومحامياً ناجحاً، ولا يصنف عادة مع الأدباء والشعراء على الرغم من أن له آثاراً أدبية في الشعر والمقالة والقصة وسوى ذلك من الفنون الأدبية، في حين أن **نزار قباني** عُرِفَ شاعراً وأديباً مبدعاً أكثر مما عرف حقوقياً أو دبلوماسياً على الرغم من عمله في السلك الدبلوماسي أكثر من عشرين عاماً بدءاً من صيف عام (١٩٤٥م) حتى ربيع عام (١٩٦٦م)، تنقَّل خلالها بين عواصم العالم في جهاته الأربع وتناثر غباره على معظم قاراته، إذ يقول في كتابه النثري قصتي مع الشعر واصفاً تنقلاته «من شمس القاهرة إلى مآذن إسطنبول إلى أمطار هونغ كونغ ونافورات روما وشحوب لندن إلى ثلوج موسكو إلى معابد تايلاند إلى حائط الصين الكبير إلى نبيذ الراين ومقاهي الرصيف في سان جرمان إلى ملاعب الثيران في إسبانيا وكهوف الغجريات في غرناطة إلى حقول التوليب في هولاندا وكريستال البحيرات السويسرية إلى المظلات الملونة على رمال نيس ومونتكارلو إلى قراميد البيوت اللبنانية».

ولكنه حسم أمره أخيراً بعد صراع طويل مع الازدواجية ومعاناة مريرة مع التصنع، واختار الخيار الذي يجد نفسه فيه، إذ يقول في كتابه آنف الذكر «أدخلني عملي الدبلوماسي إلى أعظم القصور فعرفت الملوك والملكات والأمراء ورؤساء الجمهوريات، وبعد أن قابلتهم جميعاً اكتشفت أن الشعر وحده ملك الملوك، كنت أشعر وأنا في حضرتهم أنهم في حضرتي وكنت أحس في كل قاعة عرش أدخلها أن كل ثريات الكريستال وسجاد الغوبلان ومقاعد لويس

السادس عشر وملاعق الذهب وشمعدانات الفضة ترحب بي شاعراً لا دبلوماسياً، ومن هنا نشأ هــذا الصدام الذي استمر عشرين عاماً بين حقيقتي ومهنتي، بين الوجه والقناع، لكم فكرت في لحظة من لحظات البراءة أن أحرقَ كل الملابس التنكرية وربطات العنق البيضاء والسوداء والأحذية اللماعة التي تعارف الدبلوماسيون على ارتدائها، وأركض تحت المطر كطفل عاري القدميــن أو كحصــان لا صاحب له». ويمضي أكثر تحديداً فــي وصف معاناته فيتحدث عن اللغة بقوله: «اللغة الدبلوماسية لغة عائمة منفلشة تنمو كالفطر على أطراف الفم وتموت في مكانها. إنها لا تضيء شيئاً، ولا تأخذ شيئاً، ولا تعطي شيئاً إنها كالزهور الاصطناعية، ألوانها فاقعــة ولكن لا رائحة لها، وقــد استمر هذا الخصام الحاد بين لغة أحبُّ أن أقولها ولغة أكره أن أقولهــا وتدفعني حرفتي إلى قولها إحــدى وعشرين سنةً إلى أن استطاعت لغة الشعر في ربيع عام (١٩٦٦م) أن تقتل اللغة الدبلوماسية، وتعيد نفسي المشطورة نصفين إلى التصاقها وتوحدهــا «ويضيف» إن استقالتي مــن عملي الدبلوماسي كانت إنقــاذاً للرجل الثاني الذي كادت تطحنه عجلات السيارات الطائشــة والخارجة دائماً على القانون، التي تحتمي بلوحة كتــب عليها «هيئــة سياسية»، وحين جلست على طاولة مكتبي في بيــروت بعد انتهاء حياتي الدبلوماسية وأشعلت أوَّل لفافة شعرت بكبرياءِ مَلِك يستلم السلطة للمرة الأولى».

ولعل في هذه الازدواجية التي اضطر نزار إلى العيش بين قضبانها، وتلك اللغة التي حملته مهنته على اصطناعها بعض ما يفسر لنا الشّح في إنتاجه الشعري والأدبي خلال مرحلة حياته الدبلوماسيــة بالقياس إلى المراحل اللاحقة، فقد كان العمل الدبلوماسي والواجب الوظيفي يستهلكان وقته وجهده وفكره، ويحدّان من قدرته على الخلق الفني والإبداع الشعري ويذهبان بــه إلى حيث لا يريد، ومن خلال كتابه آنف الذكر، الذي يعد نوعاً من السيرة الذاتية يتحدث نزار عن إنتاجه الشعري في كل العواصم التي عمل فيها دبلوماسيّاً وقد كان ذلك بمعدل ديوان شعر واحد في كل عاصمة خلال سنوات أربع. فعمله في القاهرة بين عامي (١٩٤٥– ١٩٤٨م) كان حصــاده ديوان «طفولــة نهد»، وعمله في لندن بين عامي (١٩٥٢– ١٩٥٥م) كانت نتيجته ديوان «قصائد»، وعمله في بكين (١٩٥٧– ١٩٦٠م) أنتج ديوان «يوميات امرأة لا مبالية» الذي طبع في بيروت بعد عشر سنوات من إنجازه، أما عمله في مدريد أو المرحلة الإسبانية، التي يسميها الوردية والممتدة بين عامي (١٩٦٢– ١٩٦٦م) فقد كان لها في حياته وفي شعره شأن آخــر ونكهة مختلفة كماً ونوعاً فمن حيث الكم فإن حصاده الأدبي اشتمل على ديوان «الرسم بالكلمات» وقصيدة نثرية ذات مقاطع متعددة بعنوان «مذكرات أندلسية» ضمنها كتابه النثري

«الشعــر قنديل أخضر» إضافة إلى تقديمه الجميل والدال لترجمة قصائد الشاعر الإسباني «**غوستافو أدولفو بيكر**» إلى العربية الصادر عن المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد عام (١٩٦٦م).

أما من حيث النوع، فكان لابد أن يتأثر **نزار** - وهو الشاعر المرهف الحس العاشق للجمال والمنخطف إليه والمملوء بالشعور القومي وأمجاد العرب- بإقامته في إسبانيا التي وجد مدنها تشابه إلى حد بعيد مدينته العريقة دمشق على نحو ما يعبر في هذه القصيدة النثرية:

في أزقة قرطبة الضيقة

مددت يدي إلى جيبي

أكثر من مرة

لأخرج مفتاح بيتنا في دمشق

أحواض الشمشير والليلك والقرطاسيا

البركة الوسطى، عين الدار الزرقاء

الياسمين الزاحف على أكتاف المخادع

وعلى أكتافنا

طفلة البيت المدلّلة

النافورة الذهبية

التي لا تنشف لها حنجرة

والقاعات الظليلة

أواني الرطوبة ومخبؤها

كل هذه الدنيا المطيبة

التي حضنت طفولتي في دمشق

وجدتها هنا.

وإسبانيــا من جهة ثانية هي تلك البلاد التي فتحها العرب المسلمون، وأقام فيها بنو أمية حضارة كانت من أهــم معالم التاريخ العربي- الإسلامي، تلك الحضارة التي يرتبط بها **نزار** ابــن دمشق الأموية بأوثق الأسباب وأقوى العرى، فمــن دمشق انطلق الأمويون لفتح الأندلس بعــد أن كانت ولاية من ولاياتهم فأقاموا فيها دولــة قوية استمرت عدة قرون أنتجت خلالها

روائع في الفن والعمارة والأدب والفلسفة ومختلف العلوم، ولا تزال مبعث فخر واعتزاز للعربي ومحط تأمل واعتبار لأنّها ثمرة تفاعل ثقافي وحوار حضاري مثلما هي مبعث حزن ومصدر أسى، ولأنّها ملك مضاع ومجد مفقود نتيجة تطاحن ملوك الطوائف واختصام الدول على الغنائم والأسلاب واحتراب العرب بعضهم ببعض مما يشابه إلى حد بعيد حالة العرب اليوم من تقاطع بين الأنظمة العربية وارتباط بالخارج ومحاولة الاستقواء به أحياناً، وقد ولّد ذلك عند نزار مزيجاً من المشاعر المختلطة والأفكار المتضاربة بين الاعتزاز بالماضي المجيد والأسى للحاضر العربي الممزق والمتشظي، وقد عبر عن ذلك بعد أن وصف المرحلة الإسبانية بأنها مرحلة الانفعال القومي والتاريخي بقوله : «إنَّ إسبانيا بالنسبة إلى العربي هي وجع تاريخي لا يحتمل، فَتَحْتَ كل حجر من حجارتها ينام خليفة ووراء كل باب من أبوابها عينان سوداوان، وفي غرغرة كل نافورة في منازل قرطبة صوت امرأة تبكي على فارسها الذي لم يعد. السفر إلى الأندلس سفر في غابة من الدمع وما من مرة ذهبت إلى غرناطة ونزلت في فندق الحمراء إلا نامت معي دمشق على مخدتي الأندلسية» مثلما عبر عنها شعراً في قصيدة جميلة على شكل حوار أو سؤال وجواب بعنوان «أحزان في الأندلس» من ديوان «الرسم بالكلمات».

كتبتِ لي يا غالية

كتبتِ تسألين عن إسبانيه

عن طارقٍ يفتح باسم الله دنيا ثانية

عن عُقبة بن نافع

يزرع شتل نخلةٍ

في قلب كل رابية

سألت عن أمية

سألت عن أميرها معاوية

عن السرايا الزاهية

تحمل من دمشق في ركابها

حضارة وعافية

❀❀❀

لم يبق في إسبانيه

منا ومن عصورنا الثمانيه

غير الذي يبقى من الخمر بجوف الآنيه

وأعين كبيرة كبيرة ما زال في سوادها ينام ليل البادية

لم يبق من قرطبة

سوى دموع المئذنات الباكيه

لم يبق من ولادةٍ ومن حكايا حبها

قافية ولا بقايا قافيه

❀❀❀

مضت قرون خمسة

مذ رحل الخليفة الصغير عن إسبانيه

ولم تزل أحقادنا الصغيره

كما هي

ولم تزل عقلية العشيرة

في دمنا كما هي

حوارنا اليومي بالخناجر

أفكارنا أشبه بالأظافر

مضت قرون خمسة

ولاتزال لفظة العروبة

كزهرة حزينة في آنية

كطفلة جائعة وعارية

نصلبها على جدار الحقد والكراهية

مضت قرون خمسة يا غاليه

كأننا نخرج هذا اليوم من إسبانيه

وكذلك في القصيدة المشهورة بعنوان (غرناطة) من الديوان نفسه، ويروي فيها شعراً قصة لقائه بحفيدة سمراء لا بد أن تكون متحدرة من العرب الدمشقيين في غرناطة أيام آخر عهدهم ببلاد الأندلس إذ يقول:

في مدخل «الحمراء» كان لقاؤنا
ما أطيب اللُّقيا بلا ميعادِ
عينانِ سوداوانِ في حجريهما
تتوالد الأبعادُ من أبعاد
هل أنتِ إسبانيةٌ.... ساءلتُها
قالت: وفي غرناطةٍ ميلادي
غرناطةٌ! وصحتْ قرونٌ سبعةٌ
في تينكِ العينين بعدُ رقادِ
وأميةٌ راياتُها مرفوعةٌ
وجيادُها موصولةٌ بجيادِ
ما أغربَ التاريخَ كيف أعادني
لحفيدة سمراءَ من أحفادي
وجهٌ دمشقيٌّ رأيتُ خلالهُ
أجفانَ بلقيسٍ وجيدَ سُعادِ
ورأيتُ منزلنا القديمَ وحجرةً
كانت بها أميّ تمد وسادي
والياسمينةَ، رُصّعتْ بنجومها
والبحرةَ الذهبيةَ الإنشادِ
ودمشقُ أين تكونُ؟ قلتُ ترينها
في شعركِ المنساب نهر سوادِ
في وجهكِ العربيّ، في الثغر الذي
مازال مختزناً شموسَ بلادي
في طيب (جنّاتِ العريفِ) ومائها
في الفلّ في الريحان في الكبّاد

ويعصـــف الشوق بنزار إلى مرابع الطفولة في دمشق ويستبد به الحنين إلى بيته وذكرياته مع أمه، ولاسيما بعد فقده والده فيرسل من مدريد خمس رسائل إليها، منها هذه الرسالة:

صباح الخير من مدريد
ما أخبارها الفلة؟
بها أوصيك يا أماه
تلك الطفلة الطفلة
فقد كانت أحبّ حبيبة لأبي
يدلّلها كطفلته
ويدعوها إلى فنجان قهوته
ويسقيها
ويطعمها
ويغمرها برحمته
ومات أبي ولا زالت تعيش بحلم عودته
وتبحث عنه في أرجاء غرفته

❀❀❀

ويعد ديوان «الرسم بالكلمات» الذي هو حصاد المرحلة الإسبانية محطة مميزة وعلامة فارقـة في مسيرة نزار الشعرية ليس لأنه يمتلـئ بالوجع القومي والحنين إلى الوطن، وتذكر أمجـاد الماضي الغابر عبـر رموزه المضيئة (دمشـق، وبغداد، والرشيـد، وشهرزاد، وكنوز سليمان، وديك الجن...) فحسب، ولكـن إضافة إلى ذلك تنوع أساليبه وموضوعاته ولتضمنه بدايـة اتجاه نـزار إلى التطرف والتكثيف والإيجاز في القصائـد وهو ما صرح به بقوله في كتابه قصتي مع الشعر: «أهم ما تعلمته من إسبانيا التطرف في تذوق الأشياء، والتطرف في التعبيـر عن الأشياء. فكل شيء في إسبانيا حار وحـارق كالبهارات الهندية فالحب الإسباني نزيف والرقص نزيف والغناء نزيف... إسبانيا هي أرض الانفعال والتوتر ولا يمكن لأي إنسان يمر بها أو يسكنها أن يبقى محايداً».

ونجـد مصداق ذلك في مقطوعـات الشعر القصيرة بعنـوان «أوراق إسبانية»، التي تبلغ الغايـة من التكثيف والإيجاز والتطرف والأناقة في آن معاً بحيث تختزل المعاني الكبيرة في ألفاظ وجمل شعرية قليلة كما في «سوناتا»:

سوناتا

على صدر قيثارة باكيه

تموت وتولد إسبانيا

❀❀❀

«بيت العصافير»

بإشبيلية

تعلّق كل جميلة

على شعرها وردةً قانيه

تحط عليها مساءً

جميع عصافير إسبانيا

❀❀❀

«القرط الطموح»

على أُذُنَيْ هذه الغانية

تأرجح قرط رفيع

كما يضحك الضوء في الآنية

يمد يديه ولا يستطيع

وصولاً إلى الكتِفِ العارية

وبالمناسبة فإنه يمتدح تطرف إرنست همنغواي الكاتب الأمريكي الذي وجد نفسه في إسبانيا أكثر مما وجدها في بلده الأصلي ووضع حداً لحياته فيها بطلقة بندقية وذلك بقوله «لأن همنغواي كان يعرف أن حياد الأشياء موت لها، ولأن أمريكا لم تعد تستطيع أن تقدم له الإطار الانفعالي الذي يبحث عنه كاتباً وروائياً، ولأن حضارة الإسمنت والهامبرغر والأطعمة المثلجة أفقدته حرارة الحياة ورومانتيكيتها حمل دفاتره وذهب إلى إسبانيا ليموت على طريقة الثيران الإسبانية بمنتهى البطولة والجمال».

ومن جهة ثانية فقد كانت التجربة الإسبانية بداية قصيدة النثر عند نزار، التي يمكن أن نأخذ لها مثالاً ما كتبه حين رأى رداء أبي عبد الله الصغير آخر حكام الأندلس من بني الأحمر والمعروض في المتحف الحربي بمدريد إذ يقول:

ما تمنيت أن أكون عروة في رداء

إلا في المتحف الحربي في مدريد

الرداء لأبي عبد الله الصغير

والسيف سيفه

السائحون الأجانب لا يستوقفهم الرداء

ولا السيف

أما أنا

فيربطني بالرداء وبصاحب الرداء

ألف سبب

هل تعرفون كيف يقف الطفل اليتيم

أمام ثياب أبيه الراحل؟

هكذا وقفتُ أمام الخزانة الزجاجية المغلقة

أستجدي الزركشات

آكل بخيالي النسيج

خيطاً...خيطاً

لم يقتصر تأثير المرحلة الإسبانية في **نزار** عند الذي ذكرناه، بل تعدى ذلك إلى وضعه مقدمة للترجمة العربية لقصائد شاعر إسباني منسي أو معتم عليه يتشابه معه في كثير من الوجوه أهمها السعي إلى قول الشعر بلغة سهلة بسيطة ومأنوسة غير متقعرة وغير مبتذلة معاً، ومعالجة الموضوعات الصغيرة واليومية دون تنطع للقضايا الكبرى التي لا تحتملها طبيعة الشعر وكذلك يتشابه معه في مهاجمة المتزمتين له- ومن هنا كان اهتمام **نزار** بنقل آثار هذا الشاعر إلى العربية وتقديمه لتلك القصائد المختارة بمقدمة نقتطف منها بعض المقاطع: «عندما بدأت أتغلغل في ضمير الأشياء الإسبانية في أدب أدبائها وشعر شعرائها أدركت عمق التشابه بيننا وبين إسبانيا ... وإذا كانت ملامح إسبانيا الخارجية والنفسية

تشابهنا إلى هذا الحد فلِم لم يحظ الأدب الإسباني باهتمامنا ولماذا لم تُترجم روائعه بالنسبة إلى الآداب الأخرى، فالأدب الإسباني زهرة ياسمين شرقية تحمل عبق الشرق ونكهته وحرارة شموسه وهو في نظري لا ينتمي إلى أوروبا بقدر ما ينتمي إلينا...

يكاد العربي لا يعرف من الأدب الإسباني سوى وجه دون كيشوت ولوركا، ولكن إسبانيا ليست سرفانتس ولوركا فحسب، إن فيها جيلاً من الشعراء والأدباء لا يزالون بالنسبة إلينا في منطقة الظل».

غوستابو أدولفو بيكر شاعر إسباني ولد في إشبيلية عام (١٨٣٦م) ومات في مدريد عام (١٨٧٠م)، أي إنه عاش حياة قصيرة وعمراً معذباً وكان له صوته الخاص ونكهته الشعرية المميزة إذ كان يغرد خارج السرب مخالفاً المألوف والسائد في عصره من تقاليد أدبية، وقد عانى خلال حياته القصيرة تلك من الجحود والنكران وعدم المبالاة في مدريد ولذا يقول نزار عنه: «سقط هذا العصفور الإشبيلي الذي كان يحمل في عينيه من الأحزان أكثر مما تحمل حقول الأندلس من عنب وزيتون. فالعصافير تختنق في المدن الكبرى بفحم المداخن وإسفلت الشوارع المزدحمة». ويمضي نزار أكثر في تفسير اهتمامه بترجمة هذا الشاعر إلى العربية وتصوير معاناتهما المشتركة من هجوم المتزمتين والمحافظين في اللغة والأدب والحياة فيقول: «لم تكن القصيدة عند بيكر قلعة من حجر الغرانيت ولا بناية شاهقة من الفصاحة والإيقاع الملحمي وإنما كانت صلاة موجزة وتمتمة خافتة الرنين تنبع من القلب لتذوب في القلب. ومن هنا كان اتهام بيكر بالعاطفة المريضة، وهذا يذكرني بما تعرضت له حركة الشعر العربي الحديث من الاتهامات من جانب المتزمتين، لأنها اعتمدت لغة الهمس والحديث اليومي وحررت أقدامها من قوالب الرصاص التي كانت تعيق حركتها».

وبعد، إنَّ المرحلة الإسبانية في حياة **نزار** وشعره كانت على جانب كبير من الغنى والتنوع جعلا منها مرحلة متميزة سواء على صعيد ما حواه ديوان «الرسم بالكلمات» من موضوعات تراوحت بين قصائد الحب ووصف مظاهر الحياة في إسبانيا والحنين إلى الوطن في رسائله إلى أمه والفخر بماضي العرب المجيد في إسبانيا، أم على صعيد الأساليب الفنية والتقنيات في المقطوعات الصغيرة المكثفة والدالة بما في ذلك قصيدة النثر، أم على صعيد الاهتمام بترجمة قصائد شاعر إسباني **كبيكر** وتقديمه لقراء العربية لتشابه المعاناة الشعرية والاجتماعية بينهما.

ولعل أهمية تلك المرحلة تتضح أكثر إذا ما قارناها بمرحلة أخرى كالمرحلة الصينية، التي يسميها **نزار** المرحلة الصفراء، تلك المرحلة التي لم يستطع فيها أن يتواصل مع الصينيين كما يرغب ويهوى بوصفه شاعراً، ولا أن يتعرف على معالمها وتاريخها بسبب طبيعة النظام الشمولي وقسوة القيود المفروضة مما دفعه نحو الحزن والانطوائية وجفف ينابيع الشعر عنده على نحو ما يعبر بقوله: «حصادي الشعري في الصين كان قليلاً وعطائي فيها كان نوعاً من الاستسقاء من المياه الجوفية للذاكرة الشعرية»، وذلك بخلاف التجربة الإسبانية التي تفجّرت فيها ينابيع إبداعه الشعريّ نتيجة عوامل فنية وقومية وشخصية وحضارية متداخلة أوصلت إنتاجه الشعري إلى قمم من الإبداع وأنتجت آثاراً أدبية قل نظيرها ستبقى خالدة على مر الزمن.

كيف نجد السعادة في داخلنا؟ وكيف نقول نعم للحياة؟*

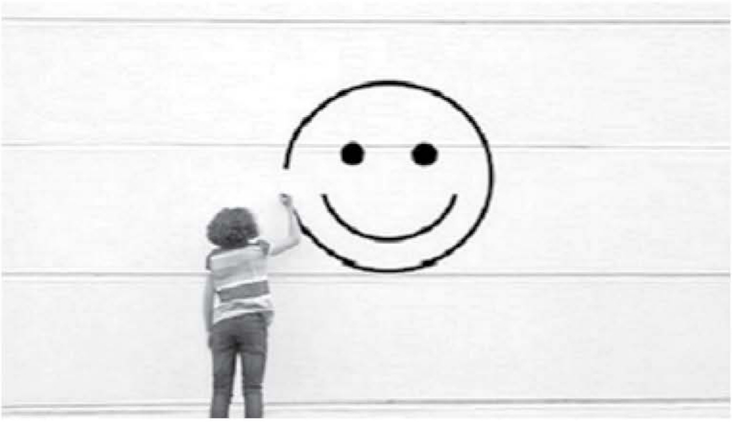
ترجمة: عبير حمود

يحاور فريدريك لونوار في هذه الدراسة قارئه المتخيل الذي يقول له:

- توضح لي دائماً أن عليّ أن أطمح باستمرار أن أكون سعيداً بعمق أكثر، وأن هذا هو هدف الحكمة. هل ذلك ممكن حقاً؟ وكيف نصل إليه؟

- في الواقع، إنَّ قضية السعادة، تشكِّل جوهر كل تيارات الحكمة الإنسانية العظيمة. كما كان يذكّر أبيقور، نطمح جميعنا للسعادة، مهما يكن الشكل الذي تأخذه. لكننا أيضاً نعيش تجربة صعوبة الاستحواذ عليها كالماء والهواء. منذ اللحظة التي نفكّر فيها أننا نستطيع الاستيلاء عليها تهرب منا، إذا حاولنا الإمساك بها، تهرب منا. أحياناً تختفي حين نتمناها، وتنبثق فجأة في لحظة غير متوقعة. مع ذلك، فقد جربت هذا الأمر، نستطيع أن نكون أكثر سعادة عندما نفكّر بالحياة، عندما نشتغل على الذات، عندما نتعلّم إنجاز خيارات أكثر حكمة، أو بالأحرى عندما نعدّل أفكارنا ومعتقداتنا أو الملاحظات التي نكوّنها عن أنفسنا وعن العالم. إن المفارقة الكبرى للسعادة هي أنها لا تقبل الخضوع لأيِّ سلطة بقدر ما هي قابلة للترويض. إنها تشير إلى القدر أو الحظ مثلما تشير إلى أنّها عملية عقلية وإرادية.

❁ مقال مترجم من كتاب: «La sagesse expliquée à ceux qui la cherchent» للكاتب Frédéric Lenoir



بالنسبـــة إلى القدماء، سواء في الهند، أم فـــي الصين أم في اليونان، فإن الحكمة تتشابه مـــع البحـــث عن حالة رضا شاملة ودائمـــة في الوجود الذي لا يتعلـــق بمخاطر الحياة، يعني أحـــداث العالم الخارجي. إذن، فالحكمـــة تتحد مع فكرة السعادة المتصـــورة بصفتها حالة داخليـــة. انطلاقاً من ازدواجية تجربـــة اللذة في الغالب، فإن الفلاسفة القدماء كوَّنوا مفهوم السعـــادة هذا قائلين: إن اللذة هي الرضا بحاجة أو برغبـــة ما، لكنها لا تدوم وتتعلق بأسباب خارجيـــة. إن الحكيم نفسه يتطلـــع إلى خلق حالة من الرضا تـــدوم، ولا تتعلق كثيراً بأسباب خارجيـــة فحسب: (الشرف، والعلاقات الإنسانيـــة، والغنى... إلخ). وبالنسبة إلى أبيقور، فإن هذا المثل الأعلى يمكن بلوغه بفضل الفكر العملي phronesis الذي يساعدنا على الاعتدال والإحساس باللّذات من أجـــل البقاء في حالة صفاء، وغياب الاضطراب ataraxie. وبالنسبة إلى بوذا، يتعلّق الأمر بالتخلّي عن رغبة الارتباط بالأشياء، التي تولّد الإحباط والألم، وبذلك فإن الطريقة الوحيدة للوصول إلى حالة السعادة، تكون عبر اليقظة، يعني الوعي بأنني لست الأنا التي أتَّحدُ معها بشكل عفوي.

نستطيـــع أن نعرّف المثل الأعلـــى للحكمة بالطريقة الآتيـــة: إن الحكيم يغير رغباته ليجعلهـــا منسجمة مع العالـــم، أي بعبارة أخرى مع الواقع، وهـــذا أفضل من البحث عن انسجام العالم مع رغباته. إنه يتعلَّم حبّ الحياة بطريقة غير مشروطة وليس عندما تكون ملائمـــة بالنسبـــة إليه فحسب . إن هذا هو المثل الأعلـــى للحكمة، الذي لم يعد يقتنع به معظـــم المثقفين المعاصرين، وهو ما أردت إعادة تأهيلـــه، لأن هذا هو بحثي منذ قرابة أربعين سنة.

- إننا بالتأكيد بعيدون جداً عن مفاهيم معاصرة للسعادة، تلك التي تتجه بشكل كبير نحو ما نملك أكثر من اتجاهها نحو كينونتنا. يوجد سوء فهم كبير، يحتاج إلى توضيح عندما نتكلم عن السعادة...

- إن المثل الأعلى للحكمة ومفهوم السعادة الذي يُتداول، يناقضان في الواقع نظرة السعادة المعاصرة التي باتت الأكثر انتشاراً في مجتمعاتنا المادية والاستهلاكية، أي أن تكون الأفضل، والأكثر كفاءة، والأغنى، وأن تكون أكثر شهرة... إلخ. عبر هذا التحديد المعاصر لامتلاك «الأكثر دائماً» فإن الحكمة تعارض البحث عن الكائن الأفضل (هنا الأفضل على المستوى المادي). إن السعادة تبحث في بنية الكائن أكثر من بحثها في طبيعة ما يملك. سأضيف أن بحث الحكمة هو بحث شديد الاحتياجات، فهو يتطلب اكتساب ثقافة، وتعمقاً في التفكير، وحسن استخدام العقل وتحفيز الإرادة، وإعادة توجيه الرؤية والرغبات بشكل صحيح... إلخ. باختصار، إنه بحث طويل وشاق بالنسبة إلى تناقضات ما يبيعه دجالو السعادة المعاصرون من وصفات سهلة وسريعة. سأؤكد أيضاً أنني مستاء جداً من الأوامر الخاصة بالسعادة، التي باتت كلمة للنظام المعاصر، وهي مستنكرة بشدة لدى باسكال بروكنر.

في الواقع لاحظ كاتب النشوة الدائمة بدقة أن «حق» السعادة تحوّل إلى «واجب» وفجأة إلى عبء منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. إن الإنسان المعاصر «محكوم عليه» أن يكون سعيداً و«هو مسؤول عن تعاسته الخاصة إذا لم يستطع الوصول إليها. (...) على الأرجح، فإننا نشكل المجتمعات الأولى في التاريخ التي تجعل الناس تعساء لأنهم افتقدوا السعادة (...) من مأساة المسيح، حين سعى من أجل خلاص البشرية، ومن أجل ذلك أهلك نفسه، وقد تشكلت من خلال ذلك المأساة العلمانية للنجاح والفشل». من المهم أن ندرك أن مثل تلك الأوامر للسعادة لا تؤدي إلا إلى التعاسة، وفوق ذلك فهي سعادة متعلقة بالمعايير العصرية للنجاح. إنها دون شك أحد التفسيرات لدى عدد متزايد من الأشخاص، الذين أصيبوا بالكآبة لأنهم لم يجدوا جواباً عن تعريفات محددة عصرية لتحقيق الذات: إنها العبارة الشهيرة «من المتعب أن تكون نفسك»، التي وصفت بشكل جيد من الطبيب النفسي آلان إيرينبرغ.

- أفهم جيداً أن الحكمة تدعو إلى السعادة بصفتها حالة كينونة شاملة ومستمرة. لكن بعض الكتّاب المعاصرين، كـ«لوك فيري»، يشيرون، متّبعين كانط، إلى التباين الجذري الموجود بين السعادة والتعاسة، وبين الخير والشر.

- حين أكد بوذا أن «كل شيء مؤلم»، فقد ذكّر بأن الحياة، منذ الولادة وحتى الموت، مكوّنة من سلسلة من التجارب المؤلمة. حتى عندما نعيش لحظة سعيدة، فإنها لا تدوم طويلاً. يقول لنا بوذا أيضاً إنَّ «كل شيء زائل». لا شيء في هذا العالم مستقر، ومستمر، وثابت إلى الأبد. وينطبق الشيء نفسه على رغباتنا أيضاً، إننا نعاني لعدم امتلاكنا ما نرغب، ثم نتألم خائفين من ضياع ما نملك، ونتألم أيضاً من ضياع ما حصلنا عليه. إذن نعم، إنّ الشر في الواقع أكثر حضوراً من الخير في حياتنا اليومية حتى لو أن ذلك يمكن له أن يتغير من شخص إلى آخر تقريباً. وهذا هو السبب الحقيقي، الذي دفع بوذا، مثل كل حكماء الإنسانية، إلى البحث عن طريق بعيد عن الألم. ترفض الحكمة الاستسلام لحتمية وجود الألم في كل مكان. لمرة ثانية فإن الحكمة متطلبة، تقترح طريقاً يسمح بتطوير مشاعر داخلية، تقوم على الصفاء أو على الفرح، وهي مستقلة عن مخاطر الحياة بكل ما تحويه من مرتفعات ومنخفضات. إذن إن الحكمة هي جواب فوري، يقرّ بعدم وجود انسجام بين السعادة والحزن.

- يؤكد بعض المفكرين المعاصرين، أنَّ السعادة خلافاً للألم من المستحيل تعريفها على الأرجح، في حين يسهل تحديد الألم والتعرّف إليه...

- في حياتنا اليومية، إن السعادة والألم بالنسبة إلي يمكن التعرف إليهما وتعريفهما تماماً: بشكل عام، إنني سعيد عندما أحب الحياة التي أعيشها، وأنا حزين عندما لا أحب الحياة التي أعيشها. يوجد أيضاً لحظات سعادة كثيفة، على سبيل المثال، حين تتحقق رغبة عميقة ما، مثل لقاء غرامي، وولادة طفل، ونجاح في الامتحان، ونجاح مهني... إلخ. بالطريقة نفسها، يوجد لحظات كثيفة للحزن، مثل موت قريب، ومرض خطير، وفشل مهني... يمكننا أن نشير بدقة إلى السمة المتصلة بالسعادة، والتي تختلف حسب الثقافات، والأفراد، ولدى كل شخص حسب مراحل حياته. في غالب الأحيان، فإنها تأخذ شكل ما لا نملك فبالنسبة إلى المريض، تكمن السعادة في الصحة؛ وبالنسبة إلى عاطل عن العمل، فإن السعادة في العمل. يضاف إلى عدم الانسجام هذا، عامل موضوعي: فالفنان سعيد في ممارسة فنه، والمثقف في استخدام مفاهيمه، والعاطفي في علاقته الغرامية. أشار فرويد بدقة إلى أن «التكوين النفسي للفرد سيكون حاسماً. فالإنسان الذي تسود لديه الغريزة الجنسية، سيعطي الأولوية للعلاقات الغرامية مع الأشخاص الآخرين؛ وأما النرجسي فسيكتفي بالأحرى بذاته وسيبحث عن أفراحه الجوهرية عبر مظاهر نفسية مكثفة؛ إن الإنسان الفاعل سيظل مرتبطاً بالعالم الخارجي الذي يستطيع من خلاله وضع طاقته على المحك». وهذا هو أحد الأسباب التي من أجلها لا نجد «وصفة» للسعادة صالحة للجميع.

لكن هذه السمة النسبية والموضوعية لا تمنع على الإطلاق من تحديد معنى السعادة، ليس بصفتها شعوراً عابراً مريحاً فحسب (فهذا سيكون تعريف اللذة)، لكن بصفتها حالة كينونة، ترى الأمور في مدّة محددة ومجال معين. نخبر أنفسنا بأننا «سعداء» أو «راضون» عن حياتنا لأنها تعطينا في المجمل- وبشكل كلي- لذة؛ ولأننا وجدنا بعض التوازن في تطلعاتنا المتنوعة، وبعض الاستقرار في مشاعرنا وانفعالاتنا، وحصلنا على رضا في مجالات أكثر أهمية في حياتنا كالمجال العاطفي والمهني والاجتماعي والروحي. على النقيض، نقول لأنفسنا: إنّنا «تعساء» و«غير راضين» عن حياتنا إذا زودتنا بقليل من اللّذة، إذا مزّقتنا طموحات متناقضة، إذا كانت عواطفنا (مشاعرنا وأحاسيسنا) غير مستقرة ومؤلمة بشكل عام، أو إذا أحسسنا بشعور قوي بالفشل العاطفي أو الاجتماعي. نلاحظ أنفسنا عبر مجمل المواقف والحالات بأننا سعداء أو تعساء، فنجد في مدّة معينة من الوقت صعوبة في استدعاء تلك المشاعر. من أجل ذلك أعرّف السعادة: إنّها وعي بحالة رضا شاملة ومستمرة لوجودنا.

- لكن ألا تبقى هذه الحالة غير مؤكدة؟ ألا يمكن لسعادتنا أن تتحوّل فجأة إلى تعاسة بتأثير مصائب الحياة؟

- بالتأكيد، وهذه السمة المؤقتة والزائلة للسعادة كانت قد وصفت كثيراً من بوذا والفلاسفة القدماء على نقيض كانط والفلاسفة النقديين. من هنا فإن الحكمة تحاول أن تعطي معنى آخر للسعادة: إن السعادة لم تعد تتمحور حول المفهوم البسيط لحب الحياة التي نعيشها، بل هي حب الحياة في مجملها. حبها في كل أحوالها، في صعودها ونزولها، في لحظاتها الملائمة وغير الملائمة، مع نصيبها من الفرح والحزن. إن هدف الحكمة، دون أن ننفي السمة غير المتوقعة والهشة للسعادة، هي محاولة جعل هذا الهدف أكثر عمقاً وأكثر ديمومة ممكنة، بعيداً عن مخاطر الحياة، وعن الأحداث الخارجية، وعن انفعالات إيجابية أو سلبية في حياتنا اليومية. إنه محبة ما هو موجود.

أؤكد مرة أخرى حقيقة أن الحكمة تشكل مثلاً أعلى وهدفاً نسعى إلى بلوغه، ولكن لا يمكن لها أبداً أن تتحقق بشكل كلي. وبالنهاية، هذا لا يهم! إن ما يهم، هو التوجه نحوها، أي أنَّ أشتغلَ على ذاتي؛ لأكون قادراً أكثر فأكثر على أن أكون سعيداً. إن زيادة ميلنا نحو السعادة تتعلّق، في الوقت نفسه، بتقليل قابليتنا للتعاسة. في الواقع، لدينا جميعاً بعض النزوع لنكون سعداء أو تعساء. وهو ما يسميه عدد من علماء الاجتماع الأمريكيين بـ«المعدل الثابت

للسعادة». في البداية، يتعلق ذلك، كما عبّر جيداً شوبنهور عن أحاسيسنا: هناك أشخاص متفائلون وآخرون متشائمون، وأشخاص فرحون وتعساء.

بالإضافة إلى المزاج الثابت الذي تولّده الوراثة، ثمة تأثيرات يولّدها الطفل الصغير في داخلنا، تخضع لها أحاسيسنا أيضاً: بعضهم يفتقدون تقدير ذواتهم كل حياتهم، لأن أهلهم قد منحوهم صورة مهينة لأنفسهم، وهؤلاء سيكونون أقل قدرة على تحصيل السعادة من أولئك الذين، هم على نقيضهم، يملكون ثقة بأنفسهم وبالحياة.

من أجل هذا السبب، كما يذكر أرسطو، فإن السعادة تتعلق بالحظ في قسم كبير منها: (الوراثة، والوسط الاجتماعي)، ولكن تتعلّق في قسم كبير أيضاً بأن نشتغل على أنفسنا؛ لنزيد قدرتنا على أن نكون سعداء. هذا القسم من السعادة، الذي يتعلّق بنا يمكن له أن يتطوّر حسب خيارات حياتنا، وحسب النظرة التي نملكها عن أنفسنا وعن الآخرين وعن العالم. أيضاً نستطيع أن نستمر في الاقتراب أكثر من مثال الحكمة- الفرح أو الصفاء الدائم- دون أن نصل إلى هذا المثال بالضرورة أو أن نكون مستقرين على حالة الهناء هذه إلى الأبد. وشيئاً فشيئاً نستطيع أن نكون سعداء بشكل كلي ودائم، حتى لو أن مآسي الحياة قد تتمكّن من الوصول إلينا وتعكّر سعادتنا بشكل مؤقت. على كل حال هذه هي ثمرة تجربتي.

- قد ذكرتَ عدّة مرات أن الحكمة، تكمن في البحث عن حالة رضا، إذ لم تعد تتعلّق بالأحداث الخارجية. فهل الحكيم يشعر بالسعادة مهما حصل له؟

- في الواقع، إن سعادة الحكيم لم تعد تتعلق بشكل أساسي بأحداث عالمه الخارجي، التي تقع دوماً مصادفة، لكنها تتعلق بتناغم عالمه الداخلي. فهو سعيد؛ لأنه قد عرف كيف يجد السلام أو الفرح في داخله، فبدلاً من رغبة الحكيم في أن يكيّف العالم وفق رغباته، فهو يكرّس جهده في تغيير نفسه. وعبر هذا التغيير، تصبح السعادة ممكنة. إن عائق السعادة ليس الواقع، لكن التصور الذي نملكه عنه. إن الواقع نفسه يمكن أن يُلاحظ بشكل مختلف من خلال شخصين: الأول يهنئ نفسه به، والآخر سيكون تعيساً به. شخص ما يمكن أن ينظر إلى مرض خطير وكأنه لعنة القدر، في حين نجد شخصاً آخر، بعيداً عن الألم، الذي يعانيه في الحاضر، سيجد فيه وسيلة ليعيد النظر في معاناته، كي يغير هذا الأمر أو ذاك في حياته، دون أن يتخلّى عن سلامه الداخلي. أمام عنف ما، يشعر بعضهم بالحقد، والرغبة في الانتقام، في حين نجد بعضهم لا يبدي أي استياء. إنَّ الحكيم الرواقي إبيكتيتوس يؤكد:

«تذكّـــر بأن من يوقعك في الخطأ، لا يعني أنه يسيء إليك أو يصفعك، لكن ما تملكه من فكرة عن نفسك، تجعلك ترتكب خطيئة. أي، إذا جعلك أحد تغضب، فاعلم بأن حكمك الخاص على نفسك، مسؤول عن غضبك».

إن ما يوضح أكثر هو هذه **القصة القصيرة الصوفية**: «كان هناك رجل عجوز يجلس عند مدخـــل المدينة، جاءه غريب من بعيـــد وسأله: «لا أعرف هذه المدينة، كيف هم الناس الذين يعيشون فيها؟».

أجابه الرجل العجوز بسؤال: «كيف هم سكان المدينة التي أتيت منها؟».

أجابه: «أنانيون وأشرار، ومن أجل هذا السبب رحلت».

أجابه العجوز: «سترى على شاكلتهم هنا».

بعد برهة، اقترب غريب آخر من العجوز، قال له: «أتيت من بعيد، قل لي كيف هم الناس هنا؟».

أجابه العجوز: «كيف هم سكان المدينة التي أتيت منها؟».

أجابه: «طيبون ومضيافون، لدي أصدقاء كثر وقد عانيت في تركهم».

ابتسم له العجوز: «سترى على شاكلتهم هنا». كان هناك بائع جِمال قد تابع المشهدين من بعيد. اقترب من العجوز وقال: «كيف يمكن لك أن تقول للغريبين أمرين متناقضين؟».

أجابـــه العجـــوز: «لأن كل واحـــد منهما يحمل عالمــــه في قلبه. إن النظـــرة التي نحملها عـــن العالم ليست العالم نفســـه، بل العالم الذي نستشفّه. إن الإنســـان السعيد في مكان ما، سيكون سعيداً في كل مكان، وعلى النقيض، فإن الإنسان التعيس في مكان ما، سيكون تعيساً دوماً».

يتابـــع لونـــوار الحـــوار مع قارئـــه المتخيل ويتطرقان إلـــى الطريقة التي نقـــول بها: «نعم للحياة»، فيسأله:

- فـــي الواقـــع أعرف أشخاصـــاً، على قلتهم، يبدون سعداء دائماً، أي إنهم لا يشـــتكون أبداً، ويرون دوماً الجانب الجيد للأمور، حتى إنهم، هم أنفســـهم، من يواســـي أقاربهم، إذا ألمّت بهم مصيبة أو معاناة. إذن، هل هم حكماء في المعنى الذي تفهمه؟

- مـــن دون أي شك. بعض الأشخاص يملكون هذه الحكمة بطريقة فطرية. إنها، إن صح القـــول، مكتوبة في مزاجهم. هناك أشخاص، كرماء، ومتفائلون، وواثقون، وسعداء بطبيعتهم.

إنـــه لحظ عظيم، لأن هذه هي الصفات المطلوبة للحصول على حياة جيدة وسعيدة، وهؤلاء الأشخاص يقومون بكثير من الأمور الجيدة لمن يحيط بهم. لكن معظم الأشخاص ليس لديهم هذا الحظ، والحكمة بالنسبة إليهم بوصلة ثمينة، لأنها ترشدهم إلى طرائق ووسائل؛ ليكونوا أفضل وأكثر سعادة. إن الحكمة تدعونا إلى التوقف عن اتهام الحياة، أو الآخرين، إنها تدعونا إلى أن نمسك بيد الحياة ونفهم أن معظم آلامنا، يمكن تجنبها، إذا غيرنا التصور الذي نملكه عن أنفسنـــا أو عن العالم. أقول جيداً «آلامنا» وليس «أوجاعنـــا»، لأن الوجع كوني ولا يمكننا تجــاوزه. لكن عندما يضاف إلى الوجــع الجسدي أو الأخلاقي الغضـــبُ، والحزن، والحقد، والاستيـــاء، والرفض، والتحدي، أو الشكوى، فإن الألـــم النفسي والروحي، إذن، سيضاف إلى الألم الواقعي الذي نشعر به، وإذا لم نستطع تفادي الوجع، فإننا نستطيع تفادي الألم بتوجيهٍ إرادي وإيجابـــي لقلبنا وعقلنا. إن الحكمة لا تعني الابتعاد عن الألم، بل إنها تحويل الألم إلى هدوء وصفاء.

- كيف نصل إلى ذلك؟

- لا يوجـــد ست وثلاثون طريقـــة لذلك. يتعلق الأمر بطريقة وحيـــدة وهي أن نقول «نعم للحيـــاة»، يعنـــي أن نحبها وأن نقبل الواقع كما هو، وليســـ كما نرغب في أن يكون. إنه طريق القبـــول، والرضا، الـــذي يفترض حبّاً غير مشـــروط للحياة. «وأنا، أحـــب الحياة» كان يقول مونتيـــن. إنـــه باب الدخول إلى كل حكمـــة، وإلى كل وجود سعيد عميـــق ومستمر، مهما تكن الأحداث التي تحصل. إن الحكمة لا تعني العيش فوق سحابة صغيرة أو في عالم جيد ومنظم، إن هـــذا غيـــر موجود؛ بل إن الحكمـــة هي مزيج من المأســـاة والسعادة. إنهـــا قبول الحياة وحبها بعسرها ويسرها، وبلحظاتها الجيدة والسيئة، وبأفراحها وهمومها. إنه حب كل الحياة، بجانبها الصعب ومحنها.

- لكـن قـول «نعم» لكل شـيء، القبـول بكل ما يأتـي، أليس موقفـاً حتمياً؟ ذلـك يذكرني بالأتقياء الذين يستسلمون لكل ما يحصل لهم لأنها «إرادة الله»...

- أنت على حق، في أوّل وهلة، تبدو الحكمة مختلطة مع موقف ديني حتميّ. لكن مع ذلك يوجـــد اختلاف حقيقي بين الأمرين. إن الحكمة، حسب كلمـــات إبيبكيتيوس، تدعونا لنفرّق بيـــن مـــا هو متعلّق بنا، وما هو غير متعلّق بنا. عندما يحدث أمر ما، مرض خطير على سبيل المثـــال، لم نختره، على الرغم من كل شيء يتعلق بنا، مـــن جهة، وإننا نسعى إلى العلاج، من

جهة أخرى، نحاول أن نتحرك بأفضل ما يمكن إزاء هذا الاختبار، بدلاً من أن نجعله يدمرنا. إذن نبدأ بقبول ما هو حتمي، وما الذي لا يتعلق بنا، إننا مرضى، وهذا أولى من إنكاره. ثم نبحث عن التحرك وفق ما نستطيع القيام به، وهو إيجاد العلاج الجيد والتعامل بإيجابية قدر ما نستطيع إزاء هذه الحالة. بالنهاية، إذا لم نتعافَ على الرغم من كل جهودنا، إذن ينبغي أن نقبل مرة أخرى الحتمية بأننا لا نستطيع تفادي المرض المزمن أو الموت. إن الحكمة تقترح علينا قبول ما هو موجود، وما لا نستطيع تغييره، لكن تقترح التصرف إزاء ما يمكن تعديله، فنغيّر أكثر من داخلنا (أي عواطفنا وتفكيرنا) بدلاً من البحث عن تغيير محيطنا (كالبحث عن دواء لشفائه). هذا الفرق الأساسي، يؤدي إلى الاختلاف مع الحتمية الدينية، التي تعدّ، غالباً، كل ما يحدث جيد، وتصرّ أحياناً على عدم إرادة تغيير نظام الأشياء. لقد كنت مذهولاً خلال سفرتي الأولى إلى الهند، إلى كالكوتا، من رؤية موت البؤساء في الشارع وسط لا مبالاة عامة، وفهمت أن تصرفاً كهذا كان مرتبطاً بالمعتقد الديني الهندوسي؛ الذي يعني أن ما يحصل في هذه الحياة هو ثمرة وجودنا الداخلي، فلا تنفع محاولة النضال لتغيير مجرى وجودنا أو مجرى العالم. إذا مات إنسان بشكل بائس، فهذا ما يستحقه، ومن العبث مساعدته. هذه الحتمية أثارت غضبي ورأيت نفسي أعمل متطوعاً مع مؤسسة المبشرين بالخير التابعة للأم تيريزا، التي تستقبل هؤلاء الذين على وشك الموت، فتجلبهم إلى مكان للعناية بهم ومرافقتهم حتى النفس الأخير. عندما نستطيع التصرف لنساعد شخصاً ما، ولنخفف ألماً ما، ولنكافح ضد ظلم ما، فإن الحكمة تدعونا إلى هذا التصرف لأنها تضع الحب، والعطف والعدل في قمة كل الفضائل.

فلنقم بما يتعلق بنا، فلنتحرك من أجل الحفاظ على صحتنا وسعادتنا، ومن أجل أن نتحسن على المستوى الأخلاقي والروحي، ومن أجل أن نسهم في بناء عالم أفضل. لكن عندما لا نستطيع فعل شيء، عندما نتصادم مع قوّة خارجية ولا نملك لمواجهتها أيّ وسيلة دفاعية، فمن الأفضل قبول ما حصل بفرحٍ، بدلاً من أن ننكره، ونقمعه أو نغرق في الاستياء منه، أو نغضب، أو نحبط، أو نشتكي. عندئذٍ سيبقى قلبنا وعقلنا في حالة سلام، حتى لو كان الألم يكمن في ذلك.

وهذا ما شرحه إيبيكتيتوس من خلال التعبير المجازي للكلب المربوط بعربة، يجرّها ثوران (يمثلان قوة القدر). عندما يكون لدى الكلب الرغبة في الدوران إلى اليمين، في حين أن العربة تدور إلى اليسار، فلن يستطيع الكلب مقاومة قوة الثورين: إما أن يقبل اتباعهما

وهـو يرافق حركاتهما، يعني أن تنسجم رغبتـه مع رغبتهما، أو أن يقاوم فيقاد رغماً عنه إلى أفظع الآلام.

- حتى لو أنني أفهم بشكل أفضل ما يميز القبول الديني الحتمي عن الحكمة، فيبدو لي مـع ذلك أنه من الأفضـل الإيمان بـالله أو بخلود الروح لنكون قادرين علـى أن نقول مثل هذه الـ «نعم» للحياة، لأننا نسـتطيع عندها أن نقبل بامتحانات فظيعة ونحن نفكّر بأن لها معنى أو أننا سنكون سعداء في الآخرة.

- مـن المؤكد أن الإيمان بالحياة بعد الموت يساعد كثيراً على تخطّي امتحانات الوجود. إن هـذا يعطي للمُتَدَيِّن أملاً، وشعـوراً بأن ما سيحصل له، بما في ذلك الموت وتحديداً موت أقربائـه، ليس نهايـة كل شيء ويمكن له أن يعطي معنى لذلك. بعضـ الروحانيين الشرقيين يؤكدون أن عقلنا لا يموت وأنه يتجسد في جسد آخر حتى التحرر الأخير، التي يدركها بصفتها حالة نعيم لا يمكن تعريفها؛ لأن المؤمنين بإله واحد لديهم أمل بحياة خالدة بالقرب من الله. يؤمن الرواقيون بأن عقلنا لا يموت، وقد استطاع سقراط أن يشرب بهدوء سمّ الشوكران القاتل؛ لأنه كان مقتنعاً بأن روحه ستعيش سعيدة مع الأرواح المستقيمة في الآخرة. نعم، من الواضح أن الإيمـان بخلود الأرواح يشكِّل مساعدة قويـة وحاسمة لتحمّل أعباء هذه الحياة. من جانب آخـر، أشارك (سقراط) هذه القناعة بـأن عقلنا خالد، حتى لو أنني لا أملك أي يقين حول ما سيحدث بدقة بعد موت الجسد. وقد ساعدني هذا كثيراً على تحمل وفاة أناس عزيزين عليّ، لأن فـي أعماقي قناعـة وحيدة هي أن طريق حياتهم سيستمر فـي مجال آخر. لا أربط هذه القناعة بأي إيمان ديني محدد: لقد كانت دوماً مدونة في أعماق روحي بصفتها يقيناً، وكذلك بالنسبـة إلى أشخاص آخرين فقد كان لديهـم دوماً هذا اليقين بعدم وجود شيء بعد الموت. أشعـر بأنني أشبه قليلاً هؤلاء الهنود الذين نسألهـم: «ما هو نقيض الموت؟» فيجيبون بشكل عفوي: «الولادة»، في حيـن أن معظم الشرقيين يجيبون: «الحياة». لا أعارض الحياة والموت، لكننـي أعتقد أن الولادة والموت لحظتان ضروريتان في الحياة، إنهما ممران إلى حياة الروح، التي بدأت قبل ولادتنا على الأرض، وستستمر بعد تلاشي جسدنا... لا أعلم إلى أين.

لكـن هـذا الموقف بقبول كل ما هو، هذه الـ «نعم» للحياة، يمكـن أن يُعبّر عنها في إطار حكمة مادية وملحدة. إن أبيقور وأحد أهم مريديه، مثل لوكريتيوس، لا يؤمنان بالله ولا بخلود الروح. مع ذلـك، فإنهما يمدحان هذا الموقف بالقبول السعيد لما يحصل، وبأننا لا نستطيع

تجنبــه، من أجل المحافظة على سلام الروح. بطريقــة أو بأخرى، فإن موقف مونتين أيضاً، نستطيع وصفه بمفكر غير مؤمن، وحتى نيتشه الملحد حقاً. على خطا القدماء، يمدح نيتشه قبــولاً سعيداً لكل ما هو حاصل، دون استثنــاء. يدعونا لنقول «نعم» Je sagen، لنحب القدر: amor fati. بالنسبــة إليــه، يشكل الفرح والحزن جزءاً من الحيــاة، وإذا أردنا أن نعيش حياة رحبة، وليس بطريقة محدودة، يجب علينا أن نقبل كل شيء يأتي من الحياة: الأفراح، والآلام، واللــذات، والأوجاع. يدعونا لنحــب الحياة كما نحب الموسيقا: نقدّر عمــلاً موسيقياً حين يتنــاوب فيه الصــوت والصمت، ولحظات حماسية وسعيــدة، allegro، ولحظات أكثر هدوءاً وحزنــاً، adagio، أو بالأحرى مقاطع متناسقة جــداً ومقاطع أكثر تنافراً. إنه تباين اللحظات السعيدة والحزينة، والمضيئة والمضطربة، التي تؤسس لجمال الحياة: «عبارتي لما هو عظيم لــدى الإنسان هو amor fati: أي ألا أرغب في شيء آخر غير ما أملك في الحاضر، لا ما هو أمامــي في المستقبل، ولا مــا هو ورائي في الماضي، ولا في قرون وقــرون. أي عدم الرضا بتحمــل ما لا نستطيــع تجنبه، وألا نخفيه أيضاً (...) بل أن نحبــه..». إن الحكمة التي تؤمن بخلود الروح، أو لا تؤمن، تنسجم مع السعادة والألم عوضاً عن معارضتهما.

- يبدو لي من الممكن قبول ما هو حاصل، وحب الحياة عندما لا نواجه محناً جمّة. لكن، كما يتساءل لوك فيري: كيف نحب الحياة عندما يعذّبنا جلّادها؟

- حتى لو أن هذه الحالة هي القصوى وحتى لو أن قليلاً من البشر سيضطرون إلى عيشِ هذا النوع من التجارب المأساوية، فإنه من الضروري، في الواقع، أن ننظر إليها وجهاً لوجه، لأن ذلــك يسمــح لنا بالوصول إلى بداية، تجعلها منطقية، وبرؤيــة إذا ما كنا نستطيع الدفاع عنهــا، وكيف. إن قول «نعم» للحياة يجب أن يُفهم بطريقة شاملة، كما استحضرتُ سابقاً، إنه حــب الحياة بكل ألوانها، وبكل إيقاعاتها، وبكل تناقضاتها. إذا كنّا متعمقين في هذه النظرة، فإنــه حيــن تحصل، محنة رهيبة، كالتعذيــب، فسنتعامل معها بطريقــة مختلفة. إن هذا لن يتعلّــق بحب هذه المحنــة أو الاستمتاع بهذا الألم، مهما كان مضنيــاً، لكن بصفته جزءاً من كل. إننا نقــول «نعم» للكل، لمجموع حياتنا، ولمحنتنا أيضاً، حتى لو كنا نريد اجتنابها. حين شعر المسيح بالألم في قمة جبل الزيتون، تماماً قبل محنته، قيل لنا: إنه يتعرّق دماً لكثرة ما كان قلقــاً، وكان يتوســل الله بأن يحفظ له المريد. ثم غيّر رأيه وقال: «إنها ليست إرداتي، بل إرادتــك». لم يكن لديه أيّ رغبة في العذاب والموت، لكنــه قال «نعم» لقدره: إنه amor fati والسلام الداخلي، على الرغم من الألم، جعله ينتصر بالنهاية على القلق.

كنـت ككثير من الناس متأثـراً بالرسائل التي كتبتها الشابـة الهولندية إيتي هيلسم حين كانـت في مخيـم الاعتقال في ويستربوك، وذلـك قبل ترحيلها منه، ووفاتهـا في أوشويتز. أكـدت أن جلّاديها لم يستطيعوا بلوغ سلامها الداخلي وفرحها. وهذا هو السبب: «إن الحياة والموت، والألم والفرح، وبثور الأقدام الميتة، والياسمين خلف المنزل، والاضطهاد، والأعمال الوحشيـة، التي لا تعـد ولا تحصى، وكل شيء، كل شـيء فيَّ يشكّل وحدة قويـة، أقبله ككل لا يجـزّأ». قلـت سابقاً: إنَّ الحكمة هـي مثل أعلى لا يمكن بلوغه دون شـك. إن شهادة إيتي هيلسـم تظهر إمكانية بلوغ الحكمة أحياناً. وهذا ما ذكرتُه في كتابي، السعادة رحلة فلسفية، وقـد أجابني صديقي لوك فيري أن إيتي هيلسم كانـت «ذُهانية»، وأعتقد نقيض ذلك، فهي تأخذ على عاتقها الواقع بوضوح تام، كل الواقع، عبر نظرتها إلى الحكمة والحب؛ التي جعلتها تتحمل ما لا يمكن تحمله.

مرة أخرى، فإن السعادة لا تتعارض مع الألم، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نكون هادئين، أو حتى فرحين، ونحن نتجاوز ألماً عظيماً. يمكن لامرأة تلد، وهي تتألم، أن تعيش في الوقت نفسه حالة فرح بولادة طفلها. كل شيء يتعلق في مسألة نظرتنا إلى الأمور: من الممكن تجاوز الألـم عندما نوسع النظرة، وعندما نصف الحياة، فـي مجملها، «كلٌّ لا يمكن تقسيمه»، وكما تقـول إيتي، التي تتبع خطاً إيبيكتيتوس والحكماء البوذيين: «إن العائق الكبير الذي يواجهنا، هو التصور الدائم وليس الحقيقة».

الأطفالُ والشِّعر

إشاراتٌ لا بُدَّ منها

قحطان بيرقدار

يُولَدُ الطِّفلُ مزوّداً بمجموعة من الملكات والمواهب والقدرات الخاصة، ولكنها تكون كامنةً فيه، وتحتاج إلى من يُحرّضها ويُظهِرُها، ويُنمِّيها ويشحذها، ولا يتحقق ذلك إلا إذا أُتيحت للطفل بيئةٌ حاضنة تعي ذلك، وتعملُ لأجله، فتُحرِّض في الطفل ما كمنَ فيه من مواهب وقدرات، وتُوجِّهُها في الاتجاه الصحيح، فإذا لم يُتَح لهُ مثل هذه البيئة فإنه سيبقى طفلاً عادياً، لا يمارس أيَّ موهبةٍ فنية خاصة، بل لا يهتم بمجرد الاطلاع على تجارب الآخرين ومواهبهم.

الشِّعرُ موهبةٌ تحتاجُ بيئةً حاضنةً

الشِّعر كغيره من الأجناس الأدبية وبقية صنوف الفنّ، موهبةٌ تحتاجُ بيئةً حاضنة، ورعايةً وتنميةً وشحذاً. وعلاقةُ الطفل بالشِّعر تبدأ منذ مراحلَ مُبكِّرةٍ من حياته، من أغنيات الهدهدة التي تُغنِّيها الأمهاتُ والجدّاتُ للأطفالليناموا، إلى الأغنيات التي تُعبّر عن المراحل الحياتية المختلفة التي يَمرُّ بها الطفلُ لاحقاً قبل أن يصل إلى طور البلوغ، ومن الأناشيد البسيطة التي يتلقّاها في رياض الأطفال، ومن القصائد التي يَدرُسُها عبرَ صفوف دراسته، يُضافُ إلى ذلك افتراضُ أن يكونَ الطفلُ في بيئةٍ تهتمُّ بالشِّعر وبقراءته، بل بكتابتِهِ أيضاً، كُلُّ ذلك يُشكِّلُ مُحرِّضاتٍ تُسهِمُ في جذبِ الطفل إلى عالم الشِّعر، إمّا متذوقاً، وإمّا متلقياً، وإمّا محاولاً تقليد ما يتلقاه من قصائد مُعبِّراً عن نفسه وعن مشاعره وأفكاره الخاصة.

طبيعةُ الشِّعر تجذبُ الطفلَ إليه

مــن جهةٍ أُخرى، لا نُغفِلُ طبيعــةَ الشِّعر نفسِه ودورَها في جذبِ الطفلِ إليه، فالشِّعر يقومُ علــى الموسيقا المنسجمة والإيقاع المنتظم، ولا يخفــى تأثيرهما الكبير في النفس البشرية عمومــاً، وفي نفس الطفل خاصَّة، فالنفسُ تنشدُّ إلى الإيقاع، وتميلُ إليه، بل لعلّهُ يُفجِّرُ فيها طاقاتٍ تتجلّى في جعلِ الجسد يتمايلُ بانتظامٍ ونشوةٍ معَها.

ويقوم الشِّعر أيضاً على الخيال الفني والتصوير التخييلي، على «الرسم بالكلمات» إن صحَّ التعبيــر، ولهــذا دورٌ كبيرٌ أيضاً في جذب انتباه الطفل إلى هــذا اللون من الكتابة الإبداعية لأنه يفتحُ آفاقَ البصر والبصيرة، ويُعزِّزُ ملكةَ التَّخيُّل لدى الطفل، ويَجعلُهُ يتعاملُ مع اللغة ليس بوصفهــا أداةَ تواصُلٍ فحسب، بل بوصفها طاقةً فنيةً هائلةً إذا ما قُيِّضَتْ لها الرُّوح المبدعة التي تُحسِنُ تشكيلَها وتفجيرها وإعادةَ خلقها.

والشِّعــر أيضاً يقوم على العاطفة والمشاعر، ومعلــومٌ أنّ الإنسانَ كائنٌ عاطفيٌّ على نحوٍ أو آخــر، والطفل كذلك، فيُشكِّلُ الشِّعر من هذا الباب حافــزاً كبيراً للطفل ليُعاينَ هذا اللونَ الأدبــيَّ، ويحاول مُحاكاته بغيةَ التعبير عن مشاعره على اختلاف أنواعها، محاولاً التأثير في الآخريــن عاطفياً بالشِّعر، إلى آخر ما هنالك من سمــاتٍ للشِّعرِ تُسهِمُ إسهاماً كبيراً في دَفْعِ الطفل إليه.

الطِّفلُ وأوَّلُ عَهْدِهِ بالقلم

على صعيدٍ آخر، أرى الطفل، منذ اللحظة الأُولى التي يتعلّم فيها الإمساكَ بالقلم واستعمالَهُ لخَــطِّ أوّل ما تَعلَّمَهُ من حروفٍ، يتولّدُ في داخلِهِ شُعورٌ مُهمٌّ، وهو أنَّهُ أصبحَ يمتلكُ أداةً مهمةً يمتلكُها الكبار أيضاً ويُعبِّرُونَ بها عن أنفسهم، لذلك نراهُ دائمَ الإمساك بالقلم، يخطُّ به على المساحاتِ البيضِ فــي الورق ما شاءَ من خطوطٍ وأشكالٍ وكلماتٍ وحروف، وغالباً ما تتطوَّرُ هذه الحالُ لاحقاً حينَ يبدأ الطفلُ الاحتكاكَ بعالم الشِّعر، إذ لا ريبَ في أنــهُ سيشرعُ في كتابة أشياء تخصه هو، على دفترٍ صغير، أو على أوراق متناثرة، وليس بالضرورة أن يصبح أديبــاً أو شاعراً، لكنّــهُ يُمارِسُ فعلَ



الكتابة، وسنرى لاحقاً أنّ كثيراً من الناس يكتبون مُذكّراتهم وخواطرَهُم وهواجسَهُم ويوميّاتهم، منهـم مَنْ يكتبُ بأسلوبِهِ الخاصِّ، ومنهم مَنْ يستعيرُ أسلـوبَ غيره، المهمُّ أنهم يكتبون، ولعلَّ مـن رحمِ هـذه الحالة العامّة يُولَدُ شاعرٌ ما، إذا ما أُتيحتْ لهُ البيئةُ المناسبةُ التي تَضعُهُ في الصورة الحقيقية للشِّعر، فترعى موهبتَه، وتُنمِّيها.

الأطفالُ والشِّعرُ ومشكلةُ العزوفِ عن القراءة

أمّـا حالُ كتابة الشِّعر وقراءته لدى الأطفال واليافعين الآن، فهيَ جزءٌ من مشكلة القراءة لديهـم عموماً، وهي لا تسير على وتيـرةٍ واحدة بكُلِّ تأكيد، وتُراعى في ذلك الفروقُ الفرديّةُ، واختلافاتُ البيئة والمجتمع، وأشياءُ أُخرى كثيرة، لعلَّ من أهمها التطوّر المُستمرّ لتكنولوجيا الاتصالات، وما أحدثَتْهُ من طرائق تَلقٍّ جديدة، وعالم الميديا عموماً وما يتصل به.

وفي ظلِّ الشكوى المستمرة للأهالي من إحجام أطفالهم عن القراءة عموماً، فإن الطفلَ، كما أرى، على استعدادٍ تامٍّ ليكون قارئاً بامتياز، فالمشكلة ليست فيه، بل تكمن في نواحٍ عدّة، منهـا الأُسرةُ ومدى الجهود التي تبذلُها في جذبِ أطفالها إلى القراءة، كتوافر مكتبةٍ مناسبة فـي البيت، واعتياد الآباء والأمهـات فِعْلَ القراءة يومياً أمام الأطفـال، ومنها دَوْرُ المدارس وريـاض الأطفال ومدى الأنشطة القرائية الشِّعرية وغيرهـا التي تُقدِّمُها لتلاميذها، إضافةً إلى مستوى ما نُقدِّمُهُ للأطفال من نصوص شعريّة في المناهج المدرسيّة، ومدى قُدرتها على جذبِ الطفل إليها، بأن يجدَ نفسَهُ ومفرداتِ عالـمَهُ فيها، وأن يرى الطبيعةَ من حوله منعكسةً في صُورِ هذه النصوص، وأن تُحرِّكَ فيه مشاعرَهُ وعواطفَهُ تجاهَ قضيةٍ ما، وما إلى ذلك من عناصر يجبُ أن تكونَ مُتوافرةً في النصوص الشِّعرية المُوجَّهة إلى الأطفال.

الشِّعرُ وفوضى النَّشر الورقيّ والإلكترونيّ للأطفال

هُنا أتطرّقُ إلى اتِّساع عالم النشر للأطفال ما بين جهاتٍ عامة وخاصة، ورَقياً وإلكترونياً، فـي ظلِّ شغـفٍ تجاريٍّ كبيرٍ وقعَ فيه كثيرون، وهذا ما جعلَ المشهـدَ للمتأمل يعجُّ بكثيرٍ من الفوضـى، إذ دخلَ عالمَ الكتابة الشِّعرية للأطفال من لا يعـرف أبجديّاتها الأولى، ولا يعرفُ مـن الأوزان الشِّعرية غيـر تفعيلة الخبب الراقصة، فنراهُ ينظمُ عليهـا خبطَ عشواء، وتُطبَعُ هذه المنظومات في حُلَلٍ فاخرة، وتصدر عن دورِ نشرٍ ماهرةٍ في الترويج والتوزيع، والنتيجةُ النهائيـة وصولُ هذه المُنتجات الشِّعرية الرَّديئة إلى الطفل، ولعلَّها ستفعلُ فعلَها فيه، وتُفسِدُ ذائقتَهُ، وتَجعلُهُ يعزفُ عن الاهتمام بالشِّعر.

الأطفالُ وكتابةُ الشِّعر

إنَّ الطفلَ، إضافةً إلى أنّه قادرٌ على أن يكون قارئاً بامتياز، فإنهُ قادرٌ على التأثُّرِ بما يتلقّاهُ من شِعر، بل قادرٌ على انتقاده أيضاً، ومن خلال عملي للأطفال في مجلة أسامة وغيرها، واحتكاكي المباشر معهم، وإدارتي لبعض الملتقيات الخاصة بالأطفال واليافعين، لاحظتُ إقبالاً كبيراً منهم على كتابة نصوص شعرية بأساليب متنوعة، منها ما يُقلِّدُونَ فيه الأنموذجَ الكلاسيكيَّ للنصِّ الشِّعريّ، أي نظام الشطرين، ولأنّهم لم يلتقطوا بعدُ إيقاعات الشِّعر، فإنهم يكتفون بالقافية والروي مع بعض العبارات الموزونة المنتشرة في مفاصل مُحدَّدة من النص، ومنهم من يكتبون ما يمكن أن نُسمِّيَهُ خاطرةً أو نصاً نثرياً، لكنّهم يحرصون على أن يتضمّنَ رُوحَ الشِّعر وصُورَهُ وموسيقاهُ الخاصة، أمّا مضامين ما يكتبونه فقد لاحظتُ أنّ منهم من يقدّم موضوعاتٍ تُهِمُّ أقرانَهُ الأطفالَ وتَشدُّهُم، وكأنّهُ يَعُدُّ نفسَهُ شاعراً للأطفال، ومن ثم فإنّ أسلوبَهُ في هذه الحال مُنسجمٌ مع روح الكتابة للأطفال عموماً، ومنهم من يُقدِّمُ موضوعات تُوحي بأنّهُ أصبح كبيراً، له لواعجُهُ وهمومُهُ الخاصة وقضاياه الجوهرية، فيُعبِّرُ عنها شعرياً بأسلوبه الخاصّ، ومنهم من يلتفتُ إلى قضايا عامّة متنوعة يُعبِّرُ عنها بلُغتِه، ويُضفي عليها نظراتِهِ وانفعالاته الخاصة.

هل هناكَ طريقةٌ أنموذجيّةٌ لكتابةِ الشِّعر للأطفال؟

إذا ما أردنا الحديثَ عن طريقة أنموذجيّة لكتابة الشِّعر للأطفال واليافعين، فإنني أرى في المقام الأول ضرورةَ مُلامسةِ عالمِ الطفل الحاليّ بكلِّ مفرداته وأبعاده، وهُنا ينبغي على الشاعر الذي يكتبُ للأطفال، إضافةً إلى ضرورة أن يكون موهوباً وقادراً، ألّا يكونَ ما يُقدِّمُهُ لهم من نصوصٍ غريباً عنهم وعمّا يُهمُّهم ويَشدُّهُم ويُحرِّك مشاعرَهُم وانفعالاتهم. وبما أنّنا في عصر الصورة فإنّ الابتعادَ عن التجريد والمُجرَّدات في الكتابة الشِّعرية للطفل أمرٌ مهمٌّ جداً، بل على الشاعر أن يتّخذَ الصُّورةَ والحركةَ والمواقفَ الدرامية البسيطة أساساً لبناء نصّه الشِّعري، فإن أراد مثلاً أن يكتبَ نصاً شعرياً لهدف تربويٍّ هو تنفيرُ الطفل من الكذب وجَذْبُهُ إلى الصدق، فعليه ألّا يقول ما يريد قوله مباشرةً عبرَ أسلوب الوعظ والإرشاد، بل من خلالِ صورةٍ متحركة أو قصّةٍ أو موقف دراميٍّ مُبسَّط، وهكذا يكونُ تأثيرُ النص كبيراً في نفس الطفل، ومُوصِلاً إلى الهدف المنشود، كذلك لا بد من مراعاة الأوزان العروضية القصيرة، والتفعيلات ذات الإيقاعات المُحبَّبة، ومراعاة القاموس اللغوي للطفل حسب المرحلة العمرية

التـــي ينتمي إليها، ومحاكاة الطريقة التي يُفكِّر بها الطفل بغيةَ أن يُحِسَّ أنَّ هذا النصَّ يعنيهِ حقّاً، ويُعبِّر عنه، فيُقبِلُ على قراءته.

مُقترحاتٌ في سبيلِ تعزيز إقبال الأطفال على الشِّعر قراءةً وكتابةً

١- الحرص على تضمين مناهج اللغة العربية المدرسية، ولاسيما مرحلة رياض الأطفال ومرحلـــة التعليـــم الابتدائي، نصوصاً شعريـــةً ذاتَ مستوىً فنيٍّ عالٍ بغيـــةَ الارتقاء بالذائقة الشِّعرية للطفل العربيّ.

٢- طباعـــة الكُتيّبات الشّعرية المُوجَّهة إلى الأطفال بعـــد انتقاء نصوصها بعناية مرفقةً بالرســـوم المُعبِّرة والمُوحية، مع ألبوم يضمُّ قصائدَ الكُتيّب مُلحَّنةً ومُؤدَّاة. ونلاحظ في هذا الصدد شُحّاً كبيراً مقارنةً بما يُطبَعُ من كُتبٍ قصصيّةٍ للأطفال، وهذا الأمرُ برسمِ دور النشر المختصة بالأطفال.

٣-إقامـــة أنشطة شعرية يكون أبطالها الأطفال ممّن لديهم ملكة الكتابة الشِّعرية، وكذلك إقامة الملتقيات الأدبية التي تهتمُّ بتنمية مواهب الأطفال الكتابيّة.

٤- إقامـــة المسابقات الشِّعرية للأطفال في المراحل العمرية كلّها بغية اكتشاف مواهبهم ورعايتها وتشجيعها.

٥- عـــدم النَّظر إلى أُغنيات شارات أفلام الرسوم المتحركة وأغنياتها الداخلية على أنها مجـــرد كلام يُعبِّرُ عن رسالة الفيلم، بل ينبغـــي أن يكتبها شعراء مختصون بالكتابة للطفل، إذ إننـــا نلاحظ في كثير من هـــذه الأغنيات كسوراً كثيرة في الأوزان العروضية، وعباراتٍ عاديةً بعيدةً عن النَّفَسِ الشِّعريّ المُؤثِّر.

٦- الحذر من القنوات التلفازية التي تعرض أغنياتٍ للأطفال على مدار الساعة، والتي قد يجد الأهـــل أنها نافعةً في جعلِ الأطفال، ولاسيّما في المراحل المبكرة، شغوفينَ بمتابعتها، ولكنّ أغلبها في الحقيقة تُقدِّمُ أغنياتٍ هابطةً من المناحي كلّها، كلماتٍ وألحاناً وأداءً ورسالةً.

الخوف المرضي من فقدان الجوال

د. محمد قاسم عبد الله

يعرِّف الدليل التشخيصي والإحصائي الخامس للاضطرابات النفسية DSM-IV-TR (٢٠١٤) المخاوف المرضية أو الرهاب **phobia** (فوبيا) بأنها خوف غير عقلاني مبالغ فيه من موضوعات ومواقف لاتنطوي على أي تهديد أو خطر حقيقي. ولكن المريض يعيش حالة خوف شديد، ويبذل محاولات مستمرة لتجنب هذه المواقف والأشياء. وتكون الأعراض شديدة ومكثفة يرافقها ضيق شديد مما يؤثر سلباً في الأداء الوظيفي الاجتماعي للفرد وفي أدائه المهني. ومن أشهر هذه المخاوف أو الرهابات: رهاب الطيران، والأفاعي والألوان، والدم، والشعر، والساحات، والظلمة، والتقنية والحاسوب، والخوف من الحيوانات، والمرتفعات، والنار، والمياه، والأشياء الحادة. ومن أكثر المخاوف انتشاراً: الخوف من الأماكن المرتفعة (رهاب المرتفعات)، والأماكن الضيقة (رهاب الأنفاق)، وحديثاً رهاب فقدان الجوال. والجدول الآتي يوضِّح أسماء بعض المخاوف النوعية:



الخوف	المخاوف المرضية (الرهاب)
أي شيء جديد anything new	رهاب الجديد Neophbia
الكتب books	رهاب المكتبات Bibliophobia
الأطفال children	رهاب الأطفال Pedophobia
الرقص dance	رهاب الحركات Chorophobia
التقنية technology	رهاب التكنولوجيا Technophobia
المرتفعات height	رهاب المرتفعات Acrophobia
الماء water	رهاب الماء Aquaphobia
الرعد والبرق storm	رهاب الرعد Prontopgbia
الكيمياء Chemistry	رهاب المواد الكيماوية Chemophobia
الحاسوب Computer	رهاب الحاسوب Cybephobia
الجوال mobile	**رهاب الجوال** Menophobia

رهاب فقدان الهاتف المحمول

انتشرت الهواتف الذكية في العصر الحالي انتشاراً سريعاً، حتى باتت جميع الأعمال تتم عبر الهاتف إضافة إلى وسائل الاتصال الحديثة وإلى أبعد من ذلك فبعضهم يعتمد اعتماداً كلياً على الهاتف في تسجيل الملاحظات، والرسم، وعمل العروض التقديمية، وغيرها كثير من المميزات الحديثة عبر تطبيقات الجوال الكثيرة. ولكن قد يتطور الأمر لدى كثيرين اليوم حتى يصبح عدم وجود الهاتف بيده باستمرار بمنزلة كارثة، كأن شيئاً بالغ الأهمية قد فقده، ويشعر حينها بالقلق، والاضطراب، ويصاب بالهلع، وتسمى هذه الحالة بالخوف المرضي من فقدان الجوال أو برهاب الانفصال عن الهاتف الذكي وهي باللغة الإنكليزية:

(no-mobile phone-phobia) واختصاراً «nomophobia»، أي الخوف المرضي من فقدان الهاتف المحمول. يشعر المريض بالخوف تجاه فقد الهاتف المحمول أو الخوف في المناطق التي لا تسمح بتغطية شبكة المحمول، لأن المريض بتلك الحالة لا يستطيع حينها استقبال أو إرسال الاتصالات، ويرجع سبب انتشار هذا الاضطراب إلى وفرة وانتشار الهواتف المحمولة، وانخفاض أثمانها في جميع أنحاء العالم.

تاريخ المفهوم: اكتشف مصطلح «رهاب فقدان الجوال» أوّل مرة عام (٢٠٠٨م) من المحققين البريطانيين، ليشير إلى الحالة التي يعاني فيها الأشخاص من تشويش ذهني، وتوتر واضح حين تنقطع التقنية لديهم بكل أنواعها. وقد قُبِلَ المصطلح علمياً في مختلف الجمعيات والهيئات العلمية ومنها الرابطة النفسية الأمريكية، والجمعية الأمريكية للأطباء النفسيين، وقد ثبت حينها أن ٦٦٪ من عينة حجمها (١٠٠٠) شخصٍ طُبِّق عليهم الاختبار تبين أنهم يعانون من رهاب فقدان الجوال. ومن ثم أدرج المصطلح في قائمة المخاوف المرضية وذلك في الدليل التشخيصي والإحصائي للأمراض النفسية عام (٢٠١٤م) الذي يعتمد عليه المختصون في تشخيص الاضطرابات النفسية.

أشارت دراسة أجرتها شركة «**سكيوريتي إنفوي**» (شركة متخصصة في تأمين الخدمات التي يقدمها المحمول بشكل آمن) أن نحو ٦٦٪ من مستخدمي الهاتف المحمول في بريطانيا، وكثيرٍ من دول أوروبا، يعانون من تلك الحالة المرضية. وفي دراسة أخرى قامت بها صحيفة الديلي ميل البريطانية أن نحو ٧٧٪ من الشباب من عمر (١٨-٢٤ سنة) لا يستطيعون البقاء لثوانٍ من دون الهاتف. وبلغت هذه النسبة ٦٨٪ في الفئة العمرية (٢٥-٣٤ سنة) وأن النساء أصبحن مهووسات بفقدان هواتفهن المحمولة أكثر من الرجال. من جهة ثانية فقد بينت الدراسة أن الأشخاص يتفقدون هواتفهم المحمولة بمعدل ٣٤ مرة باليوم، وأن ٧٥٪ من الأشخاص يستخدمون هواتفهم المحمولة حتى في الحمام، وأن هذه الحالة لا تقتصر على الخوف من فقدان القدرة على الاتصال، بل تشمل أيضاً القلق من الوجود خارج نطاق التغطية.

علاوة على ذلك فإن الخوف المرضي من فقدان الجوال Nomophobia «أين هاتفي»؟ هو الخوف من عدم الحصول على الجهاز المحمول، فهذا الإحساس، وفقَ «ديلي ميل»، قد يؤثر فيما ما يصل إلى ٧٧٪ من الأفراد، إذ يعاني الفرد من القلق الدائم من عدم التمكن من الحصول على الهاتف المحمول، أو حدوث أمر يمنع تشغيله مثل انتهاء الشحن للبطارية، أو نسيان الهاتف، وقد اكتشف أن كثيراً من الأشخاص يعانون منها بدرجات متفاوتة، إذ الخوف من فقدان الاتصال بالجوال سواء عن طريق فقدان إشارة الشبكة، أم انتهاء شحن البطارية.

يعرف الخوف المرضي من فقدان الهاتف المحمول بأنه «خوف من الابتعاد عن الهاتف المحمول واستعماله»، ويستخدم المصطلح Nomophobia اختصاراً لكلمات رهاب عدم

وجـــود الجوال No-Mobile-Phobia، وقد ظهر المصطلح أوّل مرة عام (٢٠٠٨م)، وذلك في الدراسة التــي قام بها مكتب البريد البريطاني لتقصي حــالات القلق التي يعانيها مستعملو الهاتف المحمول (Pinosova, Andrejiova, Lumnitzer & Hricova,2014). وبالإشارة إلى الأشخاصــ الذين يعانون من هذا الاضطــراب فقد استخدم مصطلحان: الأول اسم Homo-phobe، ويــدل على الشخص الــذي يعاني من هذا الرهاب، والثانــي صفة Homophobic للإشارة إلى الخصائص التي يتصف بها هذا الشخص الرهابي والسلوكيات المرتبطة به.

وتعدّ دراسة كينغ وفالينكا وناردي (King, Valenca & Nardi, 2010) من أولى الدراسات حــول الاضطراب التي قارنت انتشار هذا الرهاب في ٢١ دولة، وذلك من التقنيات الجديدة. وفــي تعريفهم لرهاب فقدان الجوال، فقد عرفوا المفهوم بأنه «حالة من الضيق أو الانزعاج discomfort والقلق anxiety حين لا يمكن للشخص استعمال هاتفه المحمول أو الاتصال بالكمبيوتــر، إنه خوف من عدم التواصــل الإلكتروني أو التقني والابتعاد عن صفحة الويب». يلاحظ من هذا التعريف أنه لا يتضمن الخوف المرضي من فقدان الهاتف المحمول فحسب، بــل الحاسوب أيضاً. وفي دراسة أخــرى للباحثين أنفسهم وقد أجريت عام (٢٠١٤م)، عرفوا مفهوم الخوف المرضي من فقدان الجوال بأنه:

«اضطــراب العالم الحديــث disorder of the new world، وأنه استخدم حديثاً للإشارة إلى وصف مشاعر القلق anxiety والضيق discomfort التي يمر بها الشخص حين لا يتاح له استعمال هاتفــه المحمول أو يكون خارج نطاق أيّ وسيلة تواصل افتراضي virtual com-munication كان الشخص قد اعتاد على استعمالها».

على الرغم من أن هذا التعريف يتضمن القلق والضيق من عدم إتاحة استعمال الكمبيوتر مــن الشخص (وليســ عدم إمكانية استعمــال الهاتف المحمول فحسب)، فقــد أشار هؤلاء الباحثــون إلى أن الحاسوب قد يحل محل الهاتف المحمول، وأن دراستهم ركزت على الهاتف المحمول وبدرجة أقل على التواصــل الافتراضي والحاسوب، وأن تعريفهم يتضمن الاعتماد على البيئــة الافتراضية للتواصــل virtual environment communication. وفي دراستهم الأحــدث التــي أجريــت عــام ٢٠١٤ (King, Valenca & Nardi,2014)، فقــد عرف كينغ وزمــلاؤه الخوف المرضي من فقدان الهاتف المحمول بأنــه «خوف - حديث- من أن يكون الشخص خارج نطاق التواصــل باستعمال الهاتف المحمول أو الإنترنت. وأن مصطلح رهاب

فقـــدان الهاتف المحمول يتضمن عدداً من السلوكيات والأعراض المتعلقة باستعمال الهاتف المحمــول، وأن هذا الرهاب هو خوف موقفي أو ظرفي situational phobia يرتبط بالخوف مــن الأماكن المرتفعة الذي يسيطر على الشخص خوف مفرط من أن يكون مريضاً ولا يتاح له تلقي المساعدة اللازمة». ففي هذا التعريف الجديد، شدد كينغ وزملاؤه على عدم القدرة على التواصل من خـــلال الهاتف المحمول، والنقطة المهمة الأخرى التي يجب الإشارة إليها فـــي هذا التعريف هي «ارتباط رهاب فقدان الهاتــف المحمول الموقفي أو الظرفي برهاب الأماكن المرتفعة». ففي حين ركز تعريفهم السابق على مشاعر القلق الناتجة عن عدم إتاحة استعمـــال وسائط التواصل الافتراضي أو الكمبيوتـــر، فإن التعريف الجديد ركز على الهاتف المحمول ويعدّ رهاب فقدان الجوال خوفاً مرضياً موقفياً وظرفياً.

كمـــا أن مجلة الأعمـــال الدولية عام (٢٠١٣م) قد شددت فـــي تعريفها للاضطراب على مشاعر القلق التـــي يسببها عدم إتاحة الهاتف المحمول للشخص، وقد عرفت رهاب فقدان الهاتـــف المحمول بأنه «القلق الذي يعانيه الشخص حيـــن يشعر بعدم وجود تغطية أو خارج الشبكة، أو انتهاء شحن البطارية، أو نسيان الهاتف المحمول، أو عدم تلقي مكالمات أو رسائل نصيـــة أو ملاحظات بريدية مدّة محددة من الزمن. باختصار إنه خوف نفسي psychological fear مـــن فقدان الهاتف المحمـــول»، وإذا نظرنا إلى هذا التعريف نلاحظ أنه يركز على المظاهر السلوكية للاضطراب من خلال تحديده للمواقف التي يتعرض فيها الشخص للقلق (http://WWW.alkhaleej.ae/supplements/page)

ويركز بعضهم على الهواتف الذكية smartphones إذ افترض كينغ وزملاؤه عام (٢٠١٤م) أن الخـــوف المرضـــي من فقدان المحمول هو خوف حديث العهـــد، وأنه اضطراب ناتج عن علاقة الإنسان بالتقنية الحديثة، كما أن «الهواتف الذكية» قد حلّت مكان «الهاتف المحمول»، وذلـــك لأنها تتيح الاتصال المستمر والثابت instant communication، كما تساعد الشخص على الاستمرار في التواصل مع أي شخص وفي أي وقت، كما يسهل الحصول على المعلومات والاتصـــال بالناس مما يخفض القلق الذي يعانيـــه الشخص حين يكون خارج نطاق التواصل بالهاتـــف المحمول، إن هـــذه الخصائص تبين لماذا يرتبط رهـــاب فقدان الهاتف المحمول بالهواتـــف الذكية، وذلـــك لأهمية الإمكانات المعيارية للهواتـــف الخليوية (مكالمات هاتفية، رسائل نصية) ولها إمكانات كثيرة تشبه سهولة الإنترنت وتطبيقاته المتنوعة.

الاعتماد، والإدمان السلوكي، والخوف المرضي من فقدان الهاتف المحمول

استخدمت مصطلحات كثيرة لاستعمال الهاتف المحمول، إذ عدّه بعضهم «إدماناً سلوكياً» Behavioral Addiction يشبه الإدمان على المواد المؤثرة والعقاقير العقلية، وكذلك مفهوم «الاعتماد على الهاتف المحمول Phone Mobile dependence»، وكذلك «الاستعمال المفرط أو المشكل للهاتف المحمول Phone Mobile Problematic Use»، وكذلك مصطلح «إساءة استعمال الهاتف المحمول Mobile Phone Abuse»، وأخيراً «الخوف المرضي من فقدان الهاتف المحمول Nomophobia»، و«القلق الرقمي» أو «قلق اللاهاتف». وسنستخدم في هذه الدراسة مفهوم الإدمان السلوكي للإشارة إلى الاعتماد على الهاتف المحمول، واستخدام مصطلح الخوف المرضي من فقدان الهاتف المحمول، للإشارة إلى رهاب وقلق ترك الهاتف المحمول (Nikhita, Jadhav, & Ajenkia,2015).

على الرغم من أن بعضهم يعزو رهاب فقدان الجوال إلى الاعتماد على الهاتف المحمول والإدمان عليه (Dixit,2010) ، كما نسب ديكسيل الرهاب إلى اعتماد الشخص على الهاتف المحمول dependence، إلا أن بعضهم عدّه سلوكاً إدمانياً addiction (Forgays,Hyman & Schreiber,2014)، وأنه يختلف عن الخوف المرضي من فقدان الهاتف المحمول، في الوقت الذي وحّد بعض الباحثين بين المفهومين عادّين أن سلوك الإدمان يتضمن معنى الخوف المرضي. وأن من المناسب تصنيف رهاب فقدان الهاتف المحمول ضمن فئة المخاوف المرضية الموقفية النوعية.

ووفق شوي وزملائه (Choy,Fyer & Lipsitz,2007) فإن المخاوف النوعية الموقفية هي إحدى فئات المخاوف النوعية التي أشار إليها الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع للأمراض النفسية (DSM-IV)، والتي لم تتغير في الدليل التشخيصي الخامس (DSM-V)، وتعزى إلى مخاوف نوعية ومرتبطة بمواقف محددة وهي «خوف مبالغ فيه وغير منطقي irrational من موضوعات ومواقف محددة يتجنبها الشخص وتستمر لديه مع ما يرافقها من ضيق وقلق great distress» وتظهر المخاوف النوعية الموقفية حين يمر الشخص بموقف محدد يستدعي لديه خوفاً غير منطقي ومبالغ فيه من هذه المواقف ويقوده إلى ردود أفعال جسمية ونفسية. فالخوف من الطيران الذي يسمى «رهاب الطيران Aviophobia»، والخوف من الأماكن المرتفعة agoraphobia هي من أكثر المخاوف المرضية النوعية الموقفية انتشاراً (Sko-

(hick, schare, Wyatt & Tillman,2012)، ففي مخاوف الطيران يتجنب الشخص الطيران كلما استطاع ذلك، وإذا صعد الطائرة لسبب ما سيعاني من قلق وضيق شديدين intensive anxiety and distress. والأمر نفسه في حالة مخاوف فقدان الهاتف المحمول إذ يعيش الفرد حالة خوف مبالغ فيها وغير منطقي من ترك الهاتف المحمول أو الابتعاد عنه وعدم إمكانية استعماله فيسعى جاهداً وباستمرار ليكون في متناول يده بما يتيح له التواصل واستعماله، من هنا فإنه يتجنب جميع الفرص والمواقف التي تمنعه من استعماله، وذلك لتجنب تعرضه للقلق والضيق حين الابتعاد عنه أو فقدانه. وعلى الرغم من أن بعض الباحثين لا يعدّون الخوف المرضي من فقدان الهاتف المحمول إدماناً عليه addiction أو اعتماداً عليه dependence فإنه في كلتا الحالتين يعدُّ استعمالاً مرضياً مشكلاً pathological and problematic use للهاتف المحمول، ولذلك سيركز بحثنا على الاستعمال المرضي المشكل للهاتف المحمول.

أعراض رهاب فقدان الجوال

فقد يعاني من هذا الاضطراب أي شخص دون أن يعرف ذلك، إذ إنَّ هذا الفقدان يعني عدم القدرة على التواصل مع الأصدقاء والانقطاع عن كل ما يحدث حولهم. يأتي ذلك بعد أن اعتاد هؤلاء الناس حمل الهواتف في كل مكان يذهبون إليه في حجرة النوم، وفي مكان العمل، وفي أثناء سيرهم، وفي أثناء استخدامهم المصعد، حتى في أثناء دخولهم دورة المياه، ومن ثمَّ فإن فقدان الهاتف الجوال يعني فقدان واحد من أعز الأصدقاء الذي يقضي معه أكبر وقت من حياته، ويشعر الشخص بأنه لا يستطيع الاستغناء (أو الابتعاد) عنه. وبسبب هذه السيطرة للهاتف المحمول على الشخص، استخدم بعض علماء النفس مصطلح الإدمان (والاعتماد) على التقنية، كما يعتمد مدمن المخدرات على المؤثرات العقلية والمخدرات، وإذا كان الإدمان على المخدرات بمنزلة سمّ يهلك صحة الفرد ومن ثمَّ مخاطره الاجتماعية، فإن الإدمان على الهاتف المحمول بمنزلة سمّ للروابط الاجتماعية بين الأفراد، وهذا ما نلاحظه في حياتنا اليومية حين يجتمع عدد من الأصدقاء أو أفراد الأسرة وكل منهم يعيش مع هاتفه المحمول، وليس مع الآخرين، فوجودهم مع بعض وجودٌ جسميٌّ (فيزيائي) وليس معنوياً واجتماعياً وعقلياً وانفعالياً. فسيطرة الهوية الشبكية على الفرد (بدلاً من الهوية الفردية) تجعله يعتمد عليها اعتماداً كلياً في الاتصال والتساؤل، والبحث عن الإجابات، مما يفقد ثقة

الفرد بنفسه، ويجعله تحت هيمنة الهاتف المحمول ومحتوياته، وهو ما يشكل اضطراباً نفسياً يسمى الوسواس القسري والفعل القهري، لأن الفرد لا يستطيع التخلص منه حتى لو حاول ذلك، فإنه يمر بحالة قلق شديد. ولذلك فإن هذا الاضطراب يسبب خللاً في الصحة النفسية للفرد. ويذكر بعض العلماء أن الطب قد أحصى عدداً من الأمراض المرتبطة بالهاتف المحمول، من بينها إمكانية التسبب بسرطان الدماغ، والتأثير السلبي العين، والخوف الشديد من نفاذ البطارية، وعدم استطاعة الفرد إغلاق المحمول في أي وقت، والقلق من الذهاب إلى مكان لا توجد فيه تغطية.

وقد عدَّ علماء النفس المرضي الرهاب، أحد أشكال اضطرابات القلق. إذ يُعبَّر عن القلق عادة بالمشاعر غير السارة التي تتميز بالهم worry والخشية والفزع، والرهبة والخوف fear التي يشعر بها الفرد في وقت ما من حياته، وقد عدّه فرويد «رد فعل لحالة خطر»، كما عرفته كارين هورني (Horney) بأنه «استجابة انفعالية لخطر يكون موجهاً إلى المكونات الأساسيّة للشخصية»، وأن القلق «هو حالة توتر شامل ومستمر نتيجة توقع تهديد خطر فعلي أو رمزي قد يحدث يصحبها خوف غامض وأعراض نفسيّة وعضوية (زهران ١٩٨٢م). فالقلق هو استجابة انفعالية لخطر يخشى من وقوعه يكون موجهاً للمكونات الأساسيّة للشخصية، والانفعال الأساسي فيه هو الخوف (الرفاعي ١٩٨٢م).

وما يميز الخوف المرضي (رهاب فقدان الجوال) بوصفه من أمراض القلق هو أنه:

١- انفعال (جوهره الخوف الغامض).

٢- ينطوي على تهديد وخطر (واقع أو يخشى وقوعه).

٣- يرافقه شعور بالتوتر والتوجس.

٤- الخطر والتهديد موجه نحو الشخصية بكل مكوناتها (الجسمية والنفسيّة والاجتماعيّة).

٥- مبالغة الفرد في خطورة الموقف (من هنا يعدّ الرهاب خوفاً مبالغاً فيه وغير منطقي لموقف لا يستدعي هذه الدرجة من الخوف).

كما حدد لويس Lewis (١٩٨٨) الخصائص الست الآتية للقلق:

١- إنه حالة انفعالية Emotional State يرتبط به: ذعر، وفزع، وخشية، وتوقع خطر، وتوجس.

٢- يتميز هذا الانفعال بأنه غير سار Unpleasant.

٣- إنه انفعال موجه نحو المستقبل. Directed Toward The Future

٤- لا يوجد تهديد حقيقي أو معروف أو محدد، أو أن التهديد إن وجد فعلاً فهو لا يستدعي مثل هذا الانفعال، ولا يتناسب معه بهذه الدرجة من التهويل.

٥- هناك شـكاوى جسمية ذاتية ولاسيّما شعور بضيق الصـدرConstruction of chest Especially.

٦- يرافقه أيضاً اضطرابات وتغيرات عضوية وجسمية واضحة Manifest bodily disturbance.

وهكـذا فإن أعراض رهاب فقدان الجـوال بوصفه من أمراض القلـق، تشمل مكونات الشخصية في بنائها الوظيفي والديناميكي (البناء العميق للشخصية). والتي تظهر من **خلال أعراض سلوكية متنوعة منها:**

- خوف المريض من عدم وجود تغطية.

- خوف من انتهاء شحن بطارية الهاتف المحمول.

- قلق مبالغ فيه من عدم القدرة على التواصل (إرسال واستقبال الاتصالات).

- خوف من عدم مشاركة الآخرين ولا سيّما الأحداث اللطيفة (أو الانقطاع عنهم).

- قلق الشخص من فقدان المتعة التي تعززت بمواقف سابقة.

- متلازمة رنين الهاتف المحمول (إذ يتوهم الشخص بأن الهاتف المحمول يرن في حين أنه لا يرن بالواقع).

- التفقد المستمر للرسائل والصفحات.

- هلوسات سمعية وبصرية في المرحلة المتقدمة «الإدمان على الهاتف المحمول».

- خداع بصري وسمعي (وهم).

- الاعتماد المستمر والقسري لدرجة الإدمان.

- عزل الشخص عن محيطه الاجتماعي وعن التفاعل الاجتماعي الحي.

- متلازمة اليدين.

- التأثير السلبي على العين.

- اضطراب النوم: فقد تبين أن للجهاز تأثيراً سلبياً على العين من خلال الإشعاع الصادر عنـه، يسمى «فونتزم» الذي يؤثر في الدماغ عـن طريق السيالات العصبية التي تنبه بدورها الهيبوتلاموس (تحت المهاد: مركـز الوظائف الحيوية بالمخ) إذ ينبـه نويات النوم، فيبقى

الشخص مستيقظاً، ويشعر بالجوع، مما يدفعه لتناول كميات كبيرة من الطعام لاحقاً، قد تؤدي إلى السمنة وما ينتج عنها من أمراض.

ومن المؤشرات التي تدل على الخوف المرضي من فقدان الجوال:

- وضع الهاتف المحمول جانب الوسادة.
- استعمال الهاتف المحمول في الحمام.
- استعمال الهاتف المحمول ساعات طويلة.
- تعطل الشخص عن أدائه اليومي الوظيفي (إذ يتأثر نوم الشخص، وطعامه، وأنشطته اليومية كالدراسة والعمل).
- إساءة استعمال الهاتف المحمول mobile abuse، وتوظيفه لأغراض سلبية.
- الانحراف والسلوك اللا اجتماعي antisocial behavior

الآثار والمظاهر السلوكية لرهاب فقدان الجوال

استناداً إلى الأعراض المذكورة آنفاً، فقد قسَّم المختصون الآثار والمظاهر السلوكية لهذا الرهاب إلى ثمانية هي:

أولاً- خوف الشخص من عدم وجود أحداث في صفحته على «فيسبوك» FOMO؟

هو مرض جديد ويعدُّ اختصاراً لجملة «Fear Of Missing Out»، ففي الوقت الذي يعيش فيه كثيرون حياتهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة، فيقوم كل شخص بعمل «شير» للأحداث المهمة بحياته، وكذلك نشر كل «حدث» أو «صورة»، فإن الخوف الذي يتولد لدى الشخص من أن يتخلف عن الركب ولا يشارك الآخرين بالأحداث اللطيفة التي تحدث له، وكذلك ينشأ لديه خوف، من ألا يستطيع أن يجد أشياء رائعة في حياته ليشارك الآخرين بها، وكأنه الوحيد الذي يفوته المرح والمتعة في الحياة مع المحيطين به.

ثانياً- متلازمة الرنين الوهمي Phantom ringing syndrome تصيب كثيرين، إذ يسمع الشخص بوضوح صوت رنين الهاتف دون أن يرن في الواقع، ويقول الأطباء النفسيون إن هذه المتلازمة تأتي بأشكال مختلفة، فبعضهم يشعر بحركة الهاتف في جيبه وذبذباته دون أن يكون ذلك حقيقياً، وتفسر هذه الظاهرة بأن الناس في العصر الحديث أصبحوا يربطون

كلّ تعاملاتهم الاجتماعية بالهواتف المحمولة، ولذلك فهم في حالة قلق وانتظار دائم وتوجس من أن يحدث شيء ويتلقوا اتصالاً حوله فلا يلحقونه، الطريف أن الأطباء يتنبَّؤون أنه في ظل تطور التكنولوجيا، فإنه عندما تتحول كل الهواتف إلى التنبيه البصري، سيسيطر على الناس هلاوس بصرية وسمعية.

ثالثاً- دع العالم يتحرك Cybersickness: هل شعرت وأنت صغير بالدوار الحركي؟ حيث قمت بالدوران سريعاً وعندما توقفت شعرت أن العالم ما زال يدور من حولك؟ فاضطراب «دوار الإنترنت» يشبه الدوار الحركي إلى حد كبير، فعندما تتصفح الشبكة العالمية، وتصطدم عينيك ومخك بكل هذه الأشكال المتحركة وثلاثية الأبعاد التي تتحرك أمامك، لا يستطيع دماغ مثل هؤلاء الأفراد الفصل بين الصور في الإنترنت والواقع، ولذلك فبمجرد توقفهم عن تصفح الإنترنت يبدؤون في الشعور بأن الأشياء تتحرك في مدى بصرهم، أو بالتشويش دون أن يكون ذلك حقيقياً، وتخلق هذه الحالة نوعاً من اضطرابات الإدراك ولاسيّما الخداع البصري والهلوسة، والتشويش الذهني على المدى الطويل.

رابعاً- تأثير «غوغل» The Google effect: من بين جميع الاضطرابات النفسية الجديدة، فإن تأثير غوغل هو الأكثر مصدراً للخوف والقلق، في رأي المتخصصين، إذ يحوِّل البشر إلى «أغبياء» وكسالى بالتدريج وضعف القدرة على الاحتفاظ ومن ثمَّ التذكر، ويؤكد الأطباء أن هذا الاضطراب لا يقتصر على بعض الناس فحسب، بل ربما بطريقة أو أخرى يصيب كافة المتعاملين مع الإنترنت. ووفق عدد من الأبحاث، فإن الوصول المستمر للمعلومات بشكل غير محدود وبسهولة تامة، بسبب البحث على محرك «غوغل»، يجعل الدماغ أقل قدرة على الاحتفاظ بالمعلومات، ويقلل من استخدام الذاكرة، وكذلك فإنه يجعل البشر أقل ذكاء، والمخ أقل استخداماً.

خامساً- الخوف من الإنترنت: ويسمى الخوف المرضي من الإنترنت أو رهاب الإنترنت Cyberphobia وفيها يخاف الشخص من التعامل مع كل ما هو متصل بالإنترنت سواء أجهزة كمبيوتر أم شبكة الإنترنت، ويتحول عالم الإنترنت الواسع بكل تشعباته إلى مصدر للخوف والهلع والضياع، وكذلك الاغتراب للشخص وعدم الأمان.

سادساً - لا تلتقط صورتي من فضلك :Selfiephobia هو اضطراب سلوكي حديث ولم يُذكَر بعد في المراجع الطبية النفسية على الرغم من تشخيص علماء النفس له، وهو الخوف من التقاط صور «السيلفي»، ويرجع السبب الأساسي فيه إلى عدم ثقة الشخص في نفسه

واعتقاده أن صورة الشخصية ستكون رديئة، وأنه سيكره ما يراه في الصورة بعد التصوير، كما أن المصابين بهذا المرض يصبحون أكثر انتقاداً لأنفسهم في حالة التقاط الصورة لهم.

سابعاً- الخوف من التكنولوجيا: هو الخوف من التطور التكنولوجي الحالي، فلا يستطيع المرء التعامل مع الأجهزة الحديثة، ولا يثق بها، ويشعر بالقلق والتوتر من أن تعتمد حياته عليها، أو أن يفقد حياته التقليدية الهادئة، لمصلحة الثورة التكنولوجية الحالية، وبذلك يخشى الفرد تغيير نمط حياته التي عهدها، وبطريقة تؤدي به إلى الاعتماد القسري عليها، دون أن يستطيع التخلص منها لاحقاً.

ثامناً- الخوف المرضي من الهاتف، «الهاتف مصدر رعب» Telephonophobia هذا الخوف المرضي ليس تكنولوجياً في الأساس فهو مرض اجتماعي إذ يخاف الفرد رنين الهاتف، خوفاً من تواصله مع البشر، ولأنه يعلم أنه إذا أجاب على الهاتف سيضطر لإدارة حديث مع آخرين، وهو يخاف ويقلق من أي تواصل بشري مهما كان نوعه، ويعد هذا الاضطراب أحد أشكال المخاوف الاجتماعية social phobia، والقلق الاجتماعي social anxiety، وذلك وفق الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية (DSM-V).

عوامل رهاب فقدان الجوال

يشدد معظم علماء النفس من أصحاب الاتجاه السلوكي على دور الخبرات الضاغطة والصدمة وعلى دور الإشراط في حدوثها. إن جوهر الاتجاه السلوكي هو أن الأشخاص يتطور لديهم الرهاب بعد أن يكونوا قد تعرضوا أو عايشوا مثيرات ومواقف منفرة ومزعجة aversive stimulus. ولكن يجب أن يبقى في ذهننا أنه ليس جميع من يتعرض لمواقف وخبرات مزعجة يجب أن يحدث لديهم الرهاب، لأن لعوامل الخطورة -مثل: الاستعداد الوراثي، ونمط الشخصية، والتحكم المدرك، والعصابية، والكف السلوكي، - أهمية كبرى في تحديد الأشخاص الذين سيتطور لديهم الرهاب.

العوامل السلوكية Behavioral Factors: يؤدي الإشراط دوراً مهماً في تشكيل سلوك الرهاب المحدد، ويستند هذا الإشراط إلى «نموذج مورر عن العاملين»، «Mowrer two-factor model»، ويتحدث هذا النموذج عن مرحلتين لإشراط السلوك الرهابي:

الأولى: من خلال الإشراط الكلاسيكي (الاستجابي) إذ يتعلّم الشخص أن يخاف من مثير حيادي (مثير شرطي CS) حين يقترن بمثير مزعج ومنفر (مثير غير شرطي UCS).

الثانية: من خلال الإشراط الإجرائي (الأدائي) إذ يُخفض مثير الخوف عن طريق تجنب المثير الشرطي (CS)، وتعدّ استجابة التجنب أو الهروب بسبب تعزيز للنتائج أو اللواحق التي حققتها هذه الاستجابة في خفض درجة الخوف لدى الشخص.

ففي رهاب فقدان الجوال يكون الشخص قد تعلم الربط أو اقتران عدم القدرة على الاتصال بصديق مهم لأمر ضروري مثلاً (مثير شرطي) في موقف ما، وتعطل الجوال، أو بعده، أو خارج التغطية، أو لعدم الشحن (مثير غير شرطي)، ومن ثم يقوى هذا الاقتران في المواقف اللاحقة بما يساعد في تشكيل الخوف من الابتعاد عن الجوال ومن ثمَّ الالتصاق به. وعلينا أن ننظر إلى الطرائق المختلفة التي يؤدي فيها الإشراط دوره في تشكيل سلوك الرهاب، وهذا يتضمن ثلاثة جوانب مهمة هي: الخبرة المباشرة، أو التعرض الفعلي كما في إشراط الخوف من فقدان الجوال، والطريقة الثانية هي الملاحظة، فعن طريق رؤية شخص عاش موقفاً سلبياً فعلاً بسبب الابتعاد عن الجوال أو فقدانه من خلال مثير أو موقف ما أو من خلال رؤية مثير يخلق خوفاً لدى شخص ما فإن هذه الأشكال من التعلم تسمى نماذج (تعلم بالاقتداء والملاحظة أو المشاهدة)، إذ يُتَعلّم الخوف من خلالها. والثالثة، هي أن بالإمكان تعلم الخوف عن طريق التعليم اللفظي والتلقين كما هو الحال لدى الأبوين اللذين يحذران ابنهما من عدم ترك الهاتف المحمول بعيداً حين يغادر المنزل من أجل التواصل معه للاطمئنان عليه.

العوامل السلوكية الحديثة: التطور الآخر في النموذج السلوكي، يشدد على أنواع المثيرات التي تثير الخوف وتستدعيه. فنموذج مورر عن العاملين يفسر تعلم الخوف الذي ينطبق على جميع المثيرات والمواقف المخيفة ومنها التكنولوجيا والجوال، إلا أن الناس قد يخافون من أنوع محددة من المثيرات والمواقف. فمن المعروف أن الناس لا يتطور لديهم رهاب الزهور، أو الإضاءة. في حين أن رهاب المرتفعات، والحشرات، أو غيرها من الحيوانات أو رهاب الدم، ورهاب فقدان الجوال هي من المخاوف المرضية الشائعة كثيراً.

- يبدو أن الناس قد تعلموا أن يستجيبوا بقوة لمثيرات معينة تنطوي على تهديد شديد وحقيقي لديهم مثل التكنولوجيا، والحاسوب، والمرتفعات، والحيوانات، والجوال، وحتى الناس الغاضبين.

- إن دائرة الخوف (ومركزها اللوزة في الدماغ المتوسط) تحرض على الاستجابة بشكل سريع وآلي rapidly and automatically لهذه الأنواع من المثيرات إذ تكون حساسة للمنبهات

المثيـــرة للخوف. كما أن دائـــرة الخوف لدينا، مهيأة أو معدة سلفـــاً **prepared** بشكل فطري طبيعي، لتعلم الخوف من مثيرات محددة، وهذا النوع من التعلم نسميه «التعلم المهيأ سلفاً»، «**prepared learning**». ولإثبات هذا النوع من التعلم، فقد اكتشف بعض الباحثين أن الناس بإمكانهـم تعلم الخوف مـــن مثيرات مختلفة ومتنوعة، وليس من مثيـــرات محددة بعينها. إن هـــذا الخوف من مثيرات متعددة، ينطبق على التعرضـــ الفعلي للمواقف المخيفة، في حين المخاوف من مثيرات حيادية وغير مهددة، هي التي يُركّز عليها في الدراسات النفسية.

- إذا كان التعلم المهيأ سلفاً ينطبق على التعلم بالملاحظة أو القدوة، فإن بعض الباحثين قـــد شـــدد على أن بعض أشكال الخوف مبرمجة بيولوجياً، ومـــن ثمّ فلا دور للإشراط فيها. فالشمبانزي التي لم تشاهد غيرها في حالة خوف، قد أظهرت مخاوف حين شاهدت مجرد صور لشمبانزي أخرى وهي في حالة غضب. وبشكل مشابه أيضاً، فإن المواليد من الأطفال يخافون من المياه، ومن الغرباء حتى لو لم يتعرضوا لخبرات خوف سابقة، كما يخاف الشخص من فقدان الجوال حتى لو لم يتعرض لخبرة سيئة في موقف محدد لفقدان التواصل، وهذا ما يدعم القول إنّ نماذج الإشراط، التي تشكل سلوك الرهاب بحاجة إلى أن يتكامل مع النموذج البيولوجي في تفسير المخاوف المرضية.

- إن الإدمان على الهاتف المحمول يلبي حاجات ورغبات نفسية اجتماعية في الشخصية، تتعزز بالتكرار لأنها حققت حالة رضا، ولكنها مع مرور الزمن تؤدي إلى الاعتماد والإدمان.

إن انتشار الهواتف الذكية (المحمول) انتشاراً سريعاً، قد جعله وسيلة متاحة للجميع حتى لـــدى الأطفال، وباتت كثير من الأعمال تتم من خلاله إلى درجة الاعتماد الكلي، في الحديث والتواصـــل، في الرسم، وتسجيـــل الملاحظات، والتصوير، والمراسلـــة، والعروض التقديمية وغيرهـــا كثير عبـــر التطبيقات المتنوعة لهـــذه التقنية، إلا أن هذا الاعتمـــاد المفرط على الهاتـــف المحمول إلى درجة الإدمـــان، يجعل الشخص يمر بحالة قلـــق شديد وخوف مبالغ فيـــه من الابتعـــاد أو الانفصال عنه وهو ما يسمـــى رهاب الجوال أو الخـــوف المرضي من تـــرك الهاتف المحمول «فوبيا الانفصال عن الجوال». فهـــل تعاني من رهاب فقدان الجوال أو النوموفوبيا؟... «أين هاتفي المحمول؟» لذلك ندعوك إلى «النظر في ذاتك».

المراجع

(١)- عبد الله، محمد قاسم، علم الأمراض النفسية، منشورات جامعة حلب، حلب، (٢٠١٤).

(٢)- عبد الله، محمد قاسم، مدخل إلى الصحة النفسية، عمان: دار الفكر، (٢٠١٦).

(٣)- إبراهيم، عبد الستار، الإنسان وعلم النفس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٧، (٢٠١٠).

(٤)- صالح، حسن الداهري، مبادئ الصحة النفسيّة. الأردن، ط١، (٢٠٠٥).

(٥)- عبد الرحمن، عيسوي، الأمراض السيكوسوماتية. النهضة، بيروت، (٢٠٠١).

(6)- Bandura, A.; Adams, Nancy & Beyer, Janic (1987): Cognitive Processes Mediating Behavioral Change, Journal of Personality and Social Psychology, Vol.35, No.3.

(7)- Kirby, Beth & Luke, Jarrett: Success and Personal Growth, Valdosta State University (2009).

(8)- Regehr, C.; Hill, J. & Glancy, G.: Individual Predictors of Traumatic Reactions in Firefighters, Journal of Nervous and Mental Disease, Vol.188, No.6, U.S.A, Williams & Wilkins (2000)..

(9)- Schwarzer, R. & Fuch,(2012): self- efficacy & health behaviors in,Conner, M. & Norman, P. predicting health behavior open University press,Buckingham (2008).

(10)- Schwarzer, Ralf: General Perceived Self–Efficacy in (14) Cultures. acadmic,schwarze, world (1998).

(11)- Toda M, Monden K, Kubo K, Morimoto K. Mobile phone dependence and health-related life-style of university students. Soc Behav Pers. 2006;34:1277–1284.

(12)- 39. Kamibeppu K, Sugiura H. Impact of the mobile phone on junior hightschool students' friends hips in the Tokyo metropolitan area. Cyberpsychol Behav. 2005;8(2):121–130. [PubMed]

المرأة وقضايا التطوير والتنمية الاجتماعية

د. فادية المليح حلواني

من يتتبّع الفعاليات الثقافية والاجتماعية التي تشهدها الأوساط العربية في العقد الأخير يلاحظ تركيزاً على الاهتمام بقضايا المرأة، وتفعيل دورها في التنمية الاجتماعية وخطط التطوير والتحديث التي يحتاجها مجتمعنا العربي في شتى أقطاره في إطار طموحه للتطوير العام، ومواكبة التطوير العالمي والإسهام في التطوير الحضاري العولمي العام. وقد أثمر هذا التفعيل بنسبٍ متفاوتة في تحقيق تغيير تجاه النظرة والدور سواء بازدياد نسبة العاملات في القطاعات العملية والعلمية والثقافية أم في استلام مواقع قيادية متقدمة أم في تأسيس كثير من الجمعيات والمنظمات التي تعتمد على المرأة أو دورها في بيئتها الأساسية، ولم يقتصر هذا الاهتمام والتوجه نحو المرأة على ميدان معيّن إنما تعداه إلى الاهتمام بالتنشئة والتربية والتوجيه والرعاية العلمية والثقافية والاجتماعية في مختلف مراحل العمر.

مما لفت نظري في هذا المجال نشاطات مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث (كوثر) في إعلانه مسابقاته المتتابعة، التي خصّص إحداها لموضوع «الفتاة العربية المراهقة» من منظور الإعلاميين العرب.

فالمراهقة مرحلة مهمّة وحساسة من مراحل العمر، وقد تكون المرحلة الأكثر إثارة وصعوبةً وإزعاجاً في حياة الفرد إذ يعيش المراهق فيها مشاعر سريعة التغيُّر لكنها قد تكون

عميقــة التأثير فكما يقول «دوريس أودلم» في رحلته عبر المراهقة التي ترجمها إلى العربية بكفاءة وحسٍّ أدبي وتفاعل علمي الأستاذ الكبير الدكتور فاخر عاقل -رحمه الله-: «نحن في المراهقــة نرتفع طوراً إلى السماء السابعة مــن الانشراح ولكننا لا نلبث أن نرتمي في أعماق النفس طوراً آخر».

فالــكل يجمع على أهمية هذا الدور من الحياة ففيها يبــدأ الفرد باكتشاف ذاته، ويشكّل صداقاته وهواياته وتوجهاته وعلاقاته مع مجتمعه وتعلّقه بقيم هذا المجتمع ودياناته، وفيها أيضاً تغيّراته الصحية والجسدية ونموه الجنسي بمعنى أنّها مرحلة التشكيل الخطير والحسّاس في حياة الفرد.

صحيــح أنَّ لــكل فرد تكويناً موروثــاً وطبيعياً متوافقــاً مع عواملــه الجسدية والعقلية والانفعالية يتشكّل باستعــدادات متفاوتة الشدة إلا أن هذه الاستعدادات ليست صمّاء عديمة التأثيــر بالمحيط أو البيئــة التي يعيش بها الإنسان، ومن ثمّ فهي قابلة للتفاعل بصورة حسنة أو سيئــة معه، الأمر الذي يعطي للمحيــط أهمية كبيرة فكما يقول «دوريس أودلم» في رحلته عبر المراهقة:

«فــي حالة أنَّ المحيــط والوراثة غير مناسبين فإن النتيجة تكــون انحرافاً في شخصية الفــرد، أمّــا في حال التفاعل الإيجابي بيــن المحيط والمورثات بشكل مرضٍ فإن النتيجة ستكون شخصية سامية وإنساناً إيجابياً فعّالاً قد يصل إلى حد العبقرية».

وهاتــان النتيجتان تؤكدان أن المجال واسع للتغيــر والتكيف في المدى الوسيط، ومن ثمَّ فــإن التدريــب والتربية في ظل محيط ملائم ستكون قادرة على القيام بدور فعّال في مرحلة النمو والمراهقة.

ومــن هذا المنطلق أستطيع أن أتوقّف عند نقطة لها تأثيرها الكبير في المحيط، وأفتقدُ بهــا الإعلام. فقد أصبح الإعلام بحكــم تأثيره الواسع وجاذبيتــه وإغراءاته وبفضل التطوّر التكنولوجي الكبير الذي سهّل وصوله وحقّق انتشاره على غاية من الأهمية، مكوّناً من مكوّنات المحيط، وقد يفوق أو يترافق في تأثيره التربية المدرسية أو البيئية.

إن إدراج موضــوع المراهقــة ضمــن إستراتيجية الإعلام لهو أمر علــى غاية من الحسّ بالمسؤوليــة تجــاه المجتمع، فإيلاء القضايا التــي تكوّن محيطاً إيجابيــاً فعّالاً في العملية التربوية للفرد والمجتمع هي من المهام النبيلة التي لا بد أن يتحملها الإعلام.

فالإعــلام قادر علــى إحداث تغيّر تعجز عنه المؤسسات والــوزارات والمنظمات وحدها كمــا أني أرى أنَّ مثل هــذا الاهتمام من الإعلاميين يخفّف هروبهم من المحلي إلى الإقليمي والدولــي، بل إنه يفعّل دورهم ويحقّق ارتقاءً فــي مضمونه وأهدافه بحيث يستند إلى الواقع ويستوعــب الأبعاد ويعطي الرأي سواء عن طريق الحوار مع المختصين أم بالاستنتاج وتحليل الإحصاءات فيرتقي بذلك إلى درجة الفعل بدلاً من النقل أو التصوير أو الخبر.

ومــن هذا المنطق فقد توقّفــت التوجّه طويلاً عمّا أعلنه مركز المــرأة العربية للتدريب والبحوث (كوثر) في التوجه في مسابقته نحو الفتاة العربية المراهقة، وفي هذا المجال فإن الإعلام العربي في انطلاقته التي تعتمد على جهد الإعلاميين والإعلاميات قد أخذ بتجاوز سياسة الصمت الإعلامي كما أنه تجاوز مسألة التسطيح والتناول السريع، وانتقل الى مرحلة تكثيف برامجه وتحقيقاتــه إلا أن إشكلاليةً لا تزال تواجهه تتعلق بتوافر المعلومات سواء من حيــث الإحصاءات والبيانات أم دقة التوصيف فــي مختلف الحالات لأسباب لا يزال بعضهم يعلّلها بالسرية أو التقاليد أو قلة الاختصاص أو مساحة الحرية المحدودة.

وفــي هذا الصدد فإن مسؤولية كبيرة تقع على عاتــق الإعلام من جهة والمنظمات ذات العلاقة من جهة أخرى سواء المنظمات النسائية أم المنظمات الأخرى التي يمكن التطلّع إليها لتفعيل تعاملها مع الإعلام، ليس من خلال إعلامها الخاص إنما الذي يمكن وصفه بالضعف من خــلال تفعيل علاقتها مع وسائــل الإعلام المختلفة على الصعيــد المحلي والمنظمات العربيــة المتخصّصة بحكم علاقات الأخوة والتكامــل، وتشابك القيم الاجتماعية في إقامة ورشات عمل وندوات وملتقيات مع المتخصّصين من الإعلاميين لتفعيل هذا الجانب، وتقديم المقترحــات وبرامــج العمل للمرحلــة المستقبلية شريطة توفيــر كل مستلزمات النجاح من دراسات وبيانات وإحصــاءات بما فيه الخوض فيما سُمّي بالمحرّمات كشفاً لها ووصولاً إلى الشفافية بأبهى أشكالها.

إنّ قضيــة التميّز النوعــي بين الفتى والفتاة والرجل والمرأة هي قضية لا تزال غائبة عن التحليــل العلمي في مجتمعنا، ولا تــزال تعتمد على التقاليد والعــادات دون تقديم دراسات تحليليــة تدمج بين هــذه العادات والتقاليد والتطــور الحاصل في الحيــاة العامة وفي قيم المجتمع وتطلعاته، وهو ما أعتقد أن مراكز عربية قد بدأته وأن إستراتيجية الإعلام العربي ستدرجه في برامجها ذات البعد العلمي والمستقبلي، ولا سيما في مناهج كليّات الإعلام التي

انتشـــرت بكثرة في جامعاتنـــا ومعاهدنا بحكم الإقبال الكبير من الطلبة. ومن المهم أن يكون ذلك في إطارٍ من المسؤولية التي تتضمن الصدق والعلمية والشفافية.

إن ما أُنجِزَ في مسيرة المرأة العربية يمنحنا الأمل في القدرة على تحقيق إنجازات أكبر تدفع المسيرة العامة لِتُقدِّم للمجتمع العربي فسحةً واسعةً للتطور إلى الأمام.

والأمـــر لا يحتاج تردّداً ولا يحتمل تباطؤاً أوزهوّاً واكتفاءً بمـــا وصلنا إليه، فحركة التغيّر العالمـــي تتطور مسرعة تحمـــل معها كثيراً من التحديات، وهو مـــا يحمّلنا مسؤولية الحركة المستمـــرة والأفكار المتجدّدة، والإسهام الأكبر في صياغة حركة تقدم المجتمع وصولاً ليس إلـــى تقدم مجتمعنـــا فحسب، وإنما الفعاليـــة بحركة التقدم العالمي أيضـــاً ضمن مشاركتنا الحضارية الإنسانية.

حرب الحواسيب

شادي سميع حمود

قامت الثورات الصناعية في أوروبا لنشر العدالة والمساواة، وللقضاء على الفقر والاستغلال، فالثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م)، قَضَتْ على حكم الأسرة المالكة في فرنسا متمثلة بالملك لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت، كل ما سبق كان سمة القرن التاسع عشر. أما الثورة المعلوماتية والتكنولوجية، ولاسيّما بعد الحرب العالمية الثانية، كانت سمة القرن العشرين، فقد قرَّبت المسافات الشاسعة بين دول العالم لتجعلها محدودة ضمن إطار القرية الإعلامية الصغيرة، فضلاً عن ذلك دخول الحاسوب في جميع مجالات الحياة العلمية والتكنولوجية عموماً، والسياسية والاقتصادية خصوصاً. وليس هذا كل شيء، بل تعدى استخدامه في صراعنا مع العدو الصهيوني؛ والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف استخدم العدو الصهيوني الحاسوب في خدمة مصالحه التوسعية؟

أولاً – الحاسوب في رؤية الساسة الصهاينة

يسعى العدو الصهيوني إلى التربع على مرتبة الصدارة في التكنولوجيا والاقتصاد في المنطقة، وذلك لضمان تفوقه السياسي والعسكري على دول وشعوب المنطقة، ترجمةً معاصرة وسياسية لمفهوم (شعب الله المختار)، إذ تعدُّ الأساطير والادعاءات التلمودية أنَّ اليهود وحدهم من بني آدم في حين أن الشعوب الأخرى على الأرض هي بمرتبة البهائم ويقع على عاتقهم خدمتهم.



هذا الكلام ليس من قبيل المصادفة، وإنما استنبط من الدراسات والمشروعات والأدبيات الصـــادرة عن منظري الحركة الصهيونية مثل (بـــن غوريون، وهرتزل، وبيريز، ....وغيرهم)، فقـــد طرح بيريز مشروع (نحو شـــرق أوسط جديد) الذي يهدف إلـــى السيطرة الاقتصادية والتقنية والتكنولوجية التي كانت جّل اهتمامهم.

مع كل هذا وذاك، لم يتمكن الكيان الصهيوني من تحقيق ما يريد لسببين:

أ- سعي الدول العربية إلى رفع مستواها التكنولوجي، ولاسيّما سورية.

ب- إقامة جامعة الدول العربية نظاماً صارماً لمقاطعة الكيان الصهيوني اقتصادياً.

هذه المقاطعة لم تدم طويلاً حتى بدأت الأنظمة العربية المهترئة بالهرولة نحوه، لتكسب طاعته ورضاه عنه من خلال التوقيع على معاهدات سلام شائنة واتفاقيات اقتصادية منعشة له. ويسعى الكيان الصهيونـــي لتطوير قطاع المعلوماتية من أجل تحقيق مآربه، وذلك بسبب اعتماده الحاسوب وسيلة رئيسة لتخزين وتصنيف المعلومات.

ثانياً- القطاع المعلوماتي في فلسطين المحتلة

يعمل فيه حالياً أكثر من (٤٨٠٠) شركة متخصصة في التكنولوجيا المعاصرة، ومعظمها موجودة فـــي مجمعـــات صناعية مثل مجمـــع تكنيون في حيفا، وتتـــراوح نسبة النمو من صـــادرات البرامج المعلوماتية الصهيونية بين (٢٠ و٢٥٪) سنوياً، وقد نجحت هذه البرامج لعدة عوامل أهمها:

١- قرصنـــة الصهاينة للبرامج الحاسوبية في الدول الغربية، وذلك في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، مما أتاحَ فرصة اكتساب الخبرة أمام الشركات الصهيونية.

٢- دعــم الصهاينة بالقطاع الحاسوبي المدني بعــد خفض النفقات العسكرية في المدة الأخيــرة، وذلك من خلال الدعم المالي للشــركات المعلوماتية الصهيونية، وتحسين مستوى تعليم الحاسوب في المدارس والمجتمعات الصهيونية.

ثالثاً- الشركات الحاسوبية الصهيونية في فلسطين المحتلة

ثمــة شركات صهيونية حاسوبية عاملة فــي تكنولوجيا المعلومات والاتصال، موجودة في فلسطيــن المحتلة، وقد تخصصت تلك الأخيرة باستيراد الرساميل الأجنبية بعيد الحرب مع العرب، ومن أهمها:

١ - **إكسنت**: شركة متخصصة في البرامج متعددة اللغات، وتسعى إلى التوسّع في العالم العربي مع برامج اللغة العربية.

٢ - **كاركوم**: شركة متخصصة في إنتاج الهوائيات الصحنية لاستقبال الموجات الإلكترونية العسكرية.

٣ - **إلبيت**: أبرز شركة في مجال التكنولوجيا العسكرية.

رابعاً – الشركات الأجنبية الحاسوبية

تزامنــاً مع دور المقاطعــة العربية، لتكون سلاحاً فعالاً في وجــه الكيان الصهيوني، فإنَّ معظم الشركات قامت باستثمارات في الكيان الصهيوني بسبب الرساميل الصهيونية، وترغب هذه الأخيرة في الاستفادة من الحوافز المالية والضريبية التي توفرها الحكومة الصهيونية، ومن هذه الشركات المستثمرة:

١ - **أيسر**: شركة تايوانية منتجة للحواسيب، وتقوم الآن ببناء مصنع لها في فلسطين المحتلة.

٢ - **ديجيتال**: شركة أمريكية متخصصة في الأنظمة الحاسوبية المختلطة، ولها مختبرات في القدس المحتلة.

٣ - **ماتــرا**: شركــة فرنسية متخصصة في الأنظمة العسكرية المختلفة، وقد أبرمت عدة اتفاقيات للتعاون مع شركات صهيونية.

خامساً- الشركات المعلوماتية خارج فلسطين المحتلة

هــي شركات يمتلكها ويسيطــر عليها صهاينة خارج كيانهم، وليســ ضرورياً أن يكون لها نشاطات فيه، إلّا أن استعراض لائحة بهذه الشركات يبين لنا مدى سعي الصهاينة إلى تجنيد

جميـــع يهـــود العالم وأعوانهم لخدمة مصالحها؛ ومن ثمَّ يجب عـــدُّ اليهودي صهيونياً إلى أن يثبت العكس. والجدير ذكره أن قسماً كبيراً من أموال اليهود تذهب تبرعات لإنجاز ما أسموه (الكيان الصهيوني)، ومن هذه الشركات نذكر:

١- **أتاري**: شركة أمريكية متخصصة في إنتاج منصّات ألعاب الفيديو وأجهزة الحاسوب.

٢- **داسكو إلكترونيك**: شركة فرنسية متخصصة في الإلكترونيات، علاقاتهم وطيدة مع الصهاينة.

٣- **مايكو العلمية**: شركة بريطانية متخصصة في إنتاج أجهزة السوبر الحاسوبية، وكانت من أوائل تلك التي باعت منتجاتها في الكيان الصهيوني.

سادساً- الحرب الحاسوبية الاقتصادية في فلسطين المحتلة

يحتل الكيان الصهيوني الصدارة بين دول المنطقة في الإنتاج الصناعي، ولاسيّما صناعة التكنولوجيا الرفيعة، وقد بلغت قيمة الصادرات من المنتجات التقنية في الكيان الصهيوني نحو ٩ بلايين دولار أمريكي سنة (١٩٩٤م)، وبلغت نسبة النمو الاقتصادي (٧٪) سنوياً.

كان للمعاهـــدات المبرمة بين الكيان الصهيوني والأنظمة العربية الحاكمة أكبر الأثر فـــي تحسين الأداء الاقتصـــادي، إذ وصلت البطالة إلى (٧٪) بعـــد أن كانت (١١٪) عام (١٩٩٣م).

يتوقـــع الكيان الصهيوني أن تبلغ حصة المنطقة شمالـــي إفريقيا من المبادلات التجارية العالمية (١٥٪) في عام (٢٠٢٠م) في حين بلغت نحو (٢٪) عام (٢٠٠٥م)، وذلك بسبب رغبة الكيان الصهيوني في احتلال المرتبة الأولى في الاقتصاد.

تتلخص الحرب التكنولوجية الاقتصادية باتجاهين:

١ – مقاومـــة الجهـــود العربية لاكتســـاب التكنولوجيا بصورة مباشـــرة، وذلك من خلال ضـــربِ اللوبي الصهيوني كلَّ الخطـــط الرامية لتعزيز الصناعات العسكرية العربية في كثير من الـــدول العربية أهمها العـــراق، ومصر، والأردن، وفضلاً عن ذلـــك محاربتها للرساميل العربية الساعية إلى امتـــلاك الشركات التكنولوجية أو إلى تطويرها؛ وما محاربة الرساميل الصهيونيـــة لمصرف إنترا اللبناني الذي يضم كثيراً من الرساميل الصهيونية إلا دليل دامغ على ما سبق.

٢ – تشجيع رؤوس الأموال العربية على توظيفها في مجالات غير تكنولوجية، ونرى مع الأسف الشديد- تواصل رؤوس الأموال العربية مع نظيرتها الصهيونية في الخارج.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن: كيف السبيل لمقاومة الخطط الصهيونية التكنولوجية الهادفة إلى حرمان العرب من التكنولوجيا؟!

نستطيع مواجهة النوايا الصهيونية الهادفة إلى حرمان العرب من التكنولوجيا بثلاث وسائل:

١- إقامة صناعة متطورة في العالم العربي تؤمّن الحد الأدنى من الاكتفاء الذاتي في مجال التكنولوجيا.

٢- استخدام الشابكة لنشر معلومات من شأنها الإضرار بسمعة الصهاينة في العالم.

٣- إحياء توسع المقاطعة العربية للكيان الصهيوني عبر وضع الشركات الصهيونية موقع الشك من الناحية المبدئية، وشمولية مقاطعة الاقتصاد الصهيوني لأطراف غير عربية ذات فعالية أكثر.

سابعاً- الحرب الحاسوبية العسكرية في فلسطين المحتلة

استخدم الكيان الصهيوني الحاسوب سلاحاً عسكرياً إستراتيجياً في المواجهة مع العرب، وذلك في عمليات القرصنة والتجسس وزرع الأعداء، ومن ثم الاستعانة به لتصميم أسلحة متطورة، واستخدامه في الحرب الدعائية ضد العرب.

فيما يتعلق بزرع الفيروسات، تعرض الكيان الصهيوني لهجوم فيروسي في أواخر عام (١٩٨٧م)، الذي أطلق عليه اسم «فيروس القدس»، وقد ترافقت هذه الهجمات الفيروسية مع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى، ورد الصهاينة بالتخصص في إنتاج البرامج المضادة للفيروسات.

أمّا بالنسبة إلى استعمال الحواسيب في تصميم الأسلحة المتطورة، وبشكل خاص أسلحة الدمار الشامل، فالمقصود هنا أن الولايات المتحدة سهّلت الإجراءات لتصدير أجهزة السوبر الأمريكية إلى الكيان الصهيوني، وأنه بات بإمكان مهندسيه استغلال هذه الأنظمة وطاقاتها بتصميم أسلحة جديدة، واستخدموا هذه الأجهزة سلاحاً دعائياً عبر تمويل الحواسيب بصورة متدرجة لتصبح وسيلة للاتصالات وللنشر وللإعلام.

إن اللوبي الصهيوني يدير القرار العالمي بكل مفاصله، ويصنع أفعالاً وحوادث في العالم بكل مهارة وحرفية مثل حركة السترات الصفراء في فرنسا، من خلال تجنيد سلاح المعلوماتية والشابكة والاقتصاد والإعلام؛ أما الأنظمة العربية الفاسدة فتعلن التطبيع والعلاقات الدبلوماسية مع الكيان الصهيوني من دون خجل وحياء، ولا يمكننا نحن العرب التفوق عليهم تكنولوجياً طالما نحن مشرذمين ومنقسمين، وعلينا الابتعاد عن الكلام الببغائي والبالونات الإعلامية، ومقاطع الفبركة والتضليل الرامية إلى تشويه الحقائق.

رواية الرسائل...

«العلاقات الخطيرة» نموذجاً

د. عبد الهادي صالحة

إن روايات الرسائل هي جنس أدبي يتكوّن السرد فيه من المراسلة الخيالية لشخصية أو لعدة شخصيات.. تُنَظَّم فصول هذه الروايات بشكل عام بالرسائل المكتوبة بين الشخصيات (كل رسالة منفصلة عن الرسائل الأخرى، وتحمل رقماً وتاريخاً واسم المرسل إليه أو تنظيماً لهذه العناصر. إن انتشار هذا الجنس في القرنين السابع عشر والثامن عشر يرتبط مع الاستعمال المنتشر في العصر لأساليب القصة المعلَّبة في الرواية والمسرح، أو في داخل قصة - إطار تأخذ ضمنه مكانها قصة أخرى... إن النابض الرئيسي للجنس الرسائلي، الذي يقربه بهذا الشكل من الجنس المسرحي هو تعزيز أثر الواقع من خلال إعطاء القارئ الشعور بالولوج إلى حميمية الشخصيات دون علمهم. إن رواية الرسائل ليست سوى أسلوب من الأساليب المتعددة الذي استخدمه كتاب الروايات للحصول على أثر للواقع، والأسلوب الأكثر رواجاً كان أسلوب «النص الذي عثر عليه»، رواية مختلفة عن القصة المعلّبة، الذي استخدمه سيرفانتس نفسه، والذي يعدّ مؤسس الرواية الحديثة، في روايته «دون كيشوت» التي تصنّف بأنّها إعادة لنصوص موجودة، هذا الأسلوب المستخدم بشكل منتظم جداً، ومن بينها «المخطوطة التي عثر عليها في ساراغوس» لجان بوتوكي، و«مغامرات أرتور غوردن بيم» لإدغار آلان بو..

راجت رواية الرسائل بعد نجاح «رسائل برتغالية» لفيوراغ، وفرضت نفسها تدريجياً في القرن الثامن عشر في نتاج روائي سيطر عليه رسم الأهواء أيضاً بعد «الرسائل الفارسية»


لاكلو

و«هيليويــز الجديــدة»... وقد جــددت روايــة «العلاقات الخطيــرة»، التي تتقاطع فيها صرامــة التأليف مع الحرية الشكلية التــي تطغى على الرواية في القــرن الثامن عشر (ماريفــو، وبريفــو، وديدرو)، هــذا الجنســ وقلبت البنى التقليدية للســرد... إن لاكلو الذي ينضوي في تقليد رواية الرسائــل الرائجة ريشاردسون «كلاريســ»، روسو «هيليويز الجديــدة» يستثمر كل مصادر هذا الجنس المحصور حتى الآن، إمــا في مناجاة نفس صرفة، وإمــا في تبادل رسائل بسيطــة بين بطلين رئيسين.. وعرف لاكلو كيف يكتشف كل منابــع هذا الجنس التي لم تكن قــد سبرت. في الحقيقة، وَسَمَ لاكلو بميسمه تاريخ الرواية مقدماً للقرن الثامن عشر مؤلفــاً - قبل الثورة بقليل - كشف فيه انحطــاط الأرستقراطية المتآكلة من الداخل بالفراغ وبالفساد؛ وعلى خطا كريبيون، كشف لاكلو قواعد الإغواء التي تحكم عالم الماجنين الصغير، إذ يرينــا فــي «العلاقات الخطيرة» فساد أخلاق عصره، بيد أنه، وإن كان، على غرار موليير، يطــرح نفسه واعظاً أخلاقياً (يمسرح الرذيلة ليصححها بشكل أفضل)، فإنه في الوقت نفسه كان ضحيــة فنــه: ففالمون ومدام ميرتوي، الإباحيان في «العلاقــات الخطيرة» لمعا لدرجة أنهما هددا بقلب المرمى الأخلاقي للمؤلف. إن لاكلو، المتهم بأنه يعطي صورة مغرية للشر، وبأنــه ينتــج تحت غطاء رواية بحثاً حقيقيــاً في الانحراف، سيبقى كاتبــاً مثيراً للجدل. إن «العلاقــات الخطيرة» التي تسجل في المنظور البيوغرافي للكاتب هي انعكاس تطور مجتمع إذ إنّــه بعد دعارة عهد الوصايــة وحكم لويس الخامس عشر، تختبــئ الرذيلة تحت مظاهر الفضيلة والإباحية وتأخذ شكل ترف فكري. إن الفساد والانحلال سيبلغا ذروتهما مع الماركيز دوساد (جوستين أو مصائب الفضيلة- ١٧٩١م)، (جوليت أو فضائل الرذيلة - ١٧٩٧م).

بيــد أن لاكلو ليســ سادياً. إنه رجل متزوج وأب صالح لا يشبه في شيء شخصياته الفاضحة والمشينة التي يرفض المجتمع أن يتعرف إلى نفسه فيها (١٧٥ رسالة...). قد جدد لاكلو العسكري الروائــي إشكالية الحب مــن خلال مقاربة تتعلق أكثر بالإستراتيجيــة منه بالشعور، لقد ناقض تقليداً أدبياً قدم الحب كشعور عفوي، تلقائي (مدام دولافاييت «أميرة دوكليف»)، ومثالي (روسو «هيليويز الجديدة»)، وكشف وجهــة النظر الإباحية: فالشعور يخلي المكان للحسية، للشهوانية،

وإن الحب المقيد في إطار حب الجنسين (الذكر والأنثى) يخضع لتكتيك الإغراء الصرف والبسيط لضحية معينة تجهل قواعد اللعبة... إننا نجد من جديد في هذا المفهوم أسطورة دون جوان... بطل نقي ووثوق يصطدم بعقبات تظهر أمامه من السلطة الظالمة: الانحراف... ونمر بهذا الشكل من الإباحية إلى القسوة، من رغبة الفتنة إلى إرادة استعباد وتهديم، تلك التي تثير صواعق الرقابة... إن انتقام النساء رهيب. الماركيزة دوميرتوي التي هجرها الفيكونت دوجيركور، تطلب من عشيقها القديم فالمون أن يفتن الناعمة، الرقيقة، النقية سيسيل فولانج التي ينوي الكونت دوجيركور أن يتزوجها. وبهذا سيكون محط سخرية باريس. بيد أن فالمون، دون جوان في حالة مطاردة مستمرة، يجري وراء هدف آخر شرير أيضاً: يريد أن يفتن، لأنه يحبها، امرأة مشهورة بفكرها الديني، وحيائها وعفتها، وهي الرئيسة دوتورفيل. لاشيء يوقف المكائد الشيطانية للماركيزة دوميرتوي والماركيز دو فالمون. إن رواية الرسائل هذه التي كتبت بلغة القرن الثامن عشر الرائعة أثارت ولاتزال تثير فضيحة. نشيد حب قطع بشكل قاس، لأن الشر يسيطر منتصراً وضاراً. إن الرسالة عنده هي عنصر جوهري للإستراتيجية الماجنة: إنها تتيح إقامة ومتابعة علاقة محرمة من المجتمع، وغزو ضحيته، وفضح شرفها من خلال نشر سقوطها وانحطاطها... إن الشكل التراسلي عند لاكلو ليس خدعة. إنه يجعلها قابلة للتصديق من خلال تنوع الأساليب... إنها تخضع أيضاً للضرورة الدرامية لأن الحبكة تنتظم حول هذه الرسائل: كلما تعقدت التراسلات، ضاق الحدث... إن الرسالة عنده هي تجاوز لقاعدة المجون، لا كتابة أبداً، لأنها يمكن أن تسبب ضياع ذلك الذي يستسلم بغرور لغواية الكتابة.

ينتظم المؤلف في أربعة أجزاء مبنية على تناظر دقيق: في الجزء الأول (٥٠ رسالة) يختتم في الانتصار المزدوج للفضيلة .في الجزء الثاني (٣٧ رسالة) ينتهي بانتصار الماركيزة دوبريفان. في الجزء الثالث (٣٧ رسالة) تتبدّى إعادة إنتاج حركة الجزء الأول: انتصار ظاهري للفضيلة وهداية / تحول الإباحي. في الجزء الرابع (٥١ رسالة) يستخدم النهاية الأخلاقية المزيفة للجزء الثالث ليشير بشكل أفضل إلى الكارثة الثلاثية النهائية: انتقام الماركيزة بدلاً من ضرب جيركور، يدين سيسيل؛ الإغواء الذي عزم عليه فالمون يقتل الرئيسة؛ الإباحيون، من متواطئين أصبحوا أعداء، يسببون الموت المتبادل (موت جسدي بالنسبة إلى فالمون، موت «في العالم» بالنسبة إلى ميرتوي. منذ الرسائل الأولى، تعرض الحبكة نفسها تقاطعاً لخيوط سردية ثلاثة: الماركيزة دو ميرتوي ستعرف الانتقام من جيركور، من خلال إفساد سيسيل وتزويجها. الفيكونت دوفالمون سيعرف إغواء الرئيسة، التي تبدو ظاهرياً

صعبــة المنــال. تواطؤ فالمون ودوميرتــوي (الذي يتجذر في علاقتهمــا الماضية) سيعرف الصمود أمام تباعد مشرعاتهما الإباحية، وأمام انبثاق الأهواء؟

لاكلو وجمالية الشر

أجــرى لاكلو قطعاً دقيقاً في مجتمــع زمنه. إن مؤلفه هو المجتمــع بذاته الذي يرى بعمق ويعــاد تشكيله بدقــة، وليس رأياً حــول هذا المجتمع. نقابــل «العلاقات الخطيــرة» إلى هذا التعريــف الرئيسي للرواية، المسجل في القاموس الشفهي لعصرنــا: سيرة ذاتية لكائن أو لعدة كائنــات حية خيالية، مسيرة إلى درجة من الممكن اللا محــدود. إن رواية «العلاقات الخطيرة» الجديــرة بالملاحظة في كثيــرٍ من وجهات النظر هي ذات إسهام لا يستبدل في تاريخ العلاقات العاطفية، عندما نصفها فوق كل شيء كحكاية الحب المستحيل للفيكونت دوفالمون والماركيزة دوميرتوي. إن لاكلو ينظم، بفن عظيم، في كتابه عدة حبكات في الوقت نفسه. قابل لاكلو بطلان رئيســان متساويان في التفوق الجنسي، وأظهر مــا كان يتوجب أن ينجم عن تفاعلهما العاطفي المشترك... نرى إباحيان يقومان كتابياً ببوح ملوث للشرف، ومشوه للسمعة (في حين الماركيزة تستخــدم دائماً بحذر يد وصيفتهــا لرسائلها الموجزة الرقيقــة، وكان شعارها «لا أكتب أبداً».) أراد بعضهــم ملاحظة خدعة أساسية هنا، يقتضيهــا تقليد هذا الجنس الروائي. ولكن لا يمكن إدراك كتــاب لاكلو إلا إذا قبلنا منذ البداية، أن هذه تجربــة فكرية تتطلب القوة. كان لاكلو رأساً هندسياً، منتظماً تماماً، وكان يقول بالضبط ما كان يريد قوله. لقد نقل إلى إبداعه الروائي كل المبادئ الإستراتيجية التي رسخت في ذهنه من مهنته (ضابط مدفعية) يريد أن يطبق في روايته مبــادئ عسكرية: منطقة قوية محاصــرة يجب أن تسقط... إن كتابه هو رائعة من روائع الرواية المنطقية. إن التفاصيل الصغيرة منظمة في الرواية كما في لعبة الشطرنج.

فــي الواقع، أراد لاكلــو، بإظهاره شخصيتين تشهد كل واحدة منهــا للأخرى بأكاذيبها، وصف التفاهــم الشيطاني الذي يمكن أن يجمع نفسَــيّ كبيرين إباحيين. يوجد بين الاثنين ميثاق ضمني يلــزم كل واحد تجاه الآخر بالصدق وبالحذر... إن الإباحي، كالداندي، يعيش باستمرار أمام مرآة مثاليــة التي هي وعي الآخرين. وهو بحاجة دائمــة لأمين سر، في الوعي المتواطئ الذي يعكس، ويستجلي حريته: ولكن يجب أن يكون هذا الآخر نداً له، قادراً على تقديره كما يحب كل مغامراته. إن الجــرأة الكبيــرة هي هنا أن أمين الســر هو كائن من الجنس الآخــر، كان ومازال محبوباً. إن هــذه العلاقة التواطئية ذات الطراز العالي والمتميز هي التــي يقيمها لاكلو بين هذين العاشقين

الأفلاطونيين بشكل منحرف... ولكن من أجل كائنين أيضاً يتصلبان بممارسة مستمرة للشر، ويميلان للتعقيد العاطفي وحب المجد المفرط. يجب التوقع أن التجاذب العاطفي سيكون من نوع خاص تماماً. قد أحبا بعضهما بعضاً، ثم انفصلا ليكرس كل واحد منهما نفسه لمغامرات جديدة، واستبدلا حبهما بصداقة متعاهد عليها. وبهذا الشكل، تنزلق لعنة في علاقاتهما لتمنع الحب؛ لكل واحد منهما، الحب ليس سوى السيطرة التي يستطيع ممارستها على وعي آخر، واللذة الحقيقية تكمن في الغزو أكثر من المتعة الحرة للغرض المغزو. لم يعبر أبداً عن التناقض الممزق بين حرية اللذة والاستلاب الضروري للحب بشكل أفضل إلا في مأساة الاستحالة هذه. عندما يصف على المستوى نفسه لاكلو الوجه الأنثوي والوجه الذكوري للإباحية، فإنه يتهم بشكل واضح النقاط التي يلتقيان فيها، والنقاط التي تفرق بينهما. إن الماركيزة، مدمرة الأقدار، ثارت ضد شرطها، وزعمت إقامة حقوق مساوية لحقوق الرجل. إنها تجد في الإباحية وسيلة للارتقاء فوق ظرفها. ولكنها ستكون هنا أكثر خطورة من الرجل لأنه يوجد هنا عوائق، وعقبات أكثر يجب التغلب عليها وتجاوزها، ومن ثمَّ يجب بذل طاقة كبيرة أكثر. إن الإباحي ليس له هزيمة سوى تقليد الحب، والإباحية يجب أن تهزم، بالإضافة إلى هذا، تقليد المرأة. إن الماركيزة كونت لنفسها بهذا الشكل علماً ثلاثياً: علم النفاق، وعلم الإيروتيكية (تنوع لذاتها، وتؤكد أمام عشاقها، تفوقها على النساء الأخريات). وعلم الحبكة التي تتيح لها التصرف بدهاء مع الرجال دون أن يشكُّوا في ذلك.

إن اللغة هي المحرك للدراما في «العلاقات الخطيرة»، وهذا، بعنوان مزدوج: أولاً، كما في كل رواية رسائل، فإنه من خلال الاستخدام الجيد للغة تتحدد الشخصيات، ليس في الاستعمال فحسب، ولكن في النظرية التي يصنعونها منها؛ ثم لأن الخطاب هو بامتياز سلاح الغواية. إن تبادل الرسائل بين الأبطال الرئيسيين يتيح في الوقت نفسه تغذية وهم الحقيقة، والفارق الفكري، والبوح العاطفي. فمنذ الرسائل الأولى، نلاحظ مستويين: الحدث والقصة المصنوعة من الحدث. إن استخدام مراسلة يلبي ضرورة في نظام الخلق الأدبي. أولاً، يتعلق الأمر في الجزء الأكثر أهمية من الرسائل، بتقارير حقيقية، وتقارير هجوم أو انتصار: بالنسبة إلى الماكر الخبيث، البوح، والعلامة، هما أكثر أهمية من الفعل نفسه. ثم يتعلق الأمر بواقع معاش من جديد، من الأحداث المؤولة، التي تسجل في استمرارية مشروع معين... ولهذا السبب، إن عالم «العلاقات» ليس له أيّ سماكة ملموسة ولا غامضة؛ يتعلق الأمر على الأصح بلعبة مرايا، كل حدث يعكسه بشكل مختلف الأبطال الرئيسون المختلفون. وأخيراً، يمكن القول إنَّ الماركيزة دوميرتوي وفالمون يعيشان، من خلال الكتابة، ما هدفا إليه، أو فعلاه، وزادت لذتهما من جراء ذلك.

إن النقاشات الدينيـــة والفلسفية لها مكان مدهش بما فيه الكفاية في رواية أراد بعضهم قراءتهـــا كلعبة إباحية... حتى العنوان الذي يعطيه لمؤلفه، والذي كان له بالتأكيد أثرٌ تجاريٌّ كان يدركـــه تماماً هو استعارة من المفردات التقية، الورعـــة. ومن المفيد أن نرى في الأدب الديني للقرن الثامن عشر - والمجهول جداً، والمسبور قليلاً جداً - استخدام التعبير «علاقة خطيرة»... إن ما يدهشنا في هذه الرواية هو الحضور الكلي للغة الدينية من فريق الماجنين. فالمـــون هو طرف جديد يستخدم هذه اللغـــة للغواية، وللإشارة إلى الحب نفسه ولتسويغه... إن لاكلـــو يتظاهر بتسويغ مشروعه ليســـ في نظر الأخلاق (إظهـــار الرذيلة للتحريض على الفضيلـــة) فحسب، بل في نظر الدين كذلك... ، ولاكلو لا يجهل بلاغة الوعاظ، هذه العلاقة الموجودة بين الشعور الديني والبلاغة - البلاغة تتيح أدرمة هذا الشعور الذي يعطيها نفساً، وانطلاقة وعظمة عند بوسويه، وعند ماسيون - يستخدمه ليجعل خطاب الهوى أكثر فصاحة عند مدام تورفيل أو خطاب الإغواء عند فالمون...

إن كل هذه الآثار الخطابية من استفهامات، وتكرارات، موضوعة بشكل رائع في خدمة الشكل الرسائلي. بيد أن هناك مجالاً آخراً يبدو أن لاكلو أدرك مصادره، مجال الفن المقدس، ومجال فن النحت، ولاسيّما مجال الرسم، الباروك، في تمجيد الهوى، من خلال الجمع بين الحب المقدس والحب المدنس... إن الرسم في القرن الثامن عشر الذي وسم كثيراً بميسم الباروك الذي ربما بقـــي لزمن أطـــول مخلصاً له أكثر من فن الهندسة المعمارية الذي سرعان ما غزته الكلاسيكية المحدثة، هو مجال أكثر ازدهاراً مما قد يظنه المرء... زد على ذلك أن لاكلو لم يخش من دمج اللاهـــوت نفسه بروايته... فالشعائـــر الدينية تحتل في هذه الرواية الماجنـــة مكاناً كبيراً؟ قد يعارضـــ أحدهم قائلاً إنَّ هذا انعكاس بسيط للعصر وللمجتمع الذي تعيش فيه الشخصيات... إن المسألة اللاهوتية والأخلاقية تحل كلياً محل المظهر الإنساني للخيانة الزوجية.

إن الاعتراف كلي الحضور يؤدي دوراً مهماً في الحبكة الروائية. هناك أكثر من ذلك: إن مجموع العلاقات الخطيرة عينه يمكن أن يقرأ كتشابك اعترافات متعددة: غالباً ما تكلمنا في السابـــق إلى أي درجة أدب الأنا الذي انطلق في الوقت الذي نشرت فيه العلاقات الخطيرة، كان يديـــن لهذه الممارسة الدينية... إن اليوميات الحميمية تحافظ على علاقات واضحة مع محاسبـــة النفس، التي تمهد للاعتراف... إن رواية الرسائل، على نمط خيالي، تستعيد تماماً مظاهـــر ومصادر رسالة التوجيه التي مورست بقوة فـــي القرنين السابع عشر والثامن عشر: «التائـــب عن خطاياه» يعترف بأخطائه بالرسائل، والذي يتلقى هذه الاعترافات، بدوره، يمكن

أيضـاً أن يفعـل الأمر عينـه. إن ما هو أكثر إثارة في رواية الرسائـل، أنه في وقت ما جميع الشخصيـات يمكنهم أن يصبحوا قساوسة مرشدين... إن الكل الروائي يعمل ككنيسة باروكية جميلة ذات كراسي اعتراف متعددة.

وأخيـراً في هذه البنية، فإن الرواية تبنـى حول جدالات العصر اللاهوتية الكبيرة. وأولاً وقبـل كل شـيء، عصر الجانسينية، ونحن نعـرف كم كانت معـارك الجانسينية نشيطة في القـرن الثامن عشـر. إن المناخ الديني الذي تعيش فيه الرئيسة هـو مناخ الجانسينية. على مستـوى أول، يمكن تأويل «العلاقات» كوصف لاكتساحات تلـف الهوى الجسدي... ولكن هو أيضـا المناخ الروحي عينه. هل الرئيسة أهملتهـا العناية الإلهية؟ لقد ماتت أخيراً مطمئنة، ولكـن بعد أي عذابات! هناك قوى تعمل دون توقف، وأحياناً تبدو الكائنات أنه لم يعد لديها النجـدات الروحية الضرورية لتتمكن حقاً من النضال ضدهـا... ربما نحس هنا أكثر بتيار عقلانـي وروائي موجود في قلب مسيحية القرنيـن السابع عشر والثامن عشر... ولكن لاكلو لـم يكتفِ باستحضار مظاهر متنوعة من الجـدالات اللاهوتية التي تستمر في الحضور في الكنيسـة ومجتمع القرن الثامن عشر مع هذه الشخصيـات ، بل إنه استحضر أيضاً الجدال الجوهري للدين والأنوار، ولاسيّما حول نقطتين هما مبدأ الفلاسفة: الطبيعة والسعادة... إن مفهوم «الخطيئة»، والإثم وهو من بقايا ذهنية مسيحية، يميل الفلاسفة إلى إلغائه.

وفيمـا يخص فكرة السعادة فهي فكرة مركزية في القرن الثامن عشر، هل الحق في السعادة يتفـوق على قواعد الأخلاق التقليديـة؟ إن «العلاقات» تقدم نقداً واضحـاً لتربية الأديرة، التي ترتكب خطـأً مزدوجاً في الوقت نفسه بمعارضة الطبيعة، وبعدم الإعداد للحياة في المجتمع... إن دور القساوسـة المرشدين هو استمرار الأديرة، وهـذا يسهم في ترك النساء في حالة طفولة حيـث كن ضحايا. إن لاكلو، بشكل أكثر عمومية، يتلذذ بالسخرية من بعض الوساط الإكليروسية. إن عائلـة فولانج Volanges، ترمز إلى الحماقة الإكليروسية، والفكر التقليدي وتبني كل الأحكام المسبقة. إن حماقة الأم هي في جزء كبير مسؤولة عن المغامرات الحزينة للبنت.

أيجـب تقييد «العلاقات الخطيرة» في هذه الحركة النقديـة الكبيرة للدين ولمؤسساته؟ هـل تسم بميسمها، عشية الثـورة، مرحلة أخيرة من مراحل هذا الصراع الفلسفي ضد نزعة الظلاميـة والتعصبـات والسلوك «الشائن»؟ ومـع ذلك هذا ليس جد سهـلاً. إن نظر لاكلو الروائي تجاه الشخصيات المتحررة من الأحكام الدينية المسبقة ليست متساهلة... نرى في

«العلاقــات» آثار إنكار لاكلو إزاء الطبقة التي قــد يمثلها فالمون ومدام ميرتوي. إن المحرر يزعم أنه لم يفعل سوى اختيار وجمع مراسلات كتبت فعلياً من معاصرين. بيد أن الناشر، مع الاحتفاظ بسخرية الكاتب ظاهرة وملموسة، يعترض: «العديد من الشخصيات التي يمسرحها لهــا أخلاق سيئة جــداً، ويستحيل افتراض أنها عاشت في عصرنــا، في عصر الفلسفة هذا حيث الأنوار، المنتشرة في كل مكان، جعلت، كما يعرف كل واحد منا، كل الرجال شرفاء جداً، وكل النساء متواضعات جداً ومتحفظات جداً».

إن فســاد العالم الذي يمسرحه لاكلو قد يتوجــب إذن تأويله كمحضر فشل: إن الأنوار لم تتمكــن مــن إصلاح وتحويل النظام القديم. ولكي يتمكن تعليم الأنــوار من أن يؤتي أكله حقاً سيتوجب العبور إلى العمل، إلى الفعل، والشروع بثورة حقيقية. وهذا أحد المعاني التي يحملها التزام لاكلو في بداية الثورة الفرنسية: إعطاء فعالية، نجاعة حقيقية لتعليم الأنوار. طالما أن مجتمعــاً عاطلاً وعقيماً تماماً يعمل في إناء مغلق، فإن الحس النقدي تجاه الأحكام المسبقة لا يصــل إلا إلى انحراف الإباحية، في حين تعظيم الشعور والهوى لا يؤدي إلا إلى كوارث. لأن «العلاقــات الخطيرة» تتضمن أيضاً نقداً لكل هذا المقلب الحساس والفاضل لعصر الأنوار. إلى أين تقود انطلاقات هذا التمجيد الأخلاقي عند مدام دوتورفيل، إن لم يكن إلى الموت؟ وفيمــا يخص الحساسية المتباهى بهــا كثيراً، فإن لاكلو يظهر أضرارهــا: «هذه الحساسية النشيطة جداً هي دون شك، ميزة محمودة، جديرة بالثناء؛ ولكن ما نراه كل يوم يعلمنا على أن نخشاها» تكتب الحذرة مدام دوفولانج، وأكثر وقاحة، مدام دوميرتوي: «ارتعدوا بشكل خاص مــن أجل هؤلاء النساء النشيطات جداً في عطالتهن، اللواتي أسميتموهن حساسات، واللواتي يستولي عليهن الحب بسهولة كبيرة وبهذا المقدار من القوة».

إن فالمون، بعد أن مارس جاذبية حية وقوية على الرومانسي بايرون، لأنه ألهم الإباحيين في القرن العشرين، ومن بينهم روجيه فايان وفاديم Vadim، أو أكثر قرباً منا فيليب سوليرز. إن الميل إلى اللعب والمخاطرة، ورفض الأخلاق، وذكاء القلب الإنساني هي المزايا الجوهرية لهذا النمط من الشخصيات الذي ليس لحياته أي نكهة إثارة إلا على حساب الانحراف.

بعض ما تعانيه اللُّغة العربية

رياض طبرة

ستظلُّ مسألة التوفيق بين ما ننطقه من قول وما نسطّره على شكل حروف موضع اهتمام المشتغلين بعلم اللسانيات، والحريصين على الضاد لغةً حيةً قادرةً على التعامل مع الحداثة وتمثل روح العصر والتلاؤم مع متطلباته، وإن كانت هذه المسألة لم تعد ملحة وتحتاج إلى أولوية لكنني أعتقد أنها ستعود إلى الصدارة في البحث والتنقيب عن بدائل للواقع الراهن؛ الذي نعاني منه نحن العرب، ويعاني منه بصورة مختلفة أولئك الناطقون بالعربية من غير العرب.

والمسألة قديمة فقبل أكثر من قرن عرضت مجلة (المقتطف) في مصر وجهة نظر للحوار حولها وفتحت باب النقاش. ويرى الأستاذ الباحث محمد كامل الخطيب وهو يحرر ويقدّم كتاباً بعنوان اللغة العربية، في عنوان عريض هو قضايا وحوارات النهضة العربية (٣٧): يرى أن العرب حققوا انجازاً كبيراً في مجال إحياء وتجديد لغتهم، وجعلها نوعاً من الرابطة الموحّدة، وشكلاً دالاً من أشكال الشخصية والحضور المستمر في العالم الجديد.

وهذا إنجاز قليلاً ما يلاحظ على الرغم من أهميته الكبيرة، مثلما قليلاً ما تذكر الخطا والمراحل، بل المعارك التي مرت بها العملية الاجتماعية – الثقافية التاريخية المعقدة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، فقد كان تجديد اللغة العربية تجديداً للذهن وللعلوم وللأجناس الأدبية، وهو ما

باب الرأي، هنا، منبر يعبّر فيه الكتّاب عن آرائهم، ولا يعبّر بالضرورة عن موقف المجلة أو إدارتها.

أسهم في دخول العرب بلغتهم، مجال العصر الحديث، محتفظين في الوقت نفسه بشخصية مميزة، أبرز سماتها وجود ثقافة مستمرة من خلال (أبجدية) أو (لغة) أو (حرف) عربي مستقل، وقد ساعدت الصحافة ودور النشر والمدرسة والتأليف العربي الجديد في تجدد اللغة، كما أسهمت الترجمة، في إعادة إحياء اللغة العربية وتجديدها، بل شحنها بدقائق وآفاق الفكر والعلم الحديثين.

ونورد فيما يأتي ما طرحته (المقتطف) تحت عنوان اللغة العربية والنجاح:

إذا أردنا أن نطلب النجاح من بابه فقد أشار ذوو الألباب إلى واحد من ثلاثة أمور هي:

- إمّا أن نستبدل بلغتنا لغة أخرى وهذا لا نرضاه لأنفسنا، ولا يرضاه غيرنا لنا مع أنه ممكن ونخاف أن تدعو الأحوال إليه في مستقبل غير بعيد.

- وإمّا أن نكتب كتبنا باللغة التي نتكلّم بها كما فعل الإيطاليون والأروام وغيرهم من الأمم الذين فسدت لغاتهم بتوالي الأزمان، وتسلط ليل الجهل، ثم عادت إليهم شموس العلم، ولم يروا سبيلاً لإرجاع لغاتهم القديمة فاكتفوا باللغات الشائعة حينئذٍ، وهذبوها، وكتبوا كتبهم بها. فإن اللغة اللاتينية مثلاً فسدت زمن انحطاط الدولة الرومانية ولما تبين للكتّاب الذين قاموا في القرن الثاني عشر وما بعده أن لغة التكلُّم صارت بعيدةً جداً عن لغة الكتب، أخذوا يكتبون حسب لغة التكلُّم، وكانت الكتب الأولى التي كتبت باللسان الإيطالي شعريةً، وأما الآن فصارت الكتب تؤلّف في ذلك اللسان في اللاتينية مع أن اللاتينية بقيت مستعملةً في التأليف ولكن على قلة. ولو كان الإيطاليون لا يكتبون الآن إلا باللاتينية لَمَا كان العلم منتشراً في بلادهم. وما يقال عن الإيطاليين يقال عن الأروام الذين تركوا اللغة اليونانية القديمة، واعتمدوا على الرومية التي نسبتها إلى اليونانية نسبة العربية التي نتكلّم بها إلى العربية التي نكتب بها، ولا يخفى أن اليونانية واللاتينية لغتان قديمتان شريفتان وسيعتان انتشرتا وقتاً ما في كل العالم المتمدّن، وكتبت بهما كتب الفلسفة والشريعة والعلم والديانة، ومع ذلك كله قضت شرائع الطبيعة على أهلهما أن يهملوهما.

- وإما أن نعلّم أولادنا التكلُّم بالعربية الصحيحة حتى تصير ملكة فيهم فيتكلّمون كما يكتبون. وهذا على ما نظن أشرف الطرائق وآمنها وأنفعها، لأن العربية الصحيحة واسعة المتن، مضبوطة القواعد، غنية بالكتب، يمكنها أن تجاري العلم أكثر من كثير من لغات الأرض ولاسيما أنَّ فيها بابين وسيعين، هما باب التعريب وباب النحت، فلا تحتاج إلّا مجمعاً لغوياً من أهل العلم والفضل يتحكم في تعريب الكلمات أو نحتها لكي تُستعمَل في كل الديار العربية. فإذا تمَّ لها ذلك وأجبر المعلمون تلاميذهم والآباء أبناءهم على التكلّم باللغة العربية الصحيحة، فربما لا يمضي عشرون أو ثلاثون سنة حتى تصير لغة التكلّم مثل لغة الكتابة وتحصل الفائدة المطلوبة من اللغة.

ونُدوِّن ما جاء في رد الشيخ خليل اليازجي نصاً وروحاً:

وقفت في المقتطف الأغر على فصلٍ عنوانه «اللغة العربية» خلاصة ما فيه البحث في استنباط وسيلة تجمع بين التكلم ولغة الكتابة. ومحصّل ما رود فيه التخيير بين ثلاثة أوجه أحدها أن نستبدل بلغتنا لغة أخرى، والثاني أن نستبدل بلغة الكتابة لغة التكلم أي لغة العامّة، والثالث أن نستبدل بلغة العامّة في التكلّم اللغة الفصيحة.

ولما كانت هذه المسألة من المسائل التي يهمُّ كل عربي البحث فيها، أحببت أن أُبدي ما عنَّ لي فيها من الرأي بعد استئذان سادتنا أُولي العلم وأرباب الأقلام فأقول:

أمّـا الوجـه الأوّل وهو أن نستبدل بلغتنا لغة أخرى فلا يخفى أنـه لا ينتفع بفائدته على القصد المذكور ما لم يعمَّ هذا الاستبدال لغة التكلّم أيضاً، وهو من الاستحالة بمكان. وأمّا الوجه الثاني فأقل مـا فيه هـدم بناية التصانيف العربية بأسرها وإضاعة كثير من أتعاب المتقدمين ثم تكلف مثلها في المستقبـل. وبعـدُ، فإذا صححنا هذا الرأي وهممنا به فعلى أيٍّ من لغات العامة نعتمد، وبين كل لغة منهـا وأختها من تباين اللهجة واختـلاف الأوضاع مالا يقل عن الفرق بين إحداها واللغة الفصيحة. فأي تلك اللغات اخترنا للكتابة فهي تُفضي بنا إلى مثل ما فررنا منه. وعليه فلا بدّ في هذا المطلب مـن تحويـل لغات البلاد كلها إلى لغةٍ واحدة. وإذا كان ذلك فلا جـرم أن الأوّلى والأسهل ردّ الألسنة إلـى اللغة الفصيحة، وهي مستوفية القواعد محكمة الأسلوب واسعة الأوضاع بما لا يُدانيه شيء من اللغات العامية، مع تسليم الجميع بها بلا مُنازع. وهو مُفاد الوجه الثالث مما تقدّم، وهو الأقرب إلى الإمكان بالنسبة إلى الوجهين الأولين غير أنه لا يزال في حدّ نفسه غير بعيد عن المستحيل.

(٢)

لـي أن أزعم أن ما لاقته العربية من إقرار باعتمادها لغة دولية، أو ما خُصّت به من يوم عالمي للاحتفال بها سنوياً في الثامن عشر من كانون الأوّل من كل عام، لم يكن جوداً وسخاءً دوليّاً وكرمى لعين لغة الضاد، بل كان ذلك نتيجة مباشرة لظهور العرب وتأثيرهم المعنوي والاقتصادي والثقافي بعـد حرب تشريـن المجيدة بوصفهم قوّة أخذ العالم يصغي لمفرداتها، وحق أبناء هذه اللغة في أن يكونوا أمّة تقدِّمهم بصورة حضارية على صورتها ومثالها، وأزعم أن من نتائج تلك الحرب المجيدة أن تقدَّمت الوفود العربية إلى الأمم المتحدة لاعتماد لغتنا الجميلة واحدة من اللغات المعتمدة في لغـات الأمم الست المعروفة، وكان لهم ذلك، فقد تقدَّموا موحدين على قلب واحد ومصلحة واحدة ورؤيـة موحدة لما يجب أن تأخذه هذه اللغة من مكانة بين لغات الأرض، وهي التي امتازت على كل اللغات بصفة قدسية يقرُّها أكثر من مليار إنسان يدينون بالإسلام على أقل تقدير.

وفي هذا اليوم الذي يسلط الضوء فيه على حياة اللغة وإمكانية استمرارها، أداة حضارية عصرية بين جميع الناطقين بها، لا بد من البحث عن دور أهل اللغة مع الراغبين في أن تحمل القدرة على نقل معارفهم وثقافتهم إلى جهات الأرض كلها، وإلى نوافذ المعرفة كلها، قبل أن تتعرّض ككل كائن حي إلى الوهن والضعف ومن ثم الزوال حال لغات عديدة،شهدت هي الأخرى مساراً مماثلاً، فإما فقدت حياتها كاملة وإمّا غدت محصورة في أضيق نطاق ممكن.

ولا نأتي بجديد إن ذكرنا أن ما تعرَّضت له العربية من دورة الحياة أكبر بكثير مما تعرَّضت له جميع لغات الأرض من محاولات طمس وتهميش وعزل عن التداول بهدف حَصرِها في المقدس الذي أدّى دوراً مهماً جداً في حفظها واستمرار تجددها لغة تستحق الحياة والتواصل والانبعاث الدائم.

ويكفي أنها وأهلها أزيحت عن لغة الحاكم والحكم منذ سقوط بغداد (٦٥٦) للهجرة في أخطر اجتياح همجي استهدف الأمة واللغة والبشر والحجر كما هو حال كل هجوم تتري بربري مغولي تركي فرنسي أمريكي إنكليزي من بعد، وظلت كذلك قروناً كثيرة، لولا أن أهلها ظلوا أوفياء للغتهم، إذ انصرفوا إلى التأليف والترجمة ونظم الشعر وإحداث مذاهب وفنون أدبية جديدة، محافظين ومبرهنين على امتلاك هذه اللغة إمكانية استيعاب الأدب والعلوم والفنون والفكر المنقول والمتداول.

ففي عصور الدول المتتابعة، وهي التسمية الأكثر دقة في وصف المراحل التاريخية بعد العصر العباسي إلى العصر الحديث بدلاً من التسمية التي ظلّت شائعة طويلاً أي عصر الانحطاط، في هذه العصور تمكّن العرب من إنجاز أكبر وأكثر المؤلفات في مختلف المجالات، وبما لا يسمح بوصف تلك المرحلة مرحلة انحطاط، إنّها مرحلة وفاء الأديب والمفكر العربي للغته ولأمته ولشعبه، فعندما يُقدِم العرب على التأليف إنّما يُقدِمون على الإبداع، وإن لم يمتلكوا القرار السيادي الذي يؤهلهم لفرض ثقافتهم أو تعميمها كما كان الحال حين لم تتوقف دولتهم عند حد أو رسمت حدوداً لها.

ومن هنا تكون اللغة بأهلها، فإمّا أن يمدُّوها على الدوام بأسباب الحياة والبقاء والتواصل مع العصر ومستلزماته ومتطلباته، وإمّا أن يكونوا في الصف الآخر العامل على إقصائها ودثرها أو وضعها على رفوف المكتبات كاللغة اللاتينية على سبيل المثال، أو اللغات الأكثر قِدَماً، التي يجهد البحاثة في فكِّ طلاسمها بعد اندثارها.

وأستطيع أن أزعم أن العربية بِنْتَ الدهور أي إنّها لغة غير قابلة للموت، وهي في هذا الجانب، تخالف وتوافق نواميس الموت والحياة، تخالفها في أنها ليست قابلة للموت التام بمعنى الاندثار والزوال ودخول المتاحف واللغات غير القابلة للتداول، وهنا يؤدِّي المقدس دوراً كبيراً وفاعلاً ومؤثراً كما كان شأنه في كل العصور والدهور التي شهدت جوراً وظلماً غير مسبوقين على الأمة

وعلى اللغة، وصمودها في مواجهة عمليات التتريك والفرنسة، سواء في مشرق الوطن العربي سورية وما حولها، أم في مغربه الجزائر وبلدان المغرب العربي.

وهي متوافقة مع نواميس الموت والحياة إذ إنّها تتخلى كما الجسد عن خلاياها غير الفاعلة أو الميت من هذه الخلايا بمعنى أنها تسقط في كل جيل كمّاً هائلاً من المفردات لم تعد الحاجة قائمة لاستمرارهـا في دورة الحياة، وللتدليل على ذلك كان المرحوم الشاعر حسن البحيري يحفظ ستين ألفَ أَصلٍ لغويٍّ، ولكن السؤال كم كان وكنّا معه نستخدم من هذه الآلاف المؤلفة من المفردات؟!

وكذلـك يتصل الأمر بقدرة اللغة على إعطـاء بعض المفردات معاني جديدة تتفق مع استخدام جديد لها غير ما كان عليه في ولادتها غير المعروفة أو المجهولة كالثقافة والصناعة والعقل والإدارة ومعظم المفردات التي تُتَداوَل اليوم بيسر وسهولة متطابقة في الذهن بين معناها ومبناها.

يسهم في مقدرة اللغة على الحياة في كل عصر إخلاص أبنائها لدور لغتهم الحضاري، وترجمة ذلك على أرض الواقع، وفي المكان الصحيح، وهنا لنا أن نفخر بما أَقْدَم عليه الرواد الكبار الأوائل في مجال التعليم، إذ أصروا على أمرين: الأوَّل أنّهم اعتمدوها لغة أساسية في الجامعة أي لغة للطب والحقوق في العقد الثانـي من القرن الماضي وعدم تدريس العلوم بغيرها، والشعار الذي اعتمدوه سياسةً منهجيّةً في كل المراحل، أي تعريب التعليم.

والأمـر الآخر هو في تخليص اللغة مـن الأساليب المنفرة، وهنا نسجـل تكامل جميع الجهود وارتقائهـا لتبسيط اللغة وإبعادها عن المفـردات المقعرة والحوشي منها، وما إلى ذلك من أساليب كتابية موروثة كالسجع والمحسنات اللفظية التي فَقَدَت مسوِّغات وجودها، واستمرار الاعتماد عليها للتفاخر في هذا المجال.

وتستحـق جامعـة دمشق ومؤسسها المرحوم رضـا سعيد كل تقدير على الـدور الذي أدّته في تعريب العلـوم والمصطلح العسكري منه قبل غيره، وما قام به مَجْمَع اللغة العربية وجميع أعضائه مـن إحداث نقلة نوعية في تعريب ما يستجد من ألفاظ أجنبية فرضتها طبيعة الحياة التي اتّسمت وتتسم بالاختراع والإبداع، وحق المخترع والمبدع في تسمية إبداعه أو اختراعه الاسم الذي يرغب فيه بلغته لا بلغتنا وهذا أقل الإيمان.

إنّ اللغة كائن حي لكنه لا يستمد حياته من ذاته، إنما يستمدّ حياته وتقدمه وحضاريته من تقدم وحياة أهله جميعاً، واللغة وحدة، والوحدة لغة.

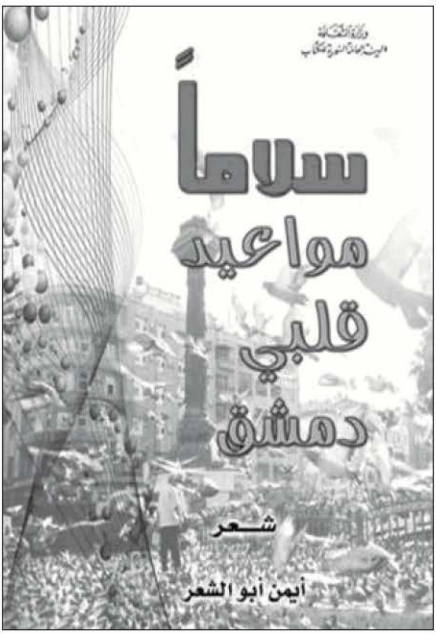
❀ ❀ ❀

قراءات

تنوُّع الأشكال الشعرية وتداخلها

في ديوان «سلاماً- مواعيد قلبي- دمشق»

د. عبد الله الشاهر



في الحقيقة لم يشكّل لي مفاجأة ديوان الشاعر الدكتور أيمن أبو شعر «سلاماً- مواعيد قلبي- دمشق»، ومبعث ذلك أن الديوان يتحدّث عن دمشق، ودمشق حالة عشق بذاتها، فقد وقع في عشقها شعراء كثر، وكانت قصائدهم تصلح أن تكون معلّقات على صدر دمشق... فكيف نفاجأ وشاعرنا هو ابن دمشق، ترعرع في حواريها العتيقة، وامتلأت رئتاه من شذى ياسمينها، وغبّ من بردى حتى الارتواء، فهو حكماً العاشق الذي لمّا يزل رسمها على حوافّ شغاف قلبه، ودليلنا على ذلك قوله:

«أنا الياسمين الحواريُّ
وجوريُّ خدّ النهار
شميمُ الندى في ترابِك
وتهويمةُ العشبِ بعدَ المطرْ

ونارنجُ دارِكْ

إذا ما تمرّى بضوءِ القمرْ

قناديلُ كبّادِكِ الحلوِ عند السحرْ

مواعيدُ خصبكِ في النبضِ برقُ

لفجرٍ جديدٍ وشعبٍ سعيدْ

بزندٍ بلا مطرقات

يَدقُّ الحديدَ الرؤى إذ يدقُّ

سلاماً- مواعيدَ قلبي- دمشقُ»

هــذا المقطع هو افتتاحية قصيدة «سلاماً- مواعيدَ قلبي- دمشق»، وهي القصيدة التي حملت اســم الديوان، وهــذا المقطع كذلك بطاقة تعريــف واضحة بالشاعر الذي تماهــى مع دمشق فهو ياسمينها، وجوريها، وشميم نداها، وتهويمة عشبها، ونارنج دارها، وقناديل كبّادها ومواعيد خصبها، وهــذا التماهي الرائع يوصل الشاعر إلى حــد الوله، ولا عجب ولا ضير فدمشق المدينة التي شاب التاريخ على يديها ولم تشب... ودمشق التي ظلّت بأنفة تختزل كل المعارك التي دخلتها لتنتصر.

وهنا سأقف عند هذا الحد ولن أناقش في حالة عشق مثبتة، وكل حرف من حروف هذه المجموعة يقطر حباً وياسميناً ونارنجاً، فهي وثيقة دامغة على أن الشاعر غارق في حبه من رأســه إلــى أخمص قدميه وأول إثباتٍ على ذلك «سلاماً- مواعيــدَ قلبي- دمشق»، لذلك لن أدخل في جدال مع محب... فهو محب وكفى ولا أزيد.

ولكننــي سألتــفّ على حالة الوجد التي صــاغ بها الشاعر حبه من خــلال تنوع الأشكال الشعرية وتداخلها وسأُجملها في مجموعة من المرتكزات:

أولاً- يحرصــ الشاعــر على تنوّع الأشكال الشعرية في ديوانــه، ساعياً بذلك إلى اختبار الممكنــات الجمالية في كلّ شــكل شعري، وهذا يعني أن الشاعر لــم يسجن نفسه في شكل شعــري بعينه، وإنما عمــل على استثمار طاقة مجمل الأشــكال الشعرية، والانفلات في الآن نفســه من عقالهــا، إذ إن تجربة الشاعر كانــت أكبر من الأشــكال، وإن اتخذت منها سبيلاً للتعبير، وقد بدا ذلك من خلال:

أ- القصيدة العموديــة وفتنة الشكل القديم... إذ وجدنا الشاعر حريصاً على العودة إلى القصيدة العمودية كما في قصيدة «غاب الحبيب عن الأحداق مرتحلاً»، وقصيدة «لبنان في

القلب»... وعلى ما أعتقد أن الشاعر أراد به نوعاً من الالتفات الوظيفي إلى القالب الشعري التقليـدي الأكثـر تجذّراً في الذائقة، وعلى ما يبدو أن الشاعـر كتبهما مغايرة لا تقليداً وإن اشتركتا في البناء الإيقاعي، أو ربما يكون الموضوعان يتناسبان والشكل الإيقاعي، وسأجتزئ شاهداً من قصيدة «لبنان في القلب»... يقول الشاعر:

«المـتـعـبـونَ بـوشـم الـرُّوحِ بَـصـمَـتُـهُـم

والـحـالـمـونَ لـهـمْ أشـرَعْـتُ أجـفـانـا

إنّـي لأعـشـقُ حـتّـى بـثُّ مـن ولـهٍ

أراقـصُ الـكـونَ فـي عـيـنـيـكِ أكـوانـا

قـد آنَ يـا شـامُ بـعـض الـدَّمِّ نَـفْـصِـدُهُ

مـن قـبـلِ أنْ يـغـشـى قـيـحـاً وأدرانـا»

ب- لا شـك أنَّ الشاعر على وعي تامٍّ بهيمنـة المنحى العمودي على الديوان، لكنَّه يترك للقصيدة حرية الشكل والتفعيلة، وهذا ما يمكن رصده في أربعة مستويات..

المسـتـوى الأول المتعلـق بأطوال الأبيـات الحرة، فقد وجدنا حرصاً علـى تنويع أطوال الأبيـات فـي كل قصائد الديـوان، فما من تماثـلٍ واضحٍ في عدد تفعيلاتهـا إلا فيما ندر، وهـذا يعني أن الشاعر يستمدُّ بناء قصديته من التفعيلة بوصفها الوحدة الوزنية الرئيسة في النمط، فمن بيتٍ قائمٍ على تفعيلةٍ واحدة إلى بيت قائم على أربع أو خمس تفعيلات، وسأورد شاهـداً من قصيدة «عشتار وتجليات الواقـع والمطلق بين الموت والحياة» المقطع الخامس «الاغتصاب»، يقول الشاعر:

«لو يُنادي مُنقذاً في الليل فمْ

جنَّ مجموع النغمْ:

أيُّها النَّصلُ الأصمْ

غُصْ إلى القلبِ استحِمْ

هاتِ دمْ

هاتِ دمْ

وشاهدٌ آخر من قصيدة «أهوى الكرز»، (ص٥٣). يقول الشاعر:

«أهوى الكرزْ

وأُحبُّه في غصنِه في صحنِه

وأُجِلُّه كالتوتِ ما اكتملتْ به ألوانُهُ في برعمتينْ

وافترَّ من حُضْنِ الحليبِ الرخوِ غضًّا إذ برزْ

منقارَ عصفورٍ على ريشِ الإوزْ

أهوى الكرزْ»، (ص١٠٢).

إن هـذا التشكيل يؤكد طواعية النظم في الحالة الإبداعية للشاعر، ويمنح التفعيلة قدراً أكبر من الحرية لتمتدّ وتنحسر حسب ما تمليه الحالة الشعرية.

أما المستوى الثاني، فهو عائد إلى نظام التقفية الذي اعتمده الشاعر في نصه الشعري، وهـو نظام- حسب ما أرى- يعكس مرونة النظم في شعـر الشاعر وانضباطه، وتُعد التقفية المقطعية أهم أنماط التقفية السائدة في الديوان، والحقيقة أنَّ الشاعر زاوج بين ائتلافٍ في القوافي الختامية لمقاطع القصيدة من جهة، واختلافٍ في القوافي الداخلية لكلِّ مقطعٍ على حدة، ومن أمثلة ذلك، قصيدة «عندما يأتي الصباح» يقول الشاعر:

«ربَّما تأتي تباشيرُ الصباح

عندما نرنو لها

حاملين الفجرَ يرفو ظلَّها

بعدَ أن جئنا إليها بالرماحْ

بالمدى نفري سراعاً باسمِها أوصالَها

وهي تهفو نحونا رغمَ الجراحْ

لا صراخاً لا نواحْ

فهي مازالت ترى فينا هُنا أطفالها

والعياسيبُ استشاطتْ

لا ترى فيها سوى سمْتاً وساحْ»، (ص٨).

والملاحـظ أنَّ قافيتين أساسيتين في هذا المقطـع، حيث الحاء وردت خمس مرات في حيـن وردت اللام والهـاء مع الإطلاق أربع مرات، وهذا النمط من التقفية جميل، وقد تكثَّف حضوره في الديوان في أغلب القصائد...

ويقوم المستوى الثالث على استدعاء اللازمة الشعرية، وهي بيت أو أكثر يتكرر في مواضع معلومة من القصيدة الحرَّة، وهذا التكرار ينهض بوظائف كثيرة، منها في هذا المقام الوظيفة الإيقاعية، ومنها الانتقال من موضوع إلى آخر، ومنها تأكيد حالة ما، والحقيقة أن الشاعر أتقن اللازمة الشعرية وبشكل واضح، ومثال على ذلك قصيدة «الحصان»، (ص٣٥) إذ تتكرر فيها اللازمة الشعرية «ودَّعت خلَّاني وقلتُ أموتُ» أربع مرات، وفي كل مقطع يبتدئ الشاعر بحالةٍ شعرية وموضوع آخر، وكذلك في قصيدة «سلاماً- مواعيدَ قلبي- دمشق» فقد جاءت اللازمة في نهاية كل مقطع... وأعتقد أن الشاعر عندما وضع اللازمة في مقدمة المقطع أراد التذكير ولفت الانتباه والإثارة، في حين أن اللازمة التي جاءت في نهاية المقطع هي قاعدة ومرتكز لكل ما تقدم...، ومن المفيد التذكير بأنَّ اللازمة الشعرية في نص الشاعر هي برهنة على الحيوية في النص، وعلى قدرة هذه اللازمة إيقاعياً وفعلها دلالياً...

أمّا المستوى الرابع فهو تداخل الأشكال الشعرية في قصائد الديوان، فالمتأمل في نص الشاعر يلحظ أنه عمد إلى بناء أشكالٍ شعرية متداخلة، فيها مزج صارخ بين شكلين شعريين، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها قصيدة «القل ما قالت دمائي» وقصيدة «قليل كثير» وقصيدة «قلبي على قلبي احترق»، وسأورد شاهداً على ذلك من قصيدة «قلبي على قلبي احترق»، يقول الشاعر:

«يا شامُ وجهيْ لم يزلْ قطرَ النَّدى
يروي سهوبَ العشقِ أفقاً للمدى
لي في مرابعها صهيلٌ شامخٌ زغرودة
كالعقد يجمعُ حاضناً جيدَ الصدى
من شهقةِ الإعصارِ شدَّ سروجَهُ يوم السبقْ
نبضي سنابكُ عدوِهِ لحنين ثغركْ
يمضي إلى عرس اللقاءِ يزيحُ أستارَ الغسقْ
من خفقةِ الراياتِ تزدحمُ النسائمُ موعدا
لكنَّني من فوَّهاتِ عقاربِ الصحراءِ
تترى فوق ظهركْ
وتبسُّمِ الثَّغرِ المضرَّجِ واثقاً

ليشدَّ أزري رُغمَ قهرِكْ

روحي انسكابٌ في الورقْ»، (ص٥).

هــذا المقطع مكوَّن من مقطع عمودي وآخر تفعيلــي، ولا شكّ أن المقطعين على تفعيلة واحــدة (تفعيلــة البحر الكامل)، وهذا يؤكــد أنَّ التنوع في معمار القصيــدة كامنٌ في أصل نشأتها وليس هو بالمصطنع، فلم يجمع الشاعر بين الشكلين عنوة، وإنما هي اللحظةُ الشعريةُ وتناقضاتها، فجاءت القصيدةُ لا هي بالعمودية الخالصة ولا هي بالتفعيلة الكلية...

إنَّ المراوحة بين حرية البناء الإيقاعي متمثلاً في الشكل التفعيلي من ناحية وضبطه في شــكل محكم على غرار الشــكل الإيقاعي التقليدي من ناحية أخرى حاضرة في قصائد شتى من الديوان، وهذا التداخل في الأشكال الشعرية في نص الشعر يعصمها من الرتابة والتماثل، ويسمُها بالمغايرة والتمايز.

ثانيــاً: ميــزة أخرى نجدها في نصــن الشاعر الإيقاعي، وهي ميــزة التكرار في كثيرٍ من قصائــد الديوان، ففي قصيدة «قليل كثيــر»، المقطع الثالث من القصيدة تكررت فيه مفردة «قليل» خمس عشرة مرة، يقول الشاعر:

«قليلٌ من الدفءِ في موقدِ الرَّفضِ

وسطَ الجليدِ الرضوخِ البليدْ

قليلٌ من النبضِ وسطَ العروقِ

يداري الذراع النحيلْ

قليلٌ من الزيتِ وسطَ السراجِ الدليلْ

قليلٌ من النطقِ والحبرِ في وجهِ صمتٍ ذليلْ

قليلٌ قليلٌ قليلٌ قليلْ

ولم يبقَ نحو اللقاءِ الجميلْ

سوى يومِ عومٍ على رحلةِ الألفِ ميلْ

قليلٌ من الضوءِ حَزَّ الظلامَ الوبيلْ

قليلٌ من الرَّعشِ في جلدِ كفٍّ دَنَتْ نحو نعشي

قليلٌ من البرقِ من خلْفِ رمشي

تحدّى جنون الصليلْ

قليلٌ قليلٌ قليلْ»، (ص١٢).

والتكــرار هنا لا يأتي اعتباطاً، إنــه تأكيد، ولفت انتباه، ورسم صــورة، وهو ظاهرة فنية جماليــة بشكل عام، ولم يقتصــر التكرار في نص الشاعر على الكلمــات فحسب، فقد جاء التكــرار فــي نصه على شكل جملة، أما قصيدة «سيأتي يــوم أن نشدو تهانينا» ففيها حدائق رائعة يكرر فيها الشاعر مفردة «تعازينا» ثلاث مرات، ومفردة «كل» ست مرات، ومفردة «هنا» اثنتــي عشرة مرة... واللافت في هذا التكرار أن مفردة «هنــا» وردت أربعة أمثال «تعازينا»، وكذلك مفردة «هنــا» فإنها تساوي ضعف مفردة «كل»...، وهذه العددية تبدو مدروسة بدقة، فهنا الثبات والأصالة، ولذلك فهو يقول:

«هنا ميلادُ فاجعتي

هنا تاريخُ أغنيتي

هنا صوتي تقمَّصني

هنا لغتي

هنا أرجوحتي الأشهى

هنا لعبي

هنا ميلادُ أشرعتي

هنا أشعلتُها شهبي

لآفاقٍ تمجِّدُ ذروةَ التعبِ

هنا دربي، هنا آثارُ قافلتي

هنا ألقٌ يعذبني..

....

....

هنا أعجوبةُ العجبِ»، (ص٦٠).

إذن، فالتكــرار في نص الشاعر جاء متوضعــاً تموضعاً دلالياً واضح المعالم، وكذلك جاء إيقاعاً جمالياً ليشكل حالة من الفعل الذي يثير في النفس الحماسَ.

في المقطع الخامس من قصيدة «عشتار وتجليات الواقع والمطلق بين الحياة والموت»، الذي جـاء تحت عنـوان «اغتصاب» فقد جاء التكرار على شكل سؤال «لمـاذا» وهذه الـ «لماذا» وردت ثماني مرات في النص، ولاحظ كيف أن الشاعر لوّن هذه التساؤلات بوعي... يقول الشاعر:

«فلماذا كالسُّدى تنسابُ أنهارُ الدماءْ

ولماذا كالردى تنهارُ أصداءُ الرجاءْ

ولماذا بالمدى وهمٌ تشفّى طاعناً ظهر الرجاءْ

ولماذا تَنحرُ الظلمةُ أعناق الضياء

ولماذا كلّما عشتارُ غنّتْ باسمِ حلمي جرّحوها

ولماذا كلّما أوغلتُ في عشقي إليها أبعدوها

ولماذا سارعَ الكهّان في رشّ الحُنوطْ

ولماذا أنتَ يا من تبصر المكتوبَ- حتى- دونَ عينْ

عالماً أبقيتني أعمى عنِ الآتي بعينينِ اثنتينْ»، (ص٥٢).

وهذا المقطع مـن قصيدة رائعة، وهي ملحمة مكونة من تسعة مقاطع جال فيها الشاعر مجالات واسعة، وهي تحتاج إلى دراسة متأنية لا يتسع هذا المقام لها...

وهنا سأكتفي بهذا القدر على الرغم من أن الديوان يستفزكّ لأن تكتب عنه أكثر من عدد صفحاتـه، فنصوصه متخمة بالأفكار، والصور، والانزياحات، والدلالات، والإسقاطات، وهذا لم أتعرض له خشية الإطالة... ولكنني سأورد بعض النقاط وبشكل سريع وهي:

١- يتميز هذا الديوان في أنه لم يتوقف عند الحقل التخييلي، بل كانت موضوعات وطنية وفكرية ومجتمعية عدة..

٢- استولت دمشق على أغلب قصائد المجموعة.

٣- يحكم الديوان رؤية سردية تحليلية لا تجامل ولا تتحامل.

٤- أخذت الحرب على سورية حيزاً كبيراً من الديوان.

٥- استخدم الشاعر الفعل المضارع الذي فاعله الضمير المستتر وجوباً (أنا) مثل «أمتدُّ جسراً، أحبُّ صفاء المرايا... إلخ»، وكلها تفيد الطموح والاستقبال، وهي حالة تفاؤلية يسعى إليها الشاعر.

٦- استخـدم الشاعر «كاف» الخطاب للتعبيـر عن حميمية العلاقة مثل «ترابكِ وعينيكِ، وخصبكِ، وحنانيكِ، ووجهك... إلخ».

٧- لغـة النصـ قوية ومناسبة للسياق الشعري، وربما نلحظ فـي بعض النصوص توليداً لألفاظٍ تصعّد الصورة الشعرية.

وسأختـم بنص صغير جاء تحت عنوان «الانتصار»، هو صغير في كلماته كبير في دلالاته ومعانيه... يقول الشاعر:

«إن خسرتُ الفجرَ في هذا الرهانْ

فأريجُ الإقحوانْ

سوفَ يحكي للزمانْ

كم ضئيلاً ناحلاً كان الشراعْ

صادق الألوانِ من نزفي ووديْ

كم عتيّاً كانَ إعصارُ الصراعْ

غادراً والكونُ ضدِّي

قد كفى مجداً بأنْ كان التحدِّي

بيننا نِدّاً لنِدٍّ».

❀ ❀ ❀

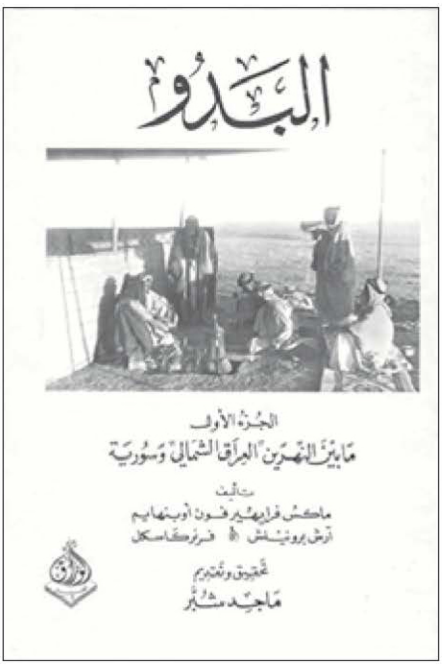
قراءات

قراءة موجزة في كتاب «البدو»

للمؤلف ماكس فون أوبنهايم

ياسر شوحان

إن المطلّع على بعض الدراسات البحثية الميدانية لا بد أن ينبهر بحجم العمل الذي قدّمه الكاتب في رصد وتوصيف البدو، باحثاً في جميع المعطيات والمعلومات حول ما يتعلق بأبناء البادية. ولاسيّما أن ما قدّمه حول بيانات ومعلومات تاريخية وسياسية واقتصادية وأنثروبولوجية غاية في الأهمية جعلت من هذا الكتاب موسوعة حقيقية ومصدراً مهماً جداً لكل مهتم في البدو وطريقة عيشهم وجذورهم.



ما هو كتاب «البدو»؟

إن خير من وصف هذا الكتاب هو مؤلفه، فقد قال عنه: «هو حصيلة أربعين عاماً من العمل والملاحظات والتسجيلات الشخصية التي قمتُ بها في عين المكان» فهو عمل استثنائي بحق

فـــي تقديم معلومات شاملة وفريدة من نوعها عن تاريخ القبائل وأصولها وأنسابها وهجراتها والترابط القائم بينها.

عندما نسمع عن كتاب «البدو» يتبادر إلى أذهاننا فوراً أن مؤلفه أوبنهايم (ماكس فرايهير فون أوبنهايم) وفي الواقع فقد اتخذ مساعدين اثنين لإتمام دراسته وتأليفه لهذا الكتاب وهما آرشــ برونيلشــ وفرنر كاسكل، يتألف الكتاب من أربعة أجــزاء، أُرفق بكل جزء منه مجموعة من الخرائط الجغرافية تُظهر توزع وانتشار ووجود القبائل المذكورة في ذلك الجزء، وكذلك أرفق مؤلفه بعض شجرات أنساب القبائل ووضع كثيراً من الصور في الجزء الأول والثاني.

ولــد أوبنهايم في كولونيا عام (١٨٦٠م) وهـــو أنثروبولوجي ودبلوماسي ومؤرخ وعالم آثار أيضـــاً كان قد اكتشف تل حلف في مطلع القرن العشرين وألّف عن هذا الموقع كتابين الأول في عام (١٩٤٣م) بمشاركة عالم الآثار هيربرت شميديت والثاني في عام (١٩٥٠م) بمشاركة ر.نـاومان.

أوبنهايم ورحلة البحث

تتبــع أوبنهايم في البداية آثار الانقلابات متعددة الجوانـــب التي تركتها الحرب العالمية الأولـــى، فساقه هـــذا التتبع إلى الشغف بحياة الصحراء وأبنـــاء البدو، فقال: «سيبقى أحرار الصحـــراء الأصليون محافظين إلى أمد بعيد على الصـــورة التي يقدمها كتابنا عنهم: صورة شعب أبي ومحب للحرية، قاسٍ وشديد البأس، مضياف ومحارب».

جـــاء كتاب أوبنهايم نتيجة تجوله في الشرق ما بين عامـــي (١٨٨٣ و١٨٨٤م) وتعلم اللغة العربيـــة خلال تجواله ما بيـــن القسطنطينية وآسيا الصغرى وحتـــى المغرب العربي وشمال إفريقيا، وأقام مدّة سبعة أشهر في القاهرة ودرس (روح الإسلام) وعادات وتقاليد أبناء البلد. وفي ربيع عام (١٨٩٣م) حط رحاله في دمشق وتجول في حوران والصحراء السورية، فأصدر برحلته هذه كتابه «من البحر المتوسط إلى الخليج العربي».

استطـــاع أوبنهايم بدبلوماسيته أن يكسب مودة أبناء البدو، فقد جمع كثيراً من المعلومات «الغنيـــة» بتفاصيلها، وعقد مع الشيخ فارس شيخ شمر أواصر الأخوة ملتزماً مع أبنائه وأبناء أخيه مشعل وعجيل واستطاع أيضاً أن يسبر عادات البدو وتقاليدهم منذ أن كان في القاهرة، فتخلـــى كما يقول عن «الشوكة والسكين» وأكل طعامه بيمينه في ضيافته لهم، ومع ذلك تبدو نزعـــة المستشرق واضحة في حديث أوبنهايم عندما يقـــول: «لقد تحسنت معرفتي بحياتهم

تحسناً مضطرداً، وقد جعلتهم يشعرون أنني أتخذ موقفاً ودياً تجاههم وأتفهم عاداتهم وأعرافهم لذلك بادلوني الود وأجابوا عن تساؤلاتي بطواعية». وعلى الرغم من ذلك فإنه يعتقد أن استفساراته خلال رحلته عام (١٨٩٣م) لم تكن وافية وجمع المعلومات لم يكن كافياً. وربما يعود ذلك في اعتقادي إلى أن أوبنهايم لم يستطع تماماً أن يذوب في الشخصية البدوية على الرغم من عشقه لحياة التنقل وطبيعة العيش، وبالمقابل فإن البدو حريصون على الحديث المتزن، وبعيدون عن الثرثرة والهراء بعيدي النظرة متوجسين من الغريب لذلك فإن معلوماته جميعها -حسب رأيه- غير كافية.

ومما لا شك فيه أن أوبنهايم ذو همة عالية جداً تذكرنا بعزم المغامرين الأوائل في القرون الوسطى، فقد قصد العراق ومنه إلى الخليج العربي والهند وعودة إلى شرق إفريقيا التي يقول عنها (مستعمرتنا الفنية الجميلة وقتذاك...) إذ استطاع الحصول على أراضٍ واسعة فيها (أوسامبارا) إذ أسس فيها مجموعة من الأعمال والزراعات والأصدقاء درَّت عليه أرباحاً خيالية فيما بعد، حيث أشرف أيضاً على منطقة الغابات البكر التي اشتراها الزعيم كيبانجا هانداي وعمل تحت إدارة محافظ تانجا فرايهير فون سانت بول هيلير إذ كان الاهتمام في أول الأمر في هذه المنطقة لزراعة القهوة ثم القنب إلى أن فقدتها ألمانيا خلال الحرب العالمية. ثم ما لبث أن عاد إلى القاهرة متقرباً من السلطة المصرية في عام (١٨٩٤م)، إذ أقام صداقة قوية وثيقة مع زبير باشا مطلعاً على ما كان قد حققه زبير باشا في تأسيس إمارة في السودان المصري.

أوبنهايم مستشرق بعلاقات أخطبوطية

لقد كان هم أوبنهايم الأول هو تقديم ما تحتاجه الحكومة الألمانية من معلومات ولاسيما في مرحلة نهاية الدولة العثمانية وظهور حركات التحرر، لكن اهتماماته انصبت على أن يكون له امتداد في مصر وجنوبها، فقدَّم معلومات غزيرة لوزارة الخارجية الألمانية عن مصر وتشاد مستفيضاً في معلوماته عن الطريقة الصوفية السنوسية التي قال عنها: «لم تكن على قدر كبير من الأهمية الدينية وحسب، بل كانت مهمة جداً من الناحية السياسية» ونتيجة لهذا فقد عرضت عليه وزارة الخارجية أن يكون على رأس بعثة ألمانية للتوغل في عمق أراضي الكاميرون للاستيلاء على المناطق الواقعة بينها وبين بحيرة تشاد لمصلحة ألمانيا وتحييد فرنسا وإنكلترا عنها. بعد ذلك التحق بالممثلية الدبلوماسية في القاهرة

لمتابعة ومراقبة شؤون العالم الإسلامي. مع قراءة تحليلات الشارع المصري في مرحلة كانت القاهرة تعج باللاجئين السياسيين المسلمين الفارين من سلطة الإمبراطورية العثمانية خلال مدّة السلطان عبد الحميد.

ويشير أوبنهايم أيضاً إلى أن علاقاته مع السلطان عبد الحميد كانت على أحسن ما يرام ولاسيّما بعد علم السلطان أنه صديق الشيخ فارس شيخ شمر، إذ كان قد أنعم عليه بلقب الباشوية بعدما علم من أوبنهايم أن الشيخ فارس قد تحدث عن السلطان بأعظم قدر من التمجيد والولاء.

لقد كان أوبنهايم بعيد النظر في تقربه وابتعاده عن السلطات في ذلك الوقت وهو ينظر بعين الحاكم والمحكوم راصداً سياسة السلطان عبد الحميد، وفي الوقت نفسه مبتعداً عن أن يجعل نفسه في صف أحد الطرفين من أبناء البدو أو السلطة، فقال: «لقد تحدث شيخ شمر عن السلطان عبد الحميد كخليفة وولي أمر جميع المسلمين وقد كان السلطان راضياً جداً عنه لأنه كان يعلم أن أبناء الصحراء. شأنهم في ذلك شأن العرب عموماً. يكرهون الأتراك من صميم قلوبهم ويحتملون سيطرتهم مكرهين».

تشعبت علاقات أوبنهايم كثيراً ما بين عامي (١٨٩٤م-١٩٣٠م) فأقام علاقات وطيدة مع الأمير فيصل ملك العراق وذلك من خلال معرفته بالسلطان عبد الحميد. كما كان أيضاً صديقاً مخلصاً للأمير حسين الذي أصبح شريف مكة وملك الحجاز وضيفاً يحل عنده في قصره على البوسفور. كما كان زائراً منتظماً للسلطان عبد الحميد فقد تعرَّف من خلاله على عزت باشا العابد الذي أصبح ابنه رئيساً للجمهورية السورية في دمشق فيما بعد وهو مؤسس الخط الحديدي الحجازي الذي ربط دمشق بالمدينة المنورة، ثم ارتبط بعلاقة جد وثيقة مع الشيخ أبي الهدى والذي كان مقرباً جداً من البلاط العثماني وهو صاحب الطريقة الرفاعية الجبارة ذات الانتشار الواسع، وقد قدَّم أبو الهدى معلومات مهمَّة جداً لأوبنهايم عن البدو وسائر المنطقة.

كان دور أوبنهايم استخباراتياً بامتياز، وقد قام بهذا الدور أفضل مما يجب، إذ عمل في سفارة ألمانيا في واشنطن ثم بباريس ثم عضواً في السلك الدبلوماسي في القاهرة. وتعرف إلى كبار التجار ممن يقومون بالاستيراد والتصدير الذين أقاموا كبرى الشركات في سورية والعراق ومصر، ولاسيما في تجارة المواشي والخيول العربية، وكان لهؤلاء أثرٌ كبيرٌ في إغناء

كتابه «البدو» لما قدمـــوه من معلومات وخدمات جليلة للبارون أوبنهايم. كما كان له علاقات وطيدة مع آل رشيد في حائل وقدَّم اقتراحاته أيضاً حول خط سكة الحديد المحاذي للحدود السورية التركية في طور الإنشاء.

أوبنـهايـم... مـن دبلـومـاسـي إلى عـالم آثـار

كانـــت عائلة أوبنهايم تعمـــل أصلاً في قطاع البنوك وحصل في بداية رحلاته على الدعم المالـــي المقدَّم مـــن والديه، وخلال وجوده فـــي شمالي سورية في محيط تـــل حلف أخبره الســـكان المحليون أن تماثيل مـــن الحجر عليها أشكال تثير في نفوسهم الخوف الشديد منها إذ شاهدوهـــا ومن ثم عادوا لدفنها، وقد طلب منهم أوبنهايـــم أن يدلّوه إلى الموقع فاكتشف تـــل حلف الذي يعود إلى بدايات الألف الأول قبل الميلاد، ويعدُّ مقراً للأمراء الآراميين، وقد رافـــق أوبنهايم بعض المصورين المحترفين الذين قاموا بالتقاط الصور للموقع وللآثار التي عُثر عليها.

أثار هذا الموقع لدى أوبنهايم فضولاً كبيراً مما دعاه إلى العودة للموقع في عام (١٩١١م) والمباشرة بأعمـــال التنقيب التي استمرت مدّة عامين قام خلالها وبمساعدة خمسمئة عامل مـــن المنطقة بالكشف عن القصر الغربي وعلى كثيرٍ من القطع الأثرية التي حملت رسومات ونقوشـــ لكائنات حيوانيـــة وبشرية، بالإضافة إلى كثيرٍ من التماثيـــل الحجرية البازلتية ذات الأحجام الكبيرة، ومن ثم عثروا أيضاً على سور المدينة والقصر الشمالي الشرقي، وكثيرٍ من المدافن والبوابات وحجرة سُميت بالقاعة الثقافية.

لم يستطـــع أوبنهايم في البداية نقل القطع الأثرية المكتشفة من تل حلف إلى ألمانيا، إذ كان من الشائع في تلك المدّة قيام المستشرقين وهواة الآثار الأوروبيين بنقل الآثار إما رسمياً أو بطـــرق التهريب المختلفة، فقام بإخفاء اللقى الأثرية التي اكتشفها في منزله الاستكشافي (القصـــر الصحراوي) ونقل أجزاء أخرى إلى منزله في القاهرة. ونتيجة لتأسيسه متحف تل حلف في ألمانيا (١٩٣٠م) فقد وضع بعض التماثيل واجهةً للمتحف، لكن هذا المتحف قُصف خـــلال الحرب العالمية الثانية، كما استخدمـــت الحكومة السورية آنذاك مخططاته لتصميم متحف حلب ووضع نماذج جصية للتماثيل بشكل مشابه لمتحف تل حلف في ألمانيا.

اكتشـــف أوبنهايـــم أهمية موقع تل حلـــف، فهي المدينة المهمة التـــي تقع على ضفة نهر الخابـــور في الشمـــال السوري، وهي المدينـــة التي تدعى (جوزن أو جوزانـــا) المذكورة في

الإنجيـل مما جعله دائم التطلع لمواصلة التنقيـب فيها لولا الظروف السياسية في المنطقة التي حالت دون تحقيق ذلك، فضلاً عن وجود كثيرين من المجتمع الذين عارضوا الاستعمار الأوروبـي، فحصـد أوبنهايم بذلك شكـوك البريطانيين الذين لم يكونـوا مرتاحين له، مما اضطره إلى إيقاف عملية التنقيب في الموقع.

منهجية البحث في كتاب «البدو»

اتبـع أوبنهايم منهجية بحث في كتابه اعتمدت على المنطقة الجغرافية التي قام بزيارتها مـرات كثيرة، فتنـاول تاريخ منطقة انتشـار القبائل العربية والعشائـر المتفرعة عنها، كما استعرض فيه أيضـاً التنوع الحيوي والطبيعة التضاريسيـة بالإضافة إلى اهتمامه بالجانب الاقتصادي منها، ونتيجة لاهتمامه فـي تقديم تقاريره الدورية للحكومة الألمانية، فقد تتبع الأحـداث السياسية التي مرت بها منطقة دراسته، ولم يكتـف بعرض العشائر فحسب وإنما تتبعهـا ضمن تسلسل زمنـي باحثاً عن جذور هذه القبائل وأصولها. كما اتخذ أسلوب صياغة شيّـق قريب من نمط أدب الرحلات، وهو ذو لغة واضحة مفهومة بأسلوب علمي سلس رصين دونمـا تعقيد مما جعل هذا الكتاب يكون في مصـافِ الكتب المهمة التي تتحدث عن البدو وقبائلهم.

اعتمد أوبنهايم في كتابه على البحث الميداني أولاً، متخذاً أسلوب التشكيك في المعلومة منهجاً للوصول إلى دقتها العلمية، إذ شكلت الملاحظات الكثيرة التي سجلها عن القبائل مادة حية ومهمة مستنداً التمحيص الشديد والتدقيق للحصول على المصدر، وقد بدا هذا واضحاً في جداول المصادر التي اتخذها للقبائل وتفرعاتها في المنطقة.

وحـول هذه المنهجية نجد أوبنهايم نفسه يقول: «لقد وضعت جداول دقيقة حسب المبدأ الآتـي: تحديد القبائل والقبائل المتفرعة عنهـا والتابعة لها وشيوخها الرئيسيين والثانويين، ومناطق تجوالها في الصيف والشتاء، وعلاقات القوى فيما بينها، معبراً عنها بعدد مضاربها وخيامهـا، وكذلـك كتابة مقالة حول كل قبيلة تُعرف بتاريخهـا وتاريخ أسرة شيوخها على أن يؤخـذ في الحسبان تصنيـف القبائل إلى مجموعات حسب المناطـق الجغرافية المختلفة، وقد أُولي اهتماماً خاصاً لرسم المشجّرات لأنساب كثيرة).

تناول أوبنهايم في الجزء الأول من كتابه قبائل العراق الشمالية وسورية، إذ تحدَّث فيه عن البدو الرحل ونصف الرحل وعن قبائل شمر وعنزة وطي وزبيد والعقيدات والنعيم والحديديين

والجبور وغيرها، بالإضافة إلى القبائل السورية في ريف دمشق والجولان وعرب جبل الدروز والموالـــي وفضل وعمرو وبني خالــد وغيرها. أما في الجزء الثانـــي فقد تحدث عن قبائل فلسطين والأردن والحجـــاز متناولاً قبائل الشمالنة والكعابنة والمساعيد والرشايدة وغيرها، ومما تجدر الإشارة إليه أن أوبنهايم قد استخدم كثيراً من التعابير التوراتية في تسمية بعض المناطـــق، إذ يُطلق مثلاً على صحراء الخليل تعبير (صحراء يهودا). وفي الجزء الثالث نجده يتحدث عـــن قبائل الجزيرة العربية التي تشمل قطر والكويت والإحساء والإمارات والبحرين متعرضاً لقبائل حرب والظفير والدواسر وبني هاجر وعقيل وخفاجة والجبور وغيرهم، وفي نهايـــة كتابه في الجزء الرابع يتكلم عن قبائل إيـــران وعربستان والصلبه والخضران مضمِّناً كتابه فهرساً متنوعاً لأسماء الأماكن والأعلام والقبائل ومصادر الكتاب.

قـــد أنجز أوبنهايم ومساعداه هذا المؤلَّف كثير الأهميـــة، إلا أنه لم يُقيَّض لاثنين منهما أن يريـــاه، فقـــد توفي البارون ماكس فون أوبنهايم في الخامســـ عشر من تشرين الثاني عام (١٩٤٦م) فـــي لاندسهوت فـــي بافاريا، ولم يرَ سوى بضع صفحات من مخطوط هذا الكتاب. لقد احتفـــظ أوبنهايم حتى سن متقدمة بقدرته على التحمس ولم يتحقق الأمل في استكمال بعض المسائل المعلّقة ببحثها مع آريش برونيلش بعد الحرب، لأنه قد توفي في أيلول من عام (١٩٤٥م) إثـــر مرض عضال في الأسر في يوغسلافيا. وفُقدت بعض المواد من هذا الكتاب الذي أُنقِذ بشكل درامي، إذ سُحب جزء منه من تحت سقف مشتعل، وأُنقذ الفصل الرابع من نيـــران الرعاة، وهو أمر مثير جداً، إذ بُدئ بطباعته أوّل مرة تحت نيران القصف أواخر عام (١٩٤٣م) وأُنجِـــز في رحاب غرفة صغيرة جداً محرومة مـــن النور، اللهم إلا من ضوء شمعة تذوب.

❀ ❀ ❀

قراءات

قراءة في ديوان «للغياب حضوره»

للشاعر إحسان قنديل

ميّ عبد السلام



(هل غادر الشعراء من متــردّم؟) عبارة قالها الشاعر الجاهلــيّ يوماً؛ لنقول: نعــم، غادروا... وتركوا كثيراً ممّا لم يُقَل بعد.

فالمتصفّح لدواوين الشعر الحديث يجد كثيراً من جديــد المعاني ومبتكر الصور وعميق الفكر، من ذلــك ديوان (للغياب حضوره) للشاعر إحسان قنديل، فهــو يسافر بك نحو عالمٍ فيه من السحر والألق ما فيه، وفيه من القلق الوجوديّ- الذي لم يبرح المثقّــف العربيّ- ما ينتثر في ثنايا الديوان كنجيمــات صغيرةٍ لا تــكاد تستوقــف الكآبة في نفسك إلاّ لماماً،لتــردّك من جديد إلى واحة أملٍ لا تنفكّ بحاجةٍ إليها.

❁ للغياب حضوره، شعر: د.إحسان قنديل، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠١٦م.

الديــوان الذي ضمّ أربع عشرة قصيدة تتناوبه حالتان متناقضتان هما الحضور والغياب، فكلّ لقــاءٍ جميلٍ يؤرّقه قلق الرحيل، وانتظار الغياب، ولوعــة الفراق.. ولعلّنا نلمس هذا منذ القصيدة الأولى التي حمل الديوان عنوانها؛ فكان عنواناً متماهياً مع تفاصيل القصائد بالتضادّ الذي رشح به، وهو إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على تلك النفس الشاعرة القلقة التي خبرت الرحيل والغياب وقد أصبحا شكلاً من أشكال الوطن المسبيّ:

«لو جاءني....
هذا الغياب....
وكلّ أشكال التمنّي في يديه
نثرته مثل الندى البحريّ
فوق شوارع
تغفو على سفرٍ
وأدراجٍ أزيّنها
بما تركت
طيور الشوق
في قلبي المعذّب
من خرائبْ»

إنّه شوق اليائس من لقاء، فهذه الرحلات التي قسرت الحربُ الراحلين عليها، سفراً حيناً وموتــاً حيناً آخر؛ تركت ندوبها في قلب الشاعــر، لأنّ الغياب بلا نتيجةٍ تُرتجى. ففي «رحلة السندباد» يقول:

«قل للحبيبة:
حين يغسلك البنفسج
في وداع الراحلين
سدىً
سلاماً للحياة»

وهو -أي الشاعر- يدرك أنّ رسائل شوقه ستعود إليه محمّلةً بالخيبة، فيقول في القصيدة:

سيجيئني قلبي
يردّ

رسائل الأحباب

من عاشوا

ومن قُتلوا

ومن رفعوا

لواء العشق

نافذةً على الدنيا

سلاماً

لكــنّ الشاعــر –على الرغم من كلّ هذا الألم الذي يظهر بيــن السطور– يتمسّك بخيوط الأمــل التي تردّه إلى سكينــة الروح، في محاولة لاهثة للتمسّك بالحياة وما فيها من جمال، كما في قصيدة «مشاغبات»:

«**الورد يزهر كلّ عامٍ**

كلّ عامٍ يا بنتي

حتّى وإن كره الطغاة»

هــو أملٌ يعضده التمسّك بالمــكان وحلم عودة المهاجرين الذي يقتات عليه ما تبقّى فينا من كبرياء:

«**ولربّما**

عبرت بحارٌ تحت شرفتنا

فأنزلنا المراسي للذين يسافرون

ويطلقون الأمسيات نديّة

بجنونها وهمومها».

هذا الأمل يتفاعل معه وعي الشاعر، فلا يمكن للمرء أن يقف على الحياد، إذ لا بدّ – وهو المسكون بالعاطفة الإنسانيّة الرقيقة – أن يتّخذ موقفاً ممّا يجري حوله، فيوصي ابنته في القصيدة نفسها:

«**وتذكّري**

ألاّ تكوني يابنتي

حجراً

تجانبه الحوادث

لا يعيش

ولا يموت»

وكأنّنــا مع هــذه الوصيّة نجد أنفسنا أمام مرآتنا نتساءل: أيــن نحن؟! بل إنّ الكلام تغدو إشارته أكثر التصاقاً بالأديب في نهاية القصيدة، فهي تذهب إلى أهميّة دور الشعر في موقفه مــن الحياة، إذ مهما كانت النتيجة فلا بدّ للشاعــر أن (يغنّي)، أن يعلن الموت المشتهى لا أن يتقبّله كما يُفرض عليه:

«من حسن حظّك يا بنتي

أنّ الغناء

وسيلة للرفض

باب الخطو

نحو سمائنا الكبرى

وصايا الروح

تحملها الحناجر

أينما سارت

على رمل المدى

كي نشتهي

موتاً جميلاً

تحت ضوء نجومها».

هذا الغناء- الرفض قد يكون معاندةً لما تستقرئه روح الشاعر الوثّابة من الأيّام،مستشرفةً مستقبلاً قاتماً ينتظر البشريّة، اسمعه يقول في قصيدة «أزهار»:

«فتمثّلوا

سيجيئنا زمن تغيب شموسه

لا طائرٌ جرح الصباح

ولا مواعيد تعيد نجومنا

قُبلاً على سفر الجبين».

وممّا لا شكّ فيه أنّ القصيدة لا يمكن أن تبلغ ذروة الجمال إلّا إن أحدثت في المتلقّي أثراً مدهشاً–إضافة إلى الفِكَر التي تحملها – من خلال الوسائل والأدوات الفنيّة التي تثبت مهارة الشاعر عند امتلاكها.

ولعلّ الكلام عَينَه يقال في الصور، ففي قصيدة «روميّة» يعود بنا الشاعر إلى حياة الريف البسيطة، التي تحمل بين ثنايا العناء والحزن فرحاً وجمالاً يقتنصه الشاعر بنظرة خاطفة حانية إلى تلك المحبوبة الرقيقة:

«أو شمّرت

ريحٌ مخادعةٌ

حرير الثوب في عجلٍ

وأسكرني التوهّج

(فوق هسهسة الصويل)».

إنّها روحه تطرب لصوت القمح يُغسل ويجفّف، في حين تشاغب الريح ثوب الحرير. وفي قصيدة «رسالة» يقول:

«خبّأتها

مثل العصافير التي

سكنت ضلوع السنديان

كي تنام».

إنّها أرض الجبل - أرض الكفر، بأحراشها وصخرها العنيد:

«يا جارتا

عمري كأشجارٍ

تعاند في نيوب الصخر

ليت العمر قربان

لفجرٍ سلسبيل». (قصيدة روميّة)

وها هي مخيّلته المبدعة تعود بنا إلى عالم رقيق لطيف، فالشاعر طفلٌ ينسى هموم الدنيا ويسرج ظهر الهلال، وقلبه قَطْرٌ يتساكب كضوءٍ يتسرّب بين الغصون، والسماء امرأة تجالسه عند الغروب، ليطلق العنان لروحه بين أحضان الطبيعة مبتكراً هذه الصور البديعة:

«أعدّ الحصى في الطريق إلى البيت

(أسرج ظهر الهلال)

....

وحين عدوت إليكِ

(تساكب قلبي على راحتيكِ

كضوءٍ تسرّب بين الغصون»

وفي قصيدة «صوتها» تستوقفك قسراً هذه الصور المدهشة:

«كلّ الحكاية أنّ صوتك أجمل

من فلقة الفجر السخيّ وأكمل

يمشي به الشجر الصبيّ كأنه

أفق يميل مع النسيم ويسدل».

إذ كيف تراسلت الحواس لدى الشاعر فغدا الصوت نوراً يُرى، وكيف غدا الشجر صبيّاً مشاغباً حالماً يمشي بهذا الصوت الساحر ويتناغم مع إيقاعه جذلاً؟!

إنّ الديوان يزخر بكثير من أمثال هذه الصور الرقيقة التي تحمل المتلقّي على جناح الدهشة، والتي لا يتّسع المجال للخوض فيها أكثر، خشية الإثقال على القارئ.

أمّا من حيث الموسيقا فإنّ الشاعر قد نوّع في الموسيقا الخارجيّة، فكانت القصيدة العموديّة ذات البحر الواحد والقافية الموحّدة، مثل: (صوتها: البحر الكامل ورويّ اللام المضمومة، حضور: البحر الكامل ورويّ الهاء المشبعة ألفاً، سراب: البحر البسيط ورويّ الراء المضمومة). وهنا لا بدّ من الإشارة إلى ما تحمله حروف الروي آنفة الذكر من إيقاع ينسجم ونَفَس القصيدة المفعم بالحنين حيناً،والحزن تارةً، والرجاء تارةً أخرى.

فيما جاءت بقيّة القصائد من شعر التفعيلة متنوّعة القوافي – باستثناء قصيدة (رسالة) التي هي قصيدة نثريّة – ممّا يخرج بالمتلقّي على الرتابة والتكرار في النغم، الذي تعاني منه القصيدة العموديّة.

في حين جاءت الموسيقا الداخليّة منسابةً انسياب العاطفة التي سيطرت على نصوص الديوان كلها. فالهمس على رأي الدكتور محمّد مندور «ليس معناه الارتجال، فيتغنّى الطبع في غير جهد ولا إحكام صناعة، وإنّما هو إحساسٌ بتأثير عناصر اللغة، واستخدام تلك العناصر في تحريك النفوس وشفائها ممّا تجد، وهذا في الغالب لا يكون من الشاعر عن وعيٍ بما يفعل، وإنّما هي غريزته المستنيرة ما تزال به حتّى يقع على ما يريد ...».

ومن هنا نرى أنّ الإيقاع الداخلي للقصيدة جاء في مجمله هامساً مؤثّراً، من خلال التناغم بين الحروف في الكلمات، والكلمات في الجمل، فيقدّم للقارئ معزوفة عذبة طافحة بالجمال، مستثيرة مشاعره ما بين فرح وحزن وإعجاب.... اسمعه يقول في قصيدة «روميّة»:

«يا جارتا
هذا الصباح يجيئني
كتفتّح الأزهار
قرب البيت
والأحزان ما فتئت
تخيط دموعنا
فوق المقاعد
واللقاء المستحيل».

وما لا يمكن إغفاله في القصيدة هذا التركيب (يا جارتا) بحرف المدّ في آخره، فهي جارة (أبـــي فراس الحمدانيّ) تلك التي هدلت قربه وهو في الأسر، فكم أثارت آهاته وكم شاغلتنا بالتعاطف معه!

ها هي من جديد تهدل قرب الشاعر «إحسان قنديل»، منسجمة مع روحه الأسيرة المتغرّبة عمّا حولها، التي يُفرِغ تغرّبها بحالة عشق وهجران، فتلامس روح المتلقّي بما فيها من كآبة، من دون أن تفضح مكنونات نفسه وفكره البعيد، ها هو يختم القصيدة بقوله:

«يا جارتا
قلبي أسيرٌ
والنجوم بعيدةٌ
والأغنياتُ
سجينة الليل الطويل»

إنّ ما قدّمه الشاعر إحسان قنديل بين دفّتي الديوان ما هو إلّا بعض شذرات الروح، ينثرها في دروب الجمال، فتعود بالمتلقّي من غياهب الانقياد لعجلة الحياة، فيبطئ الخطا ويستريح...

ولعلّـــي فـــي هذه القراءة المتواضعة قد لامست بعضاً من هـــذه الشذرات، مع اليقين بأنّ ما لم يتّسع له المقال أبعد وأعمق وأشمل.

❀ ❀ ❀

تأمُّلات عمّار بلحسن في جدليَّة الرواية والأيديولوجيا

د. سيدي محمّد بن مالك

يحاول **عمّار بلحسن**[1]، في كتابه الموسوم «الأدب والأيديولوجيا» أو «الرواية والأيديولوجيا»[2]، مُقارَبة العلاقة الجدليَّة بين التخييل الأدبي ورؤية العالَم، إذ يفتتح محاولته بتعريف الأيديولوجيا كما تَمَثَّلها أنطونيو غرامشي، مُفرِداً الجزء الأوّل من الكتاب لآرائه وتحليلاته القائمة على النظرية الماركسية. يقول الناقد السوسيولوجي: «في النص الأوّل، ركزت على تحليل مفكِّر، بدأت الجامعات والمطابع تهتم به لما قدمه من إسهامات علمية كبيرة في صياغة وبناء مفهوم المثقفين، وما أضافه من عناصر إلى تعريف مصطلح أو مفهوم الأيديولوجيا، هذا المفكر هو أنطونيو غرامشي، الذي يُعَدُّ، بحقّ، أحد أهمّ المفكرين في عصرنا



✿ كاتب جزائري.

وداخــل التفكيــر السوسيولوجــي المعاصر. وقد حاولــت حوصلة أهم أفــكاره حول هذيْن المفهوميْن المتداوَليْن بشــكل كبير في واقعنا الثقافي والسياسي والاجتماعي، وطمحت إلى تركيــب أهمّ فرضياته وأطروحاته، هادفاً، من وراء ذلك، إلــى تقديم صارم وجدّيٍّ، وتوضيح أتمنّى أن يكون ناجحاً، لمفهوميْن يُشكِّلان أداتيْن مهمتيْن في كلّ أوجلّ النقاشات التي عرفها الواقع الثقافيّ في بلادنا»[٣].

مفهوما الأيديولوجيا والمثقف

يعمــد عمّار بلحسن، في الجزء الأوّل مــن الكتاب، إلى بيان وجهة نظر أنطونيو غرامشي حول تصوُّر يستعصي على التحديد، ويستغلق على التعريف، وهو تصوُّر مصطلح الأيديولوجيا الــذي «قد يصلح أداةً للتحليل السياسي والاجتماعي والتاريخي، لكن بعد عملية فرز وتجريد لكي يبقى كل باحثٍ وفياً لمنهج المادة التي يبحث فيها»[٤]. وهو ما توخّاه الناقد السوسيولوجي، حين تقيَّد بالمنظور الماركسي لمفهوم الأيديولوجيا عند واحدٍ من أهمّ المنُظِّرين الماركسيين، وهو أنطونيو غرامشي الذي لم يكتــفِ بالتفسير التاريخي- الاجتماعي- الاقتصادي لتشكُّل الأيديولوجيــا، بل ربطها بدور المثقــف في نشر الوعي الطبقي في أثناء الصراع الاجتماعي الذي يعرفه المجتمع في مرحلة تاريخية معيّنة.

وتتلبّس الأيديولوجيا، بوصفها بنية فوقية تمثّل تصوُّر طبقة اجتماعية وتمثّلها للعالَم، النشاط الإنسانــي كلّه، فردياً كان أو جماعياً، من اجتماع واقتصاد وسياسة وقانون وفلسفة وعلم وأخلاق وفــن وأدب ومعتقدات وطقوس؛ فهي تتجلّى مادياً في أربعة مستويات، يُسمّيها أنطونيو غرامشي درجات، وهي: الفلسفة، والدين، والحس المشترَك، والفلكلور. يقول المنظِّر الماركسي عن الدين، بوصفــه درجةً أيديولوجية تلي الفلسفة: «يظهر (الدين) فــي مجموعة من المواقف والسلوكات التطبيقية، تتجسّد في طقوس وشعائر تُديرها وتتحكّم فيها الأديان الكبرى. هذه الممارسات تدلّ على وجــود «رؤيةٍ للعالَم»، تترجمها وتجسّدها تلك المواقــف والسلوكات والمعايير والقيم. وقد قــام غرامشي بتحليل شكلٍ دينيٍّ هو الكاثوليكية، كأيديولوجية خاصّة، تملك نمطيتها ومضامينها وهيكلهــا، جهاز أيديولوجــي، هو الكنيسة التي يديرها مثقفون هــم الأكليروس أو «رجال الدين» بهــدف نشر وإذاعة وتحقيق هيمنــة الأيديولوجية الكاثوليكية، وفي أذهــان الجماهير المؤمِنة، عــن طريق أجهزة «الكتلة الأيديولوجية» للكاثوليكيــة، كالأحزاب السياسية المسيحية، والنقابات والجمعيات، ووسائل النشر والطبع والإعلام المسيحية كراديو الفاتيكان... إلخ»[٥].

ومن شأن الدين، بهذا الوصف الذي يُقدّمه أنطونيو غرامشي للكاثوليكية، أن يمارس تأثيراً كبيراً في تشكُّل الوعي الديني الذي يُشعِر الجماهير المؤمنة بالوحدة والانسجام والتماسُك، وبأنّ لحياتها معنى ومغزى، تماماً مثل الفلسفةِ الماركسيةِ اللينينيةِ التي تنشر الوعي الطبقي الثوري الذي يُمكِّن العمال، الممثِّلين لطبقة كونية، من إدراك التناقضات الاجتماعية التي يُولّدها التعدُّد والتفاوُت الطبقيّان، ويُسعِفهم على رصّ صفوفهم وتوحيدها، لتشكيل ما يُدعى بـ «ديكتاتورية البروليتاريا»، والفلكلور، أو بعض منه، الذي يذيع الوعي الأسطوري في أوساط الطبقات الشعبية التي أضناها الجهل والتخلُّف وأرهقتها الخصاصة والحاجة؛ فيُكسِبها اطمئناناً عابراً ومتعة زائفة. تلك هي الأيديولوجيا العضوية التي تقتضي، في نظر أنطونيو غرامشي، مثقفاً عضوياً ملتحماً بطبقته، يحمل وعياً طبقياً ويعمل على إشاعته بين الناس؛ أيديولوجيا تكفل توجيه الجماهير وتوحيدها وتنظيمها لتحقيق غايات مُحدَّدة، عكس الأيديولوجيا المبتذَلة التي تنزع إلى الفردية وتستغرقها المساجلات والمهاترات.

وكي تحقّق الأيديولوجيا الرواج والهيمنة، ينبغي توفير المؤسَّسات التي تسهم في إيصال الأفكار الأيديولوجية إلى الجماهير وإقناعهم بها. ويُجمِل أنطونيو غرامشي هذه المؤسَّسات في مؤسَّستيّن اثنتين، هما: مؤسَّسة المجتمع المدني، ومؤسَّسة المجتمع السياسي. يقول عمّار بلحسن: «فالمجتمع المدني هو تلك البنية التي تسمح بإنتاج وإعادة إنتاج وتوزيع وإذاعة الأيديولوجيا الخاصة بالطبقة المسيطرة. هذه البنية تتكوّن وتحتوي على أنساق التفكير والمؤسَّسات والمنظَّمات والوسائل الماديّة الخاصة بخلق ونشر وتوزيع «المنتوجات» الأيديولوجية، (نحو) المنظَّمات أو المؤسَّسات الدينية، ومنظَّمات مدرسية (المدرسة والجامعة... إلخ). المنظَّمات الإعلامية (الصّحف والإذاعة والتلفزيون... إلخ). المنظَّمات العلمية (الجامعات ومراكز البحوث). تنظيمات الطبع والنشر (المطابع، والكتب، والمكتبات... إلخ). أمّا المجتمع السياسي فيتجسّد في الدولة وأجهزة الإكراه والقمع والضبط القسري المباشر والمنظَّم الذي يحقق وظيفة «السيطرة» الخاصة بالطبقة المسيطِرة (مثل الجيش، والسجن)»[٦].

حاول الناقد السوسيولوجي الإحاطة بتأمُّلات أنطونيو غرامشي ومقولاته الماركسية ذات النزعة النقدية، نظير مفهوم الأيديولوجيا ودرجاتها الأربع وصنفيّها ووظيفتها في المجتمع ومؤسَّسات إنتاجها وإذاعتها ودور المثقف في تسويغها ونشرها، مُتّخِذاً إياها مدخلاً لمقارَبة جدليَّة الرواية، على نحو خاص، بوصفها عملاً تخييلياً فردياً يُبنى على اللغة، والأيديولوجيا بوصفها إنتاجاً فكرياً يوحِّد بين أعضاء جماعة اجتماعية ما ويوجههم؛ فما هي رؤية عمّار

بلحسن للرواية؟ وكيف أثّرت النظرية الماركسية في تلك الرؤية؟ وما مدى انفتاحه على المنهج البنيوي في تحليل النص السردي؟ وما وجهة نظره حول رسالة الروائي، بوصفه مثقفاً، وما وظيفة الكتابة الروائية؟

جدليّة الرواية والأيديولوجيا

يَعُدُّ عمّار بلحسن الأدب خطاباً متميِّزاً من بين خطابات الأيديولوجيا المتعددة؛ فإذا كانت الأيديولوجيا نصاً كبيراً يتضمّن خطابات تسوّغه، مثل الخطاب الفلسفي والخطاب الديني والخطاب الإعلامي، فإنّ الخطاب الأدبي نصّ صغير يسوّغ، بدوره، أيديولوجيا ما، من خلال الكشف عن مضمونها الناهِض على جملة من الأفكار والتصوُّرات المؤسِّسة لوجهة نظر حول العالَم، تتّسم بالشمولية واليقينية، وتتبنّاها جماعة أو طبقة أو فئة. وقد لا يكتفي الأدب، بوصفه ذلك النّص الصغير، بإنتاج الأيديولوجيا التي يصدُر عنها، في الأصل، على صعيد الشكل، بل قد يسائلها ويحاورها ابتغاء بيان زيفها وهيمنتها وحدودها. ومن ثمّ، نلفي أنفسنا أمام ضربيّن من الأدب؛ أدب يعكس الأيديولوجيا بأمانة ويمجّد وعياً قائماً أو ممكناً، وأدب يحاول أن يتحرّر من سلطة الأيديولوجيا ويخضعها إلى منطق التخييل الذي يختلف عن منطق الواقع.

وقد ذهب الدارسون لجدليَّة الأدب والأيديولوجيا، في نظر عمّار بلحسن، مذهبيّن متعارضيّن؛ فأمّا الأول فقد ركَن معتنقوه إلى المقارَبة الماركسية التي ترى أنّ الأدب انعكاسٌ للصراع الطبقي القائم في المجتمع، وهو صراعٌ يُحفِّزه امتلاك وسائل العمل والإنتاج، وأمّا الثاني فقد زعم مُمثِّلوه أن الأدب لا يعبِّر عن الأيديولوجيا المهيمِنة أو التي يُراد لها أن تتسلّط على رقاب الناس؛ فهو إبداعٌ فرديٌّ لا يتأثّر، بالضّرورة، بالظروف التاريخية والعلاقات الاجتماعية والعمليات الإنتاجية. وقد دفع التّعارُض بين دعاة المقارَبة السوسيولوجية ذات الرُّؤية الماركسية ودعاة المقارَبة البنيوية ذات النزعة التّجريبية عمّار بلحسن إلى محاولة الوقوف موقفاً وسطاً في تحليل جدليَّة الأدب والأيديولوجيا؛ موقفاً يزعم فيه أنّ «الأدب لا يظهر هكذا من العدم، أو ينزل عن طريق شياطين وعفاريت الإلهام كما يتشدّق النقد المثالي الغيبي. إنّ الأدب مشروطٌ بسياق سوسيو- تاريخي، محدد على مستوى الكتابة بالأدوات والتقنيات والتراث الأدبي- التصوُّري الذي يجده الكاتب منهجاً ذهنياً أمامه، وعلى مستوى الممارسة بالأيديولوجيا و/ أو الأيديولوجيات المتصارعة في ظرفية تاريخية معينة من تطور المجتمع وعلاقته الاجتماعية والطبقية»(٧).

غيـر أنّ المتأمّل في موقف عمّار بلحسن؛ المتدبّر فـي تحليله، لا يخفى عنه ميْل الناقد السوسيولوجـي إلى الفلسفة الماركسية، بل اقتناعه بها؛ فهـو لا يفتأ يشير إلى وجوب وصْل الأدب بالسياق التاريخي والاجتماعـي والاقتصادي، وبالصراع الطبقي الدائر في المجتمع، الذي يدفع عجلة التاريخ إلى الأمام. ذلك قولُ فلاديمير لينين وجورج لوكاتش ومن لفّ لفّهما من مُنظّري التحليل الماركسي للأدب. ولكنّ الناقد لم يغِب عنه تزايُد الاهتمام بشكل الكتابة الأدبيـة ودلالتها المحايِثة، مع ظهور أبحاث رولان بارت وألجيرداس جوليان غريماس وجوليا كريستيفا، ومع توجُّه بعض مُحلِّلي الأدب الماركسيّين أنفسهم إلى العناية بدال الأدب ومبناه، مثل لوسيان غولدمان.

وهـو ما حثّ عمّار بلحسن على اتّخاذ ذلك الموقف من علاقة الأدب بالأيديولوجيا الذي أومأنـا إليه، إذ لم يعـد الأدب خلْقاً يتطلّب عبقرية وموهبة كما يدّعـي المثاليون، وانعكاساً آليـاً لما يجـري في المجتمع من صراعٍ مثلما يزعم الماركسيـون التقليديون، وإبداعاً فردياً لا يمـتّ إلى التاريخ والمجتمـع والاقتصاد بصلة كما يعتقد البنيويـون المغالون، إنّما أصبح الأدب مُنتَجـاً أيديولوجياً، يتحدّد لغوياً، ويدخل في جدلٍ مع الواقع والمجتمع والأيديولوجيا والتاريخ بمفهوميْه الاجتماعي والأدبي؛ جدلٍ يفضي إلى ما يسمّيه عمّار بلحسن (الأيديولوجيا الأدبيـة)، تلك التي يُنتِجُها الأديب بالكتابة. يقـول الناقد السوسيولوجي: «الكتابة هي عملية تحويـل للغة وتشكيلها؛ أي نقلها من وضع المادة الدالّة إلى وضع تنتظم فيه من جديد داخل نصّ أدبي، ينتج شكلاً جديداً ونوعاً جديداً من الدلالات. والأديبُ أشبه بعامل ورشة أو حِرَفي يحوّل مواده وتقنياته لينتج، حصيلة لتجربته وعمله وبحثه، منتوجاً أصيلاً؛ فكما يركّب ويحوّل الموسيقـي الميلوديات والأنغـام، وكما يمزج الرّسام الألوان والظـلال، يقوم الكاتب بتحويل اللغـة ويدخل في سياق «عملية إعادة إنتاج للمعنـى واللغة». بهذا المنظور، يعدُّ الأدب إعادة إنتـاجٍ للأيديولوجيا، وليس نتاجاً لها، لأنّها موجودة قبله، ولأنّه أحد خطاباتها. ويبدو الأديب كـ «عامل» في ورشةٍ لإنتاج «النصوص» يُراكِم تجربة الأجيـال السابقة في فكره وبين يديْه، وينطلق منها نحو آفاق جديدة»(٨).

ولأنّ الرواية شكلٌ خاصٌّ من أشكال الكتابة الأدبية كما يقول عمّار بلحسن، أو نوعٌ متميِّزٌ من أنواع السرد بوصفه جنساً من أجناس الأدب كما نزعم نحن، فإنّها تمثل أهمّ حقل أدبي تتجلّـى فيه الصراعات الاجتماعية المبنيَّة علـى الاختلافات الأيديولوجية، ذلك أنّ ظهور الرواية قد ارتبط بانحسار البراءة والفضيلة والطيبة والمحبة، بوصفها قيماً أصيلةً، وتنامي

قيــم السوق في كنف المجتمع البرجوازي الذي استأثــر بامتلاك وسائل العمل والإنتاج، إذ لــم يعد الفرد يشعر بالوحــدة والانسجام مع المجتمع مثلما كان يشعر بهما من قبلُ، وتناثَر الشعر الملحمي الذي كان يجسّد تلك الوحدة وذلك الانسجام؛ فأضحى كتابة متشظية تعبِّر عن انقســام الفرد وتقهقره؛ كتابة تروي «قصّة بحث متدهــور (يسميه لوكاتش «جنونياً»)؛ بحــث عن قيــم أصيلة في عالم متدهور أيضاً، لكن في مستــوى آخر متقدم عليه وبصيغة مختلفة»[٩].

إنّها الرواية التي نشأت في سياق تاريخي واجتماعي واقتصادي محدَّد، واستدعت تأمُّلاً وتحليلاً سوسيولوجيَّيْن من لدن منظِّــري التحليل الماركسي، مثل فلاديمير لينين الذي راح يبحــث في روايات ليف تولستوي عن أثرٍ للأيديولوجيات المتنازعة والتناقضات الاجتماعية والصراعات الطبقية في المجتمع الروسي قبل ثورة (١٩٠٥م)، وهو أثرٌ لم تخلُ منه روايات مكسيــم غوركــي الذي كان «في محاولاتــه ليكون من أقطاب الرومانسيــة الجديدة، يعتمد أسلوباً في التعبير يجاري فيه اهتمام تشيخوف بالأفكار الاجتماعية الثورية من خلال أبطال ينتمــون إلى الطبقات المسحوقة ومن أوساط ضحايا الظلــم الاجتماعي والنظام السياسي القائم»[١٠].

وقد ظلّــت الدراسة السوسيولوجية لــلأدب، الراكِنة إلى النظريــة الماركسية، منصرفة إلــى مقارَبــة السياقات التــي تؤثّر في العمليــة الإبداعية وتسهم في إنتــاج الكتابة الأدبية، ســواء أكان السياق تاريخياً- اجتماعياً- اقتصادياً (تأمُّــلات كارل ماركس وفلاديمير لينين، وتحليــلات جورج لوكاتش)، أم سياقاً تاريخياً- اجتماعياً- ثقافياً، إذ يعتقد أنطونيو غرامشي أنّ الوعــي الطبقي الثوري لا يرتهن، وجوبــاً، بالشّرط الاقتصادي، وأنّ المنتَج الثقافي، الذي يصنعــه المثقف أديباً كان أو مؤرخاً أو فيلسوفاً أو عالِماً، يمكن أن يبثّ هذا النمط من الوعي فــي صفوف الطّبقة العاملــة. ولا شكّ أنّ المنظِّر الماركسي يقصــد، هنا، المثقف العضوي البروليتاري، ذلك الذي يعمل على «عــزل العناصر الثقافية المضادة والمتبقية من التجارب الماضية للصراعات الأيديولوجية والناتجة عن التأثيرات الأيديولوجية التي تمارسها الطبقات الاجتماعية الأخرى»[١١].

ظلّــت الدراســة السوسيولوجية للرواية كذلــك إلى أن طرأ سؤال اللغــة والبنية والشكل والماهيــة على تأمُّلات منظِّري الأدب الماركسيين وتحليلاتهم؛ فالرواية لا تعكس الواقع، بل

تُشاكِلُه وتمثّله وتصوّره، أداتها في ذلك اللغة، التي تُعَدُّ مُستودَع الأيديولوجيا ومجموعة من التقنيات والأساليب والتقاليد الأدبية الموجودة سلفاً، يمتلكها الروائي، ثمّ يدمّرها ويحوّلها ويعيد تشكيلها كما يرى عمّار بلحسن، وذلك ابتغاء تقديم رؤيته الأدبية للأيديولوجيا؛ فالرواية، وإن كانت مُنتَجاً أيديولوجياً واجتماعياً، خطابٌ تمتزج فيه الأيديولوجيا بوصفها انعكاساً للواقع والكتابة بوصفها انعكاساً للأيديولوجيا. ومن ثمّ، تتحوّل الأيديولوجيا العامّة أو النّص الكبير، في الرواية، إلى أيديولوجيا أدبيَّة أو نصّ صغير. لذلك نجد لوسيان غولدمان يصطنع، في سياق البنيوية التكوينية، مصطلحيْ- إجراءيْ الفهم والتفسير لمقارَبة التمثيل أو التصوير الجمالي لما يموج في الواقع من اختلافات واضطرابات، إذ يقترح الفهم أداةً لإدراك عملية بَنْيَنَةِ الأيديولوجيا داخل الكتابة الأدبية، والتفسير أداةً لشرح البنية الذهنية الممثَّلة والمصوَّرة في النص الروائي؛ فالفهم إجراءٌ يُتوسَّل به معرفة الإستراتيجية التي يصطفيها الكاتب لإعادة إنتاج الأيديولوجيا الموضوعية (نسبةً إلى العالَم الموضوعي أو الواقع)، وتحويلها إلى أيديولوجيا ذاتية (نسبةً إلى ذاتية الكتابة أو التخييل)، في حين أنّ التفسير إجراءٌ يُراد منه استجلاء رؤية العالَم، التي تعني «جملة الطّموحات والمشاعر والأفكار التي توحد أعضاء جماعة ما (غالباً ما تكون هذه الجماعة طبقة اجتماعية) وتجعلها تعارض جماعات أخرى»[١٢]، المتضمَّنة في الرواية، لا على سبيل المطابَقة، بل على سبيل المشاكَلة والمماثَلة.

وقد اقترح بيار ماشيري، هو الآخر، منهجاً شبيهاً بمنهج لوسيان غولدمان في قراءة جدليَّة الرواية والأيديولوجيا على مستويَيْ النسق والسياق، ولكنّه منح الأولوية للتّاريخ والواقع والمجتمع والأيديولوجيا على حساب الكتابة واللُّغة والبناء والإستراتيجية، إذ ينبغي وضع جدول قراءة علمية للرواية يحتوي على «(أوّلاً) كلّ المعلومات الممكِنة والمعارف الخاصّة التي جمعها الناقد أو الباحث عن المرحلة التاريخية التي كُتِبَتْ فيها الرواية أو عالجتها، ولا سيما التاريخ الأيديولوجي لها. بصياغة أخرى، يجب تكوين المرحلة التاريخية الأيديولوجية التي كُتِبَتْ فيها وعنها الرواية موضع الدراسة. (ثانياً) تكوين مشكلية الرواية أو «السؤال الكبير» لها انطلاقاً من جوابها نفسه، فما رآه المؤلّف أو الرواية يرتبط بما لم يره في روايته نفسها. إنّ الهدف من هذا هو معرفة الأسباب التي تجعل من الرواية جواباً أيديولوجياً على سؤال أو مشكلية لم تُطرَح بطريقة واضحة، عامة أو بائنة، ولكنها موجودة ومخفية في ثنايا الرواية وفي شكل الأيديولوجيا المصوَّرة»[١٣].

ويُمكِّن هذا الضّرب من التحليل التوليفي بين النسق والسياق لجدليَّة الرواية والأيديولوجيا، الباحث السوسيولوجي من استيعاب التشكيل الأدبي لرؤية العالَم التي لا تمثل، بالضّرورة، ومثلما يزعم لوسيان غولدمان، أيديولوجية المجموعة الاجتماعية التي ينتسب إليها الروائي، ذلك أنّه قد يحدث اختلالٌ بين الوضع التاريخي للكاتب ومكانته الاجتماعية وأيديولوجية الجماعة أو الطبقة أو الفئة التي ينتمي إليها. وبين ما تشتمل عليه كتاباته من وصفٍ موضوعيٍّ وغير مُتحيِّزٍ لرؤى العالَم والأيديولوجيات الأخرى. أضف إلى ذلك أنّ الباحث السوسيولوجي سيتعرّف، من خلال تشريح نسق الرواية وبنائها الداخلي وتركيبها الجمالي، إلى تقاطُعات النص، الذي يدرسه، مع نصوص معاصِرة له ألّفها كتّاب آخرون، وتأسّست على تصوُّرِ العالَمِ نفسه (التناص الخارجي)، وتقاطُعاته مع نصوص أخرى كتبها الروائي عينُه في مرحلة تاريخية- اجتماعية- أيديولوجية منسجمة (التناص الداخلي)، وتقاطُعاته مع نصوص لا تصويرية، كما يسمّيها عمّار بلحسن، مثل المقالات والكتابات التاريخية والخطب السياسية وسواها (التناص مع الكتابات الخارج- أدبية تحديداً، وهي نصوص يُدرِجها ميخائيل باختين فيما يدعوه بالأجناس الدخيلة أو المتخلِّلة).

ويثير عمّار بلحسن، أخيراً، قضية جوهريّة تمثّل محور التأمُّلات والتحليلات السوسيولوجية ذات المنظور الماركسي، وهي قضية وظيفة الرواية في عالَم لا يكاد يستقرّ على حالٍ بسبب التشيُّؤ الذي يبثّ الوعي الزائف في أذهان الناس ويُولِّد التفاوُتَ الطبقي، ومن ثمّ، الصراع الاجتماعي والأيديولوجي، إذ نُلفيه يجنح إلى تبنّي وجهة نظر أنطونيو غرامشي الذي يرى أنّ مهمة المثقف العضوي البروليتاري تتمثّل في الإصلاح الثقافي والأخلاقي، لتحقيق التثوير والتغيير والتطوير. ومن ثمّ، فإنّ على الروائي، بوصفه مثقفاً عضوياً بروليتارياً، أن يضطلع بنشر الوعي الطبقي الثوري من خلال ما يُبدِع من نصوص. وفي مقابِل الوظيفة الاجتماعية للأدب والرواية، يحصر لوسيان غولدمان، كما يستخلص عمّار بلحسن، وظيفة الرواية في المظهر الجمالي، ذلك أنّ أقصى ما يستطيعه الروائي هو تمثيل رؤيةِ مجموعةٍ اجتماعيةٍ ما للعالَم «بدفعها إلى درجة رفيعة جداً من الانسجام ونقلها إلى صعيد الإبداع الخيالي، والفكر المجرَّد»[١٤].

❁ ❁ ❁

الهوامش

(١)- عمّـار بلحسـن (١٩٥٣ – ١٩٩٣م) قاصٌّ وناقدٌ وباحثٌ سوسيولوجيٌّ جزائريٌّ. مـن أعماله المنشورة «فوانيس» (مجموعة قصصيّة)، و «أنتلجنسيا أم مثقّفون في الجزائر ؟»، و«الأدب والأيديولوجيا».

(٢)- صـدر الكتاب في طبعتيّن اثنتيّن؛ الأولى بعنـوان «الأدب والأيديولوجيا» عام (١٩٨٤م)، والثانية بعنوان «الروايـة والأيديولوجيا» ٢٠١٦م. وقد يكون احتفاءُ عمّار بلحسـن بالرواية، في الجزء الثاني من الكتاب الـذي يتأمّل فيه ديالكتيك الأدب والأيديولوجيا، وهـو أمرٌ طبيعيٌّ، لارتباط الرواية الحثيث برؤية العالَم، سبباً دفع الناشر إلى تغيير العنوان في الطبعة الثانية.

(٣)- عمّار بلحسن: «الرواية والأيديولوجيا»، الملتقى للنشر والتوزيع، مراكش (المغرب)، ط ٢، ٢٠١٦م، ص ٥.

(٤)- عبد الله العروي: «مفهوم الأيديولوجيا»، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط ٥، ١٩٩٣م، ص ١٢٧.

(٥)- عمّار بلحسن، المرجع السابق نفسه، ص ١٧.

(٦)- المرجع السابق نفسه، ص ٢٥، ٢٦.

(٧)- المرجع السابق نفسه،ص ٤٣.

(٨)- المرجع السابق نفسه، ص ٥٥.

(9)- Lucien Goldmann: «Pour Une Sociologie Du Roman», Gallimard, Paris, 1964, P 23.

(١٠)- وائل بركات: «الواقعية الاشتراكية؛ المغامرة والصدى، دراسة مقارنة»، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط ١، ١٩٩٧م، ص ٢٠.

(١١)- عمّار بلحسن، مرجع سابق نفسه، ص ٣٢.

(12)- Lucien Goldmann: «Le Dieu caché; étude sur la vision tragique dans les pensées de Pascal et dans le théâtre de Racine», Gallimard, Paris, 1959, p 26.

(١٢)- عمّار بلحسن، مرجع سابق نفسه، ص ٧٤.

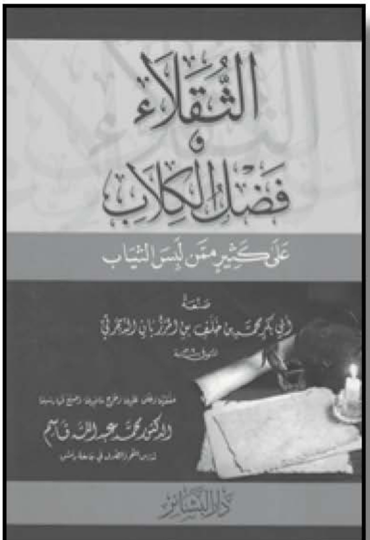
(13)- Lucien Goldmann: «Pour Une Sociologie Du Roman», P 42.

إضاءة

نغم حامد

الثقلاء

وفضل الكلاب على كثيرٍ مِمّن لبس الثياب



هذان كتابان مــن التراث العربي لابــن المرزبان الدِّيمَرتــيّ (٣٠٩هـ)، وقعا فــي مجلد واحد، حَقَّقهما وعَلَّق عليهما وخَرَّجَ ما فيهما الدكتور محمد عبد الله قاســم، ثم صَنَع لهما مــن الفهارس المتنوعة ما يغني الباحــث، ويكون عوناً له إذا ما عاد مُتقصِّياً حِكمةً أو بيت شعرٍ، أو لفظــاً أو كناية أو مُلَحاً من نوادرهم، أو عَلَماً ما...

أمــا كتاب «الثقلاء»، ففيه مئــة وأربعة وخمسون خبراً لخَلْقٍ سَمُجَ طبعهم حتى فارقهم جمال الحضور، وخفّــة الظــلّ، كقولهم: «استــراح الأضــرّاء»، أي استراحــوا أن ينظــروا إلى ثقيلٍ مــا، وقولهم: دعني لا أَقِئ، وقولهم: إما أن تحسن مجالستنا وإما أن تقوم،

وقول سويد بن عبد العزيز: من ثقُلَ عليك بنفسه، وغَمَّك في سؤالِه، فألزِمْهُ أُذُناً صماء، وعيناً عمياء. ومن الشعر:

وثقيلٍ أشدَّ من ثقلِ المو
تِ، ومن شِدَّةِ العذابِ الأليمِ

لو عَصت ربّها الجحيمُ لما كا
نَ سِواهُ عُقوبةً للجحيم

ويجدُ المرء في هذه الأخبار فرجةً للنفس، فإذا ضاق بثقيل ما وعجز المقام عن المقال، أفاد منها في إجابة أمثال هؤلاء متمثلاً بعض ردودها، وله أن يجريها في كلامه مجرى الأمثال للتعريض والإنباء عن بواطن الرأي والشعور.

لذا قد يحبّب إلى كثيرٍ من النفوس تتبُّعها وتخزين ما تميل إليه في الذاكرة، فتكون عوناً ومنجاة على حين غرّة، ولاسيّما أنّ أهل الأدب مازالوا حتى اليوم يؤثرون من يطرق باب المثل بعيداً عن المباشرة.

وأما كتاب «فضلُ الكلاب على كثيرٍ ممن لبس الثياب»، ففي عنوانه طرافةٌ تجذب إلى قراءته، لانتفاء الخصال الإنسانية عند كثيرٍ من الناس حتى غدوا «شوكاً لا ورق فيه بعدما كانوا ورقاً لا شوك فيه».

وقد جاء في مضمون الكتاب أربعة وثمانون خبراً من منثور القول وشعره، عمّن «أوشك أن يكون الغدرُ أصلاً مركوزاً فيه، يطوّقه خسّةٌ ولؤم حتى غدا الكلبُ خيراً منه»، كما يقول محقّق الكتاب.

من ذلك قولهم: خير خصلة في الكلب أنه لا ينافق في محبّته، وقولهم: كلب أمين خيرٌ من إنسانٍ خَؤُون. ومن الشعر:

يعرّج عنه جارُهُ وشقيقه
ويَنْبُشُ عنه كلبُه وَهْوَ ضارِبُه

يُدرج الكتابان في باب النقد الاجتماعي وفنون الردّ والأجوبة المسكتة، ومن جهد محقّقهما أنه لم يترك موضعاً يحتاج إلى شرح إلا شرحه، وتخريج إلا خرّجه وأحال على مصادره، ملتزماً في ذلك أمانة التحقيق وشموليّته، حتى إنّه جَهد في إتمام السقط متتبّعاً الكتب، وهو ما يبدو لمتصفح الكتاب، مما يبعث على الطمأنينة والثقة.

❀ ❀ ❀

إصدارات جديدة

إعداد: حسني هلال

منمنمات دمشقية



بعد مجموعاتها الشعرية الخمس:

«لدمشق هذا الياسمين، فصول الحب والوحشة، لحضرة الرسولة، أنا امرأة الأرض، لسيدة الضوء». يفترُّ ثغر شعر «ليندا إبراهيم» الثرّ، عن مجموعتها الجديدة، الصادرة عن الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٩م. «منمنماتٌ دِمَشقيَّة- نصوص في الحُبِّ والحنين».

تتفصّل المجموعة في ثمانية أقسام:

(صلاة لأجل سورية، ونصوص في الحب والحنين، وقمر الشمال، وأمّي، وقصيدة القصائد، وللرجل الأخير في حقول الغبطة، وأيّها الشعر، وفرح أقصى... أقلّ).

من القسم الأخير اخترنا المقطعين أدناه:

هو الخوخُ...

كلُّ ما نبتغي،

حتى تشتعل قناديلُ الرَّغبةِ...

...

فراشاتك عالقاتٌ بقميصي

الرَّحيقُ في مخبأ آخر...

...

لئن كان ليس من الغرابة، أن يكثر الشعراء ويقل الشعر..

يكثر الفنانون ويقلُ الفن...

لأنَّ الإبداع مَلَكة ذكية، لكنها ضنينة.

فليس من الغرابة أيضاً، أن تكون الشاعرة «ليندا إبراهيم» مثار إعجابنا وقبلة تقديرنا، ولاسيما في مجموعتها «منمنمات دمشقية» وذلك، لما تضمّه عليه من رحيق الإفصاح والتصريح، ورقيق الإضمار والتلميح!

قراءة عربية في أفلام أجنبية

عن المؤسسة العامة للسينما في وزارة الثقافة في سورية، طالعنا هذا العام (٢٠١٩م) كتاب جديد بالعنوان أعلاه للكاتب المعروف «كمال رمزي».

يتألف الكتاب البالغ (٢٣٨صفحة) من مقدمة تتلوها الأبواب أدناه:



- العنف وهوس الإرهاب.
- أين يذهب المال؟
- دم وإرعاب.
- لينكولن... ومشاهير.
- مصادر أدبية.
- روبرت دي نيرو.
- هوليود والسعودية.
- ملامسة القلوب.

من مقدمة الكاتب:

«هذه المجموعة من المقالات، هي حصاد متابعة ما تيسّر مشاهدته من الإنتاج السينمائي الأجنبي، في السنوات الأخيرة... حاولت فيها، إلى جانب تقييمها فنّياً، أن أراها بعيون المواطن العربي، ولاسيّما أن كثيراً من هذه الأفلام تثير قضايا تمسّ صميم حياتنا، مثل الإرهاب، والعنف، ولصوص المال، والقوات الأجنبية، الأمريكية والبريطانية خاصة.

من الأفلام التي يحتويها الكتاب:

(لست إرهابيّاً، والوهم والحقيقة في جزيرة سكورسيزي، وعودة رامبو وصائد الجبابرة، واللعبة الكبرى، ودموع التماسيح، والغرفة الانتحارية، وبعيداً عن «روبن هود»، وذئب وول ستريت، والأهرام، ودراكيولا يخاف من البشر، والحرب الأهلية، وإبراهام لينكولن... يحارب في جبهتين، والبؤساء، والذهب الأسود، والسعودية بدون غطاء، وإفرست).

شرفات الحنين

- «شرفات الحنين»: شعر: «قاسم فرحات».
- دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٩م،
- جائزة نزار قباني للشعر-٢- عام ٢٠١٧م.

تضم مجموعة «شرفات الحنين» قصائد قصيرة ومتوسطة، تنتظم معظمها تحت عنوان ما يدعى بـ«قصيدة التفعيلة».

وتفوح مضامينها برائحة العذاب والحنين: عذاب البعد والاشتياق، والحنين إلى الأهل والأرض والأحبّة.

من فهرس قصائد المجموعة:

(وداع، وشجون، ووجد، وشغف، وشرفات الحنين، وتغريدة العاشقين، وسوناتا الذهب، ورقصة الأمل، وعلامات فارقة، ومرايا القمر، وغمامة صيف، وقطرة حب، وأصابع اللّهفة).

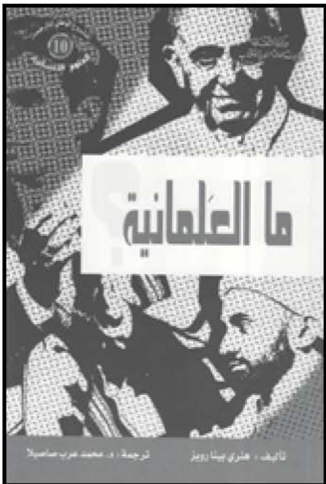
صدر للشاعر مجموعتان شعريتان الأولى بعنوان «اختيار» والثانية بالاشتراك مع مجموعة شعراء بعنوان «صبا».



من قصيدة «حنظلة»:

طفلٌ بطول السنبلهْ!
متسربلٌ بردائه المثقوب مثل زمانِنا
ومطوّق بالأسئله!
هو ابن مملكة البياضِ
محدّقٌ
ويداه غافيتان خلف الظهرِ
لا صمتٌ!
ولا صوتٌ!
يسافر في دروب المهزلهْ
هو حنظلهْ

ما العَلمانية؟



كتاب جديد صدر مؤخراً (٢٠١٩م) عن وزارة الثقافة- الهيئة العامة السورية للكتاب في دمشق، عنوانه «ما العلمانية؟».

الكتاب من تأليف: «هنري بينا رويز»، وترجمة: «د. محمد عرب صاصيلا»، ويشغل الرقم (١٠) من سلسلة المشروع الوطني للترجمة.

جاء في مقدمة كتاب «ما العَلمانية» وسُطِّر على غلافه الأخير:

«يؤمن بعض الناس بإله واحد، ويؤمن آخرون بآلهة عدّة، ويعلن آخرون أنهم ملحدون أو لا أدريّون، وعلى الجميع العيش معاً. كما أن على هذه الحياة المشتركة، وفقاً للإعلان الأول لحقوق الإنسان، أن تضمن لكل فرد حرية الضمير، التي تستبعد كل إكراه ديني أو أيديولوجي، والمساواة في الحقوق، التي تتناقض مع التقييم المميّز لأي إيمان. إن رسالة القوة العامة تكمن في تشجيع الخير العام، وعليه، فمن واجبها أن تكون محايدة على الصعيد الديني، وأن تنمي عبر التعليم الممارسة المستقلة للرأي، وذلك كي يتعلّم الجميع كيف يعيشون معتقداتهم من دون تعصّب وعدم تسامح».

يقع الكتاب في قسمين: (المعنى الأعلى العَلمان، والعلمانية اليوم)، و(١٢) فصلاً، من عناوينها: الكلمة، المبدأ، المثل الأعلى، والإيمان الديني والعلمانية، والعلمانية قيد التساؤل، والثقافة والدين: التعليم العلماني، والدين والسياسة في أوروبا).

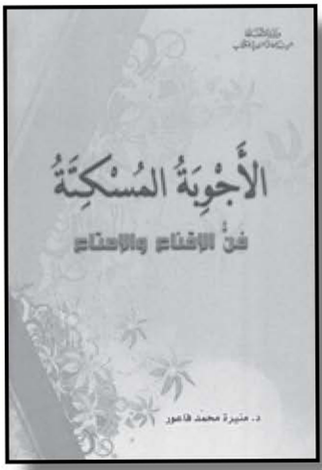
الأجوبة المُسْكِتة

- كتاب الأجوبة المسكتة (فن الإقناع والإمتاع).
- الكاتب: الدكتورة منيرة محمد فاعور.
- الناشر: وزارة الثقافة في سورية، ٢٠١٩م.

صدر حديثاً عن الهيئة العامة السورية للكتاب في دمشق. الكتاب أعلاه (٢٣٨صفحة)، (٢٥سم)، سلسلة (إحياء التراث العربي ونشره).

يقع الكتاب في فصلين اثنين:

الفصل الأول: الأجوبة المسكتة (آفاقها النظرية).



الفصل الثاني: الحضور البلاغي في الأجوبة المسكتة.

وقد جاء في التعريف بالكتاب على غلافه الأخير:

«... أبانت هذه الدراســـة أن الأجوبة المسكتة ثروة متنوعة الفنون والأفنـــان شملت مناحي الحياة كلها، فعكست أنماطاً من التعبير والتفكير، وكانـــت سجلّاً حافلاً بالقيم والأدب والفلسفة والسياسة والتاريخ والعِبر.

تُعـدّ هـــذه الدراســـة دراسة تطبيقية وقفت علـى ما في نصوص الأجوبة من وجوه محكمة، وهذا الضرب من الدراسات التطبيقية قليـــل في الدرس البلاغي الحديث، ويقلّ هذا القليل في بابة الأجوبة المسكتة».

الفارس الأسير أبو فراس الحمداني

«الفارس الأسير أبو فراس الحمداني» هو جديد الدكتور «حسين جمعة» الصادر عن الهيئة العامة السورية للكتاب، العام الجاري (٢٠١٩م).

يقول المؤلف في مقدمة كتابه:

«كانـــت دراستنا لحياة أبي فراس الحارث بن سعيد بـــن حمدان بن حمدون الأمير الفارس، والأسير الراعف بالجراح جسداً أو روحاً، ففاض بعبقرية شعرية في الحالين؛ شعر الذات القلقة الحالمة بالوطن، وشعر الفروسية التي تطل بصورة البطل الشجاع والشهم النبيل. فكان أميراً للسيف والقلم وفارساً للكلام العـــذب والذوق المرهف، والبديهة الحاضـــرة، والدراية الحكيمة التي تؤكد خبرته وثقافته، وحنكته وحلمه وغير ذلك».



«الفارســـ الأسير...» هو قراءة جديـــدة في حياة أبي فراس الحمداني وشعره، وقد انتظم مضمونه في ثلاثة فصول، هـي:

الفصل الأول: حياته ومكانته.

الفصل الثاني: موضوعات شعره وفنونه.

الفصل الثالث: ظواهر وخصائص.

وقد شغل صفحة الإهداء مأثور أبي فراس:

سيذكرني قومي إذا جدّ جِدُّهم   وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ

محجّبة بين جناحي باريس



- الكتاب: محجّبة بين جناحي باريس.
- المؤلف: د. ماجدة حمود.
- الغلاف: رهف غدير.
- الناشر: دار الحوار، اللاذقية، سورية، ٢٠١٩م.

ظهرت إلى العلن حديثاً، رواية سيرية للناقدة الدكتورة «ماجدة حمود» بالعنوان أعلاه، جاء في مستهلها:

«أعترف بأنني ترددت كثيراً في كتابة هذه الرواية السيرية: لأن مواجهة الذات ليست بالأمر السهل لمن اعتاد قراءة الآخرين والهروب من قراءة ذاته. لكن عليّ أن أشكر قذيفة، أصابت في آذار ٢٠١٧م العمارة التي أسكنها في دمشق فقتلت ترددي! وحفزتني على الكتابة، لعلها أيقظت في داخلي رغبة في إنقاذ ذاتي من موت سيأتي عاجلاً أم آجلاً».

مما كتب على الغلاف الأخير للرواية:

«سألته، أثناء تجوالنا في شوارع باريس. وأنا أتذكر كثرة مغامراته النسائية في بلادي: أما زلت تؤمن بمقولتك المأثورة:

«امرأة واحدة لا تكفي الروائي؟».

أجابني: طبعاً المرأة هي فرصة حياة عليّ أن أنتهزها!

- لكن هل تدري مدى معاناة المرأة التي تخلص لك حين تتركها بحثاً عن علاقة، عفواً عن رواية جديدة؟
- أنا أخلص للمرأة، حين أعيش معها قصةحب»!

«محجّبة بين جناحي باريس»:

مسرودة تحكي فيها الكاتبة، بصدق ودقة وعفوية، يومياتها في أثناء إقامتها في باريس طالبة دراسات عليا.

❀ ❀ ❀

صدى المعرفة

إعداد: ريما محمود

سلامة موسى: لم أقنع بالأدب وحده ولا بالعلم وحده...



كان المفكِّــر المصريُّ سلامة موسى معلِّمــاً إصلاحيّاً ومثقفاً كبيــراً ومن الداعين للنهوض والحداثــة، يعترف أنه أقل المثقفين تعليماً نظامياً، يقول: «إنني لا أحمل غير الشهادة الابتدائية، لكنني أقــرأ ثلاث لغات، وألّفت خمسة وثلاثيــن كتاباً، هي جميعها صور مــن حياتي أو كفاحي، كي أتعلَّــم وأُعلِّم، وقد استوعبت الآلاف من الكتــب، ولم أقنع بالأدب وحــده، أو بالعلم وحده، بل جمعت الأدب والعلم والفن والفلسفة التي تكونت منها تربيتي، وانبسطت لي منها آفــاق مــا كنت لأعرفها لو أنــي تخصَّصت في واحد منها. لذلك فــإن ثقافتي هي استيعاب وليست تخصصاً، والأساس هنا أن هدف حياتي هو تربية شخصيتي وهذه التربية تحتاج إلى الاستيعاب وليس إلى التخصص.

وقــد علمتنــي الحياة درسين، الدرســ الأول لنفسي، وهو أن أبقى شابــاً مستطلعاً، أنمو وأتطــور وأدرس وأسأل أسئلة الأطفــال، وألا أكفّ عن اللعب والمــرح، وليس الشباب عندي مرحلــة من العمر تسبق سن الخمسين، إنما هو عقيدة أؤمن بها، وأحافظ على سننها، وأذود عنها الزنادقة الذيــن يكفرون بها، ويدعون إلى الشيخوخة والخمود والاستسلام. أما الدرس

الثاني فلبلادي أو للعالم كله، وهو أن البشر في حالتهم الحاضرة ينقسمون إلى قسمين، أحدهما يجعل أساس حياته وأسلوب عيشه المعرفة التي تسمى علماً، ويعتمد هذا القسم على العلوم، أما الثاني فيجعل أساس وأسلوب حياته العقيدة الموروثة. وأتباع المعرفة غالباً هم الذين يسودون، وقد تعبت كثيراً في إقناع مواطني بلادي بضرورة الاهتمام بالمعرفة والعلم، ولن أكفَّ عن المثابرة في النصح والإرشاد والتوجيه».

رينيه هويغ: الإنسان الحديث فاقد للتوازن ومحكوم بالخسران

المفكر الفرنسي رينيه هويغ (١٩٠٦-١٩٩٧م) كاتب في التاريخ وعلم النفس والفلسفة الفنية، في حواره الشهير مع المفكر الياباني ديساكو إكيدا، يقول عن الإنسان الحديث إنه لأسباب كثيرة في حالة فقدان توازن، ويرى أن الإنسان الذي كان يتفتّح في العصر الزراعي بجميع السبل التي كانت تتاح له أن يشارك في الطبيعة، وأن يضيف إليها في الوقت نفسه وسائل التحسين والجودة والسمو، هذا الإنسان يجد نفسه مرفوضاً مصاباً بالهزال، مستبعداً.

ورأى هويغ أن الحضارة الجديدة تؤمِّن للإنسان سيطرة على العالم الخارجي، لم يكن بوسعه أن يحلم بها من قبل، هذا من جهة، ولكن من جهة أخرى يدفع الثمن لهذه الميزة التي لا تتعلق إلا بحاجاته ورغباته، خللاً في التوازن بل بتراً داخلياً، لأنه مضطر بالمقابل أن يخنق أعمق وظائف الحياة، وأن يوقف نموها.

ويرى هويغ أن الإنسان الحديث الذي أصبح ذرائعياً نفعياً يخسر الوسائل الحدسية للأعماق ورسائل التفوق على الذات، وأنَّ الحضارة التي صنعها الإنسان لنفسه، أصبحت سجناً له، وربما سيأتي يوم يبدأ فيه الإنسان بالاختناق حسياً وروحياً وأخلاقياً، وتلك هي المرحلة الثالثة التي تدخلها البشرية، مدمرة شيئاً فشيئاً جميع حبال السفينة، وجميع الروابط التي ما تزال تربطها بالعالم الزراعي، الذي كان قد أعد جميع الأديان الكبرى في الحضارة. ومثلما حافظ الأمريكيون على «مذخورات» الهنود الحمر الذين سبقوهم، حافظ الإنسان الحديث على مذخوراته المؤلفة من الأدب والشعر والفن، ولكن كلها تعبِّر عن الألم الذي يعذّب بشريةً مختلَّةَ التوازن.

«وتبقى غاية الفن الأساسية الانتقال من الزمان إلى المكان».

جوان رولينغ خيال لا يتوقف



ولدت الروائية وكاتبة السيناريو ومنتجَة الأفلام البريطانيّة «جوان رولينغ» في جنوبي جلوسيسترشير (٣١ تموز، ١٩٦٥م) كانت هوايتها المفضلة هي التأليف، وقد كتبت قصتها الأولى «الأرنب» وهي طفلة في السادسة من عمرها. لكنها نزولاً عند رغبة والديها، أجّلت حلم احتراف الكتابة وبدأت تتعلَّم الفرنسية لتزيد من فرص حصولها على وظيفة سكرتارية. وذلك ما تم لها بعد إتمالها الدراسة إذ اشتغلت باحثةً وسكرتيرة لدى منظمة العفو الدولية. وبقيت الكتابة هوايتها وتمارسها بشكل يومي. وفي عام (١٩٩٠م)، تركت وظيفتها وجاءها إلهام قصة «هاري بوتر» في إحدى رحلات القطار الذي تأخّر أربع ساعات، ولم يكن معها حتى قلم لتسطير ما تفكر فيه، فقضت تلكم الساعات تتخيّل تفاصيل العالم السحري لهاري بوتر. إلا أنه عند مُتَمِّ تلك السنة توفيت والدتها، فكانت تلك خسارة فادحة لها، وصرَّحت رولينغ أن وفاة والدتها أثر في كتابتها بشكل كبير وبأنها أدخلت تفاصيل جديدة عن خسارة هاري في الجزء الأول؛ لأنها أحست بما شعر.

سافرت رولينغ بعد ذلك إلى البرتغال للعمل مدرسةَ لغة إنكليزية. وهناك تعرفت إلى زوجها الأوّل، إلا أن الزواج لم يستمر إلا عاماً واحداً وشهراً، عانت فيه من العنف الممارس عليها من زوجها، فلجأت إلى حماية السفارة البريطانية قبل أن تنتقل في نهاية سنة (١٩٩٣م) إلى إدنبرة لتعيش مع أختها، ومعها ثلاثة فصول من رواية «حجر الفيلسوف»، وطفلة عمرها خمسة أشهر.

رأت رولينغ أنها «أكثر شخص فاشل عرفته»؛ فزواجها انهار، وكانت عاطلة عن العمل، ولديها طفلة، إثر ذلك أصيبت بالاكتئاب السريري وفكرت في الانتحار. ثم وصفت هذا الفشل بأنه كان يحررها:

«عنى لي الفشل التخلّص من كل ما هو غير ضروري. توقفت عن القول لنفسي إنني أي شيء آخر عمّا أنا في الحقيقة، وبدأت أوجه كل طاقتي لإنهاء العمل الوحيد الذي كان يهمني... قد تحررت؛ لأن ما كنت خائفة منه تحقق، وكنت لا أزال على قيد الحياة، ولا يزال لدي ابنة أعشقها، وآلة كاتبة قديمة وفكرة كبيرة؛ وهذا شكّل أساساً صلباً لأعيد بناء حياتي عليه».

وانتهت من كتابة الجزء الأوّل في عام (١٩٩٥م)، وتوالى رفض دور النشر نَشرَ قصتها، حتى وصلت إلى (١٢) دار نشر، لكنها لم تتخلَّ عن هاري بوتر، ولذا كم كانت سعادتها عندما جاء رد دار النشر رقم (١٣) بالموافقة على النشر، بعد عام كامل من الرفض والترقُّب. لكن دار النشر خافت من وضع اسم سيدة على الغلاف فتعزف الناشئة (الفئة المستهدفة) عن شراء القصة، فطلبت منها استعمال الأحرف الأولى من اسمها، وطالبتها بوضع حرفين ثم اسم عائلتها، لذا اختارت جوان حرف J ثم اتبعته بحرف K وهو أول حرف من اسم جدتها كاثلين، مع اسم عائلتها رولينغ.

الطريف أن العامل الكبير في موافقة دار النشر بلومسبري على النشر هو ابنة مدير الدار، ذات الثماني سنوات، التي نالت القصة إعجابها الشديد بعدما طلب منها والدها إبداء رأيها في الفصل الأوّل من القصة، فجاءته بعدها تدق الباب مطالبة ببقية القصة.

صدرت الرواية مع بداية صيف (١٩٩٧م) في لندن، وبدأت جوان أخيراً تتذوَّق طعم النجاح. وتوالت روايات هاري بوتر على مدى الأعوام، وتحوَّلت إلى أفلام، وحصدت الجوائز ومنها جائزة من أكثر التكريمات شعبية التي مُنحت من الملكية البريطانية، تسمى رتبة الإمبراطورية البريطانية من الأمير تشارلز أمير ويلز عام (٢٠٠١م)، إذ أخبرها الأمير بأنه من محبي سلسلة هاري بوتر.

صُنِّفت جوان عام (٢٠١٠م) بأنها أكثر النساء تأثيراً في بريطانيا، وكانت بليونيرة حتى عام (٢٠١٢م) عندما قامت الأعمال الخيرية والضرائب بجعلها خارج القائمة. إذ قامت بالتبرّع بمالها لكثير من الأعمال الخيرية لمحاربة الفقر، ومساعدة مرضى السرطان، وإنشاء عيادة آن رولينغ لعلم الأعصاب التجديدي في جامعة إيدنبرج.

ولكي تجيب عن سؤال كان يؤرِّقها: هل هي موهوبة بالفعل، أم أنها ضربة حظ غامضة؟ ألّفت جوان سلسلةً جديدة تدور في أجواء الجرائم والتحقيقات، عن مخبر بريطاني أعرج يُدعى سترايك، وقدمتها باسم «روبرت غالبريث»، ربما اختارت الاسم المستعار لكي تستمتع ببدايات النجاح بعيداً عن ضجيج الشهرة ومتاعبها ...!

المهم أن السلسلة حققت نجاحاً، قبل أن يكتشف أحدهم الحقيقة، من خلال برنامج حاسوبي قام بعمل مقارنة؛ ليتوصل لهوية الكاتب الحقيقي، وبالطبع حينما عُرفت هويتها كاتبةً للسلسلة تضاعف نجاحها، وتحولت إلى مسلسل بريطاني.

«لسنا في حاجةٍ لسحر يغير لنا العالم، فبداخلنا بالفعل كل القوة التي نحتاجها لفعل ذلك: إننا نملك القوة لنتخيل أفضل من السحر». ج. ك. رولينغ

اكتشاف مقبرة فرعونية جديدة

ذكر موقع عالم المعرفة أن وزارة الآثار المصرية أعلنت في (٤ أيار ٢٠١٩م) اكتشاف مقبرة عمرها (٤٥٠٠) عام جنوب شرق أهرامات الجيزة الشهيرة، إذ إنه اكتُشِفَ كثيرٌ من حجر الدفن في تلك المنطقة، بمًا فيها واحدة من أقدم المقابر التي حملت رفات شخصين - أحدهما اسمه « Behnui-Ka» وآخـر يدعى «Nwi»، إذ عُثر علـى تابوتهما على حاله، ومن المحتمل أن تكون بقاياهما في الداخل؛ ومع ذلك، لم يصدَر أيُّ معلومات عنها.

كشف تحليل القطع الأثرية للمقبرة والنقوش الهيروغليفية أن الرجلين عاشا قبل نحو (٤٥٠٠) عام، خلال ما يسميه المؤرخون غالباً الأسرة الخامسة، بعد مدّة من بناء أهرامات الجيزة.

وفق هذه النقوش، كان (بهنوي كا) قسّاً وقاضياً وله عددٌ من الألقاب، بما في ذلك عنوان مطـول يصفه «بمطهر الملوك: خفرع وأوسـركاف ونيوسير»، إذ كان خفرع فرعوناً أمر ببناء أحـد أهرامات الجيزة (هرم الملك خفـرع)، في حين كان «أوسركاف ونيوسير» من الفراعنة الذين حكموا مصر خلال الأسرة الخامسة.



(نـوي) يحمل أيضاً عدداً مـن الألقاب، بما في ذلك «قائد الدولـة العظمى» و«المشرف علـى المستوطنات الجديدة» وغيرها، وفق النقوش الموجودة في المقبرة.

وعُثر أيضاً على كثيـر من القطع الأثرية في هذا القبـر وغيرها في المقبرة، بما في ذلك تمثـال من الحجر الجيري الذي قد يصور إما «بهنوي كا» أو «نوي»، وكذلك النقوش الحجرية والأقنعة الخشبية.

اكتشـف علماء الآثار أن المقبرة قد أُعِيْدَ استخدامها منذ نحو (٢٦٠٠) عام، عندما دُفِن كثيرٌ من الأفراد هناك، فقد حدث إعادة استخدام المقابر بشكل متكرر في مصر القديمة.

وقـد قيل: «إن المقبرة المكتشفة حديثاً تقع بجوار المقبرة التي تحمل مدافن الأشخاص الذين بنوا أهرامات الجيزة».

الخفافيش تطالب بالظلام

يعتقد علماء الحشرات والكائنات الليلية أنَّ الخفافيش ترى في العتمة الحالكة وأن صغار الخفافيش التي يقل عمرها عن تسعة أيام تكون عمياء لكن بعد ذلك تصبح قادرة على الرؤية، ويقال إن ما أسهـم بالاعتقاد الخاطئ أن الخفافيش عمياء هو طريقتها بالتحرك التي تشبه



الحركة العشوائية المتخبطة بين اليمين واليسار لكن الأبحاث الحديثة أثبتت أنه كائن يستطيع النظر.

تعيش هذه الحيوانات في جميع أنحاء العالم تقريباً باستثناء القارة القطبية الجنوبية، وهي الحيوانات الثدية الوحيدة التي تستطيع الطيران بوساطة غشاء منبسط رقيق للغاية يمتد بين الأطراف الأمامية والخلفية ويرتكز على عظام الأصابع. ويمكن العثور على ما يقارب ١٠٠٠ نوع من الخفافيش في جميع أنحاء العالم، وتقتات الحشرات بالدرجة الأولى، ومنها ما تعيش على الثمار، وأحياناً على الحيوانات الصغيرة. أمّا امتصاص الدِّماء الذي تشتهر به هذه الحيوانات، فهُو في الحقيقة مصدر طعام ثلاثة أنواع من الخفافيش فحسبُ في العالم بأكمله، حيث تعيش هذه الأنواع الثلاثة في قارة أمريكا الجنوبية وأمريكا الوُسطى، وتستهدف عادةً الثدييات الكبيرة (مثل الماشية والأبقار) أو الطيور، وهي في الواقع لا تمتصُّ دماء فرائسها تماماً، وإنّما تكتفي بصناعة جُرح صغير في جلد الضحيّة، ثم لعق الدم الذي يخرج منه.

وهي طيور ليلية نشطة. ويقال إن عمر الخفافيش يعود إلى مئات ملايين السنين، وإنَّ معظم أدوارها في مسرح الحياة تقوم بها في الليل وتسكن في النهار لتنجو من خطر الكائنات النهارية الأقوى منها. وتعتمد على قوة السمع في صيد الحشرات في أثناء الطيران، وتجد الخفافيش طريقها إلى أزواجها معتمدة على الرائحة والصوت فحسب.

يعتقد أيضاً أنَّ بيوت الخفافيش ظهرت مع ظهور بيوت الديناصورات، وقد انقرضت السرخسيات والحزازيات الصولجانية التي كانت تكثر في عصور الفحم، وكانت النباتات المخروطية ذات الأوراق الإبرية تتقهقر، أما الأشجار عريضة الأوراق تنتشر تدريجياً، وتحتل الأرض في العصر الوسيط، وتؤمن للخفاش (الوطواط) سرداقاً يستطيع أن يختبئ في حماه، كما كانت تحتفظ ببقايا من الليل في جذوعها المجوفة.

ولا تتطلب الخفافيش أكثر من الطلبين اللذين قد تيسَّرا لها، وهما الحشرات لتصطادها ليلاً وأشجار لتختبئ فيها نهاراً...

وتستفيد الخفافيش كثيراً من صدى نداءاتها العالية التي تستخدمها في الملاحة الجوية، ولا تسمعها غيرها، فيرتد الصدى من الأجسام التي تعترض طريقها فتغير اتجاهها وتتجنب الاصطدام، ويصير الخفاش عند الفجر مطالباً بليلٍ متواصلٍ لا ينقطع وهو العزلة الخاصة التي يريد.

❀ ❀ ❀

بقلم: «هـ. ج. ويلز»

في بلاد العميان

اختيار وتقديم: ناظم مهنا

رئيس مجلس الإدارة

محمد الأحمد

وزير الثقافة

المدير المسؤول

ثائر زين الدين

رئيس التحرير

ناظم مهنا

الإشراف الطباعي

أنس الحسن

التصميم والإخراج

ريما محمود

التدقيق اللغوي

أماني الذبيان

التنضيد

ابتسام عيسى

بلاد العميان

القصة المختارة لهذا الشهر «في بلاد العميان» للكاتب الإنكليزي الشهير هربرت جورج ويلز، مؤرخ وأديب روائي وقصصي، اشتهر بالقصص الخيالية، وله أعمال خالدة في الخيال العلمي، منها: آلة الزمن، والغذاء السحري، وغذاء الآلهة، وحرب العوالم، ومكيافيلي الجديد، والرجل الخفي، وتاريخ مستر بوللي، وله قصص قصيرة، منها هذه القصة التي نضعها بين أيدي القرّاء.

ويلز من الاشتراكيين الفابيين الإصلاحيين إلا أنه اختلف مع رفاقه بعد خلاف مع برناردشو، وله كتاب، حظي بتقريظ كبير من المؤرخين ومنهم أرنولد توينبي، بعنوان: موجز تاريخ العالم، ويلز كاتب خيالي إلا أنه يمجد العقل والواقعية.

في بلاد العميان، قصة نموذجية يتجلّى فيها أسلوب ويلز الذي يتحدث عن عالم افتراضي متخيَّل في جنوبي أمريكا، عالم منقطع عن العالم الآخر، شعبه من العميان، يصل إليهم «نونيز» المبصر بالمصادفة وسرعان ما يطمح لقيادتهم، معتقداً «أن الأعور ملك في بلد العميان» لكنه يخفق في مسعاه، ويهرب من شروطهم على

الرغم من الحب الذي أقامه في بلادهم، هذه القصة تبدو مع طرافتها والتشويق فيها بسيطة، إلا أنها قصة ذات مدلول فلسفي عميق، وهي باعتقادي تراود فكرة كهف أفلاطون، وإنسان ذلك الكهف الذي لا يبصر سوى نقطة بعيدة في الأفق، عند ويلز هو البصيرة لا البصر...

نشرت هذه القصة عام ١٩٥٣م في كتاب الشهر في مجلة «الدنيا» السورية التي أدارها الأستاذ عبد الغني العطري مغفلة من اسم المترجم.

أرجو أن يستمتع القرّاء بهذه الرائعة القصصية التي أثارت جدلاً كبيراً في زمن نشرها، إذ يبدو ويلز وكأنه يمجّد العمى، ويعدّ البصر سبباً في الانحطاط!

الفصل الأول

الحدث الأكبر

يميــل الإنسان بطبعه إلى حبِّ الاستطلاع والجري وراء المعميات، والبحث عن الأشياء التي لا يستطيع أن يراها في المحيط الذي يعيش فيه. وكثيراً ما تآلفت البعثات، وانتظمت الجماعات، وتطوَّع المغامــرون للقيام برحلات استكشافية في أنحاء الكــرة الأرضية لمعرفة المجهول من نواحيهــا، والوصول إلى البعيد من أراضيها. وقــد عرف الجنس البشري هذا الميل منذ الأيام الأولــى من تاريخــه الطويل. وقد حدَّثنــا هوميروس عن رحلات قام بها شبــاب من المغامرين الإغريق متّجهين شمالاً في عباب البحر الأسود أو غرباً في مجاهل البحر المتوسط. ويظهر أن الإنسان قد اكتسب هذه السليقة منذ أيام الإنسان الأوّل عندما كان يطوف الأصقاع جرياً وراء رزقه، وبحثاً عن طعامه واصطياداً لفريسته. ثم تطورت هذه السليقة مع مرور الزمن بعد أن كفل الإنســان لنفسه الــرزق في موطنه فأصبح يميل إلى ارتياد الأصقــاع المجهولة حبّاً في اكتناه أسرارهــا واستجــلاء غوامضها. وبعد أن كان الإنسان يرتاد الأصقــاع لإشباع معدته أصبح يرتادها لإشباع نهمه إلى المعرفة والاطلاع.

ولــم يستطع الإنسان أن يرسم خريطة كاملة للكــرة الأرضية إلا في أواخر القرن الماضـي. أما قبل ذلك فقد كانت هناك أقطار مجهولة ومناطق مهجورة لم يستطع الإنسان أن يصل إليها، ولاسيّمــا في مناطق القطبين أو في أقطار خط الاستواء، حيث يحتاج البحث والارتياد إلى همم قويــة واحتمالات، قد تصل في بعض الأحيان إلى ما فوق طاقة البشر. ومع ذلك فقد سمعنا عن كثيريــن من الرواد الذين دفعتهم رغبــة الاطلاع إلى القيام بمغامرات ومجازفات في ارتياد هذه المناطق، دون أن يأبهوا لمصاعب الأرض أو يتقهقروا أمام طبيعة الإقليم. واستطاع بعضهم أن يخلّــد اسمه في التاريخ وأن يصل إلــى أمكنة ربما كان هو أوّل من وصل إليها من بني البشر، وإن كانت أنواع أخرى من الحيوانات قد عاشت فيها واستعمرتها قبل الإنسان.

وقــد وصل الإنسان إلى منطقة وعاش فيها، ولكن ظروف الطبيعة أرغمت أولئك الذين وصلوا إليهــا على الانفصال عن باقي أجــزاء الدنيا، ووضعتهم في ظروف غريبــة جعلت منهم محيطاً مستقــلاً بنفسه له عاداته وطرائــق معيشته وأخلاقه، بل إن ظروف الطبيعة قد أحدثت تغييراً في تكويــن جسمه، وفي غرائزه، وفي قوة حواسه، ونقلت مقــدرة بعض الحواس إلى حواس أخرى فأصبح هذا الإنسان يعتمد عليها اعتماداً ضَمِنَ له حياة رغيدة دون أن يتأثّر بفقدان هذه الحواس أو يعــدّ ذاك نكبــة حلّت به، بل على العكس أصبح يعتقد أن فقدان هذه الحواس نعمة ضاعت من طاقتــه البشرية وزادت من قدرته على شق طريــق الحياة، وجعلته يعدّ وجودها في غيره من بني البشر نقصاً معيباً وسبباً في تأخره وانحطاطه.

فــي أواسط القارة الأمريكية الجنوبية حيث تمتد جبال الأنديز على شكل انحدار من أطراف الشاطئ الغربي في شمال جمهورية تشيلي، وتتوغّل في أواسط القارة نحو الجنوب، حتى تنتهي مــع انتهاء اليابسة فــي رأس ماجلان. وفي وسط هذه الجبال تقــع جمهورية خط الاستواء أي الأكــوادور وهي جمهورية حارة المناخ كثيرة الجبــال متشعبّة المسالك فيها قمم عالية، وأودية سحيقة ومياه غزيرة تسيل من الينابيع وسفوح الجبال وذوبان الثلوج.

وأعلــى هــذه القمم قمة كونوبازي الشاهقة التي يزيد ارتفاعهــا على ثلاثة آلاف متر، والتي تغطيهــا الثلوج صيفاً وشتاءً، وتقابلها من الجانب الآخر قمة شيمبوراز، وكلتا القمّتين تنحدران على شــكل سلسلتين من الجبال تحيطان بواد عريض الجنبات كثير الثمرات غزير المياه، كأنه جنــان الفردوس في الأرض. وعلى الرغــم من أن هذا الوادي يقع على خط الاستواء فإن مناخه بديــع تتهاوى فيه موجات لطيفة من الهواء الرخــي، وتسيطر عليه نسمات ندية. هذا الوادي هو بــلاد العميــان. والسبب في جودة مناخه هو وقوعــه بين جبلين شاهقين يرســلان إليه رياحاً أشبعتهــا الثلوج رطوبة وخففت من حرارتها، ويسبغان عليه فيضاً غزيراً من المياه التي تفيض في أطرافه حيث تنبت الأشجار الباسقة والأغصان المورقة، وتمتد الخضرة على مدى النظر.

كان هــذا الــوادي في الأحقاب الماضيــة. مفتوحاً أمام المهاجرين والســكان الذين كانوا يتفيَّؤون ظلاله، ويقطفون ثماره، ويعدّونه واحة يلجؤون إليها للراحة من مشاق السفر في طريقهم من غربي البلاد إلى شرقها، ومن جمهورية البيرو إلى أراضي البرازيل وغيرها.

وكثيــراً ما لجأ إلى هذا الوادي عدد كبير من أولئك الرجال الذين كانوا يقاومون الاستعباد الإسبانــي، إذ يستطيعون استرداد أنفاسهم وتنظيم صفوفهم والعــودة إلى مقاومة المستعمر الغاصب.

ومرَّت أجيال نعِمَ فيها الإنسان بخيرات هذا الوادي إلى أن وقع الحدث الأكبر، وجاء الزلزال الرهيـــب، واهتزت الأرض اهتزازاً عنيفاً قلب مــن معالمها، وفجَّر براكينها وقَلَبَ جبالها.في تلك الأيـــام ثار بـــركان مندوبامبا، وطغى على المناطق المجاورة وخيَّـــم الظلام على مدينة كيتو مدة سبعـــة عشر يوماً متعاقبة. فرحل سكانها وتشـــرَّدوا وأصبحت المياه تغلي من تحتهم، والهواء يشـــوي الوجوه، ولم يبق على وجه الأرض في تلـــك المنطقة من الأحياء أحد ماتت الأسماك في مياهها والوحوش في غاباتها، وجاء الطوفان من مياه المحيط يغمر الأراضي ويرغم سكانها على النجـــاة. وتزحزحت قمة جبل آروكا من مكانهـــا، وأغلقت الطريق نحو الوادي المذكور، وفصلت بينه وبين أنحاء المعمورة.

الفصل الثاني

الهارب من الجنة

كان عدد السكان في ذلك الوادي عندما وقع الحدث الأكبر قليلاً جداً لا يزيد على بضعة مئات من الرجال والنساء، وقد لجؤوا إلى كهوف عميقة الأغوار وسراديب مظلمة عاشوا فيها حتى خفَّت حـــدَّة ثورة الطبيعة وشعروا بالهواء اللطيف يعود إلى المكان فبدؤوا يخرجون من كهوفهم ليعودوا إلى حياتهم المعتادة في زرع أراضيهم، وتعمير بيوتهم، وكسب أرزاقهم، ولكنهم شعروا أن الحياة بدأت تختلف عما كانت عليه سابقاً ومع أن الجو في هذا الوادي عاد إلى ما كان عليه في السابق إلا أن الجميـــع شعروا بوجود فارق كبير في مجـــرى حياتهم. ولما حاول بعضهم الفرار من ذلك الوادي للالتحاق بالنواحي الأخرى من المعمورة وجدوا أن ذلك مستحيل عليهم، وأن لا سبيل إلى مغادرة المكان وأن الوادي أصبح محاطاً بالجبال الشاهقة ذات الانحدار الرأسي الذي يجعل من الوادي كأنه بئر عميق الغور له جدران عالية ليس في وسع الإنسان أن يتسلقها.

وعاشـــس سكان الوادي على مضضـــ وبدأت تظهر على أجسامهم ظواهر غريبة أعظمها وقعاً علـــى نفوسهم هو فقدان البصر. فقد كان الرجل منهم ينام الليل ليستفيق في الصباح وقد فَقَدَ بصـــره وأصبح أعمى، ولم يكد يمضي حَوْلٌ على ذلك الحدث حتى أصبح جميع السكان عمياناً ينسلون أطفالاً لا بصر لهم.

وعندها ثار أحد السكان على هذه الحالة وقرر الفرار منها، وراح يشق طريقه مجازفاً بحياته فـــي تسلق الجبال وصعود القمم تاركاً وراءه زوجتـــه وأولاده وأصدقاءه الذين أصبحوا جميعاً عمياناً حتى تمكن في النهاية من اجتياز جبال الأنديز، ووصل إلى أقرب نقطة من بلاد العمران وهـــو يلفظ أنفاسه الأخيرة وقد طارده هذا المرض الغريب حتى سلبه بصره وتلقفه السكان في مدينـــة كيتو رجلاً محموماً مكفوفاً يهذي بقصة غريبة لم يشأ أحد في بادئ الأمر أن يصدّقها. وقـــد مكـــث هذا الرجل عدة أيام وهو يردد قصته حتى قضى نحبه، وبقيت هذه القصة عالقة في أذهان بعض السكان وكأنها أسطورة من الأساطير العجيبة التي اعتاد الناس أن يرددوها فيما بينهم للتدليل على استحالتها وعدم تصديقها.

وقـــد جاء في قصة ذلك الأعمـــى أن هناك بين تلك القمم الصاعدة فـــوق السحب المغمورة بالثلوج البيضاء يقع وادي الفردوس الذي يشبه الجنة الموعودة فمياهه غزيرة وأشجاره مورقة وخيراتـــه كثيرة، بـــل إن الفواكه التي تنبت فيه أكبر حجماً من أمثالهـــا في الأنحاء الأخرى من العالـــم، وقد فهم الناس من تضاعيـــف هذه القصة الغريبة أن أرض الـــوادي معرضة لإشعاع أنـــواع غريبـــة من المعادن التي تؤثر على ذرات الهواء فيه وعلى مياهه وعلى تربته، وأن لا شيء ينقص هـــذا الوادي لتوفير السعادة والهناء لسكانه إلا تلـــك الظاهرة الغريبة التي بدأت تنتشر بينهم فيفقدون بصرهم، ويصبحون عمياناً دون أن تظهر أيّ علامات تمهيدية تجعل المرء يشعر بضعف بصره أو بإصابة عينيه برمد أو غير ذلك من الأسباب التي تؤدي إلى فقدان البصر، بل إن أولادهـــم يخلقون عمياناً، وإنَّ هذا هو السبب الوحيد الذي جعل هذا الرجل يهرب من الجنة محاولاً النجاة ببصره لولا أنه فَقَدَ هذا البصر في الطريق نحو العالم المعمور. وكان هذا الرجل يأمـــل في الحصول على علاج لهذه الظاهرة كي يعود إلى الوادي، وينقذ زوجته وأولاده من هذا المصير الرهيب. وقد أحضر معه كمية كبيرة من الذهب والفضة والمعادن البرّاقة الوهاجة التي يكثر وجودها في وادي النعيم.

وقد حاول هذا الرجل أن يثير عواطف الشفقة في قلوب سامعيه كي يبادروا إلى إنقاذ سكان الـــوادي، ويرسلوا إليهم من يكشـــف أمرهم، ويعيد أبصارهـــم أو يساعدهم على الخلاص من هـــذه الظاهرة الغريبة. وقد تحركت عواطف بعض السامعيـــن، وأحضروا إليه عدداً من الكهنة، والحكمـــاء، والأطباء الذين فحصـــوا عينيه، ولكن معظمهم وجَّه اهتمامه إلى فحص قواه العقلية، وهزّوا رؤوسهم ريبة في صدق أقواله، وانصرفوا عنه دون أن يقرروا شيئاً. ومات الرجل وأهملت القضية، وتناساها السكان.

أمّا أولئك الذين حَكَمَ عليهم القدر بالبقاء في ذلك الوادي السحيق، فقد رضوا بمصيرهم، ولم يبق بينهم أحد من المبصرين، ولما مات كبار السن من بينهم أصبحوا يعتقدون أن هذه النقطة المتعلقــة بوجود البصر أو عدمه نقطة لا أهمية لها، ولاسيّما أن هواء الوادي الذي أفقدهم نعمة البصر قد عوَّض عليهم قوة في الجسم وصلابة في الأطراف ومناعة ضد الأمراض ومقدرة فذة على العمل الشاق.

وكان أولئك الأطفال الذين ولدوا عمياناً يستغربون ما يرويه لهم أجدادهم عن ضياع البصر وعــن الاعتماد على العين فــي رؤية الأشياء، وعن وجود عالم واسع فيه الملايين من بني البشر معتمديــن على أبصارهم، وكانوا يرفضـــون أن يصدّقوا مثل هذه الأساطير. وما كادت تمر عدّة أجيــال حتى أصبح سكان الوادي لا يؤمنون بما كان يرويه أجدادهم، ويعدُّون تلك الروايات من قبيل الأساطير والخرافات.

كانت حياة هــؤلاء العميان في واديهم جميلة هادئة بعيدة عــن الأخطار والمفاجآت، وكانت الجبــال تحميهم من أخطار العالم الخارجي وتقيهم شــر الإنسان والحيوان. فقد كان الحيوان الوحيــد الذي يعيش معهـــم هو (اللاما). فهو حيــوان أليف هادئ يستطيـــع أن يقدّم للإنسان خدمات كثيرة. وكانت الأرض تغمرهم بخيراتها، إذ كانوا يستثمرونها بمهارة نادرة وعزم جبار، ويفلحونها، ويرعون أشجارها، ويقطفون ثمارها.

وكان هؤلاء العميان يعرفون كل نقطة في واديهم، ويسيرون في أطرافه بخطوات ثابتة نحو الأماكن التــي يريدونها دون أن يضلوا السبيــل، وكانوا يحبون بعضهم بعضاً، ويعيشون متساوين متكافلين يرغدون في عيش أمين، لا يحملون هموماً، ولا يحسبون حساب الغد، ولا يخشون طوارق الحدثان.

الفصل الثالث

نعيم العميان

ومــرت أجيال تتبعها أجيال وســكان الوادي يسيرون في حياتهــم الرغيدة، وقد نسوا تلك التقاليد والعادات التي ورثوها عن أجدادهم، وابتدعوا غيرها ما يلائم حياتهم إذ كانوا يعتمدون على حاستي الشم واللمس، ذلك الإحساس الباطني الذي يسود خطوات الإنسان، الذي نسميه

فـــي معظـــم الأحيان بصيـــرة أو هو العقل الباطن، كمـــا اعتاد الإنســـان أن يسميه في العصر الحديث.

وقـــد ساعدت هـــذه العزلة على تكاثر الســـكان في بلاد العميان، كمـــا ساعدت على تكوين مجتمع إنساني يميل نحو التقدّم ونحو الاستزادة من العلوم والمعارف، ويرغب في رفع مستوى معيشتـــه، والترفيـــه عن نفسه، والأخذ بأسبـــاب الحضارة والمدنية. وعالـــج العميان مشاكلهم الاجتماعيـــة ونجحوا في حلها حلولاً بسيطة تنسجـــم مع طبيعة الإنسان الوادعة المفطورة على حب الخير والتكاتف والتساند في تحمل أعباء الحياة.

هذا المجتمع الأعمى الذي حكمت عليه ظروف الطبيعة بفقدان البصر استطاع باعتماده على البصيـــرة أن يرتفع في مستـــوى حياته بشكل غريب يثير الدهشة والإعجاب. فقد زالت من قلوب أفـــراده المطامع الشخصية، والغرائز البهيمية، والانحلال الخلقـــي الذي يسيطر على المجتمع الداعـــر فيهبط في مستواه إلـــى مستوى البهائم، ويحط من أخلاقه وعاداتـــه إلى درجة التناحر البغيض؛ الذي هو السبب في نشر المنازعات وأحداث التفرقة والفتن والحروب بين بني البشر، ممـــا يدفعهم إلى قتل بعضهم بعضاً، وإلى استعمـــال المجهود البشري في ابتكار أدوات الفناء ووسائل الدمار بدلاً من توجيه هذا المجهود الذي يجب أن يكون مصدر نعمة لنا نحو أهداف هذه النعمة، ونحو الوصال بالمجتمع الإنساني إلى ما يكفل لبني الإنسان حياة تتفق مع معنى الحياة وترفع الإنسان نحو اجتناء خيرات الأرض وكنوز الطبيعة في سبيل سعادته وهنائه رفاهيته.

هـــذا المجتمع الأعمى الذي استطاع تكوين نفســـه دون أن يعتمد في ذلك على نعمة البصر نجـــح في الوصول إلـــى ما لم يستطع أن يصل إليه الإنسان البصيـــر، الذي يعتقد بالكمال في حواســـه، ويتصور أن هـــذا الكمال يؤهله كي يتبـــوأ القمة في الكرة الأرضيـــة. وقد برهن هذا المجتمع الأعمى على نظرية غريبة ربما كانت السبب في حيرة العلماء والمفكرين. وهذه النظرية هي هل البصر مصدر نعمة الإنسان؟...

لو أن الإنسان استعمل حاسة البصر بقصد الرؤية المجردة عن كل غاية خسيسة لنعم بذلك. ولو أن الإنسان أفاد من نعمة البصر بالوصول إلى الغايات التي خُلِقَ البصر من أجلها لكان هذا سبباً في وصوله إلى الكمال، وإلى خلق مجتمع إنساني رفيع. ولكن الإنسان استعمل البصر سلاحاً يريد أن ينفذ منه إلى غايات ومطامع بعيدة عن الغايات التي وضعتها الحياة لنا كي نسعد بها.

كان أفـــراد المجتمع الأعمى يؤمنون بالله وكانوا يؤمنون بطيبة الإنسان وبالأخلاق الحسنة، ويشعرون بفائدة التكاتـــف في سبيل الحصول على متعة الحياة، وإذا كانت الحياة قد حرمتهم

من نعمة البصر فإن الإيمان بالمثالية كان يعمر قلوبهم، ويغنيهم عن فضائل نعمة البصر، ويقيهم من شرور هذه النعمة.

ومـرَّت الأجيال متعاقبة على سكان هذا الوادي وهم يعيشون عيشة هادئة تتفّق مع الوسائل والأساليـب التي اختطوها لأنفسهم، ورضوا بها، وسـاروا على منوالها، إلى أن جاء ذلك اليوم الموعود عندما حاول أحد سكان المعمورة أن يعكّر على هؤلاء صفوهم، وأن يذكرهم بوجود عالم آخر بعيد عن عالمهم يختلف عنه اختلافاً واسعاً.

وكان هذا الإنسان البصير الذي نزل على العميان في عزلتهم من سكان مدينة بوغوتا القريبة مـن كيتـو عاصمة الأكوادور. وكان هـذا الرجل يحترف مهنة تسلّق الجبـال، وهو في الرابعة والعشريـن من العمر اسمه نونيز، وقد جاب أنحاء الأرضـ وطالع كثيراً من الكتب والمؤلفات، وخبر أحوال الدنيا بحيث لا تنقصه المعرفة ولا الذكاء ولا النشاط.

واتفـق أن وصلت إلى بوغوتا بعثة من العلماء البريطانيين الذين جاؤوا لارتياد جبال الأنديز واكتشـاف مجاهلهـا والوصول إلى أعلى قمـة فيها. واتفق أن مَرِضَ الدليـل الذي جاء معهم ليرافقهم في رحلتهم الاستكشافية فراحوا يبحثون عن دليل آخر تتوافر فيه المعرفة والرغبة في تسلق الجبال وحب المغامرة والمجازفة.

ولمـا تقدم إليهم نونيز بقامتـه الفارعة، وجسمه الممشوق، ومعرفتـه مجاهل تلك المنطقة، وتضلعه في اللغات والعلوم الجغرافية، ووافقوا على اصطحابه وساروا وراءه محاولين الوصول إلى قمة جبل باراس كوتوبيل وهي أعلى قمة في جبال الأنديز.

وسـارت القافلة فـي اتجاه القمة المكسوة بالثلج الأبيض، وهـي تسير في معارج ومسالك، مستندة على النتوءات البارزة في سفح الجبل متقدّمة على شكل لولبي متعرج، حتى وصلت إلى الطبقة السادسة نحو القمة، ولم يبق أمامها غير بضع مئات من الأمتار، ووجدت أن ظروف الطقس قـد اختلفت، وأصبح من العسيـر الاستمرار في الصعود إلا بعد أن تهدأ ثورة الطبيعة، ويستقر مجـرى الرياح. ونصب رجال البعثـة خيامهم على طرف نتوء بارز من الجبل، وقرروا أن يقضوا ليلتهم هناك آملين أن يتحسن الطقس عند شروق الشمس في اليوم الثاني. ولما أفاق رجال البعثة في الصباح، وجدوا أن نونيز قد اختفى من بينهم، وأن السبب في اختفائه هو انهيار حافة النتوء التـي كان نائماً عليها. فقـد انجرفت من تحته وجرفته معها بخيمته ومتاعه، وراح يتدهور صوب الـوادي السحيق من الجانب الشرقي دون أن يستطيع وقاية نفسه أو الإمساك بحافة أخرى في منحدر الجبل، إلى أن استقر في قعر الوادي بعيداً عن أنظار زملائه الذين حاولوا عبثاً أن يعرفوا

مكانه على الرغم من أنهم بذلوا الجهود الجبارة للوصول إلى جثته أو معرفة مصيره، فاضطروا في النهاية إلى العودة على أعقابهم نحو مدينة بوغوتا، ومنها عائدين إلى بلادهم.

وقد اهتم سكان بوغوتا في بادئ الأمر بهذه الحادثة وتطوع عدد منهم للبحث عن نونيز، ولكنهم أخفقوا في جميع هذه المحاولات واختفت آثار هذا الرجل وانطوت سيرته على مر الأيام.

الفصل الرابع

بصير بين العميان

عندمــا أفاق نونيز وجد أن جسمه يهوي في سفح الجبل بسرعة فائقة، وحاول عبثاً أن يتمسك بما يمنعــه من استمرار في هذا الهبوط الإجباري، لكنه لم يجد في هذا المنحدر مكاناً يعصمه من الهبوط، وكلّ مــا استطاع أن يفعله، هو أن يعتمد بيديه ليلقي جسمه شر الإصابات والرضوض، إلى أن استقر جسمه في مكان منبسط قريب من أعماق الوادي. وأشرقت عليه الشمس وهو في حالة إغماء، فلمَّا أفاق مــن هــذه الحالة راح يتحسس أطراف جسمه، وينفض عن ملابسه قطع الجليد، وظهر له أن وصل إلى الأرض سليماً فيما عدا بعض الرضوض البسيطة، التي لا تحول بينه وبين السير عائداً إلى مدينته.

وراح نونيز يجوب بأنظاره المكان الذي هبط إليه، فوجد أنه عبارة عن وادٍ عريض الجوانب، تحيط به الجبال الشاهقة من جميع الجهات، وتؤلف حوله جداراً عالياً يحول بينه وبين الاتصال بالعالم الخارجي.

وكان هذا الوادي مخضراً تنتشر في أطرافه الأشجار والبساتين، وتمتد في نواحيه الأنهار والينابيع، وتنبسط في جنباته الحقول والكروم.

وبعد أن استراح نونيز، وشعر أنه يستطيع استئناف السير، تقدَّم متجهاً نحو الوادي الأخضر، وشاهــد من بعيــد عدداً من البيوت مبنية في وسط الوادي، ومــن حولها مناظر خلابة وتنظيمات بديعة تدل على العناية الفائقة التي يبذلها سكان هذا الوادي نحو أرضهم، إذ كان منظر المنطقة يؤلّــف رقعة سندسية تجذب الأبصار، وتستولي على الألباب بجمالها تنظيمها. وكان السكان قد شقُّــوا الأقنيــة المستقيمة التي تجري فيها المياه نحو كل قطعة مــن أراضي الوادي على شكل شبكــة نظامية، تضارع أحسن وسائل الري في العالم كلــه. وكانت هناك عدة قطعان من اللاما

ترعـــى الحشيش في أطراف الوادي في أماكن محاطــة بالأسوار والحواجز لمنع الحيوانات من اجتيازها إلى بساتين الزرع والفاكهة، في حين كانت جميع الأقنية تتفرَّع من جدول كبير يمتد في وسط الوادي كأنه عرق الحياة الذي يوزِّع مياهه على الأراضي الواقعة على الجانبين، وقد رصفت ضفاف الجدول بالحصبـــاء ذات الألوان الجميلة، ونظمت مسالك وممرات بين الأقنية والبساتين عبّــدت أرضها بالحجارة البيضاء، وأقيمت على جانبيهـــا جدران ترتفع قليلاً عن مستوى سطح الأرضـــ، وكانت هذه المسالك تمتد من أحـــد البساتين إلى أحد البيوت، وكل مسلك منها يتصل بالطريق العام الذي يسير نحو ساحة فسيحة أقيمت فيها عدة أبنية متلاصقة.

وكانت بيوت هذه القرية تمتاز عن غيرها بأشياء غريبة تلفت النظر، إذ ليس فيها نوافذ مطلقاً. أما أبوابها فكانت مفتوحة ليس لها مصاريع، وكانت جدرانها مدهونة بألوان غير منسجمة ولا متناسقة، إذ كانت بعضها مدهونة باللون الأزرق ونصفها باللون الأبيض، وإلى جواره دهان أخضر، أي إنّها كانت عبارة عن خليط من الألوان تجعل المرء يدرك من أول لحظة أن الرجال الذين قاموا بدهن هذه الجدران لا يفرّقون بين الألوان، وأنهم عميان لا فرق عندهم بين الأخضر والأحمر.

ووصل نونيز في سيره إلى جدار قريب من الجدول، وجلس في ظله كي يستريح، ويستكشف المـــكان قبل أن يتوغل في مسالك القرية، واستطاع من مكانه أن يرى عدداً من الرجال والنساء جالسين على الأرض الخضراء. كما شاهد ثلاثة رجال يحملون الدلاء، ويسيرون بها من الجدول إلـــى المنـــازل. وكان كل واحد من هؤلاء الرجال يرتدي على جسمه قطعة من جلد اللاما وينتعل حـــذاء من الجلـــد، كما يضع على رأسه غطـــاءً جلدياً يستر أذنيه وأطـــراف عنقه، وكان الثلاثة يسيرون متلاصقين سيراً بطيئاً حذراً كالإنسان الذي يسير في الظلام، وكانت تبدو على هيئاتهم أمارات الرجولة والقوة والصحة الجيدة.

فلمـــا اقتـــرب الثلاثة من المكان الذي جلس فيه نونيز وقف علـــى قدميه وأرسل صوتاً عالياً رددت أصداءه جنبات الـــوادي طالباً منهم العون والمساعدة، فَوَجَمَ الرجال الثلاثة وجمدوا في أماكنهـــم، وحركوا رؤوسهم نحوه كأنهم يدقّقون النظر فيـــه، ثم راحوا يحركون رؤوسهم كأنهم يبحثـــون عـــن شيء في الفضاء فمد نونيز ذراعيه ملوحاً لهم ليرشدهم إلى مكانه، ولكن لم يظهر عليهم ما يدل على أنهم رأوه. وبعد قليل تحولوا نحو الجدول بعيداً عنه، وكانوا يصرخون كأنهم يجيبـــون على صراخه فردَّ على صراخهم بمثلـــه، وعاود للتلويح بساعديه، ولكن عبثاً وجالت إذ ذاك فـــي خاطره فكـــرة قوية هي أن هؤلاء الرجال عميان، وأنه مـــن المحتمل أن يكونوا مجانين أيضاً. وأخيراً غادر مكانة وسار في الدرب نحو الرجال الثلاثة حتى اقترب منهم وتأكد من أنهم

لا يبصـــرون، وأدرك عنـــد ذلك أنه يقيم الآن في بلاد العميـــان التي سمع بعض الناس يتحدَّثون عنها كما يتحدَّثون عن أسطورة خرافية.

وكان الرجـــال الثلاثة يقفون متقاربين بعضهم من بعضٍ لا ينظرون إليه، لكن آذانهم كانت مشرئبة نحوه تراقب خطواته وحركات شفتيه، وقد بانت على وجوههم أمارات الدهشة الممزوجة بقليـل من الخوف، فـــي حين كانت تقاطيع وجوههم تختلج كأنهـــا تساعد أعصاب السمع على معرفة كل ما يجري أمامها، وهمس أحد الرجال الثلاثة في أذن جاره قائلاً:

إنَّه رجلٌ... إنَّه رجل وليس روحاً.

وأدرك نونيز أن هؤلاء الناس يتكلمون اللغة الإسبانية بعد أن حرَّفوا فيها كثيراً، وجعلوا منها لغـــة سهلـــة غير معقدة ولا ملتوية ليس في نطقها تكليف ولا في ألفاظها اصطناع، واقترب نونيز خطـــوات عدة أخرى نحو الرجال الثلاثة وقد تدفقت على مخيلتـــه تلك حكايات كثيرة وخرافات غريبـــة راجت بين سكان الأكوادور عن الـــوادي المفقود وعن بلاد العميان، وردَّدت ذاكرته مثلاً رائجاً بين سكان بوغوتا هو قولهم: الأعور ملك بين العميان. وحياهم نونيز تحية عادية برفع يده اليمنـــى إلى رأسه، وطرح عليهم السلام على الطريقة الإسبانية وسمع أحدهم يقول لرفيقه: إذن فهو رجل غريب عنا. هل تعلم يا بيدرو كيف استطاع الوصول إلى هنا؟

فردَّ عليه المدعو بيدرو قائلاً: أظن أنه تسرَّب من بين الصخور.

فقاطعـــه نونيز قائلاً: لقد جئت من فوق الجبال. جئت من أقطار المعمورة التي تقع وراء هذه الجبال. هناك حيث يعيش مئات الألوف من الناس الذين لهم عيون يبصرون بها.

وبانت علامات الدهشة على وجه بيدرو وهو يقول: يبصرون؟ ما معنى يبصرون؟

فردَّ عليه زميله قائلاً: أنا واثق من أنه جاء من بين الصخور.

وراح نونيـــز يتأمَّل شكلهم. لقـــد كان كل واحد منهم يرتدي ملابس مصنوعة من جلد اللاما ولكنها تبدو على أشكال مختلفة وقد خيطت بطرائق متباينة.

ثم اقترب الثلاثة منه وقد مدّ كل واحد منهم يده يريد أنْ يتحسسه فتقهقر نونيز إلى الوراء خوفاً من أصابعهم الصلبة القوية. فصرخ فيه أحدهم قائلاً: اقترب ثم مدَّ يده بسرعة فأمسك به واحد من الثلاثـــة، وراحوا يتحسسون جسمه بأيديهم من جميع الجهـــات دون أن ينطق بحرف واحد إلى أن اقتربت يد أحدهم من عينه، فطلب منه ألا يلمسها وأن يكون حذراً في مد أصابعه نحوها.

وبعد أن انتهى العميان الثلاثة من عملية البحث والتفتيش اقتربوا بعضهم من بعضٍ مرة أخرى. وقال بيدرو لأحد زميليه: إنّه مخلوق غريب يا كوريا هل لمست شعره؟ إنه يشبه شعر اللاما.

فردَّ عليه كوريا قائلاً: إنه خشن غليظ يشبه الصخور التي خرج منها. وكان كوريا قد مد يده على لحية نونيز المشعثة فظن أن جسمه كله مكسو بالشعر الخشن.

وقد حاول نونيز أن يقاوم عملية التفتيش التي جردها العميان ضد أنحاء جسمه، وراح يرسل كلمات التحذير والشتائم بشدة وغضب، إلا أن العميان كانوا أشد صلابة منه فلم يستطع أن يتملص من أيديهم، وقال أحدهم: هل سمعتم؟ إنه يتكلم.

فردَّ عليه الآخر قائلاً: طبعاً إنه يتكلم فهو إنسان مثلنا. قال له بيدرو: أخبرنا كيف جئت إلى العالم؟

فقال نونيز بكلمات بطيئة واضحة: لقد خرجت من العالم من فوق تلك الجبال إلى هنا. فقد جئت من العالم الكبير الواسع.

وبانت على وجوه العميان الثلاثة علامات الدهشة والاستغراب، وبدا عليهم أنهم لم يفهموا ما يقول، وقال له كوريا: لقد علمنا من آبائنا أن قوى الطبيعة تستطيع أن تخلق إنساناً، وتجعله يخرج من بين الصخور أو من الكهوف.

وعبثاً حاول نونيز أن يقنعهم بوجود عالم آخر أكثر اتساعاً من واديهم، وأن فيه الملايين من بني البشر أمثالهم، وأخيراً قال بيدرو:

دعونا نأخذه إلى شيوخنا: فقال كوريا: يجب أن نصرخ لنخلي الطريق أمامنا خوفاً على أطفالنا من الفزع، فإن هذه هي المرة الأولى التي يسمعون فيها بوجود إنسان غريب يأتي إلى العالم، واتُّفِق على ذلك وراح بيدرو يرسل صرخات تحذيرية وهو يتقدمهم إلى الأمام في حين سار نونيز بين الرجلين الآخرين اللذين أمسكا بيديه ليقوداه في الدروب المؤدية نحو ميدان القرية، وحاول نونيز أن ينزع يديه منهما قائلاً:

إنني أستطيع أن أرى طريقي...

فقال له كوريا مستغرباً تستطيع أن ترى طريقك؟

فأجاب نونيز: نعم إنني أرى، وحاول أن يتقدم لولا أنهما جذباه إليهما، وأرغماه على السير بينهما، وقال أحدهما:

إن أعصابه ما زالت مضطربة فهو يقاوم ويلفظ كلمات لا معنى لها، وعلينا أن نرغمه على طاعتنا.

وابتسم نونيز قائلاً: كما تشاؤون.

وسار بينهم صاغراً، وقد أدرك أنهم لا يعرفون شيئاً عن حاسة البصر، وصمم على أن يعلمهم ذلك في المستقبل عندما يصبح ملكاً عليهم.

الفصل الخامس

حرب بين عالمين

ولما اقترب موكب العميان الثلاثة مع نونيز من ميدان القرية، شاهد نونيز جماعة من الرجال محتشدين في ميدان القرية، وأدرك أن هذا هو أوّل اجتماع له مع سكان وادي العميان، وأن عليه أن يستعمل كل ما في عقله من حنكة وحصافة لإدارة الأمور على الطريقة التي يرغبها. وكان الميدان واسعاً وقد أقيمت البيوت حوله بشكل غير منتظم، وبدأت جماعات من الأطفال والرجال والنساء تقترب منه، وتتحسس أطرافه، وتصغي إلى كل كلمة يقولها.

ووجد نونيز أن نساء القرية وفتيانها على جانب كبير من الجمال، وصباحة الوجه لا يعيبهن شيء غير فقدان البصر، وكانت بعض النساء والأطفال قد وقفوا بعيداً عنه كأنهم يخافون الاقتراب منه. كما أن صوته كان فظاً غليظاً بالنسبة إلى أصواتهم الناعمة الرقيقة. وكان رفاقه الثلاثة لا يتركونه من بين أيديهم وهم يقولون لكل من يقترب منهم: إنّه همجي خرج من بين الصخور.

وكان نونيز يقاطعهم قائلاً:

بوغوتا، لقد جئت من بوغوتا من وراء الجبال...

فقال بيدرو: إنه رجل همجي يستعمل كلمات همجية هل سمعتهم بهذا قبل الآن؟ ما معنى كلمة بوغوتا؟ إنَّ عقله ما زال غير ناضج، ويبدو أنه بدأ يتدرب على الكلام من عهد قريب.

واقترب منه ولد صغير ومد يده يتلمسه قائلاً: يابوغوتا.

فقال نونيز: إنني من بوغوتا إنها مدينة كبيرة بالنسبة إلى قريتكم. لقد جئت من العالم الكبير حيث يوجد الملايين من البشر لهم عيون ينظرون بها...

وقال أحدهم: إن اسمه بوغوتا.

فردَّ عليه كوريا إنه يتعثر في مشيته، وقد تعثر مرتين في أثناء قدومنا إلى هنا.

وقال لهم شخص آخر: اذهبوا به إلى الشيوخ.

وراح الرجال يدفعونه نحو بوابة تؤدي إلى غرفة سوداء أشعلت النار في أحد جوانبها، وقد ازدحم حوله كثيرٌ من العميان حتى حجبوا نور النهار عن دخول الغرفة. وقبل أن يستجمع شجاعته وجد نفسه مطروحاً تحت أقدام رجل جالس في وسط المكان ومد يده محاولاً الوقوف في مكانه فجاءت يده على وجه أحد الرجال القريبين منه ولطمت خده لطمة قوية فانبعث من بين

شفتي الأعمى صرخة ألم ممزوجة بالغضب، ونشبت في الحال معركة حاول فيها نونيز أن يتّقي غضب العميان الذين راحوا يكيلون له الضربات حتى أنهكوا قواه، فخطرت في باله حيلة للخلاص من هذه المعركة وتهالك على الأرض قائلاً: إنني أعترف بالغلبة.

إن وقوفكم حولي يحجب النور عن أنظاري فلا أستطيع أن أرى.

ومد الرجل الجالس في صدر المكان رأسه إلى الأمام وقد بانت على سحنته علائم الدهشة وهو يحاول أن يفهم معنى كلمات هذا الغريب.

وارتفـع صوت كوريــا وهو يقول: يبدو أنه خلق منذ مدة قريبة فهــو يتعثر في مشيته ويلفظ كلمات لا معنى لها.

ثم ارتفع صوت آخر قائلاً: إن هذا الإنسان الغريب ضعيف العقل لا يسمع جيداً.

وقال لهم نونيز: ألا تسمحون لي بالجلوس إنني لن أبدي مقاومة بعد الآن.

وتشاور العميان في هذا الأمر وسمحوا له أخيراً في أن يقتعد مكاناً بينهم.

وبدأت أسئلة الرجل الكبير الجالس في صدر المكان تنصبّ عليه متلاحقة مترادفة، في حين كان نونيــز يستجمــع أطراف تفكيره محاولاً أن يشرح لهم أمــره، وأن يقول لهم: إنَّ هناك دنيا واسعة الأطراف مزدحمة بالسكان، وإنّه قد سقط منها إلى قريتهم، وراح يخبرهم بوجود السماء والجبال وعن رؤية الأشياء، في حين جلس هؤلاء الشيوخ حوله يصغون إلى هذه الأقوال الغريبة دون أن يصدّقوا حرفاً منها، بل إن معظم الكلمات التي تفوه بها كانت غريبة عنهم وغير موجودة في اللغة التي يتخاطبون بها.

لقد مرت أربعة عشر جيلاً على هؤلاء الناس منذ أن أصابهم العمى، ومنذ أن عزلوا عن عالم البصر. ولذلك فإن جميع الكلمات التي تتعلق بالبصر والرؤيا والمشاهدة قد محيت من لسانهم، واستبدلت بكلمات تعتمد على السمع وحده.

أمــا أسطورة العالم الواسع والدنيا المملوءة بالسكان فقــد نُسِيَت وأصبحت خرافة أطفال فهــم لا يعلمون بوجود شـــيء وراء هذه الصخور العالية التي تحيط بواديهم. وقد ظهر من بينهم بعضــ العميان العباقرة الذيــن استطاعوا أن يبتكروا لهم ألفاظاً تتفق مع وضعهم. كما وضعوا تاريخــاً لهم وعقائد بعيدة عن تاريــخ العالم وعقائده، وقد استبدلوا منطــق العقائد والنظريات الفلسفية والدينية بمنطق جديــد يتفق مع منطق اللمس والسمع، فإن أطراف الأصابع أصبحت أداة أساسيــة في تصوير معنى الحياة، وفهــم حقائقها، ومعرفة أسرارها. إن أطراف الأصابع هي التي جعلت هؤلاء العميان يخلقون حولهم نوعاً من الحياة المبنية على أسس جديدة لا تعتمد

علـــى النظر إلى الأمور والأشياء. فإن الإنسان العـــادي يرى الشيء بعينيه، ثم يحاول أن يحوكَ حوله صورة تنعكس على بصيرته وعقله.

أمـــا هؤلاء العميـــان فإنهم لا يتسرعون برســـم هذه الصورة، بل يمـــدون أطراف أصابعهم ويتحسســـون الأشياء ثم يرسمون لهـــا في بصيرتهم صورة واقعية تنطـــوي على الحذر وعدم الإسراف في التخيل والإغراق في التصوير.

وبدأ نونيز يدرك هذه الحقيقة إدراكاً بطيئاً كما بدأ يتحقق من أن الأماني والأحلام التي كان يطمع في تحقيقها لا يمكن تنفيذها، وأنه لا يستطيع أن يصبح ملكاً على هؤلاء العميان، وأن نعمة البصر التي كان يتوهم بأنها كافية لرفعه فوق هؤلاء العميان لا تجدي فتيلاً، وأن حديثه عن نعمة البصر كان السبب في وصفهم له بالغباوة وضعف العقل، وقد جر عليه هذا الحديث مصيبة قد لا يستطيع أن يتخلّص منها إلا بعد مدة طويلة ولاسيّما بعد أن تبين له أن هؤلاء العميان يتمتعون بذكاء خارق ومقدرة عقلية فذة.

فقـــد جلس شيخ العميان مع مساعديه وراحوا يناقشون نونيز في موضوعات مختلفة تتعلق بمعنى الحياة والفلسفة والعقائد والآراء والمذاهب.

فقال لهم نونيز: إنّ الوادي الذي يقيمون فيه هو قطعة صغيرة من العالم الواسع، وإنّه كان في قديم الزمان خالياً من السكان ليس فيه غير الصخور الجرداء. ثم بدأت الحياة تدب في أطرافه تدريجياً حينما ساعدت المياه على ظهور النبات في أرضه، وارتياد الحيوانات لها، ثم هجرة بعض الناس إليه.

وكانـــت أسطورة الخليقـــة التي يرددها العميان تختلف عن أسطـــورة الخليقة التي اصطلح عليها البشر فهم يعتقدون أن واديهم هو العالم كله. وأن هذا الوادي قد تدرج في الحياة تدرجاً طبيعياً، فقد ظهرت فيه المياه أولاً وهي أصل الحياة التي نشأت في الحيوانات المائية الصغيرة، ثـــم تفرعت منها حيوانات بريـــة لا تملك ميزة الإحساس باللمس والسمع، ثم ظهر الإنسان الذي هو أعلى غصن في شجرة الحياة.

وقـــال شيخ العميان: إن الزمن ينقسم إلى قسميـــن: قسم حار وقسم بارد. وهو يعني بذلك الليـــل والنهار، ويرى الشيـــخ أن القسم الحار هو أصلح وقت للنـــوم والراحة، في حين يصلح القسم البارد للنشاط والعمل.

وقـــال الشيخ: إنّه يعتقد بأن الله قد أرسل نونيز لكـــي يتعلم الحكمة من أفواه العميان، وإنَّ نونيـــز على الرغـــم من ادعائه الذكاء والمعرفة يجب عليه أن يتعلـــم شيئاً كثيراً قبل أن يستطيع الاندماج في مجتمع العميان.

وقال الشيخ: إنَّ وقت النوم قد حان إذ إنَّ الحرارة بدأت ترتفع في المكان، وسأل نونيز عما إذا كان يعرف كيف ينام. فقال: إنّه يعرف ذلك ولكنه قبل أن ينام يريد أن يأكل.

وبـــادر العميان فقدموا إليه الطعام وهو عبارة عن حليب اللاما وخبز كثير الملح. ثم اقتادوه إلـــى مكان منفرد ليتناول طعامه بعيداً عن أسماعهم. ثم أخذوا بيده إلى منزل خاص وطلبوا منه أن ينام إلى أن يأتي نهارهم التالي أي عندما يحل المساء وتنتشر الرطوبة في المكان.

ولكن نونيز لم ينم بل جلس في المكان الذي تركوه فيه وراح يحاسب نفسه، ويفكر في أمره. فــكان يضحك أحيانـــاً للظروف الغريبة التي قذفت به إلى هذا العالم، ويعبس أحياناً أخرى على ورطتـــه التي يستحيل عليه الخلاص منها، ويتهكم علـــى أقوال شيخ العميان الذي يعدّه مخلوقاً بدائيـــاً لـــم تكتمل له عناصر الحكمـــة والتفكير مع أن نونيز كان يتوهم أنـــه سيصبح ملكاً على العميان وسيداً لهم.

وقـــرر نونيز ألّا يتخلى عن فكرة السيطرة على هـــؤلاء العميان مهما كلّفه الأمر. وراح يضع الخطط للوصول إلى هذا الهدف واستمرت الحال معه بين مد وجزر إلى أن غربت الشمس.

وكان نونيـــز خبيراً بمواطن الجمال له روح شاعرية تفتنها مناظر الطبيعة الخلابة، وتأسرها مظاهر الجمال فـــي جميع أشكالها، وكانت أنظاره تطوف أطراف الوادي، وقد نال منها العجب واستولـــى عليه السحر أمام هذا الجمال العظيـــم الذي يسود المكان، وامتد إعجابه من الوادي إلـــى القرية وإلـــى بيوتها الجميلة، وكان ما زال غارقاً في أحلامـــه عندما اقترب من غرفته أحد العميان وراح يصرخ عليه قائلاً:

يا بوغوتا تعال إلينا إنهم يريدونك.

ووقـــف نونيز وهو يبتسم بعد أن اكتملت في ذهنه الخطة التي سيسير عليها لإقناع العميان بأنه أعظم منهم عقلاً، وأنه يستطيع أن يكون ملكاً وسيداً.

وكان نونيـــز يعتقد أن الفرصة قد سنحت لـــه ليجعلهم يشعرون بالنقص المعيب في تكوينهم، وأراد أن يجعلهـــم يشعـــرون بالفارق العظيـــم بين البصر والعمى، ويدركون مقـــدار الفوائد التي يستطيـــع البصر أن يسبغها على صاحبه. وأراد نونيز أن يرغمهم على البحث عنه دون أن يعثروا عليـــه. وبقي نونيز واقفاً فـــي مكانه فسمع الأعمى يقول له: إنك لا تتحرك يا بوغوتا. فابتسم نونيز وخطا خطوتين هادئتين على أحد جانبي الطريق فسمع الأعمى يقول له: إنك تدوس على العشب يا بوغوتا وهذا ممنوع هنا. واستاء نونيز من هذه الملاحظة فإنه شخصيّاً لم يسمع صوت الخطوتين اللتين خطاهما، وكان يتوهم أن الأعمى لا يستطيع أن يعرف مكانه بالضبط ما دام لا يراه. إلا أن

الأعمى تقدم منه بخطوات ثابتة وأمسك بيده، وقال له: لماذا لم تتحرك عندما طلبت منك ذلك، وهل من الضروري أن أقودك كالطفل ألا تستطيع أن تسمع الطريق عندما تسير عليها؟

فقال نونيز: إنني أستطيع أن أراها.

فأجابه الأعمى: ليست هناك كلمة أراها. أترك هذه السخافات واقتفِ صوت خطواتي.

وســار نونيــز وراء الأعمى وقد شاعت في نفسه خيبة الأمــل إلا أنه كان يعزي نفسه بقوله: سوف تسنح فرصتي قريباً، وقطع عليه الأعمى تفكيره وهو يقول سوف تتعلم. هناك أشياء كثيرة في هذا العالم يجب عليك أن تتعلمها.

فقال له نونيز ساخراً: ألا تعرف مثلاً يقول إنَّ الأعور ملك في بلاد العميان؟

فبانت الدهشة على وجه الأعمى وقال: ما معنى كلمة أعمى؟

ولــم يجــب نونيز. ومرت أربعة أيام كان فيها ملك العميــان من دون عرش لا يعترف به أحد ويعدّه الجميع ضعيف العقل لا فائدة من إصلاحه. وأدرك نونيز أن من الصعب عليه الوصول إلى مرتبة الملوك بين هؤلاء العميان، وأن كل ما يستطيع أن يفعله الآن هو أن يتعلّم عادات هؤلاء القوم وتقاليدهم.

وتبيــن لــه أن العمل في الليل أصلح من العمل في النهار، وأن هذه العادة لا بأس بها، وعليه أن ينقلها إلى عالم المبصرين كي يستفيدوا من حكمة العميان.

وأدرك نونيــز أن هــؤلاء العميان يعيشون عيشــة ناعمة سعيدة على الرغم ممــا فيها من نشاط وعمــل، فهم يوفرون لأنفسهم كل ما يحتاجونه من طعــام أو كساء وهم يتبرجون، ولكن باعتدال وقد وزعوا الأوقات توزيعاً ملائماً للعمل والراحة والتشاور وعقد الجلسات والفكاهة، وأنهم استطاعوا أن يتقدموا كثيراً في فن الموسيقا والغناء وأنهم يعرفون الحب وينجبون الأطفال وكل شيء عندهم يلائم حاجاتهــم، فالطــرق رصفت للمرور عليها إلى الأماكن التي يحتاجــون الوصول إليها. وكل طريق له علامة خاصة للدلالة على المكان الذي يؤدي إليها، كما أن النظافة ظاهرة في كل مكان وقد استطاع هؤلاء العميان أن يجعلوا من آذانهم أجهزة دقيقة الحس إلى درجة غريبة فهم لا يستطيعون أن يفرّقوا بين حركات كل رجل منهم، وأن يسمعوا نبضات قلبه ولفظات أنفاسه، وأن يحكموا على شعوره وعلى حالتــه النفسية وصحته من سماع أنفاسه، وكانوا يفلحون الأرض ويخدمون البساتين بأسلوب بديع يفــوق أسلوب المبصرين، وكانوا يستطيعون أن يفيدوا من حاسة السمع أكثر من إفادة الإنسان من حاستي السمــع والبصر معاً. وكانوا يتمتعون بأعصاب قوية وأجسام رياضية متينة، إلا أنهم كانوا لا يتشاجرون إطلاقاً، ولا يظهر أحدهم قوته إلا عند الحاجة.

الفصل السادس

ملك بلا عرش

وحـــاول نونيز مرات عـــدة أن يشرح لهم معنى البصر فكان يقول لأحدهم: انظر إلى هنا. ألا ترى هذا الشيء. هناك أشياء لا تستطيعون أن تفهموها مثلي.

وفي بعض الحالات كان أحدهم بعد أن يسمع منه هذه الكلمات يجلس إلى جانبه ويصغي إليـــه باهتمام وعناية، فكان نونيز يبذل كل ما في وسعه ليخبرهم بمعنى البصر. وكان من بين الذيـــن اعتادوا أن يصغوا إليه فتاة جميلة كانت عيناها غير غائرتين في داخل جحريهما حتى أن الإنســـان ليتوهم أن في استطاعتهـــا أن ترى، لولا أنها اعتادت أن لا تستعمل عينيها فكان ذلـــك سبباً في بقائهما ثابتتين لا فائدة منهما. وكان نونيز يرجو أن يستميلها إلى جانبه فكان يحدثهـــا عن جمال الأشياء وعن الجبال والسماء وشروق الشمس، فكانت تصغي إليه باهتمام دون أن تصدقـــه، وأحياناً كانـــت تغضب لملاحظاته وترفض أن تعتقد بوجود أيّ كلمة صادقة فـــي أقواله فهي لا تؤمـــن بوجود الجبال، بل تعتقد أن هناك أطـــراف الصخور حيث يستطيع اللاما أن يذهب. وأن هذه الأطراف هي نهاية العالم، وأن الدنيا مسقوفة بسقف صخري يشبه سقف الكهف.

وعندما حاول نونيز أن يقنعها بأن الدنيا ليس لها نهاية وليس لها سقف سخرت منه واعتقدت أنه ما زال ضعيف العقل. وعبثاً حاول نونيز أن يقنعهم بوجود فائدة للنظر، إلى أن قرر في يوم من الأيام أن يقدِّم لهم دليلاً محسوساً على ذلك. وكان نونيز واقفاً مع عدد من العميان في إحدى الطرق، عندما شاهد من بعيد الأعمى بيدرو يسير في الطريق نفسه على مسافة بعيدة لا تسمح للعميان بأن يسمعوا خطواته أو أنفاسه فقال نونيز للعميان الذين حوله: بعد قليل سيصل بيدرو إلى هنا من هذه الطريق.

فقـــال أحـــد العميان: هذه الطريق ليست لبيدرو وهو لا يمر بهـــا إذ ليس له عمل فيها، وكان بيـــدرو قد سار في تلك الطريق ثم تخطاها إلى طريـــق أخرى وخرج من هناك. وعند ذلك سخر العميان من نونيز وفشلت خطته.

وعندمـــا استدعى بيدرو وسأله هل مرّ من تلـــك الطريق أم لا، أنكر أنه مرّ منها، وغضب من اتهام نونيز، وأصبح من أعدائه.

ومــرة طلــب منهم نونيز أن يأخذوه بعيداً وأنه سيخبرهم من مكانه بكل ما يقع في القرية من أعمــال يقومون بها ليمتحنوا بصره. وقد استطــاع نونيز أن يخبرهم ببعض ما جرى أمامه في الطرق المكشوفة. أما ما كانوا يقومون به في داخل الغرف التي لا نوافذ لها فإنه لم يستطع أن يخبرهم بها. وكانت هذه النقطة محك التجربة التي فشل فيها الإنسان البصير.

وبعــد هــذه المحاولات الفاشلة التي قــام بها نونيز لإحراز السيطرة علــى العميان قرر أن يستعمــل القــوة في الوصول إلى غرضه، وفكّر في أن يأخذ معــولاً ويضرب به فجأة واحداً أو اثنين من العميان، ويطرحهم أرضاً وبذلك يجعلهم يشعرون بالخوف الشديد من العين المبصرة. ووجــد أن هذه الطريقة لا بــد أن تجدي مع هؤلاء العميان. ولكنه اكتشف في نفسه نقطة ضعف هي أنه لا يستطيع أن يضرب أعمى دون أن تهتز عواطفه، وظهر له أنهم جميعاً يعرفون أن لديه معــولاً، ولذلك كانوا يراقبونه بحذر، فكانت رؤوسهم تتجه نحوه وآذانهم تتلمس حركاته يترقبون ماذا يريد أن يفعل. واقترب منه أحدهم قائلاً ضع هذا المعول جانباً.

وشعر نونيز بالعجز والضعف أمام هؤلاء العميان وكادت معنوياته تنهار انهياراً تاماً ويخضع لأوامرهم، إلا أنه دفع بأحدهم نحو أحد الجدران مفسحاً لنفسه الطريق، وانفلت من بينهم هارباً نحو القرية بخطوات سريعة، وكأنه يريد أن يهرب من نفسه فاضطر أن يجتاز البساتين والحقول دون أن يراعــي السير على الدروب والمسالك. ولذلك فقد كانت آثار أقدامه ظاهرة على العشب الأخضــر إلى أن وصل إلى القرية، وانتحى مكاناً جلــس فيه وهو يلهث، وقد اضطربت أنفاسه واختلفــت مشاعره. إنه يشعر بالقلق الشديد يتمشى في مفاصله، وهو شعور الرجل الذي يريد أن يبدأ معركة غير واثق من نتيجتها. وبدأ يتحقق في أعماق نفسه أنه من المستحيل على الرجل أن يَقْبَل بارتياح على الاشتباك مع رجال يختلفون عنه في نوع السلاح.

وشاهــد من بعيد عــدداً من الرجال يحملون المعاول والفؤوســ، وهم يتقدمون عبر شوارع القريــة صوب المكان الذي يجلس فيه، وكانوا يتقدمون تقدّماً بطيئاً، وهم يتهامسون ويتلمسون مجــرى الهواء ليتأكدوا مــن مكانه ومن حركاته قبل أن يقضوا عليه. وقد ضحك نونيز في بادئ الأمــر من هذه الحركات الحربيــة التي يقومون بها، إلا أنه لم يستطــع أن يواصل ضحكه إلى النهاية، فقد اكتشف أحد العميان آثار خطواته على العشب الأخضر، وراح يقتفيها بمهارة ودقة. وأدرك نونيز أن عليه أن يفعل شيئاً قبل أن يداهموه جميعاً. فوقف على أقدامه، وتقدّم منهم وهو يحمــل معوله بيديه متأهباً للضرب به حتى أصبح قريباً منهم، وراح يسائل نفسه هل يجب عليه أن يضربهم؟

وراح قلبه يخفق بشدة وهو يهمس بينه وبين نفسه أن الأعور ملك بين العميان. وكان العميان قد أطبقوا على المكان الذي يقف فيه من جميع الجهات على شكل نصف دائرة ومن ورائه الجدار الطويل. وسأل نفسه مرة أخرى هل يجب عليه أن يضربهم؟

ولكنه تردد، ولم يستطع أن ينفذ الفكرة التي جالت في خاطره، وتراجع إلى الوراء نحو الجدار ودخل من أحد أبوابه هارباً مرة أخرى، وسمع أحدهم يصرخ قائلاً: أين أنت يابوغوتا...

وسار نونيز في طريقه يريد أن يعود إلى الحقول مرة أخرى، ولكنهم كانوا يغلقون في وجهه جميع الطرق، وقد حمل كل واحد منهم معوله وفأسه وهم يتحركون نحوه. فقال لنفسه: لا بد لي أن أضربهم، ثم صرخ فيهم قائلاً:

انظروا جميعاً إنني أريد أن أفعل ما أريد في هذا الوادي هل تسمعون ما أقول؟ يجب أن تتركوني أن أفعل ما أريد هنا، وأن أذهب أين ما أريد.

ولكنهم كانوا يتقدمون نحوه وقد أحدقوا فيه من جميع الجهات، وقد بانت في وجوههم علامات الحزم والصلابة. لقد كانت لعبة مزعجة بين عميان كثيرين وبصير واحد. وصرخ أحدهم قائلاً: اهجموا عليه.

ووجد نونيز نفسه محاطاً بهم كالسمكة في شبكة الصياد، وشعر أنه يجب عليه أن يكون حازماً عنيفاً. وقال لهم بصوته الغليظ: إنكم لا تفهمون أنكم جميعاً عميان، أما أنا فإنني أراكم خلوا عني واتركوني...

فصرخ فيه أحدهم قائلاً: اطرح هذا المعول من يدك يا بوغوتا واستسلم لنا.

فقال نونيز مزمجراً: إنني سأضربكم وحق السماء سأضربكم إذا لم تتركوني.

ولكن الأعمى تقدم منه واضطر أن يتراجع هارباً دون أن يعرف إلى أين يهرب. وابتعد من طريق الأعمى الذي كان أمام الجميع، لأنه كان شرساً غليظاً، وتقدم من نقطة وقف فيها أحد العميان الضعفاء، وقرر أن يشق طريقه من هناك هارباً إلى الحقول. واستطاع أن يفعل ذلك بعد أن ضرب بمعوله هذا الأعمى الضعيف الذي سقط على الأرض، في حين استطاع نونيز أن يقفز خارج الحلقة، وأن يتجه صوب الحقول هارباً خوفاً من الانتقام.

وراح العميان يطاردونه كما يطارد الوحش المفترس، وسمع خطوات من ورائه تقترب منه بسرعة، وتقدم رجل طويل يريد أن يضربه بمعوله من بعيد. إلا أن نونيز تجنب الضربة ونجا بنفسه وراح يركض هنا وهناك باحثاً عن مكان يستطيع أن يختبئ فيه. واستمر في هربه حتى خرج من منطقة الوادي واجتاز الجسر نحو الصخور، ثم تسلّق سفح الجبل حتى وصل نقطة مرتفعة فيها كهف تهالك فيه وقد أحسَّ بالإرهاق والتعب يستوليان على جسمه.

الفصل السابع

هزيمة البصر

وبقـــي نونيز في مكانه يومين وليلتين، دون طعام أو فراش. وراح يفكّر بهذا المصير الرهيب الـــذي أصابه، والحوادث غير المنتظرة التي لاحقته. ولكنـــه كان ما ينفك يردد المثل القائل: إنَّ الأعـــور ملك بين العميان، وكان مـــا يزال يطمع في السيطرة على هؤلاء وفي تنصيب نفسه ملكاً عليهـــم. ولكنـــه لم يعثر على أيِّ خطة ممكنة لتحقيق مطامعه، إذ ليس لديه السلاح الذي يساعده على ذلك، وكان قد اضطر إلى التخلي عن معوله ويستحيل عليه الآن أن يجد غيره.

وحـــاول نونيز أن يجمع طعامه مـــن الأشجار، إلا أن ثمارها كانت فجـــة، وحاول أن يأكلها فوجـــد طعمها مراً كالعلقم في جوفه. ثـــم حاول أن يمسك بإحدى اللامات لكي يقتلها أو يشرب مـــن حليبها. وجرب استعمال بعض الحيل في اصطيادها، ولكن اللاما كانت تخشاه وتنظر إليه شزراً وتهرب من أمامه.

وداهمته الحمى في اليوم الثالث. وقرر في النهاية أن ينزل من مكانه، ويملي شروط استسلامه على العميان. وراح يجر نفسه حتى وصل إلى الجسر، وأمعن في الصراخ حتى اقترب منه اثنان من العميان فقال لهما:

لقد كنت مجنوناً ولكنكما تعلمان أنني إنسان بدائي.

فقال أحدهما: لقد اعترفت أخيراً هذا حسن...

فقال لهما: إنّه نادم على كل ما فعل، وإنّه أصبح الآن أقرب إلى الفطنة مما مضى.

فاقترب منـــه الرجلان وهما يَحْذَرَان حركاته، ولكنه كان ضعيفاً متخاذلاً فأمسك به أحدهما وسأله قائلاً:

هل ما زلت تعتقد أنك ترى؟...

فأجاب قائلاً:

لا أبداً كان جنوناً مني. إن هذه الكلمة لا معنى لها.

فسأله الثاني: هل يعتقد الآن بأن العالم مسقوف؟

فأجاب نونيز: طبعاً إنّه مسقوف...

وراح الرجلان يرهقانه بالأسئلة، ولكنه قال لهما والدموع تنحدر من عينيه: أريد طعاماً، إنني أكاد أموت جوعاً لقد أصبحت مثلكم أوافق على كل آرائكم.

ولم يعرف نونيز ماذا جرى له بعد ذلك، فقد أطبقت عليه الحمى، ووجد نفسه في النهاية في إحـدى الغرف، وقد تعافى قليـلاً. وكان ينتظر من العميان أن يعاقبوه عقاباً شديداً، ولكن هؤلاء العميان كانوا رحماء فعفوا عنه، وعدّوه واحداً منهم وأسندوا إليه عملاً بسيطاً، على حساب أنه ما زال مخلوقاً بدائياً يجب عليه أن يتمرن ويتدرب ويتعلم ليصبح مفيداً. ووافق نونيز على ذلك، إذ لـم يكن أمامـه مجال للاختيار، وكانت آثار المرض قد لازمته عـدة أيام أخرى، إلا أن شدة اعتنائهم به ورعايتهم له كانت السبب في نجاته من المرض.

وهكذا أصبح نونيز مواطناً عاديّاً في بلاد العميان، وأصبح السكان يألفونه، ويعطفون عليه، ويسندون إليه الأعمال البسيطة. وقد نزل في منزل يعقوب هو ابن عم بيدرو. وكان منزلاً جميلاً، وكانت ابنة يعقوب واسمها (مادينا ساروت) تعتني به وترعاه، وكانت فتاة جميلة، إلا أنها كانت صلبة العود ممشوقة القوام تحذو حذو الرجال في أعمالها ونشاطها، كما أن صوتها كان غليظاً. ولذلك فإن أحداً لم يطلبها للزواج مع أنها في الواقع كانت أجمل بنات الوادي.

وراح نونيز يفكّر في أمرها، حتى أصبح يحبها من أعماق قلبه وصمم على أن يتزوجها، وأن يقضي بقية حياته في الوادي من أجلها.

وكان نونيـز يراقبها ويتحين الظروف والمناسبات لكي يقدم لها بعض الخدمات، وكانت هي تشعر بذلك وترقبه من بعيد.

وفـي أحد الأيـام، وكان يوم عيد جلس فيه الجميع يسمعون الموسيقا، وقد جلس نونيز إلى جانبهـا، وكانت الموسيقا عذبة رقيقة، وامتدت يد نونيز إلى يدها، وضغط عليها قليلاً فلم تظهر ما يدل على نفورها.

وفـي أحد الأيام عندما كانا يتناولان الطعام في الظلام شعر بيدها تتقدم من يده متحسسة فأمسك بها ولاطفها.

وكانـت الفتاة جالسة في أحد الأيام تحت ضوء القمر، عندمـا ذهب إليها، وكان نور القمر قد زاد في بهائها وإشراقها، فجلس إلى جانبها وأخبرها بأنه يحبها، وأنها أجمل فتاة عنده. ولم تجب الفتاة، ولكن كان واضحاً أن كلماته قد بعثت السرور في نفسها.

وهكـذا ربطت الألفة بين البصير والعميـاء، وأصبح يبادلها الكلام والعطف في كل مناسبة، وراح يحدثها عن النظر فكانت تصغي إليه. وكان يتلو عليها قصيدة شعرية جميلة. وعندما كان

يحدثهـا عن النجوم والجبال وعن جمالها، كانــت تصغي إليه دون أن تصدق ذلك أو أنها كانت تبـدي عدم التصديق، مع أنــه كان يشعر في أعماق قلبه بأنها راغبة فــي سماع أقواله، وأنها تصدقه فيها.

وكان نونيز يريد أن يخطبها من يعقوب ومن مجلس الشيوخ، إلا أنها كانت ترجوه أن يؤجل هــذا الطلب لأنها تخــاف من اعتراضهم على هذا الزواج. وكانت أختهــا الكبرى أوّل من أخبر يعقوب بأن مادينا ساروت تحب نونيز.

وقوبـل هــذا الغرام في بــادئ الأمر بالمعارضــة الشديدة، ولم يكن السبــب في ذلك أنهم لا يريــدون زواج الفتــاة، ولكن السبب أنهم كانوا يعدّون نونيز مــن طينة أدنى من طينتهم، وأنه لــم يبلغ مرتبــة الإنسان، وراح أفراد العائلة يقاومون هذا الــزواج ويرون أن وقوعه يلحق العار بالعائلة كلها.

وعلــى الرغــم من أن يعقوب كان يعطف على نونيز، إلا أنه هز رأسه معلناً أن هذا الزواج لن يتــم. وقــد بالغ أحد أفراد العائلة في إظهار معارضته، فاشتبك مع نونيز في معركة أسفرت عن انتصــار نونيز. ولذلك فقد كف الجميع عن التفكير فــي ضربه، وأن يكونوا مصممين على عدم الموافقة على زواجه.

وحــاول يعقوب أن يصرف ابنته عن التفكير في نونيز فقــال لها: إنه ما زال مخلوقاً فجّاً لا يصلح لشيء.

فقالــت الفتاة: أعرف ذلك، ولكنه أصبــح الآن أحسن مما كان عليه، وهو يتقدم نحو الكمال، وهو قوي يا والدي العزيز ولطيف جدّاً، بل إنه أقوى وألطف من أي رجل آخر في العالم. ثم إنّه يحبني وأنا يا والدي أحبه.

وشعــر يعقــوب بالألم من موقف ابنته، كما شعر بالرثاء لهــا. وكان يميل إلى نونيز لأسباب كثيــرة ولذلــك فقد ذهب إلى غرفة مجلس الشيوخ، وأصغى إلــى الحديث الذي كان يدور هناك حــول الموضوع. ولما حان دوره للكلام قال: إنه أحسن حــالاً مما كان عليه، وسوف يأتي يوم يصبح فيه مثلنا.

وعند ذلك تكلم أحد الشيوخ وكان هو الذي يقوم بأعمال الطبيب في القرية فقال:

يصبح مثلنا؟ لماذا لا نجعله يصبح مثلنا؟

وكانــت الفكــرة التي جالت في رأس الشيخ الطبيب فكرة عظيمــة جداً، وقد استأنف حديثه قائلاً:

فحصت بوغوتا، وأمره واضح عندي، وأعتقد اعتقاداً راسخاً أن فيه علة يمكن إزالتها. هذه العلــة هي التي تؤثر في أفكاره. وقد تأكد عنــدي أن العلة هي هاتان الحدقتان الموجودتان في جبينه فوق أنفه فإنهما تتحركان، وتحدثان ارتجاجاً في دماغه، وتؤثران على مجرى أفكاره.

ولذلك فإن الطريقة الوحيدة لشفائه من هذه العلة هي إزالة الحدقتين.

ففرح يعقوب لهذه الفكرة العظيمة وسأل الطبيب:

هل تعتقد أنه بعد إزالة هاتين الحدقتين سيشفى؟

فقال الطبيب: أنا متأكد من أنه سيشفى شفاء تامّاً، ويصبح مواطناً طيباً.

الفصل الثامن

قربان الحب

ووقف يعقوب على قدميه وهو يقول: شكراً لله على نعمة العلم والطب.

ثــم ســار يعقوب نحو منزله مســروراً ليخبر نونيز بهذه الفكرة العظيمــة التي ستجعل منه مواطناً صالحاً.

ولكن نونيز استقبل هذه الفكرة بدهشة عظيمة، وقفز من مكانه، وقد أصيب بصدمة أفزعته.

وقال له يعقوب: إن صوتك يدلني على أنك لا تريد ابنتي...

واقتربت مادينا ساروت وهي تلح على نونيز أن يقبل الفكرة...

ولكن نونيز رفض ذلك بشدة وعنف.

فقالت الفتاة: إذن فأنت لا تريدني...

فأجابها نونيز: ولكن دنياي كلها هي البصر، ولا أرضى أن أفقد بصري...

وخفضت الفتاة رأسها. وراح نونيز يحاول إنقاذ موقفه من هذه الورطة الرهيبة فقال لها:

هنــاك أشياء جميلة وكثيرة. هناك الزهور النابتة علــى الصخور، هناك نور الشمس وضوء القمر والغيوم والنجوم، وهناك أنت يا حبيبتي. إنني أريد أن أراك، إنني من أجلك أريد أن أحتفظ بعينــي لكــي أراك وأرى وجهك اللطيف الهــادئ وجمالك البديع المشــرق. إنهما عيناي اللتان تعشقانك. هل تريدين أن تطفئيهما؟

ولاحت أمارات الشك والخيبة في وجهها وقالت:

إنني أرغب... يوماً ما...

فقال لها: ما هو الذي ترغبين فيه؟

فأجابت: -أرغب في أن أسمعك يوماً ما لا تقول هذا الكلام. إنني أعرف أن كلامك جميل، وأنه خيالي بديع وأنا أحب أن أسمعه منك. أما الآن فيبدو أنك تحاول أن تتخذ منه حيلة لتخدعني بها. ولذلك فإنني أرجو يوماً ما...

فقال لها: هل تعنين أنني سأصبح يوماً ما أحسن مما أنا الآن؟

وحاول أن يشعر بالغضب والاستياء منها، لكنه لا يملك إلا العطف والرثاء لهذه الفتاة التي تحبه، والتي يستحيل عليها أن تفهمه. ولانت عواطفه وشعر بميله إلى التضحية من أجلها. وأمسك بأطراف أناملها وهو يقول:

يا عزيزتي: يبدو أنني سأوافق على ذلك.

فقالت له بأنفاس لاهثة: لو أنك توافق على ذلك. لو أنك توافق.

ولم يبق غير أسبوع بينه وبين الاستغناء عن عينيه. بعد أسبوع سيودع دنيا البصر ويرتفع إلى مستوى العميان.

وكان نونيز طوال هذه المدة لا يعرف إلى النوم سبيلاً، وفي ساعات النهار الحارة عندما كان الجميع نائمين كان هو يجلس وحيداً يحملق في قبة السماء يرفض أن يفكر في شيء. وعندما انقضى الليل الأخير أشرقت شمس اليوم الذي هو آخر أيامه في عالم النظر.

وأمضى نونيز مدة قصيرة مع مادينا ساروت قبل أن تذهب إلى فراشها وقال لها:

غداً... سوف لا أرى شيئاً...

واقتربت منه الفتاة واحتضنت يده بكل قوتها وهي تقول:

يا حبيبي العزيز.

وكان يشعر بالشفقة نحوها ونحو نفسه. ورفعها بين ذراعيه ونظر إليها بحسرة وشوق لآخر مرة. وقال لها:

وداعاً، إلى اللقاء.

وبصمت وهدوء أخلى سبيلها. وكانت تسمع خطواته المبتعدة عنها فقد كان يريد أن يذهب إلى مكان بعيد يخلو فيه بنفسه.

الفصل التاسع

الختام

وجلس نونيز في مكان تكثر فيه الزهور البيض، وهو يريد أن يبقى هناك إلى أن تأتي ساعة التضحية، وكانت كلما اقتربت تلك الساعة يشعر بأنه ليس بحاجة إلى هذا السمو الأعمى، وأنه لا يستطيع البقاء في هذا العالم الأعمى.

وغادر مكانه وسار إلى الأمام، نحو الصخور، وعيناه تنظران إلى الثلوج البيض التي تكسو قمم الجبال، وأحس بجمال الثلوج وشعر أنه يستطيع اجتيازها للعودة إلى العالم الواسع الذي جـاء منه إلى العالم الذي هو قطعة منه، إلى بوغوتا إلى القصور والحدائق والينابيع إلى البيوت الجميلة البعيدة. إلى الغابات والقرى. إلى البحر وسفنه.

وراحـت عيناه تتفحصان الجبال بحثاً عن الاستمالات غير المنحدرة. وراح يجول بأبصاره فـي سفوح الجبال ليعثر على نقطة يستطيع منها أن يشق طريقه، والتفت نحو القرية فوجد أنها أصبحـت بعيدة عنه، وفكّر في مادينا ساروت فوجد أنها أصبحت بعيدة عن قلبه، واستدار نحو الصخور الشماء، وبدأ يتسلقها بحذر ويقظة.

وعندما غربت الشمس كان قد تسلق مسافة واسعة جداً، لكنه ما زال بعيداً عن القمة، وكانت ملابسه قد تمزقت، وأصابعه قد دميت وسالت منها الدماء، وقد أصيب برضوض في عدة أماكن من جسمه، لكنه ما زال قوي الساعد، وكانت الابتسامة ما زالت تملأ وجهه.

وأظلمت الأرض، وتسربلـت المعمورة بأثوابها السود. وكان نونيز ما زال جالساً في مكانه هادئاً تحت نور النجوم الباردة.